

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ \* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ \* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
\* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ \*

# كَلِمَةُ التَّحْرِيرِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه

في هذا الشهر المبارك : شهر ربيع الأول ، الذى فى مثله سعدت البشرية بمولد « رسول الإسلام » صلوات الله وسلامه عليه ، يسعدنا أن تقدم إلى العالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها أول عدد من مجلتنا « رسالة الإسلام » ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ، وإن لنا فى شهر مولده ليتناً وطالعا حسناً إن شاء الله .

إن الإسلام هو دين العلم والعقل والصفاء والأخوة والسلام ، هو دين الحكمة والموعظة الحسنة ، هو دين العدل والمساواة والإحسان ، وإن كتابه الكريم لينبوع العزة والقوة ، ومدد الإيمان واليقين ، وغذاء الأرواح والقلوب ، وإن رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه هو المثل الأعلى للإنسان الكامل ، فى إيمانه وخلقه ، فى علمه وعمله ، فى رحمته ورأفته ، فى صبره واحتماله ، فى حزمه وعزمه ، فى شجاعته وقوته ، فى صدقه ووفائه ، فى بره بالقريب والبعيد ، فى كل صفة من صفات النبيل ، وخلة من خلال الشرف .

فإذا كانت « جماعة التقريب » قد اختارت لهذه المجلة اسم « رسالة الإسلام » فقد أرادت بذلك أموراً :

أرادت أن تتخذ من هذا الاسم عهداً إلى المسلمين وموثقاً فى كل ما تعالج أن تستوحى روح الإسلام ، وسماحة الإسلام ، وكل خير وبر ورشاه وصلاح يدعو إليه الإسلام .

أرادت أن يعلم المسلمون جميعاً أنها مجلتهم ، ومعرض آرائهم وأفكارهم ، دون تعصب ولا تحيز ، وأنها ملتقى علم العلماء ، وأدب الأدباء ، من جميع الطوائف والشعوب الإسلامية .

أرادت أن توقظ في نفوس المسلمين الشعور بأنهم أمة واحدة ، وأن بينهم على اختلاف ديارهم وشعوبهم وطوائفهم عروة لا تنفصم ، وصلة لا تنقطع ، هي :  
« الأخوة الإسلامية » ،

أرادت أن تربط بين ماضيهم وحاضرهم ، وأن تحيي أجدادهم ، وتنفض الغبار عن مفاخرهم ، وتعلم شبابهم الناشئ أن الخير كل الخير في ثقافتهم ، وأن النجاح كل النجاح في مثلهم وأخلاقهم .

أرادت أن تذكّرهم بأنهم ورّاث دعوة عالمية خالدة لخير الناس أجمعين ، عليهم أن يحملوا لواها ، وأن يخوضوا بها في هذا العالم السهل والوعر متكاتفين متعاونين كأنهم بنيان مرصوص ، حتى يدركها الناس على حقيقتها ، وينفوا عنها زيفها ، وما ران عليها ، فتكون للقلوب شفاء ، وللأرواح جلاء ، وللحق والعدل والمساواة أساساً ثابتاً وعماداً .

فإن تكن مجلة ما بحاجة إلى تقديم عهدها ومنهجها وأهدافها بين يديها ،  
فإن عهد هذه المجلة ومنهجها وأهدافها هي اسمها ١

وقد رأينا - مجارة لسنة التدرج ، ورغبة في التريث ، وإيثارة للإلتفات والإحسان - أن ندجج أعداد السنة الأولى في مجلدات أربعة ، يصدر كل واحد منها على رأس ثلاثة أشهر ، ونرجو أن تتمكن منذ العام القادم إن شاء الله تعالى ، من زيادة عدد المجلدات حتى نصل بها إلى عشرة في العام .

وقد رغب إلينا كثير من أهل الرأي والعلم في مختلف الطوائف الإسلامية ، أن نجعل للتقريب في هذا العدد الأول نصيباً أوفى من العناية ، بيانا لفكرته وأهدافه ، وتسجيلا لخطواته ، وتعريفاً بمدى نشاط العاملين له ، والساعين فيه ، فعمل شيئاً من ذلك يبدو في هذا العدد .

ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ٢  
رئيس التحرير

محمد محمد المرنى



تقديم:

## المسلمون أمّة واحدة

لحضرة صاحب السعادة محمد علي علوبه باشا

رئيس جماعة التقريب

قامت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، تلبية لنداء قوى ألقى في روع المؤمنين ذوى الغيرة على الدين ، والحرص على هذه الأمة الإسلامية ، ولو أن رجال العلم والرأى لم يلبوا هذا النداء ، ولم يسارعوا إلى تكوين هذه الجماعة لكانوا مقصرين في حق أمتهم ، مسئولين عن هذا التقصير أمام ربهم في يوم عسير يؤخذ فيه بالنواصي والأقدام .

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين رسولا إلى الناس جميعا ، وكان من أبرز مبادئه التسوية بين جميع الشعوب ، وعدم الاعتراف بالفروق التي ألف الناس أن يعترفوا بها ، وتعاملوا على أساسها ، وكانت بعثته صلى الله عليه وسلم في وقت بلغت فيه العصيات أوجها ، فكانت كل أمة تعزّز بنفسها ، وتعتد بما عندها ، وتعتبر جنسها هو خير الأجناس ، وكان العرب أنفسهم منقسمين قبائل وأغذاً وبطونا ، وكل قبيلة تعتقد أنها خير القبائل ، وتحفظ بأنسابها ، ولا تختلط بغيرها ، حتى كان منهم قبائل لا تُصهر إلى غيرها ، ولا يصهر غيرها إليها ، وسبّوا أنفسهم « بالجمرات » تشبها بالنار التي تنقى ، ولا يجرو أحد على مسها ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هدم ذلك كله ، ونادى فيهم بقول ربه « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ثم كان تصرفه صلى الله عليه وسلم في سياسة المؤمنين مبنياً على هذا المبدأ السامى : مبدأ إهدار العصيات ، وهدم عوامل التفرق والتقاطع حتى ألف الله به بين جميع القلوب وبنى من هذه اللبنة المفككة صرحاً قويا

متأسكا استندت إليه دعوة الحق ، واحتفى به الإسلام وهو ناشئ غض ، حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وقد امتن الله بذلك على رسوله وعلى المؤمنين فقال : هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ، وقال : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ،

فلما اختار الله رسوله إلى جواره سار أصحابه — عليهم رضوان الله — في طريقه ، غير أن الزمان عاجلهم ببعض المشكلات فاختلّفوا عليها ، وكان خلافتهم في دائرة الحق والمصلحة كما يعتقد كل منهم ، ثم انقضت الحقبة الأولى من عمر الدولة الإسلامية ، بعد أن تركت في جسم الأمة جراحا عميقة كان من سوء الحظ أنها لم تجد أساة معالجين ، بل وجدت من لا يزال ينسكوها ويحييها ويحتفظ بها خضراء كما يعبر أدباء الغرب ، وفعلت السياسة فعلها ، وعادت العصبيات إلى سابق عهدها ، فتعددت الأحزاب والفرق والطوائف ، وكثرت الخلافات والمسائل الجدلية ، وترامى المسلمون بالتهم ، وساءت بينهم الظنون ، ومشى كل فريق في طريق فضلت بهم السبل عن الطريق السوي ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وتمكن منهم أعداؤهم ، ففسدوا لهم في السياسة ، ودسوا لهم في التاريخ ، ودسوا لهم في العلم والرواية ، ودسوا لهم في النظريات الفلسفية ، والقضايا الغيبية ، وفتحوا لهم آفاق الشك والريب فيما لديهم ، وشغلهم بالجدل والخصام حتى أنهكوا قواهم ، وأوهنوا عقولهم ، وحطّموا أعصابهم ، وأفقدوهم الثقة بأنفسهم ، والتعويل على مواهبهم ، ثم اقتطعوا أوطانهم قطعة بعد قطعة ، واقتسموها فيما بينهم غنائم باردة ، في صورة الاستعمار أحيانا ، والحماية أحيانا ، والوصاية أحيانا ، ومناطق النفوذ أحيانا ، وفتح الأسواق أحيانا ، وهكذا من كل ما برّر به الغاصبون غصبهم ، وجعلوه ستارا على مطامعهم وشهواتهم .

تلك حال المسلمين اليوم ، وإن دأبهم لتقديم منذ تدابروا وتقاطعوا وصاروا شيعاً . كل حزب بما لديهم فرحون ، ولا صلاح لهم ، ولا شفاء من داءهم ، إلا بأن يعودوا كما بدأهم الله أمة واحدة لا فرق بين شعوبهم ، ولا تناحر بين طوائفهم ، ولا جهالة تصور الشيعة للسني ، أو السني للشيعة ، عدوا يظن به الظنون ويخافه على دينه وعقيدته ، ويحفظ فيما يقرأ له من كتاب ، أو ينقل عنه من رأى .

إن أصول الإسلام واحدة ، فكل المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وكلهم يعتقدون أن القرآن حق وأن رسالة محمد حق وأن عليهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله ورسوله ، وقبلتهم واحدة ، وصلواتهم واحدة ، ولا خلاف بينهم فيما بنى عليه الإسلام من أسس ، فما بالهم يعيرون ما وراء هذه الأصول اهتماماً ، ويخوضون فيه خوفاً ، ويعولون عليه تعويلاً ، حتى يلتحق بالأصول وما هو منها في شيء ، ويتخذ مقياساً للكفر والإيمان ، أو الإيثم والبراءة ، وهو عن ذلك بمنأى ومعيزل ؟

إن المسلمين في ضعف لأنهم في تفرق ، وهم في تفرق لأنهم متقاطعون بجهل بعضهم ما عند بعض . ومن جهل شيئاً عاداه ، ولو أنهم تقاربوا لتفاهموا ، وقد يزول بتفاهمهم كثير من أسباب خلافهم ، أو يحفظ كل منهم برأيه فيما وراء العقيدة الإسلامية ، على أن يعذر بعضهم بعضاً ، ويحترم بعضهم بعضاً كما كان سلفهم الصالح من أئمة الدين والفقهاء يفعلون ، وتلك هي مهمة « جماعة التقريب » ، إن تريد إلا تعريف المسلمين بعضهم إلى بعض ، وجمعهم على أسس الدين الحق التي نزل بها القرآن وجاء بها الرسول ، ودعوتهم إلى اطّراح أسباب الخلاف فيما لا طائل تحته ، ولا فائدة تلتبس منه ، وتمكينهم من درس ما يعن لهم في جواهر هدى ، لا يشوبه غبار التكفير والتأنيب والتظنن ، فإذا فعلوا — وإنهم إن شاء الله لفاعلون — فقد استقاموا على الطريقة ، وهيثوا أنفسهم لمستقبل كريم ، ومقام حسن . في هذا المعترك العالمي ، يعينهم على أن يكونوا دعاة بر وإصلاح !

إن سياسة الدول والأمم في العالم اليوم قائمة على التكتل والتحالف والانضواء في مجموعات متعاونة يسند بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها عن بعض ، وأنهم ليلتمسون

أوهى الأسباب والروابط ليرتبطوا بها ، أما المسلمون فدينهم واحد ، وكتابتهم واحد ، وهدفهم في الحياة وبعد الممات واحد ، وكل شئ بينهم يدعو إلى الألفة ، ويساعد على الوحدة ، فمن الخير لهم ديننا ، كما بيتنا ، وسياسيا كما علمتنا أحوال العالم ، أن يتفقوا ويتكثروا ، وينسوا خلافاتهم ، ويذكروا فقط أنهم مسلمون ، وأن المسلم للمسلم كالبنان يشد بعضه بعضا ، وأن الله أمرهم في كتابه العزيز بأن يعتصموا بحبله ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، وألا يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات .

تلك هي رسالة التقريب ، وهي لعمرى رسالة الإسلام ، ولقد بدت تبشير النجاح فيما تلقت به الأمة الإسلامية في ربوع العالم نبأ تأليف هذه الجماعة من ترحيب حماسي ، فقد جاءتنا كتب شتى من الأفراد والجماعات في شتى البلاد الإسلامية ؛ كلُّها تأييد للفكرة ، ومساهمة فيها ، ودعوة لها وإننا لتوجه إلى الله بقلوب مخلصه أن يهيئ للسليين من أمرهم رشدا وأن يجمعهم على الخير والبر والهدى ، وأن يلزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وأن يحفظ حضرات أصحاب الجلالة والفخامة ملوكهم ورؤسائهم ، ويوفقهم إلى صراطه المستقيم .

وعلى بركة الله نقدم هذه المجلة إلى كل مسلم يؤمن بالله ورسوله وكتابه ، ولا نحاول أن نتحدث عنها إلا بما يتحدث به اسمها ، فهي « رسالة الإسلام » ، وكفى !

## من القانون الأساسي لجماعة التقريب

### المادة الثانية

أغراض الجماعة هي :-

- ١ — العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .
- ب — نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .
- ج — السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما .

# بَيَانُ لِلْمُسْلِمِينَ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد المجيد سليم

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ووكيل جماعة التقريب

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإن الدين الإسلامي قائم على نوعين من الأحكام :

أحدهما : أحكام ثابتة ، يجب الإيمان بها ، ولا يسوغ الاختلاف فيها وليس من شأنها أن تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا أن تخضع لبحث الباحثين ، واجتهاد المجتهدين . ذلك بأنها ثابتة عن الله تعالى بطريق يقيني لا يحتمل الشك ، واضحة في معانيها ، ليس فيها شيء من الإبهام أو الغموض .

والثاني : أحكام اجتهادية نظرية مرتبطة بالمصالح التي تختلف باختلاف ظروفها وأحوالها ، أو راجعة إلى الفهم والاستنباط اللذين يختلفان باختلاف العقول والأفهام ، أو واردة بطريق لا يرقى إلى درجة العلم واليقين ، ولا يتجاوز مرتبة الظن والرجحان .

والنوع الأول من الأحكام - وهو القطعي في روايته ودلالته - هو الأساس الذي أوجب الله على المسلمين أن يبنوا عليه صرح وحدتهم غير متنازعين ، وربط به عزهم وقوتهم وهيبتهم في أعين خصومهم والمتربصين بهم . والمسلمون كلهم مؤمنون به إيمانا ثابتاً لا يتزعزع ، لا فرق في ذلك بين طائفة منهم وطائفة .

وإن جميع الآيات التي جاءت في النهي عن التفرق ، وذم الاختلاف ، والتحذير منه ، وضرب الأمثال بما كان من الأمم السابقة حين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات : إنما تعنى الاختلاف والتفرق في هذا النوع من الأحكام ، ومن ذلك قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » . « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبدل خلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » .

فهذا هو الاختلاف المذموم المنهى عنه في كتاب الله تعالى .

أما النوع الثاني من الأحكام ، فإن الاختلاف فيه أمر طبيعي ، لأن العقول تتفاوت ، والمصالح تختلف ، والروايات تتعارض ، ولا يعقل ، في مثل هذا النوع أن يخلو مجتمع من الاختلاف ، ويكون جميع أفراده على رأى واحد في جميع شئونه ، وهذا النوع من الاختلاف غير مذموم في الإسلام ، ما دام المختلفون مخلصين في بحثهم ، باذلين وسعهم في تعرف الحق واستبانتة ، بل إنه ليرتب عليه كثير من المصالح ، وتوسع به دائرة الفكر ، ويندفع به كثير من الحرج والعسر ، وليس من شأنه أن يفضى ، ولا ينبغي أن يفضى ، بالمسلمين الى التنازع والتفرق ، ويدفع بهم الى التقاطع والتنازع .

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعون لهم بإحسان ، والأئمة عليهم الرضوان ، يختلفون ، ويدفع بعضهم حجة بعض ، ويجادلون عن آرائهم بالتي هي أحسن ، ويدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم نسمع أن أحدا منهم رمى غيره بسوء ، أو قدفه بهتان ، ولا أن هذا الاختلاف بينهم كان ذريعة للعداوة والبغضاء ، ولا أن آراءهم فيما اختلفوا فيه ، قد اتخذت من قواعد الإيمان وأصول الشريعة التي يعد مخالفتها كافراً أو عاصياً

لله تعالى ، وقد كانوا يتحامسون الخوض في النظريات ، وفتح باب الآراء في العقائد وأصول الدين ، ويحتمون الاعتصام فيها بالمأثور ، سدّاً لذريعة الفتنة ، وحرصاً على وحدة الأمة ، وتفرغوا لما فيه عزهم وسعادتهم وارتفاع شأنهم ، ولذلك كانوا أقوياء ذوى عزة ومهابة « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

\* \* \*

ولكن المسلمين لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذه السبيل ، واتخذوا من خلافاتهم عصبية جامدة لا تعرف التفاهم ، ولا تنزل على حكم البرهان والعقل ، فكانوا باختلافهم المذهبي كالمختلفين في الدين . يتبادلون سوء الظن . ويتراشقون بأنهم جزافاً ، وينظر بعضهم إلى بعض في حذر وحيطة ، بل أفضى بهم ذلك في كثير من الأحيان إلى التضارب والتقاتل وسفك الدماء ؛ وبذلك انحلت عرى الأمة ، وانفصمت وحدتها ، وقدر عليها أعداؤها . ونزع الله هيبتها من القلوب . وأصبحت غثاء كغناء السيل . وانقلب الخلاف الذى كان رحمة ونعمة . إلى بلاء وشر وفتنة . وصار مثله كمثل الخلاف فى الأصول . والنزاع على الأسس الأولى للإيمان .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى هذا التفرق . ويحذر منه . وكان يشبه المؤمنين بالجسد الواحد . ولم يكن شئ أبغض إليه بعد الكفر بالله من الاختلاف والتنازع ولو فى الأمور العادية .

إن هذه الأمة لن تصلح إلا إذا تخلصت من هذه الفرقة ، واتحدت حول أصول الدين ، وحقائق الإيمان ، ووسعت صدرها فيما وراء ذلك للخلافات ما دام الحكم فيها للحجة والبرهان .

ولقد أدركنا فى الأزهر على أيام طلبنا العلم ، عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد ، وتطهر الأزهر من أوبائه وأوضاره ؛ فأصبحنا نرى الحنفى والشافعى والمالكية والحنبلية ، إخواناً متصافين وجهتهم الحق ، وشرعهم الدليل ، بل أصبحنا نرى بين العلماء من يخالف مذهب

الذى درج عليه ، فى أحكامه لقيام الدليل عنده على خلافه ، وقد جريت طول مدة قيامى بالإفتاء فى الحكومة والأزهر — وهى أكثر من عشرين عاما — على تلقى المذاهب الإسلامية — ولو من غير الأربعة المشهورة — بالقبول ، ما دام دليلها عندى واضحا ، وبرهانها لدى راجحا ، مع أتى حنفى المذهب ، كما جريت ، وجرى غيرى من العلماء . على مثل ذلك فيما اشتركنا فى وضعه أو الإفتاء فيه من قوانين الأحوال الشخصية فى مصر . مع أن المذهب الرسمى فيها هو المذهب الحنفى . وعلى هذه الطريقة نفسها تسير « لجنة الفتوى بالأزهر » ، التى أتشرف برئاستها . وهى تضم طائفة من علماء المذاهب الأربعة

فإذا كان الله قد برأ المسلمين من هذه الشُّعْرة المذهبية التى كانت تسيطر عليهم إلى عهد قريب فى أمر الفقه الإسلامى ؛ فإننا نرجو أن يزيل ما بقى بين طوائف المسلمين من فرقة ونزاع فى الأمور التى لم يتم عليها برهان قاطع يفيد العلم . حتى يعودوا كما كانوا أمة واحدة . ويسلكوا سبيل سلفهم الصالح فى التفرغ لما فيه عزتهم . وبذل الوسع فيما يعلى شأنهم . والله الهادى إلى سواء السبيل . وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

### بديهة حاضرة

قال أبو العيْناء : قلت لابن أبى داود : إن قوماً من أهل البصرة قدموا  
« سرَّ مَنْ رأى ، بدأ على »

فقال : يد الله فوق أيديهم !

قلت : إن لهم لمكرا

فقال : ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

قلت : إنهم كثير .

فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين

فقلت : لله درُّ القاضى !



# تفسير القرآن الكريم

لحفظه صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

## مقدمة :

عني المسلمون منذ فجر الإسلام ، وانبثاق نور الهداية الإلهية على ربوع العالم بالقرآن الكريم ، مصدر تلك الهداية ، ومنبع ذلك الإشراق ، عناية كبرى شملت جميع نواحيه ، وأحاطت بكل ما يتصل به ، وكان لها آثارها المباركة الطيبة في حياة الانسان عامة ، والمسلمين خاصة ، أفاد منها العلم ، وأفاد منها العقل ، وأفاد منها الدين ، وأفاد منها الفن ، وأفاد منها التمانون والتشريع ، وأفادت منها الفلسفة والأخلاق ، وأفادت منها السياسة والحكم ، وأفاد منها الاقتصاد والمال ، وأفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكري والعمل عرفه الناس في حياتهم للمادية والروحية .

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية من آثار هذا النشاط العظيم ، بل زخرت مكنتات أخرى في لغات أخرى وأمم أخرى ، بكنوز رائعة يقف العقل أمامها حائراً مشدوهاً ، يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة ، ويملكه معنى عميق من معاني الخضوع ، أمام هذه العظمة التي لا كفاء لها إلا الإقرار بالعجز والخضوع !

ولكي ندرك مدى هذه العناية الكبرى التي تلقى بها المسلمون القرآن الكريم في جميع عصورهم ومراحل حياتهم ، وعلى أيدي علمائهم وملوكهم ووزرائهم وأمرائهم وأغنيائهم وأرباب الفن فيهم ، وأهل الإحسان في كل ناحية من نواحي الإحسان لكي ندرس مدى هذه العناية الكبرى ، علينا أن نلثف إلى مايجله التاريخ الفكري للمسلمين .

لا نكاد نعرف علماً من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم ، فالبحر الذي يتقوّم اللسان ويعصمه من الخطأ ، أريد به خدمة النطق الصحيح للقرآن ، وعلوم البلاغة التي تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها ، أريد بها بيان نواحي الإعجاز في القرآن ، والكشف عن أسرار الأدبية ، وتتبع مفردات اللغة ، واتماس شواردها وشواهدا وضبط ألفاظها ، وتحديد معانيها ، أريد بها صيانة ألفاظ القرآن ومعانيه أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض ، والتجويد والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته ، والتفسير لبيان معانيه ، والكشف عن مرامييه ، والفقه لاستنباط أحكامه ، والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الاستنباط منه وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد ، وأسلوبه في الاستدلال عليها ، وقل مثل هذا في التاريخ الذي يشتغل به المسلمون تحميماً لما أوحى به الكتاب الكريم في مثل قوله : « نحن نقص عليك أحسن القصص » . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » . « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجو » ، وقل مثل هذا أيضاً في علم تقويم البلدان وتخطيط الأقاليم ، الذي يوحى به مثل قوله تعالى : « سيروا في الأرض » . « فامشوا في مناكبها » . وفي علوم الكائنات التي يوحى بها مثل قوله : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » . « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار . يقلب الله الليل والنهار . إن في ذلك لعلبة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يشى على بطنه ومنهم من يشى على رجلين ومنهم من يشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

وهكذا علوم الفلك والجوم والطب ، وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من علوم الإنسان ، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به في نظر من اشتغل به من

المسلمين مقصودا به خدمة القرآن ، أو تحقيق إحياء أوحى به القرآن ... حتى الشعر إنما اشتغلوا به ترقية لأذواقهم ، وتربية لمكاتبهم ، وإعدادا لها كي تفهم القرآن وتذكر جمال القرآن ، وحتى العروض كان من أسباب عنايتهم به أنه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين : إن محمدا شاعر ، وإن ما جاء به شعر .

وتبعا لهذه الأبحاث المختلفة في نظر المسلمين الى القرآن واشتغالهم به ، نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة ، فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها ، ومنها ما يغلب عليه بيان نواحي البلاغة والإيجاز ، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا .

ولعل مما يدلنا أيضا على مدى هذه العناية أن الذين فاتهم القدرة على معالجة القرآن من هذه النواحي العلمية ، لم يفتهم أن يضربوا بسهم في نواح أخرى ، جعلوها مظهرا من مظاهر عنايتهم ، وسبيلا الى نيل حظهم من رضا الله وثوابه ، فهذا يكتب القرآن بخط جميل ، وهذا يزخرف صفحاته وأوائل سوره ، وهذا يرقم آياته ، وهذا يطرز سجله وغلافه ، وهذا يرصد الأموال لتحفيظه ، والمكاناة على التبريز فيه ، وما زالت المساجد الى يومنا هذا محتفظة بظهور من هذه المظاهر هو تلك المقارء التي يجتمع فيها القراء يتبادلون فيها قراءته وتجويده والاستماع إليه .

لهذا كله أعتقد أني لا أتجاوز حد القصد والاعتدال إذا قلت : أنه لم يظفر كتاب من الكتب سماوياً كان أو أرضياً في أية أمة من الأمم قديماً وحديثاً بمثل ما ظفر به القرآن على أيدي المسلمين ، ومن شارك في علوم المسلمين . ولعل هذا يفسر لنا جانباً من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الكريم الذي تكفل الله بحفظه وتحليده في قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، فإكان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكتباته مكتوبة في المصاحف ، مقروءة بالآلسته ، متعبداً بها في المساجد والمحاربي ، إنما الحفظ والخلود بهذه العظمة التي شغلت الناس ، وملأت الدنيا ، وكانت مثارا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر ! ومن فضل الله

علينا في هذا العصر ، أن الركب سائر لم يقف ، ولم يفتّر ، وأن هذا الروح الكريم ما يزال يسيطر على المسلمين ، وينقل فيهم من جيل الى جيل يورثه الآباء للأبناء وسيظل كذلك — إن شاء الله — حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهؤلاء هم المسلمون ، على تفرقهم في البلاد والأقاليم ، وتفرقهم في السلطان والنفوذ ، وضعفهم المادى أمام دول الغرب ، وبالرغم مما غمروا به وغزوا من علوم متنوعة ، وثقافات متعددة ذات ألوان مادية ، وأدبية ، واجتماعية ، وتشريعية ، لا يزالون يعتصمون بالقرآن ، ويدنون بقدسية القرآن ، ويتآزرون على خدمة القرآن . وإنهم ليستشرفون جميعاً لمطلع ذلك اليوم الذى يعود فيه سلطان القرآن فيكون التشريع تشريع القرآن ، والأخلاق أخلاق القرآن ، والهدى هدى القرآن ، ونزجو أن يكون قريباً .

\* \* \*

وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية ، واشتغلوا به على هذا النحو الذى أفادت منه العلوم والفنون ، فإن هناك - مع الأسف الشديد - ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيداً عنهما ، احتفاظاً بقدسيته وجلاله ، هاتان الناحيتان هما : ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية ، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه ، وأحب أن أثبت على صفحات هذه المجلة ، وبين يدي ما سأكتبه لها من التفسير ، رأيي في هاتين الناحيتين واضحاً ، فأقول :

أما الناحية الأولى : فإنه لما حدثت بدعة الفرق ، والتطاحن المذهبي ، والتشاحن الطائفي ، وأخذ أرباب المذاهب ، وحاملو رايات الفرق المختلفة ، يتنافسون في العصيات المذهبية والسياسية ، امتدت أيديهم الى القرآن ، فأخذوا يوجهون العقول في فهمه وجهات تتفق وما يريدون ، وبذلك تعددت وجهات النظر في القرآن ، واختلفت مسالك الناس في فهمه وتفسيره ، وظهرت في أئمة

ذلك ظاهرة خطيرة، هي تفسير القرآن بالروايات الغريبة، والإسرائيليات الموضوعة التي تلقفها الرواة من أهل الكتاب، وجعلوها بياناً لمجمل القرآن، وتفصيلاً لآياته ومنهم من عني بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة، وبذلك وجدت تحكما للفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم، ويستريحون في سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حرم القرآن، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان، ومن يخرجها عن بيانها الواضح، وغرضها المسوقة له، لكيلا تصلح دليلاً لمذهب فلان، وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومحكوماً عليه بعد أن كان حاكماً!

كانت هذه ثورة! ثورة غير منظمة، عتمدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية، وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين، لحفظت ودونت كثير من الآراء الباطلة في بطون الكتب وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعاً من القداسة التي يخضع لها الناس، فتلقاها المسلمون في عصور الضعف الفكري، والانحلال السياسي كفضايا مسلبة، وعمائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها، ولا الاعتداء عليها، ولا التشكيك فيها.

قيّد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامي فيما يختص بفهم القرآن، والانتفاع بهداية القرآن، فحمد الناس على تقليد هذه الكتب واتخذوها حكماً بينهم، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل، ونافع وضار، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئاً منها، وقالوا: هذا شيء درج عليه السابقون المتقدمون ودونوه في كتبهم، وشرحوا به كتاب الله، وتلقته الأمة بالقبول، وما كان لنا، ولنا بأعلم منهم بالدين، ولا بأبعد نظراً في فهم أساليب القرآن، وتخرج الأحكام، أن نخمد عما تلقيناه منهم قيد شعرة، ولا أن نخالقه في قليل ولا كثير، وبذلك أسلبوا عقولهم إلى غيرهم، وجنوا على أنفسهم بحرمانها للذة التفكير، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين، وقعدوا عن

النظر في القرآن ، وامتلات أذهانهم بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة ، وما يحل وما يحرم ، وصار كثير من المسلمين يعتقد أن الحلال ما أحله فلان في كتاب كذا ، وأن الحرام ما حرّمه في كتاب كذا ، بل وصل الأمر ببعض أهل العلم الى أن يقول : إن هذا الشيء ثابت في القرآن ، لأن فلاناً وفلاناً حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم .

وأما الناحية الثانية : فإن طائفة أخرى هي طائفة المنقّفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، وتلقّوا ، أو تلقّفوا ، شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ، أخذوا يستندون الى ثقافتهم الحديثة ، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها .

نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : « ما فرطنا في الكتاب من شيء ، فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتجاً جديداً ، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ، ويرفعون من شأن الإسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا في القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم الى صور من التفكير لا يريدونها القرآن ، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله ، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للبرق ، أو وصف للسحاب ، أو حديث عن الرعد أو البرق ، تهللوا واستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث الى العلماء الكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح . وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء ، قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة ، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، قالوا : هذا حديث يثبت لعلاء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب على دقيق .

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة ، والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويفعلون عن قوله تعالى بعدها : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . « أننى لم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا : معلّم مجنون » .

روى أن رجلا جاء الى ابن مسعود وقال له : تركت في المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه ، يفسر قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : « من علم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، إنما كان هذا لأن قريشا استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجحيم » .

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأنًا غيبيا من شئون الله الخاصة لم ينزل بتفصيله وحى ، ولم يطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ، ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان ، يفسر : « الكتاب المبين » و « الإمام المبين » الذي تحصى فيه الحسنات والسيئات ويعرض على أصحابها يوم القيامة ، بالتسجيل الهوائى للأصوات ، ويقول : أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية ، واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات ، ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية ، والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك ، هي محاسبة الناس يوم القيامة ، وعرض أعمالهم عليهم ، كشریط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم ، وما قدموا من عمل .

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : « عليها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى

ولا ينسى ، وقوله تعالى : « وكلَّ إنسان أزمانه طائرهُ في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » ، ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويذكهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم !

إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات عليية أو فلسفية أو سياسية :

ولسنا نستبعد إذا راجت عند الناس في يوم ما نظرية داروين مثلاً - أن يأتي إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين .

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف . وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ، ولا يسيغه الذوق السليم .

وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان ، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير ، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً خرافة من الخرافات .

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلية المتقلبة ، لعرضناه للتقلب معها ، وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه . فلندع للقرآن عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول . قيل : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون



على حالة واحدة ؟ فزل قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ،

وإنك لتجد هذا في سؤا لهم عن الروح حيث يقول عز وجل : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون ، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع ؟

\* \* \*

وإني لأرجو أن أوفق فيما أعرض له من تفسير آيات القرآن الكريم على صفحات « رسالة الإسلام » ، إلى الخطة المثلى التي يجب أن يستقبل بها المسلمون كتاب الله « ربنا آتانا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

## من الحكم النبوية

\* المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

\* يد الله مع الجماعة .

\* إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها .

\* المرء كثير بأخيه .

\* لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

\* دع ما يريك إلى ما لا يريك .

\* المرء على دين خليله .

# التثبت قبل الحكم

لحضره صاحب الفضيلة العلامة الكبير

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

ما زال أهل العلم والنظر والدراسات الصحيحة يُعَنِّسُونَ أكبر العناية بالمصادر التي يعتمدون عليها في بحوثهم ، ويستندون إليها في أحكامهم ، ومن المعبود أن رجال الفرق ، وأهل العصية للذاهب ، ينقلون عن مخالفهم آراء قد لا يعرفها هؤلاء المخالفون ، وقد يعرفونها على صورة أخرى تختلف اختلافاً ريباً أو بعيداً عن الصورة المنقولة ، وأنهم قد يأتون باستدلالات لمذهب مخالفهم يروجون لها ، في ظاهر الأمر ، ويوغلون في تفصيلها والعناية بدقائقها ، ليوهموا الناس أنها لمخالفهم ، ثم يكرون عليها بالإبطال والتزييف والطعن والتجريح فلا تلبث أن تهـار .

لذلك كان شيوخ العلم ، وحذاق النقد ، يوصون تلاميذهم بأن يُعَنِّسُوا بمصادرهم ، وألا يقلدوا في بحوثهم وأفكارهم تقليداً أعمى ، فيقعوا في الخطأ ، ويضلوا عن سواء السبيل ، وكانوا ينصحونهم دائماً بالرجوع إلى المصادر الأصلية للمذهب ما ، أو فكرة ما ، إذا أرادوا أن يصلوا إلى الحقيقة في هذا المذهب ، وأن يعرفوا الواقع الفعلي ، لا التخيلي ، لهذه الفكرة .

أقول هذا لأنني تتبعت كثيراً مما يكتبه الكتاتيون عن الشيعة إلى عهد قريب ، فوجدته مأخوذاً عن ابن خلدون الذي كان يكتب وهو في أفريقيا وأقصى المغرب عن الشيعة في العراق وأقصى المشرق ، أو عن أحمد بن عبد ربه الأندلسي ،

أو أمثالهما ، وقد يريد الكاتبون التوسع ، ويقصدون إلى الدراسة والتحليل ، فيرجعون إلى كتب الغربيين المعروفين « بالمستشرقين » ، وحيث يظنون أنهم قد أتوا بفصل الخطاب ، واعتمدوا على المصدر الوثيق ، وجاءوا بالحجة الدامغة . مع أن أمر الشيعة في أفكارهم وآرائهم ميسر لمن أراد معرفته ، فهذه كتبهم ومؤلفاتهم ومكتباتهم — ومن بينها مكتبتنا التي تشتمل على أكثر من خمسة آلاف مجلد — تشهد بأن الشيعة ما هم إلا طائفة من طوائف المسلمين ، ومذهب من مذاهب الإسلام ، يتفقون مع سائر المسلمين في الأصول ، وإن اختلفوا معهم في بعض الفروع .

\*\*\*

ومن الأمثلة التي تدل على عدم التثبت ما يزعمونه من أن الشيعة تقول : إن النار محرمة على الشيعة إلا قليلا ، وكتب الشيعة جميعا تنادى بأن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاه ولو كان سيدا قرشيا . والمسلمون جميعا يقرأون قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ومن ذلك ما يزعمونه من أن النصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم : إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إلى الله ، وهذا قول مرسل بغير سداد ، ولم يعين قائله من الشيعة ؟ فإن كان المراد ما يسمونهم غلاة الشيعة كالخطابية ، والغراية ، والعلياوية ، والخمسة ، والبزيعية ، وأشباههم من الفرق الهالكة المنقرضة التي نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش ، وما هي إلا من الملاحدة والقرامطة ونظائرهم ؛ فإن الشيعة الإمامية وأئمتهم يبرأون من تلك الفرق براءة التحريم ، على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى ، بل خلاصة مقالاتهم ، بل ضلالتهم أن الإمام هو الله سبحانه وتعالى ظهوراً أو اتحاداً أو حلولاً أو نحو ذلك مما ينقل عن بعض المتصوفة ، وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الوجود .

أما الشيعة الإمامية ، وأعني بهم جمهرة العراق وإيران وملايين من مسلمي الهند ومئات الألوف في سوريا وأفغان ، فإن جميع تلك الطائفة يبرأون من تلك المقالات ، ويعدونها من أشنع الكفر والضلال ، وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، أو ملاسة له في صفة من صفات النقص والإمكان ، والتغير والحدوث ، وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية ، إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم من مختصرة ومطولة .

وقصارى القول أنه إن أريد بالشيعة تلك الفرق البائدة ، والمذاهب الملحدة التي لا أحسب أن على رقعة الأرض منهم اليوم نافخ ضربة ، فنحن لا نضايق في ذلك ، ولكن نسبتهم إلى الشيعة ظلم فاحش ، وخطأ واضح ، وسوء في التعبير ، وإن أريد بالشيعة الطائفة المعروفة اليوم بهذا الاسم ، والتي تعد بالملايين من المسلمين ، فهذه كتبهم ومؤلفاتهم وعلماؤهم من حاضر وغابر ، فأين في شيء منها أثر هذا القول الباطل ؟

وقد ينزون الشيعة بالقول بالرجعة ، فليت شعري هل القول بالرجعة أصل من أصول الشيعة ، وركن من أركان مذهبها حتى يكون نبرأ عليها ؟ إن أمر الرجعة ليس إلا كبعض أبناء الغيب وحوادث المستقبل وأشرط الساعة مثل نزول عيسى من السماء ، وظهور الدجال وخروج السفيناتي وأمثالها من القضايا الشائعة عند المسلمين ، وما هي من أصول الإسلام في شيء ، ليس إنكارها خروجاً منه ، ولا الاعتراف بها بذاته دخولاً فيه ، وكذلك حال الرجعة عند الشيعة ليس التدين بها بلازم ، ولا إنكارها بضر ، ولا يناط بها التشيع وجوداً ولا عدماً .

\* \* \*

وأعود فأقول إن الثبوت واجب قبل الحكم ، وقد أمرنا الله به لئلا نصيب قوماً بجهالة فنصبح على ما فعلنا نادمين ، وأكبر الظن أن الذين يكتبون عن الشيعة دون أن يعرفوا بأنفسهم حقيقة الشيعة ، إنما يريدون تسويد الأوراق ، والتلهي

بعض الحديث ، ولكن الشيعة الذى هو على بينة من أمره ، ينظر إلى هذه الكتابات كما ينظر إلى النادرة الطريفة التى يرويها الأصفهاني فى كتابه « المحاضرات » إذ يقول : سئل رجل كان يشهد على آخر بالكفر عند جعفر بن سليمان ، فقال : إنه معتزلى ناصبى حرورى جبرى رافضى ، يشتم على بن الخطاب ، وعمر بن أبى قحافة وعثمان بن أبى طالب ، وأبا بكر بن عفان ، ويشتم الحجاج الذى هدم الكوفة على أبى سفيان ، وحارب الحسين بن معاوية يوم القطانف « يريد يوم الطف أو الطائف » فقال له جعفر بن سليمان : قاتلك الله . ما أدرى على أى شيء أحسدك ؟ أعلى عليك بالأنساب ؟ أم بالاديان ؟ أم بالمقالات ؟

### رضيتُ عن الله ورسوله

روى أبو داود من حديث أبى الورد عن على بن أعبد قال : قال لى على رضي الله عنه : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت من أحب أهله إليه ؟ قلت : بلى . قال : فإنها جرّت بالرحى حتى أثمر فى يديها ، واستقت بالقربة حتى أثمر فى نحرها ، وكنت البيت حتى أغبرت ثيابها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم خدماً — وفى رواية البخارى : فبلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسببى — فقلت : لو أتيت أباك فسألته خادماً ، فأنته فوجدت عنده مُحدّثاً ، فرجعت ، فأتاها من الغد فقال ما كان حاجتك ؟ فسكتت ، فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله . جرّت الرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً تقيها حر ما هى فيه ، فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدّى فريضة ربك واعملى عمل أهلك ، فإذا أخذت مضجعتك فسبّحى ثلاثاً وثلاثين ، واحمدى ثلاثاً وثلاثين ، وكبرى أربعاً وثلاثين فهى خير لك من خادم . قالت : رضيت عن الله وعن رسوله .

## وطبقة الدين في المجتمع

### لحضره الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك

امتاز القرن الثامن عشر والتاسع عشر بوضع خطة ترمي إلى أن يكون العلم أساس الحياة، وبشعر الدعاة فيهما بأن العلم هو الذي يزيل شقاء العالم، ويزيد من سعادته، وهو الذي ينبغي أن تبنى عليه كل نظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية. وأدام هذا النظر إلى الاعتقاد بالجبر، ولكن لا على النحو الذي كان يقول به الأقدمون، من أن أرادة الله تجبر الإنسان على السير على مقتضاها، ولكن بمعنى جديد، وهو أن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والطبيعية، ترغم الناس على نوع من الحياة لا يمكنهم أن يتحولوا عنه، فالفقر نتيجة طبيعية للنظام الاقتصادي، وسوء حالة الأفراد في بؤسهم وضعف عقولهم واضطرابهم وخرافاتهم وأوهامهم؛ نتيجة طبيعية للنظم السياسية والاجتماعية التي يعيشون فيها، فإذا تغيرت تغيروا، وإذا حسنت حسنوا.

وهذا حق من ناحية أن الحياة ينبغي أن تؤسس على العلم، فالمشروعات التي تقترح، ونظم التربية التي توضع، وتنظيم الحياة الاقتصادية ونحو ذلك، كلها يجب أن تبنى على العلم والإحصاء والتجربة.

ولكن خطأ هذه النظرية جاء من أن العلم ليس كل شيء، وأنه لا يمكن وحده لإسعاد العالم، فانتشار العلم في أوروبا لم يمنع الحرب وويلاتها وأهوالها ولم يحقق الأمل الذي بشر به العلماء، ولو خير أكثر الناس بين بيت أسس على أحدث طراز من العلم والصناعة لجهاز بالراديو والتلفون ومكيفات الهواء وأدوات الزينة ونحو ذلك وسكنته أسرة فقدت أحد أبنائها في الحرب، وبين

بيت أقلّ مدنية وحضارة ولكن سلم أهله من الحرب وويلاتها ؛ لفضلوا البيت الثاني على البيت الأول والحياة الثانية على الحياة الأولى .

لو كان الإنسان جسماً فقط يخضع للعلم لصحت هذه النظرية من جميع وجوها ولكن الإنسان جسم وروح ، وعقل وقلب ، ومادة وإرادة ، فن قصر النظر أن تنظم الحياة المادية وحدها من غير أن تنظم الروح ، وينظم العقل وحده ولا ينظم القلب ، وتجري تجارب المادة على الإنسان كأنه جماد من غير أن ينظر إلى إرادته الحرة .

لذلك نجحت المدنية الأوروبية في باب المادة وما يتعلق بها ولم تنجح في باب القلب وما يتصل به . والمدنية الصحيحة هي التي تعالج الإنسان في جانبيه اللذين فطر عليهما وهما جسمه وروحه .

إن العلم في كل أشكاله حتى علم النفس يعالج المادة ، والذي يعالج القلب هو الدين ، ولا تنظم سعادة العالم إلا بهما . فإذا غلا العلم فاعتقد أنه يسيطر على كل شيء في الإنسان فقد أخطأ . وإذا غلا الدين وحارب العلم في دائرته فقد أخطأ .

إن كان العلم يحقق رغبة الإنسان من حيث مادته ؛ فالدين يحقق أمله وطموحه من حيث نفسه وقلبه .

لقد أراد الماديون أن يؤسسوا نظاماً للأخلاق مبنياً على العقل البحت فلم ينجحوا . إن الأخلاق إذا كان يحميها القانون فقط أو الحكومة أو الضمير أو الرأي العام لم تكن أخلاقاً محصنة ، فكل هذه الوسائل لا تمنع الإجرام . فكم من الجرائم يستطيع الإنسان ارتكابها ولا يصل إليها القانون ولا الحكومة ولا الرأي العام ، وما سُمي بالضمير ليس إلا مرآة منعكسة للعرف والتقاليد . فالضمير في الهند كان يسمح للزوجة أن تدفن حية وراء زوجها ، والضمير في أمريكا يسمح للأمريكي أن يعامل الزنحجي معاملة الإنسان للنغم . والدين هو الذي يسد هذه الثلة فيربط قلب الإنسان بربه ، وضميره بإلهه ، وإلهه مطلع على خفاياه يحاسبه حتى على نياته ، ويراقبه حتى في خلجات نفسه .

لذلك كان لا بد من الدين حياة القلب ، وحياة الضمير ، وتحقيق السعادة ، وبدونه تصبح الحياة جافة مادية تافهة لا قيمة لها .

هذا فضلا عن أن الدين هو الذى يتفق والطبيعة الإنسانية ، والغرائز البشرية فمن فقد دينه فقد أفسد طبيعته ، وجزاؤه على ذلك الحيرة والاضطراب وقلق البال وزعزعة النفس . وخاصة عند الشدائد ، أو عند الشيخوخة ، أو عند حضور الموت .

وإذا كان الدين هو الذى يتفق والطبيعة البشرية وهو الذى يكمل نقص العلم ، وهو الذى يسعد الناس ويطمئنهم ويرقى بهم ؛ كان ضرورة من ضرورات الحياة أشد من العلم .

وليست الأديان كلها بمنزلة واحدة في تحقيق هذا الغرض ، فقد يضرّ الدين إذا كان دين خرافات وأوهام ، يقف حجرة عثرة في سبيل العلم . وقد يضرّ الدين إذا كان لا يتفق مع الطبيعة الإنسانية فيدعو إلى العزلة والتبتل والرهابية ، وقد يضرّ الدين إذا ملأ الإنسان رعباً وخوفاً ورهبة فشثله عن العمل في الحياة ، وقد يضرّ الدين إذا لم يكن روحانياً واقتصر على الانهماك في اللذائذ والاستهتار بالحياة ، إنما الدين الصحيح ماسماً بالإنسان فوق حاجاته الجسمية ، وأوثق الصلة بينه وبين الله العادل الحكيم المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن جميع صفات النقص ، والدين الصحيح هو الذى يثبت في نفوس أصحابه روح الأخوة بينهم وبين سائر أفراد البشر لأنهم جميعاً من صنع إله واحد . والدين الصحيح هو الذى يتمشى مع الطبيعة الإنسانية ولكنه يرقىها ، ويحيى غرائزها ولكن يعدّها ويلطفها ، والدين الصحيح هو الذى يربط عبادة الله وطاعته بخير الناس ، ويربط عصيانه بفساد الناس ويثبت في نفوس أتباعه حب العدل والإخاء والمساواة وكره الظلم والطغيان والطبقات . والدين الصحيح هو الذى يرقى القلب ويحييه ، ويوحى إلى الضمير باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه .



والناظر في الإسلام يراه أسس على هذه المبادئ: فآله رب العالمين، والمؤمنون أخوة، والناس سواسية، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، والرسول ليسوا إلا بشرأ كسائر الناس: رقى استعدادهم، وتفتحت نفوسهم فأوحى الله إليهم بتعاليمه، وبما يصلح من معاش الناس ومعادهم.

إن الدين على هذا الوضع يدعو إلى الوئام لا الشقاق، وإلى الحب لا الخصام، وإلى عمل الخير لا عمل الشر، وإلى الإكثار من الخير وتلافى الشر — إن كان هذا فما أعجبنا من خصام يكون بين الدين الواحد. لقد كان حرياً أن لا يكون خصام بين الأديان المختلفة، فكيف بأهل دين واحد؟! لقد تبين الرشد من الغي، وتبين أن للإسلام أصولاً وفروعاً، وأن أصول الإسلام إيمان بالله وإيمان بحياة أخرى وإيمان برسوله، فمن اعتنق هذه الأركان كان مؤمناً وكان مسلماً، وهذه الأركان هي لب الدين. فالخلاف في الفروع خلاف لا يصح أن يكون مثار حرب ولا نزاع ولا عدا، ولئن صح أن يكون خلاف بخلاف يقتصر على المنطق وتبادل الآراء وإقامة حجة أو بطلان حجة، ولا يصح أن يتعدى هذا. فما أعجب قوماً لهم رب واحد، ورسول واحد، وكتاب واحد، يتنازعون في الفروع هذا التنازع العقيم ثم يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ويلجأون إلى السلاح في إقامة الحجة، وما كان السلاح يوماً إحدى الحجج ولا وسيلة للاقناع.

إنما نشأ هذا عن ضيق في النظر، وتعصب أعشى، وقساد في الذوق، وانحراف عن أصول الدين، وسياسة تعتمد على التفريق، وجهالة تتجر بالجهل، ولئن صح هذا في العصور المظلمة والعصور الجاهلة؛ فلا يصح في هذا العصر المستنير العاقل، ولئن صح أن يصدر هذا الخلاف عن أهل دين يقولون بالتعدد فلا يصح عن أهل دين يقولون بالتوحيد!

# بَيْنَ الْقَانُونِ الرُّومَانِيِّ وَالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

للباحث القانوني الكبير

الأستاذ محمد الشافعي اللبان بك

جاء الإسلام ديناً ودولة ، فحوت الشريعة الغراء الى جانب ما جاءت به من أحكام العبادات قواعد المعاملات بين الناس ، تقررت أصول تلك القواعد فيما أنزله الله تعالى في كتابه العزيز ، وفيما استنه نبيه الكريم من قول وفعل وتقرير ، ثم استكملت تفصيلاتها بالإجماع ، ثم بالقياس ، فتمت بذلك للشريعة مصادرها الأربعة من الكتاب والسنة والإجماع والحمل على واحد منها ، واحتلت المكان الأول بين الشرائع بما انفردت به أحكامها وأساليبها من دقة بلغت حد الإعجاز ، فواجهت حاجات الناس في كل عصر وفي كل مكان .

وقد كان للأئمة والمجتهدين أثر محمود في هذه النتيجة ، فهم — مع ما قيدوا أنفسهم به في استنباط القواعد والأحكام من ردها الى أصولها في الكتاب أو السنة — قد سلكوا مع ذلك في فتاويهم وفي اجتهدهم الطريقة المعروفة في إصلاح رجال القانون بالطريقة الفرضية الموضوعية التي تقوم على طرح الفروض التي تمس الحياة العملية دون غيرها مع الاقتصار على وضع الأحكام للحوادث الواقعية ومقتضياتها ، فكان من نتائج ذلك تلك الثروة الفقهية الباقية على الدهر ، والتي يجد الباحث فيها دائماً الحكم في كل ما يعرض له من حوادث ، وما يقع من أقضية .

انفرد علماء المسلمين بهذه الطريقة ، فخالفوا بها من تقدمهم من فقهاء الشرائع القديمة ، وخاصة الشريعة اللاتينية التي قامت على وضع نظم ونظريات وتقرير قواعد وأحكام ، ثم إخضاع الحوادث لها قسراً ولو على حساب العدالة ، ومع

تجاهل مقتضيات التعامل مع الناس حتى انتهى الأمر بهم في كثير من الحالات إلى استحالة تطبيق تلك النصوص، فالتمس الحكام الحل فيما أسموه «قانون العدالة»، الذي حكموه إلى جانب القانون الروماني الجامد لسد نقصه وتقويم عوجه .

قامت الشريعة الإسلامية على هذا الأساس السليم، وحلت مع الإسلام أينما حل ، وفي القرون الوسطى حين بدأت النهضة العلمية في أوروبا تفتحت أعين الباحثين والمفكرين عن شريعتين رئيسيتين في العالم ، الأولى : شريعة الإسلام في بلاد المسلمين ، والثانية : شريعة الرومان في القارة الأوروبية . إذا استبعدنا الشريعة الانجلوسكسونية التي لم تكن ترقى إذ ذاك إلى مرتبة القانون الروماني، فكان طبعيا عند ما بدأ البحث في مقارنة الشرائع أن يتطلع الباحثون إلى الشريعة الإسلامية وإلى ما استحدثته من أحكام سبقت بها الشرائع الوضعية ، وأن يقوم الجدل حول مقارنتها بالقانون الروماني ، لكن هذا الجدل لم يدفع إليه التحقيق العلمي والبحث الخالي عن الشهوة ، بل قام أشده على التعصب والتجني على العلم والهدى ، وتولاه نفر من المستشرقين من دعاة الدين المسيحي ، يسعون به إلى النيل من الإسلام برد ما جاء به من البيانات إلى أصول من عندهم وبالعامل على إثارة الشك في أصول تلك الشريعة ، عسى أن يجدوا ما يقيم حجتهم في التدليل على قيام الصلة بينها وبين قانون الرومان ، أو ما يثبت الاقتباس من أحكامه .

والحق أن جملة القول في هذا البحث أنه يخلو من الحجة ويفقر إلى الدليل ، دفعه روح العتصّب ، وتلبس القائلون به سنداً له مما ارتأوه من صدقة الاتحاد أحيانا في الفكرة أو في الحلول المقررة في كل من الشريعة ، وفي قانون الرومان ، لكن مجرد الاتحاد بين فكرتين لا يكفي للقول بأن المتأخر أخذ من المتقدم ، بل لا بد من إثبات التلاق في أصول الفكرتين مع اتصال السند كما يجب التحقق من التقدم والتأخر .

وللتحقق من التقدم والتأخر يجب التمييز بين القانون الروماني القديم - وهذا أقدم عهدا من الشريعة - وبين القانون الروماني الحديث الذي ظهر في أوروبا في

عصر النهضة في القرن الثاني عشر ، أما القانون الروماني القديم فيرجع إلى الأصول الأولى التي صيغت في الألواح الاثني عشر التي ترجع بدورها إلى أصول متفرقة من الأنظمة والتقاليد السابقة عليه كالأنظمة اليونانية ، وعلى الخصوص قانون : « صولون ، الإغريق . ومعلوم أن أحكام هذا القانون الروماني تميزت بالقسوة والإفراط في الشكلية فجاء التشريع فطريا في مبادئه يسقط الحق لهفوة شكلية ويقتل المدين إذا لم يف بدينه ، ويعطى الأب حق قتل ابنه أو بيعه ، لذلك كان طبيعيا أن يتطور هذا القانون القديم تطورا في عهود متلاحقة من عهد الجمهورية إلى عهد الإمبراطورية ، حتى إذا قامت الديانة المسيحية التي لا تتفق تعاليمها مع شكلية ذلك القانون ، ظهر في القارة الأوروبية إلى جوار القانون الروماني قانون ديني مسيحي هو : « القانون الكنسي ، يتنص بأصول تختلف عن الأصول المقررة في القانون الروماني .

أما الشريعة الإسلامية فقد نبئت من أولها متصلة بأحكام الدين التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتسعى إلى النية ، وتبعد عن الشكلية ، وهكذا نجد الأحكام الشرعية منقطعة الصلة بأحكام القانون الروماني القديم ، وخاصة من حيث أساليبها الفنية ، وأوضح ما يساق على ذلك من دليل المقابلة بين النظم الرومانية التي تميزت أساساً وتفصيلاً بالشكلية المحاطة بالطقوس الرمزية ، وبين أحكام الشريعة الغراء التي قامت بصفة أصلية على الرضائية والتجرد من الشكلية والتي تبحث عن النية الحقيقية لتصل إلى الجوهر دون الشكل والمظهر : خذ عقد البيع مثلا ، فهل يكفي أن عرفه العرب ، ووضعوا أحكامه ليقال أنهم نقلوه عن بيع الرومان ، أين عقد البيع المعروف في الشريعة الإسلامية من عقد البيع الروماني الذي ما كان يتم إلا بطريقة الإشهاد ، أو ما قام مقامها ، وإلا باستعمال ألفاظ وصيغ معينة موضوعة ؟ وشتان بين هذا البيع الناقص الذي ما كان لينقل إلى المشتري غير « الحيازة الهادئة » وبين عقد البيع شرعا الذي ينقل الملك العام .

أما أن يتحد موضوع البحث أحيانا وتلتقي الحلول صدقة فذلك أمر طبعي

ما دام القصد تقرير أحكام لمعالجة أحوال واحدة فمن المسلم به أنه كثيراً ما تتفق خواطر الأطباء عند بحث مرض واحد على نفس العلاج ولو لم يتم بينهم بهذا بهذا الشأن تفاهم سابق . ونحن إذا رجعنا بمختلف الحلول إلى الأصول الكلية ظهر الخلاف وتميزت الشريعة بطابعها الخاص وعرف المصدر على حقيقته ولم يعد مجال للقول أو الاستنتاج .

على أن ما بين التشريعين الإسلامي والروماني القديم من اتفاق لا يكاد يذكر في بعض الجزئيات يجب ألا ينسينا مدى التباين والاختلاف القائم بينهما ويظهر ذلك في مسائل الأحوال الشخصية وفي أحكام الملكية ومبادئ العقود وقواعد تعويض الضرر وغير ذلك من القواعد والأصول الكلية . وقد استحدث الكتاب العزيز والسنة الشريفة مبادئ لم تسد حتى ذلك الوقت ولم تتقرر في القوانين الغربية إلا بعد أن تطورت وتقدم بها العهد . من ذلك الأمر العام بالوفاء بالعقود الوارد في سورة المائدة ، والنهي العام عن أكل أموال الناس بالباطل في سورة النساء ، والمبدأ العام القاضي بأن لا ضرر ولا ضرار الوارد في السنة . ولم يتضح التلاقى في بعض الأحكام إلا بعد أن تطور القانون الروماني وتجرد من الشكلية وبعد أن التقي في تطوره بعوائد وتقاليده شعوب وأجناس مختلفة وخاصة بعد أن التقي بالعوائد والتقاليد الجرمانية فأخذ بذلك يقترب في بعض نواحيه من الأساليب التي أخذت بها الشريعة الإسلامية التي قامت قبل ذلك التطور بزمان طويل .

فاذا قامت المقارنة بين الشريعة والقانون الروماني الحديث فربما وجدنا في أحكام هذا القانون ما يلتقي أحيانا بما جاءت به الشريعة من أحكام . ولكن إن صح القول هنا بالاقتراب فالأولى أن يسند ذلك إلى القانون المتبع في القارة الأوروبية لتأخره في التاريخ . بل إن البعض قد وصف القانون الروماني لذلك السبب بأنه « فقه إسلامي أخذ من الأندلس » ويكون لهذا الوصف قيمته إذا كان المقصود بالنظر هو القانون الروماني الجديد فليس ثمة ما يمنع من أن يكون

هذا القانون قد تأثر في بعض أحكامه بفقه الشريعة التي سادت حينما طويلا في بلاد الأندلس .

لا محل إذن للتحدث عن اقتباس على النحو المزعوم في الأحكام بين الشريعة والقانون الروماني . هذا إلى أن أئمة الشريعة فيما جاءوا به قد التزموا الأصول الشرعية ولم يخرجوا عليها وفرضوا على أنفسهم أن ردوا الفروع إلى أصولها من الكتاب أو السنة ، وهي أصول معروفة ثابتة .

ومع ذلك فمن الممكن أن نتلص في الحلول الفرعية التي جاء بها بعض أئمة الشريعة ، والتي لا تستند إلى مصدر خاص من الكتاب أو السنة ، أو الإجماع أو القياس ، وإنما تقوم على الاجتهاد البحت أو الاستحسان أو على إقرار مصلحة مرسله ما يقرب بينها وبين ما قرره القانون الروماني . وليس في هذا من حرج ما دام ليس ثمة حاجز حصينة بين الأمم والشرائع تمنع من تسرب الأفكار من هذه إلى تلك فتتبادل الشرائع الاقتباس ، ويجرى بينها التبادل والانتاس . فكما صح لنا القول بأن القوانين الأوربية ربما تأثرت في تفصيلاتها بأحكام تردت أصلا إلى الشريعة الغراء ، نقلت إليها خاصة عن طريق الأندلس ، فلا يمنع أن يكون قضاء الشريعة الإسلامية في فروعهم التي يأخذونها من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو الحمل على واحد منها ، قد سرت إليهم آراء من غيرهم نقحوها وصقلوها بصقل الإسلام . وقد نسوق مثلا لذلك نظام « الحكر » في الأراضي الموقوفة الذي لم ينص عليه في الكتاب ، ولم تأت به السنة ولم يتصد لبيانها الأئمة الأعلام ، وإنما ورد في فروع بعض المذاهب والمقرر أن العرف السائد إذ ذاك في البلاد المعمرية والشامية وغيرهما ، كان له أثر في إقرار بعض أحكامه ، فليس من العسير أن نقرب بينه وبين « عقد الأمفيتوز » المعروف في القانون الروماني ، وقد رده البعض إليه فعلا .

لقد تأثرت العوائد والتقاليد في بعض البلاد العربية — كعمر والشام — بأحكام القانون الروماني ، الذي نقل إليها حينما ، وما كان على المجتهد من حرج

أن يقتبس من تلك التقاليد ، ويستأنس بذلك العرف حيث لا يجد للحكم أصلا فى الكتاب أو السنة ، أو فيما أجمع عليه ، أو أخذ بالقياس ، وذلك فى نطاق ما أتت به تلك المصادر الأربعة من أحكام ومبادئ عامة لا يجوز الخروج على نصوصها وروحها .

على أننا إذا استقرأنا حوادث التاريخ إلى عصر الأئمة وتابعهم لا نجد للقانون الرومانى من سبيل إلى هؤلاء الذين أسسوا بناء الشريعة وأقاموا صرحها إلا فيما استقر من بعض التقاليد ببعض البلاد العربية على ما قدمنا إذ لم يكن القانون الرومانى من بين ما نقل إلى العربية فى عصر الترجمة كما أكد ذلك المؤرخون . وجدير بالذكر أن الحلول الفرعية التى أتى بها منهم أبو حنيفة وأحمد والشافعى ، لا تتفق مع أحكام القوانين السائدة فى القارة الأوربية ، بقدر ما تتفق معها بعض الحلول التى قال بها الامام مالك وهو الوحيد من بينهم الذى لم يغادر أرض الحجاز أبداً فى حين اتصل الباقون بالأمصار الأخرى . وهكذا فإن اتحاد الفكرة قد جاء عرضا ، بل إن مذهبه دون غيره من المذاهب هو الذى ساد بلاد أفريقيا الشمالية حتى وصل بلاد الأندلس .

\* \* \*

وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية فى أصولها ، وما يرجع من أحكامها إلى ما أورده الكتاب أو جاءت به السنة ، أو كان مرده الإجماع أو القياس ، منبئة الصلة بالقانون الرومانى . وأنه من الجائز أن تكون بعض الفروع التى جاء بها الأئمة والمجتهدون قد تأثرت بعوائد بعض البلاد التى خضعت حيناً لحكم الرومان . ولكن إذا قيل بأن فرعا من الفروع قد قبسه الفقهاء مما سبقهم من الشرائع ، أو تأثروا بما اتبع من العوائد ، التى لا تخالف أصولهم المقررة ، فإن هذا القول يجب له الدليل ويلزمه البرهان ، ولا يكتفى التلاقى فى الفكرة للقول بأن المتأخر نقل عن المتقدم ، والله يهدى إلى الصراط المستقيم .

## وَجَلَّةُ الْمَسْلُومِينَ حَوْلَ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد تقي القمي

السكرتير العام لجامعة التقريب

لا يهمني إن كانت هذه القصة حقيقة واقعية ، أو خرافة من نسج الخيال ، وإنما يهمني أن تكون مقدمة لنتائج تتعرض لها في هذا المقال .

ولا يهمني إن كان بطلها من حكام الفرس ، أو من أبطال الرومان ، أو من غزاة العرب ، من الموحدين أو من غيرهم ، بقدر ما تهمني فكرته السامية .

كان حكيماً نافذ الكلمة في عشيرته ، شديد الغيرة على مصالحهم ، تقدمت به السن ، فأراد أن يزف وحيداً ويتنازل له عن رياسة قومه ، فقدم إليه أتباعه — على عادة القبائل والعشائر — هدايا ثمينة ، فأراد أن يستغل شعورهم هذا في توطيد الإمارة لولده ، ولأحفاده من بعده ، فخطب فيهم شاكراً ، ورجاهم أن يستردوا هداياهم ، فألحوا عليه في قبول شيء فقال لهم : « إن كان لابد من تقديم شيء ، فأقيموا لولدي بيتاً يسكنه ، بشرط أن تشاركوا في بنائه ، وتساهموا في إقامته ، وأحب أن أراكم تحملون لبنائه بأنفسكم وتضعونها في البناء بأيديكم ، فأقدموا على هذا العمل الذي يرضى شيخهم الكبير ، ولما تم البناء ، أوصى ولده أن يقيم فيه ، ولا يتحول عنه ، لأن مقامه في بناء مشترك ربط للقلوب والنفوس جميعاً ، ولأن الناس يتمسكون به ، ويتعلقون بإمارته ما أقام في هذا البيت الذي صنعوه بأنفسهم ، ويقولون : إن نبوءة الشيخ تحققت ، وكان نزول هذه الدار من أحفاده أميراً مرموقاً وحاكماً مطاعاً .

إذا كانت هذه قصة خيالية ، فهناك قصة من صميم الواقع ، عن قصر غم لم تر عين الزمان مثله ، أقيم على أساس متين ، وشيد من حجر صلد بأيدي أمهر البناء



المخلصين من الأبيض والأسود، ساهم في إقامته رجال من أقصى الشرق الى أقصى الغرب، من بلخ وبخارى وسمرقند وطوس وطبرستان والرى والعراق والشام والحجاز ومصر والأندلس وما بينها، وتعبت فيه عقولهم - إن صح هذا التعبير - واستعملت فيه لبنات نورانية بدل اللبنة الظلمانية المعروفة .

وإذا كانت مرضاة ذلك الشيخ هي الدافع الى بناء ذلك البيت الصغير، فإن الدافع الى بناء هذا القصر المنيف، هي مرضاة الله في الدارين، وإرضاء الضمير والإيمان والعقيدة، بنى باسم الإسلام، وقدمه بناته الى الإسلام، ليكون في خدمة الإسلام والمسلمين، ولم يكن لخدائته أسوار تمنع الناس من الدخول فيه، ولا بين أقسامه حواجز تحجب عن الرواد بعض نواحيه، فتوجهت اليه عقول الملايين، وتعلقت به قلوب مئات الملايين، وعبق عطره في أركان العالم الإسلامى وفاح شذاه في أركان الكون كله، وأطلت عظمته على الشرق والغرب .

ذلك قصر الثقافة الإسلامية التي أراد الله أن تكون أعظم مفخرة للمسلمين، وأعظم ثمرة للإسلام، تلك الثقافة التي لم يوح بها أحد، وإنما أوحى بها الشعوب والإيمان والرغبة في أن يكون للإسلام ثقافة خاصة ينهل منها المسلمون، واندفع لتحقيق ذلك بناؤون من كل شعب مسلم، ومن كل طائفة إسلامية، وتخلوا جميعا عن كل قومية ولغة، إلا قومية الإسلام ولغة القرآن، فالبلخي نسى بلخيته، والفارسي نسى فارسيته، والبخارى نسى أنه من بخارى، والعربي نسى عروبه وجعلوا أنفسهم في خدمة الإسلام ولغة الإسلام، وخلقوا ثقافة اسلامية، استنبطوا قسما كبيرا من الإسلام نفسه، وأخذوا قسما آخر من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، التزموا فيه نهجا لم يلتزمه البناء قبلهم، هو أن يصبغوه بصبغة الإسلام، ويسخروه في خدمة فكرة الإسلام ليكون ثقافة إسلامية قبل كل شيء، ووقفوا في هذا توفيقا عجيبا، حتى أنهم أخذوا الفلسفة اليونانية - التي كانت تثبت العقائد الوثنية، والتي استغلتها الكنيسة فيما بعد لخدمة الثلاث - وصبغوها بالصبغة الإسلامية وأثبتوا بها التوحيد والمعاد، ولست بصدد شرح هذا وسأفرد له بحثا خاصا .

ولم ينشط في إقامة هذا القصر الباطون فحسب ، بل نشط كذلك الجارون والبستانيون واهتم كل بناحيته ، وتقدم كل فن يشجعه الإسلام ، من تفسير إلى أدب ، ومن طب إلى كيمياء ، ومن علوم إسلامية إلى نبوغ في الفقه ؛ ووع خاص ، وهكذا أوجدوا كنزاً ثميناً ، يليق أن يسمى بحق أغنى كنز في العلوم الإسلامية ، ازدهرت كل هذه العلوم دون أن يؤخذ عهد من القاءين عاها ودون أن تشرف على تنسيقها منظمة كالينسكو ، ودون أن يمنع أحد من الدخول في أي بحث ، أو يحرم من الرجوع إلى أي مرجع ، أو الاغتراف من أي منهل . كانت ثقافة إسلامية تقدم لكل المسلمين ، لا لشعب دون شعب ولا لطائفة دون طائفة ، وكان لكل عالم حق الدخول في كل بحث ومراجعة أي كتاب والاختذ بأي رأى ولا ينظر أحد الى من يخالفه في الرأى إلا نظرة التقدير والأخوة . فالخليفة يقدم الى الإمامى كرسى الدراسة ببغداد ، والسنى يستمع الى دروسه كثير من غير أهل السنة ، ومرجع الفتوى الى كل مذهب ، والباحث يتف على رأى كل مفكر . كانت ثقافة عامة مشتركة ، تعلق بها كل قطار لأنه يساهم فيها ، وغار عليها كل صقع لأن له قسطاً منها ، وحفظ حرمها وكرامتها كل مسلم ، واحترم رجالها ونظر اليهم كجموعة يكمل بعضها بعضاً ولا تقبل التجزئة .

لعلك تساءل : أين هذا القصر؟ هل عدا عليه الدهر ونخر به ، أم غصبه أحد الطغاة ودمره؟ كلا : لا هذا ولا ذاك . إنما تنازع فيه ورثته ، وقسموه فيما بينهم وأقاموا الحواجز بين أقسامه ، واستقل كل فريق بحصته وامتنع الآخرون من الدخول إليها . وهكذا تحولت الثقافة الإسلامية من عامة جامعة ، إلى مذهبية ضيقة ، ومن قومية شائعة ، إلى طائفية محدودة ، وعكف كل عالم على مراجع مذهبه ، وأغضى عن ما فى المذاهب الأخرى ، وتعصب لما درس ، واستراب فى كل ما جهل . وتأثرت كل طائفة بعلائها ، وتمسكت بهنجم ، ونفرت من كل من يخالفهم فى الرأى بل ذهب إلى الشك فى عتائد الطوائف الأخرى .

واتهر كثير من غير المسلمين هذه الظلمة ، وتسألوا إلى الصفوف ، وتسموا باسم المسلمين ، واستغلوا جهل الطوائف بعضها ببعض ، يزعمون لكل طائفة أنهم

من الأخرى ، يقولون للشيعة نحن من أهل السنة ، ويقولون لهؤلاء نحن من أولئك ، واستطاعوا في غفلة المسلمين وجهلهم أن يسيثوا إلى الإسلام قروناً عديدة .

كل هذا حصل بسبب التعصب المذهبي الذي تريد جماعة التقريب القضاء عليه ، وبتأثير النزعات الشعبية التي ترمى إلى تقسيم هذا التراث باعتبار العنصرية .

فلو أننا فتحنا صدورنا من جديد ، واعتبرنا الثقافة الإسلامية ، مجموعة يكمل بعضها بعضاً ، وتفاهنا فيما بيننا على هذا الأساس ، وأدركنا أن هذه الثقافة إسلامية ، بنيت على أن تكون للإسلام قبل كل شيء ، وليست ملكاً لفرد ولا لمذهب أو طائفة كما أنها ما أوجدت لتكون عنصرية ؛ لجددنا بناء هذا القصر المنيف ولحونا عن كل طائفة باطل الاتهامات الموجهة إليها ، ولاخرجنا من بيتنا من ليسوا بمسلمين كأولئك الأدعياء الذين انتسبوا كذباً إلى الإسلام وهم معاول هدم بني الكيان الإسلامي .

وفي رأي أن ثقافة إسلامية موحدة — اذا التف حولها المسلمون — كفيلة بتوحيد صفوفهم ، ولا يخفى ما تؤدي إليه الوحدة من عز ومجد وسؤدد .

وما دامت هذه الثقافة موجودة ، فإن من الميسور بلوغ هذا الهدف ، وهو ما نعمل له ونسعى الى تحقيقه . والله ولي التوفيق ؟

## من القانون الأساسي لجماعة التقريب

المادة الثالثة : تسلك الجماعة من السبل ما تراه محققاً لأغراضها ومنها :

- (أ) نشر الكتب والرسائل .
- (ب) الدعوة بطريق الصحف والمحاضرات والإذاعات اللاسلكية .
- (ج) تبادل النشرات مع الجماعات الدينية والثقافية في مختلف الهيئات الإسلامية .
- (د) عقد مؤتمرات إسلامية عامة تجمع زعماء الشعوب الإسلامية في الأمور الدينية والاجتماعية .
- (هـ) العمل على أن تقوم الجامعات الإسلامية في جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتى تصبح جامعات إسلامية عامة .

# فَرِيضَةُ الْحَجِّ

فِيما عَلَيْهِ وفيما شَهِدته

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ عبد الوهاب خلاف بك

بني الاسلام على خمس قواعد ، كل قاعدة منها أساس ثابت لتحقيق مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، ولو أقام المسلمون هذه القواعد على وجهها ، وقصدوا إلى تحقيق ما أَراده الشارع بتشريعها ، لصلحت حالهم أفرادا وجماعات ، واستحقوا معونة الله وتأَييده في الدنيا ورضاه وحسن ثوابه في الآخرة ، وأنا أبين في هذه الكلمة بعض ما قصده الشارع من مصالح للفرد ، ومصالح للمجتمع في فريضة الحج ، ثم أبين بعض ما شاهدته في موسم الحج مما جعل هذه الفريضة شكلية لا روحية ، وبعد بها عن تحقيق المصالح التي شرعت لأجلها .

وأولى الأقوال بالصواب أن الحج يُفرض على المسلمين في السنة التاسعة للهجرة بعد أن فتح الله عليهم مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وقد حج المسلمون في تلك السنة التاسعة بإمرة أبي بكر ، وحجوا في السنة العشرة بإمرة رسول الله ، وهي حجة الوداع ، وفيها في يوم الجمعة يوم الوقوف بعرفة أوحى الله إلى رسوله قوله سبحانه « اليوم يش الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، وقد بكى بعض الصحابة لما تلا عليهم رسول الله هذه الآية ، لأنه فهم أن هذا نذير الختام لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

قصد الشارع بفرض الحج على المسلمين تحقيق مصالح للحاج نفسه ، وتحقيق مصالح لجماعات المسلمين ؛ فأما مصلحة الحاج نفسه فقد أرشد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فيما رواه عنه البخاري ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم

يفسق رجوع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وبقوله فيما رواه عنه الامام أحمد في مسنده : « إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصاحقه ، ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته فإنه مغفور له ، فهذان الحديثان الصحيحان صريحان في أن الحج طهرة للحاج من ذنوبه وآثامه ، ولا ريب في أن أنفع مصالح المسلم أن يطهر نفسه من دنس الآثام ، وأن يزيل ما يحجبه عن ربه من حجب عصيانه والخروج عن أمره ، فالعبادة التي تمحو ذنوب العابد وخطاياهم ، وتعيد كيوم ولدته أمه فيها أكبر منفعة له ومصلحة ، وفي مناسك هذه الفريضة وشعائرها من الرياضة الروحية ، والدروس التهديبية ، ما له أكبر الأثر في تطهير النفوس من الشرور والسيئات ، وتهيتها لرحمة الله وغفوانه ، لو عني الحاج بأن يقوى روحه بهذه الرياضة ويزكى نفسه بهذه الدروس .

فأول ما يبدأ به الحاج مناسك حجه ، الإحرام ، وإحرام الحاج ينقله من حال إلى حال ، ينقله من حياة الزينة والترف إلى حياة الفطرة والتقشف ، فهو إذا تطهر ونوى حج بيت الله ، وسأل الله أن يسر له حجه ويتقبله منه ، وجب عليه أن يتجرد من ثيابه ، وأن يقتصر على ستر جسمه بإزار ورداء ، وأن ينتعل حذاء لا يستر قدمه ، وأن يترك رأسه عاريا ، وحرّم عليه أن يستعمل طيبا ، وأن يحلق شعره أو يقصره أو يرجله وأن يمتص ظفره ، وأن يجادل أو يرفث أو يفسق ، وعلى الجملة حرم عليه كثير من أسباب الزينة والترف التي كانت مباحة له .

وهذا أول درس رياضي تهديبي يتلقاه الحاج من مناسك الحج ، فهو حين يظهر في مجتمع بإزار ورداء عارى الرأس شبه الحافي يشعر بأن كل عظيم هو بين يدي الله خاضع ذليل ، ويشعر بأن الناس سواء ، وأن مظاهر الزينة والترف التي تفرق بين الناس ليست إلا ظواهر ، وأن حقيقة الناس واحدة ، وأن الكبير والعجب والخيلاء والتفاخر والتكاثر هي أثار غفلة الانسان ، وبهذا الشعور يتغلب على قهر نفسه ، ومحاربة ملاذته وشهواته ، ويكثر التفكير في ربه ، والندم على عصيانه ومخالفته .

فإذا وصل المحرم إلى مكة وهو على هذه الحال مظهره خال من الزينة والترف وبين جنبيه نفس شاعرة بالخضوع لله . تواقه إلى الرجوع إلى الله ودخل المسجد الحرام ورأى الكعبة التي جعلها الله قياماً للناس ، شعر بأنه في بيت الله وفي ضيافة الله وأن عليه أن يتطهر من آثامه تكريماً لمن هو في ضيافته ، إذ كيف يكرمه الله في بيته وهو مدنس بعصيانته ومصر على مخالفته ؟ هذا الشعور يملأ قلب الحاج وهو أمام الكعبة فيندفع في البكاء والدعاء والتضرع والابتهال ويطوف حول الكعبة طواف تحية القدوم وقلبه متفطر ، وعيناه باكيتان ، ولسانه ضارع ، ويداه مرفوعتان ، وكل جارحة فيه متجهة إلى الله تطلب منه الرحمة والمغفرة وتسأله الرضا والعفو والمثوبة ، وينتهي من أشواط الطواف السبعة وقد شعر بأنه خلع أكثر أوزاره ، وقرب من رحمة ربه . فإذا خرج من المسجد الحرام إلى المسعى وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، مهللاً مكبراً ، داعياً مستغفراً ، تالياً قول الحق سبحانه « إن الصفا والمروة من شعائر الله » ، شعر أنه كرر غسل نفسه من الذنوب وتطهير قلبه من السوء ، فإذا وقف بعرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة وقعت في هذا اليوم مهللاً مكبراً داعياً مستغفراً ذا كراً موقف الرسول فيه عام حجة الوداع شعر أنه أتم تطهير نفسه ، وأنه انتصر على وساوس صدره ، وهو اجس شيطانه واستحق مغفرة ربه فرمز إلى هذا القهر لنفسه والانتصار على شيطانه برجم تماثيل الشياطين وأصنام الوساوس والهواجس .

من هذا الإيجاز لما سك الحج يتبين أنها مواقف متعددة في أماكن مختلفة لتذكير العبد بربه وتخليصه من سلطان نفسه الأماراة بالسوء ، وأنها غسل مكرر بمنزلة غسل الثوب النجس بالماء عدة مرات لتتم طهارته ، وعن هذا عبر رسول الله بأن الحاج يعود كيوم ولدته أمه وبأنه يعود مغفوراً له .

غير أني لاحظت أن كثيراً من الحاجاج لم يلتفتوا إلى المعاني الروحية لما سك الحج ، ولم ينتفعوا بها فيها من دراسة تهذيبية ، وكان جهدهم الأكبر في تحقيق شكلياتها لا في تحقيق غاياتها ، ففي الإحرام شاهدت أن أكثر المحرمين مشغولون

بالسؤال عن حكم لبس الخاتم والساعة والنظارة وكثير من الأسئلة التي شغلهم عن التفكير في حكمة الاحرام والانتفاع بما فيه من عبرة وخيل إلى أن كثيراً من الحجاج يحسبون هذا الإحرام مقصوداً لذاته وليس وسيلة إلى معنى روحي وتهذيب نفسي ، وأنهم يقصدون إلى المبالغة في الشكليات . وقد روى البخاري عن عبد الله بن عباس ، قال : « انطلق النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد ما ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه ، فلم يره عن شيء من الأردية والأزر تلبس ، إلا المزعفرة التي تردع (١) على الجلد ، وفي الطواف شاهدت أن أكثر الطائفين يقودهم المطوفون ويرددون تبعاً لهم كثيراً من الأدعية المحفوظة المكررة المرددة . ومن الطائفين من لا يفهمون لها معنى ، ويرددون ألفاظها في ضجيج وعجيج لا يتفق وتكريم الكعبة التي جعلها الله قياماً للناس ، ولا يتفق والخشوع والخضوع والضرعة التي يجب أن تكون عليها التائب لله والراجع إلى الله . وشاهدت أن كثيراً من الطائفين يكثرون من تكرير الطواف ليلًا ونهاراً ، مع أن رسول الله ما طاف في حجة الوداع إلا ثلاث مرات طواف القدوم حين قدم . وطواف الإفاضة حين أفاض من عرفات ، وطواف الوداع حين أراد العودة إلى المدينة ، وفي شدة الزحام حول الكعبة ، وكثرة الجلبة والضوضاء في المطاف لا يتاح للحاج أن يقف أمام هذا البيت المبارك وقفة الذكر والاعتبار ، وأن يستعرض ما مرت به من قرون ومن طافوا به من موحدين ووثنيين من حين بناء إبراهيم وإسماعيل إلى السنة الثانية للهجرة حين فتح المسلمون مكة ، ووقف رسول الله أمام الكعبة والأصنام منصوبة حولها وفوقها ، وهو يضرب بطرف رمحه وجوها وعيونها ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، ولاحظت أن أكثر الحجاج يشقون على أنفسهم ويحسبون الأخذ بالاشق هو الأحوط ، مع أن رسول الله ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وقال : « خذوا من الأعمال بما تطيقون » . وقال : « يسرا ولا تعسرا » ، فمن ذلك أن بعض أئمة المسلمين ذهب إلى أن رمي الجمرات في يومى الرمي يجوز قبل الزوال

(١) تردع على الجلد : أى تترك أثرا فيه .

وبعده وفي هذه التوسعة تخفيف للزحام ورحمة بالناس ، وبأي أكثر الحجاج إلا التزام الرمي بعد الزوال ، ومن ذلك أن بعض أئمة المسلمين ذهب إلى أن الحصى يجمع من أى مكان ، فبأي كثير من الحجاج إلا أن يجمعوه من المزدلفة ومنهم من يعانى في هذا جهداً كبيراً .

ومن ذلك التزام ذبح الهدى والأضحية ، وإضاعة هذه الذبائح وأثمانها بغير فائدة ، وولاية الأمر هناك يبدلون جهداً شاقاً في دفن هذه الذبائح ، وفي وقاية الناس من عفونة جلودها ودمائها وصرورياتها . والله سبحانه أعذل وأحكم من أن يطلب من المسلم إضاعة ماله ، وهو سبحانه إنما يتقبل الصدقات ممن يصرفونها في مصارفها ، ويتنفعون بها في خير وجوه الارتفاع بها ، فما دامت لم تتخذ الوسائل للارتفاع بهذه الذبائح فالتصدق بالقيمة أنفع للفقراء ، وما أحوج الفقراء هناك الى مشروعات يدوم نفعها لهم ، لا إلى لحوم يتخمون بها يومين في كل عام ، ولاحظت أن كثيراً من الحجاج لا يفرقون بين ما فعله الرسول على أنه نسك من مناسك الحج ، وبين ما فعله اتفاقاً كما اقتضاه نظام سفره أو مقامه أو بواعث خاصة وقتية ، ولهذا لما نزل رسول الله بالأبطح عند النفر من الحج قال عبد الله ابن عباس إن هذا النزول كان اتفاقاً ، وليس من سنن الحج ولا من مناسكه . ولما رمل رسول الله في طوافه قال ابن عباس : إن الرمل في الطواف ليس من سنن الحج ولا من مناسكه ، وإنما كان إظهاراً للجلادة لما سمع الرسول قول المشركين في المسلمين : حطمتهم حتى يثرب .

وكلتى والختام ، أن الحاج لو غنى بالناحية الروحية والرياضة النفسية ، ولم يقف عند الشكليات والصور ، لكانت أيام هذه المناسك أياماً إلهية وشعر الحاج فيها أنه مع الملائكة ، وأن روحه صفت من ظلمة المادية . ولو أخذ بالأسر الأسهل وكفى نفسه عنا المشقات والمتاعب ما أمكن ؛ لاستراح من الضجر والآم ، وخلص لعبادة الله في راحة بال واطمئنان خاطر ، وإذ ذاك تتحقق المصلحة الفردية للحاج ، ويعود مغفوراً ذنبه كيوم ولدته أمه ؟



# إلى الدين من جديد

لحضرة صاحب المعالي

السيد محمد رضا الشيبى

رئيس المجمع العلمى بالعراق

اقتبست غير دولة واحدة من الدول الاسلامية نظمها الحديثة للحكم من الدول الغربية ، فأصبح نظام الحكم فى بعض هذه الدول الشرقية ديمقراطيا ، وشكله نيابيا ، ووضعت فى كل بلد قواعد دستورية عامة لا معدى عنها فى الحكم ظاهرا ، ومع أن هذه الدساتير المتبعة فى بعض هذه البلاد الاسلامية تنص على أن الاسلام دين الدولة ، فان سياستها العملية سارت على قاعدة فصل الدين عن الدولة ، واقصائه عن المدرسة والمعاهد العلمية ، حاذية فى ذلك حذو كثير من الشعوب الأوروبية وفى مقدمتها فرنسا ، والواقع أن الفرق بعيد ، والبون شاسع بين الشرق والغرب من هذه الناحية ، فلما نودى فى فرنسا وفى غير فرنسا بفصل الدين عن الدولة فى العصر المعروف عندهم بعصر البعث ، أو عصر النهضة ، ولما اعتبر القوم فى الغرب أن الدين من جملة التضايا الشخصية ، أو هو رابطة خاصة تربط بين الخالق والمخلوق التفتت الشعوب الأوروبية حول رموز أخرى يعتزون بها كما يعتزون بالدين ، ومن ذلك رمز الوطن ، ورمز الجنس ، ومحاولين لإحلال العقائد السياسية أو القومية أو الوطنية محل العقائد الدينية .

على هذا الأساس بنى التعليم فى فرنسا ، وفى كثير من الدول الأوروبية ، وهو من جملة الأسس التى بنيت عليها الحضارة المادية الحديثة ، فهضمت أوروبا نهضة قوامها الصناعة الآلية والعلوم التجريبية ، وبذلك ارتفع مستوى الشعوب المشار إليها من حيث المعيشة ، وبذلك أيضا تم للغربيين السيطرة على العالم ، واستغلال الشعوب الشرقية الضعيفة .

من ذلك يتضح أن عبارة الدولة والوطن حلت محل الدين في بعض الدول الغربية فأردنا نحن أن نقلد الغربيين في ذلك ، وحاولنا فصل الدين عن الدولة ، وقاومنا التربية الروحية ، ولكنتنا لم نجد إلى الآن ما يحل محل الدين أو يغني غناء التهذيب الروحي ، أو يقوم مقامه ، ولم تنصب لنا رمزاً مادياً من تلك الرموز التي نصبها الغربيون ، فخرنا — أو أوشكنا أن نخسر — الاثنين معا .

لكل ثورة جاحدة حد تقف عنده ثم تعتلد وتتن ، ولكل نزوة طائشة غاية ثم تثوب إلى رشد ، وتراجع من غلوها وإفراطها ، نادمة على كثير مما فرط منها ، ولما ثارت أو ارتدت بعض هذه الدول الشرقية عن الدين حاذية حذو بعض الدول الغربية توقعنا أن تتدم يوماً من الأيام أو تعود إلى حظيرة الدين .

مرت بإخوان لنا في الجوار والعقيدة تجارب قاسية من هذا التميل ، وذلك في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وهي فترة لا تقل مدتها عن خمسة وعشرين عاماً ، وقد بلغت ثورتهم في هذه الفترة قمتها فألغيت الشريعة الإسلامية ، والعادات الشرقية ، وحظر التزي بالآزياء العلية ، والكتابة بالحروف العربية ، وأصبح شعارهم ( وداعاً أيها الشرق ) وهم يقصدون بذلك تجنب النظم والعادات والأخلاق المألوفة في الشرق واصطناع ما يخالفها في الغرب ، زاعمين أن تمسكهم بعقائدهم ، كان عاملاً من عوامل انحطاطهم ، وتخلفهم عن مجارة الشعوب الناهضة .

لعل الحرب الأخيرة وما أسفرت عنه من حقائق وعبر ، وما أملت على البشر من دروس ، وما أعقبها من انتشار القلق الروحي ، واستئصال الطمأنينة من النفوس غيرت آراء كثير من الناس في كثير من نظم الحياة المألوفة لدى الغربيين والشرقيين على حد سواء ، ولذلك نجد بعض هذه الشعوب الشرقية ، تخشى الانحلال بعد أن تبللت فيها الآراء ، وتغلغلت الفوضى ، وتسرب إلى شبابها التلق ومالت ناشئتها إلى الانغماس في الفساد ، وهذا الشعب الشرقي الذي تقصده شعب متدين وهو مدرب على الجندية ، وقد ألفت الخدمة في السلك العسكري ، وتعود احتمال ما فيه من تقشف وخشونة ، فلا غرو أن يشق عليه مروق كثير من شبابه ، وتسكعهم

في دياجير التقليد ، ولا عجب إذا أنكر من أنكر منهم ، انحلال العقائد والاحاد ولو بعد حين .

إن سلطان الدين على ضمائر الناس لا يقاوم ، وأن الوازع الروحي لا يقوم مقامه وازع آخر في إصلاح النفوس وقدها عن الشر وتربيتها تربية قيمة .

لقد وضعت نظم اقتصادية واجتماعية واشتراكية ، قالوا : إنها تسعد البشر ، وتقذ الانسانية ، ثم اتضح أنها لم تهذب إلا مظاهر الانسان ولم تنفذ إلى ما وراء ذلك ، أما باطن الانسان ، فقد بقى فارغا ، لا يملؤه إلا وازع الدين ، ولا يسيطر عليه إلا العتيدة بوجود خالق حكيم ، ومن ذلك اتضح أن الوازع الظاهري أو المادى الذى يتمثل فى سلطات الدولة من تشريعية وإجرائية وقضائية ، لا يتعدى تأثيره ظواهر البشر ، ولا يتصل بالبواطن والسرائر ، وهيات أن يسد مسد الوازع الدينى فى الانسان .

وثبت البشرية وثبتها المعروفة ، وتقدمت الى الأمام فى العصور التى سارت فيها على هدى الشريعة الاسلامية ، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وتمتعت فى العصور المذكورة بقسط لا يستهان به من السعادة والطمأنينة ، لم يحلم به فى عصورنا الحديثة عصور النظم الديمقراطية والاشتراكية ؛ ومن ذلك يتضح أن الاسلام شريعة خالدة ، غير قابلة للنسخ كما قال مشرعها عليه أفضل الصلاة والسلام . وأن الباطل لا يأتينا من بين يديها ولا من خلفها قط .

لا شك أن العقيدة الاسلامية منيت بالمروق والعقوق من قبل كثير من أنبائها ، وقد كثر سواد المفتونين والمقلدين من أنبائها ، وزاغوا عن الاسلام ، بيد أن هؤلاء المقلدين والمفتونين لا يلبثون بعد ما مرت بنا من العبر فى الزمن الأخير أن يرجعوا إلى حظيرة الدين نادمين منيبين إلى الله . والخلاصة : أنه سيقب الاسلام عاملا فعالا فى حياة البشر يعمل على جعلها مثلا أعلى فى السمو والشرف والكمال . وصلى الله على سيدنا محمد المرسل بهذه الشريعة الغراء صلاة نامية فى شهر مولده وفى كل شهر وعام .

# لا خلاف في الدين الحق

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

شرع الله الإسلام لرفع الخلاف الذى وقع بين الناس فى العقائد ، لأن التدين فطرى فى النفس البشرية ، وموجد الوجود الذى يتوجه إليه الإنسان بالعبادة والإخبات ، لا حذله ، ولا تستطيع أقوى العقول البشرية أن تصل إلى كنهه ، فكيف يعقل أن تختلف فيه ؟ وقد عبد الخالق على هذه الحالة أحقاباً طويلة . فقد أثبت الأستاذ الكبير ( ماكس مولر ) الألمانى فى كتابه الجليل ( أصل الدين وارتقاؤه ) ، بالنصوص الدينية الهندية أن الإنسان أول ما عبد سجد للخالق وحده ، وأما هذه الأوثان والأنصاب فلم يست إلا بنات الخيال ، استدعتها محبة الإنسان للبس كل ما يشعر به فى نفسه ، قال ماكس مولر : ( إن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلاً طرأ على الإنسان بعد تلك الحالة الفطرية . وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام الله الحق حتى قبل أن يجرؤا على الإشارة إليه باسمه ) .

ثم استرسل هذا المؤلف فى البيان فقرّر بأن أصل الأديان كلها واحد ، وما كان سبب تحالفها إلا ما أحدثته النزعات الإنسانية ، والآهواء النفسانية ، من الميل للتحديد والتقييد والحصر . وهذا هو ما نزل به القرآن المجيد حرفاً بحرف . قال الله تعالى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . »

أى أن الناس كانوا أمة واحدة « فاختلفوا » فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين ليهدهم إلى وجوه رفع الخلاف ، لأن الحق لا يبحر الخلاف فيه .

وقد شدد الله في الزجر عن الخلاف في الدين لأن تفرق الكلمة فيه يؤدي إلى شر ضروب الانقسام بين الجماعات ، وولد أنكأ الضغائن بينها ، وقد عرف أن أغول الحروب غوًلاً ، وأهولها هولاً ، كانت في جميع أدوار التاريخ الحروب الدينية . وقد أصاب المسلمين نصيب منها في القرن الأول من جراء تفرق الكلمة على الخلافة ، كان أثرها في وقف الفتوحات الإسلامية ملحوظاً ، على أنها كانت ذات طابع سياسى ، ولكنها سرعان ما تطورت إلى خلاف دينى للعلاقة الأكيدة بين السياسة والديانة في الإسلام ، ودخلت في تطورات شتى لم تنته إلا وللمسلمين ثلاث وسبعون فرقة ، ولولا أن الله حمى هذا الدين ، لما بلغ المسلمون في النواحي العلمية والعملية ، وفي بناء صرح المدنية في القرون الستة التي تلت وجوده ، إلى مثل ما بلغه مما يذكره مؤرخو الأجانب مقرونًا بالاعجاب والدهش من حكمة الديانة الإسلامية .

وبعد أن أصاب الدولة الإسلامية الضعف ، وأذهبت طيباتها الفتن ، اقتسمت بلادها بعض هذه المذاهب ، فاستقل كل فريق في قطر وأخذ يعمل على شاكلته ، وبقى خيال من كلبة جامعة لخلافة بغداد تشاركها فيها خلافة في الأندلس ، وأخرى في مصر ، وغيرها في غيرها مما حدا بشاعر ذلك الزمان أن يقول :

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر

من العجب العاجب أن يقع خلاف بين المسلمين ، لا لأن الله سبحانه وتعالى نهى عنه وشدد في النهى لحسب ، ولكن لأن أصول الإسلام جلية بيّنة لا تقبل التشكيكات ، وقواعده قاطعة مانعة لا مجال معها لتعدد الاحتمالات . وقد أفرغت في صورة لغوية بلغت من ضبط المعاني ، وتحديد المفاهيم ، حدّاً لا يصادف في كلام أبلغ البلاء . فان شوهد من الناس من يتوسع في استخراج معان مختلفة من ألفاظ معينة ، فانه إنما يفعل ذلك على حساب نفسه لا على حساب الآيات

التي بين يديه ، وقد وصف الله كلامه بالبينات في مواطن كثيرة ، تقرر أن الأذهان أنها لا تحمل اللبس وتدل على مقاصدها دون معاناة ولا كد ، وكرر هذا الوصف لكلامه نحو ستين مرة في كتابه الكريم كقوله تعالى : « فيه آيات بينات ، و « بل هو آيات بينات ، و « أنزلنا إليك آيات بينات ، الخ ، تنبيهاً على أن الأزم ما يلزم الكلام الإلهي فهمه على وجهه الصحيح ، لا على وجه يساور أهواء النفوس وبنات الخيال ، وهو ما تندفع النفوس الساذجة إليه تطلعا لتتور بعض الأسرار العلوية من خلال الألفاظ ، وفضول العبارات . وهو الأمر الذي أفسد جميع الأديان ، وأمكن رؤساء المذاهب من تضليل العقول ، وتسخير أصحابها لخدمة أهوائهم .

لم يكف الإسلام بما كرره من وجوب الوقوف مع مدلولات الألفاظ في الحد المسموح به ، ولكنه سند ذلك بتحفظ آخر أدل على ما يريده من كل ماسبق وذلك أنه لما أطلق القرآن الكريم على عيسى عليه السلام أنه روح منه في قوله تعالى : « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، قال النصارى يكفيننا ذلك توهمنا منهم أن إطلاق كلمة روح الله على عيسى تدل على بنوته له ، فأنزل الله في دفع هذا الضرب من التأويل قولاً فصلاً لا عذر لمتقول على الدين بعده . قال تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراشخون في العلم يقولون آمنا به . كل من عند ربنا . وما يذكر إلا أولوا الألباب . .

بهذه الآية ، أوصد الله آخر باب لتأويل آيات القرآن الكريم وألفاظه وفقاً لما تتطلبه الأهواء ، أو لتأييد بعض الآراء ، والمتأمل في كل هذه التحفظات ، يرى إلى أي مدى وصل تشديد الكتاب الكريم على أهله في لزوم الحرفية في الدين . وإن ديناً هذا شأنه كان يجب أن لا توجد فيه فرق يخالف بعضها بعضاً ، ولكن الطبيعة البشرية تغلب على جميع الحوائل الأدبية والمادية ، وتظهر

وجودها قوية متشددة ، ولكن لا يفين عنك أنها في الاسلام لم تستطع أن تغلب على الحقائق الرئيسية ، وهي ميزة لهذا الدين صان الله بها كيانه سليما من آثار التقلبات إلى اليوم .

ومن ناحية أخرى نرى أن جذوة الحماسة الدينية التي كانت تحفز هذه الفرق للتنازع ، وتربص الدوائر بعضها ببعض ، قد خفت اليوم وطأتها إلى درجة تكاد لا تحرك فيها ساكنا ، وهذه البقية المتخلفة تكفل لإزالتها الثقافة العصرية التي عمت الخافقين ، وقربت العقول والقلوب بعضها لبعض . وقد لا ينقض جيلان أو ثلاثة حتى تزول الحدود الفاصلة بين هذه الفرق ، لاشتغال العقول بما هو أبعد منها أثرا في تكييف الشخصية ، وهو العلم ، العلم الذي يجب أن تتألب جميع العقول البشرية لدفع خطره عن العقول الشرقية . ولست في حاجة لأن أبين أن للعلم خطرا ، وهذا الخطر مائل أمام أعيننا في جميع البلاد على السواء ، فلو وقفنا الله لصيانة الإسلام منه نكون قد أدينا للأخلاف خدمة سوف يذكرونها مقرونة بالثناء والدعاء .

من حكم بُرُزُ جَمِهر الفارسي :

\* نصحنى النصحاء ، ووعظنى الوعاظ شفقة ونصيحة وتأديبا ، فلم يعظنى أحد مثل شيبي ، ولا نصحنى مثل فكرى . وملكت الأحرار والعبيد ، فلم يملكنى أحد ولا قهرنى غير هواى .

\* إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض ! .

\* وسبئل : ما المروءة ؟ فقال : ترك ما يعنى . قيل : فما الحزم ؟ قال : انتهاز الفرصة . قيل : فما الحلم ؟ قال : العفو عند المقدرة ، قيل : فما الشدة ؟ قال : ملك الغضب . قيل : فما الحرق ؟ قال حبُّ مُفرط ، وبغض مُفرط .

# الفقه والفقهاء في مصر

على عهد الممالك

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ

الشيخ عبد العزيز المراغي

الإمام الخاص للحضرة الملكية

قد يبدو للقارى غريباً بادی الرأي أن تكون ثمة صلة بين الفقه الإسلامی فی تطوره وحالة البلد الاجتماعیة ، فلفقه الإسلامی طریقه الخاصة فی التطور وفى التطبيق ، وله معینة الخاص الذى یفیض منه ، وتخرج منه فروعہ ضیقة أو اتساعاً ، وقبضاً أو بسطاً ، حسب ما یعن لكل فقیه مجتهد على ضوء القواعد الاصولیة التى ارتضاها جمهرة العلماء فیصلاً فی قواعد التفریع واستنباط الأحكام الفرعیة .

نعم إن الفقه الإسلامی قد اتخذ شكلاً خاصاً عندما اتسعت رقعة الامبراطوریة الإسلامیة ، وأظل الخفاق من رایاتها أمماً لها نظامها الخاص وطابعها الخاص مما استدعى فی أكثر الأحایین أن تبقی تلك النظم وهذه الطوائع ما دامت لا تؤثر على الروح العامة للتشریع ، أو بعبارة أوضح ، ما دامت لا تصدم القواعد العامة للتشریع . وحسبك أن تقرأ أى كتاب ذكرت فیہ آراء الخلفاء الذین تمت تلك الفتوحات فی عہدہم ، فتجد من تلك الآراء ومن آراء من تعتد برأیہم ما یقنعك بصدق تلك التفضیة التى أسلفناها وما كانوا یرون فی ذلك غضاضة ، فالذین یجب أن یکون للكل ، والشریعة یجب أن تكون سمحة ميسرة للكل ، وظل الحال كذلك حتى جاء دور التدوین ودور الاجتهادات المذهبیة ، فتلورت هذه المجموعة الفقهیة الأولى الواسعة فیما عرف بعد باسم مذاهب الفقه الإسلامیة ، من الأربعة المعروفة وغیرها ، مما مضبط وجه الرأى فیہ ونقل نقلاً صحیحاً ، وكان بمن یعتقد



بقائه في الإجماع وظل الحال على ذلك أيضاً — ولكن على شيء من الضيق — شيئاً فشيئاً حتى اكتسحت العالم الاسلامي موجة المغول التي قضت على تلك الامبراطورية وأتت بانيانها من القواعد .

وفي الحق لم يكن مجيء المغول ليعني قيام دولة وذهاب أخرى فحسب ، ولكنه كان في الواقع صراعاً بين نوعين من التفكير لم يعهد لهما اجتماع ولا تقارب من قبل ، فللمغول قانونهم ، ولهم نظامهم ، ولهم شريعتهم ، إلى غير ذلك مما لا يزيد الاطالة فيه فرجعه كتب التاريخ التي عنيت بهذه الناحية ، وللبلدين أيضاً طرائقهم في التفكير ، وشريعتهم ، وستهم ، وقههم ، ولكن مجيء المغول قد غنى من الناحية السياسية أن ينقل عبء الدفاع عن الاسلام وتقاليده وميراثه إلى مصر . ذلك أنه لم يكن ثمة في أي بلد من البلاد الاسلامية — وقد نخر في عظامها جميعاً السوس — دولة أو دويلة أو إقليم ينهض للقيام بهذا العبء غير مصر فكان من الطبيعي أن يولى العالم الاسلامي وجهه شطرها لتقف سداً ضد ذلك السيل الجارف الذي لم يُبق في طريقه علماً ، ولم يقف في طريق جبروته سلطان ، بل اكتسح كل ما كان لهذه الدول الضعيفة من أثر وحاول أن يعنى على رقبها ومدنيتها ، ولم يكذب المهالكُ أو لم تكذب مصرُ ما رجاء العالم وما شامه فيها من مخايل فاضطلعوا بالعبء صابرين . وأدوا رسالة الاسلام أمام ذلك السيل الجارف ، واستطاعت مصر بعد بغداد ومكة والحجاز أن تحمل مشعل الثقافة الاسلامية في شتى نواحيها ، وكان من الطبيعي أن يتلو ذلك ارتحال الجمهرة الفقيرة من العلماء إلى مصر ليعيشوا في كنف هذه الدولة التي أبلت البلاء الحسن في الدفاع عن الاسلام وكان منهم المحدثون والمفسرون واللعويون والنسابون والأطباء والأخباريون وكان منهم بعد هذا وقبل هذا الفقهاء . ويحسن أن ننبه القارئ إلى أننا حين نتكلم على مصر يحسن أن يطبق القول على الشام والأقاليم التي دانت بالخضوع للمهالك واستظلوا بسلاطنتهم .

تلك كلمة عابرة قدمناها بين يدي الموضوع ليكون القارئ على علم بمقدمات هذه الظروف التي سنعرض لها وتحدث على ضوئها عن الفقه والفقهاء .

كان المماليك في مصر أو غالييتهم قد جلبوا إلى مصر من الجيش التركي أو الشركسي وإن كان ثمت فيهم مماليك من أجناس أخرى ، وتطور بهم الأمر حتى استولوا على زمام الأمر في مصر بعد عهد الدولة الأيوبية على يد الملك المعز عام ٦٤٨ هـ ، وظلوا يتمضون على سلطانها حتى عام ٩٢٣ هـ ، وكان هؤلاء المماليك تربية خاصة ، وثقافة مُقدّت على غرار النظام الإقطاعي الذي كان سائدًا في البلاد التركية التي نزحوا منها ، وهو الذي ساد العالم كله في القرون الوسطى ، ولكن النظام الذي اتبعوه كان فذا في التاريخ ، فلا هو ملكية وراثية مطلقة أو ممتدة ، ولا جمهورية شورية ، وكانوا طبقة تتجدد بما يفد على مصر من الخارج ، وهم مع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة متميزة من الشعب ، وليس للشعب مظهر لإرادته اللهم إلا اشتراك القضاة في حفلة تصيب السلطان .

وهم — على هذا الاعتبار — كانوا يرون لأنفسهم من الحق ما ليس للشعب وأنهم — إلا قليلا منهم — وإن كانوا مسلمين ، فيجب أن يسرى عليهم نظام خاص هو النظام الذي ألفوه في البلاد التي رحلوا منها ، والذي ساد العالم بعد موجة التتار ، ذلك هو نظام ( الياسا ) أو الياسق كما يسميها ابن بطوطة في رحلته . وتلك ( الياسا ) هي شريعة جنكيزخان التي كانت محفوظة في الألواح ، والتي كانت تظهر عند كل مناسبة في تولية خاناتهم وأمرائهم ، وقد كتب المستشرقون كثيرا عن هذه ( الياسا ) ولكننا سندع المقريري يتكلم عنها حتى نعرف السر في ثورة الفقهاء على نظامها في عهد المماليك . قال في الخطط في ذكر أحكام الياسا : « وكان جنكيزخان قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه « ياسا » ونقشه في صفايح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتموه بعده ، وكان جنكيزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض ، فصار « الياسا » حكما يتاقي في أعماقه لا يخرجون عن شيء من حكمه ، ومن جملة ما شرعه جنكيزخان في الياسا أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحسن وغير المحسن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة نخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة ،

ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنه قتل ، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل ، وأن الحيوان تكثف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين قتل ، إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد حرف أهل مصر كلمة ياسا إلى سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام ، فصارت السياسة ، ثم قال : وكأوا — يعنى الممالك — إنما ربوا بدار الإسلام ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضمو الجيد إلى الردى ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية ، واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان ، والاعتداء بحكم الياسا ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويمهم ، وإنصاف الضعيف منهم على مقتضى ما فى الياسا وجعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديون وقواعد الحساب ، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ليصير لهم ذلك سبيلاً إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه ، وكان مع ذلك الحاجب يحتاج إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور ، هذا وستر الحياء يومئذ مسدول ، وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهيب ، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق ولا يخرج عن قضية الحياء ، إن لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل : ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه ، وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس حتى فعل من شاء ما شاء ، وتعدى - منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانائة - الحجاب ، وهتكوا الحرمه ، وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى ، وتسلاطوا على الاس « هذه عبارة المقرئى نقلناها على طولها لأسباب .

- أولاًها : أنها تمثل الصراع الذى كان بين طبقة الممالك وطبقات الشعب .
- ثانيها : أنها تمثل نوع القانون الذى كانوا يحتكمون إليه ، والذى أثار المتمسكين بالدين من الفقهاء والشعب .
- ثالثها : رد الفعل الذى أنتجه تمسك الممالك بهذا النظام المقوت .

ولإنما عيننا يبحث موقف الفقه والفقهاء فى عهد الممالك لأن عهدهم كان العهد الذى ألفت فيه جبهة الكتب التى بين أيدينا من كتب الفقه ، والتى نرجع إليها فى استفتاءاتنا فى شتى المذاهب ، والذى تركزت فيه الآراء الفقهية فى المعاملات بوجه خاص نتيجة لتلاقى الفقه الإسلامى مع شريعة الياسا ، ومع النظم الأوروبية التى وردت على مصر عن طريق الحروب الصليبية ، وعن طريق تجارة أوروبا فى ذلك العهد ، مما اضطر معه الفقهاء أن يحددوا موقفهم منها ، ويبينوا نظرات الشريعة الى تلك المعاملات وهذه النظم .

وما من شك فى أن النظام الإقطاعى الذى ساد مصر فى ذلك العهد كان له أثره البين على الفقه الإسلامى فى جميع مذاهبه ، وخاصة فى مذهب أبى حنيفة فى باب الإجارة وكتاب الوقف وشروطه ونظرية التعدى والغصب ، وما عرف فى فروع الوقف من مسائل الخلو ، وقد حدث فى هذا العصر التركى ألفاظ لم يكن فى الواقع لأغلب الفقهاء ألف بها من قبل ، مثل لفظ : الكرواد ، ومشد المسكة ، والجامكية والحكرة ، والتمارى ، والسباهى . الى آخر تلك الألفاظ التى يعلمها من راجع كتب المتأخرين من الحنفية متونهم وفتاواهم ، والتى كانت نتيجة لذلك النظام التركى الإقطاعى ، وإنك لا تكاد تجد هذه الألفاظ إلا فى بعض كتب الحنفية التى ألفها من يعلمون شيئاً عن مثل هذا النظام ، ولكنها فى ذلك العصر تعدت الحنفية إلى جميع المذاهب ، وإن كانت قد ذكرت بأسماء مختلفة ، وما من شك فى أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد وقفوا موقفاً محموداً يشكرون عليه احتساباً لله عز وجل ، وكان من آثار موقفهم هذا إيجاد شئ من التوازن الاجتماعى الذى وقف دون تبديد ثروة البلد بالقدر الممكن ، ودون تركيزها جميعها فى أيدي الممالك ، وكان

لقتاواهم في أرض الاقطاع من حيث جواز إيجارها أو وقفها أو بيعها أثر بالغ في كبح جماح الممالك ، وما كانوا ينتوونه في هذه الناحية ، وهم كانوا في الوقع أداة عاطلة من حيث الإنتاج ، وكل ما كان في مكنهم هو الاستيلاء على الأراضي بإذن السلطان على النظام الذي كان سائداً ، والذي شرحه صاحب صبح الأعشى ، وصاحب كتاب قوانين الدواوين والتحفة السنية في الأراضي المصرية ، ثم يدفعون الأرض للملتزم وللتيماري ، وفي ثانياً هذا الالتزام كم كان يرتكب من مظالم وتعسفات ، وقد نص الحنفية على أن أغلب أوقاف الممالك إقطاعات يجعلونها مشترأة صورة من بيت المال وهي ليست وقفاً حقيقة بل هي إرصاد ، وكان للإمام النووي ، وللعز بن عبد السلام مواقف مشهورة يجلب لهم في التاريخ صفحات من الفخار وقفوا فيها من الأمراء موافق ظاهرهم فيها العامة فاستطاعوا أن يوقفوا العدوان عند الغاية التي لا تضر بالثروة العامة ، ولا تحمل على الطبقة الفقيرة أثقالاً فوق ما كان ظهرها ينوء به من أثقال ، وهم كما أسلفنا ما كانوا يعتبرون هذا الاقطاع في الأراضي إقطاعاً صحيحاً يملك كما كان يظن الممالك ، وإنما هو نوع من الإجارة ، والأرض لا تزال لبيت المال ، وقد ذكر الإمام السيوطي في رسالة القل المستور في قبض المعلوم من غير حضور ، إفتاء جميع علماء عصره بذلك ، ورتبوا على ذلك آثاراً كثيرة يمكن مراجعتها في كتاب : تنقيح الحامدية في كتاب الوقف .

وما من شك في أن هذا النظام الاقطاعي الذي كان يلزم المقطع بتقديم نوع خاص من الخدمة والذي كان من أجله يلجأ للعسف والاضطهاد ترك في نفوس العائبات الفقيرة آثاراً بالغة ما كانوا يجذون مداواة لجرحها إلا على يد الفقهاء ، وقد كان لبعضهم منزلة ممتازة خضع لها سلاطين الممالك كما كان من شأن عز الدين ابن عبد السلام مع برقوق ، وكان بعض الفقهاء يلجأ أحياناً إلى أن يكون قاضياً عرفياً يسرى حكمه على المتخاصمين ، وقد ذكر ذلك السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة عز الدين الحنبلي ، إذ قال في سياقها ما نصه : « وصار يقضى فيما يقصد به في بيته نجائاً ثم تركه جملة » .

وما من شك أيضاً في أن ذلك النوع من العناد من ناحية الفقهاء قد ترك أثره .  
 في نفوس سلاطين المماليك وأمرائهم فبدل أن يكون قضاؤهم قاصراً على ما يقوم  
 به الحاجب من الفصل في الخصومات المدنية التي تقع بين الجنود المماليك فحسب  
 على ما في الياسا بدءوا يتدخلون في النظر في الديون بين أفراد الشعب والفصل  
 فيها وكان أول قضاء الحجاب بما في السياسة من الأحكام عام ٧٥٣ هـ عهد  
 الملك صالح بن محمد بن قلاوون إذ رسم للأمير سيف الدين جرجي الحاجب  
 أن يتحدث في أرباب الديوان ويفصل بينهم وبين غرمائهم وكان هذا من اختصاص  
 قضاة الشرع وكان سبب ذلك أن تجاراً من العجم شكوا إلى السلطان بدار العدل  
 أنهم ما خرجوا من ديارهم إلا لكثرة ما ظلمهم التار وجاروا عليهم ، وأن التجار  
 بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع وأكلوا أثمانها ، فأثبتوا أمام القاضي الحنفى  
 إعسارهم وأودعوا سجنه وقد أفلس بعضهم ولم يستفيدواهم من وراء سجنهم شيئاً  
 فرسم السلطان للأمير سيف الدين أن يخرج هؤلاء الغرما من السجن وأن يعمل  
 على استخلاص الديون منهم وأنكر السلطان على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله  
 الترمكاني الحنفى ما عمله ومنع من التحدث في أمر التجار والمدائبات فأخرج الحاجب  
 غرما التجار من السجن وعاقبهم حتى أخذ التجار أموالهم منهم شيئاً بعد شيء .  
 قال المقرئى : وتمكن الحجاب حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا .

تأمل هذه العبارة الأخيرة لترى ميدان الصراع بين الطبقة الأرستقراطية  
 المسالطة يومذاك والطبقة المستضعفة ، التي ما كانت لتجد لها نصيراً إلا في رجال  
 الشرع والمشرعين ليصدروا لهم من الأحكام ما يوافق دين الله ، والمماليك ولوائهم  
 كانوا لا يعبثون بهذه الأحكام إلا في الوقت الذى تظهر فيه سطوة الفقهاء فإنهم  
 كانوا في كثير من الأحيان يجمعون عما قدموا عليه خوفاً من النورات في البلد ،  
 وخوفاً من تعطل مصالحهم في إقطاعاتهم التي كان يقوم عليها كيانهم السياسى .

وبعد فإن كان للمماليك فضل الوقوف في وجه المغول فقد كان لهم — رغم  
 تلك المعاييب السالفة — فضل كثير من أماكن البر والعبادة كالمساجد والمدارس

التي كان لها فضل نقل هذه النورة العلمية الضخمة لنا من فقه وحديث وتفسير إلى غير ذلك وفوق هذا فضل تلك المصارعات الاجتماعية التي نهت أذهان الفقهاء لابتكار هذه الفتاوى الضخمة وتلك النصوص المتعددة وتلك الحلول التي لا يحدها حصر لهذه المشاكل التي واجهت الشعب وواجهتهم هم أيضاً . وبالتالي فضل وجود هذه الكتب التي لا زلنا نرشف من معينها ونعدها ثروة جديرة بالعناية ولعل لنا رجعة لنفصل هذه الكلمة المحملة عن الفقه في ذلك العهد بتفصيل ذلك المجمل وذكر شواهد وفروع كثيرة من آثار ذلك التفاعل الفقهي الذي كان نتيجة لذلك التفاعل الاجتماعي .

### أجعله حيث شئت

يروى أن يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج دخل على سليمان بن عبد الملك فآذراه ونبت عنه عينه (١) ، فقال : ما رأيت عيني كالיום قط ، لعن الله امرأ أجرك رسنه وحكمك في أمره . فقال : يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فإنك رأيتني والأمر عني مدبر وعليك مقبل ، فلو رأيتني والأمر على مقبل وعنك مدبر لاستعظمت مني ما استصغرت ، واستكثرت ما استقللت . قال : عزمت عليك يا بن أبي مسلم لتخبرني عن الحجاج ؛ أترأه يهوى في جهنم أم قد قر فيها ؟ فقال يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا في الحجاج وقد بذل لكم النصيحة وأتمن دولتكم وأخاف عدوكم وكأني به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك ويسار أخيك ، فاجعله حيث شئت . فقال سليمان : وقد التفت إلى جلسائه : قاتله الله ! ما أحسن بديهته وترفيهه لنفسه ولصاحبه ! وقد أحسن المكافأة في الصنيعة . خلوا عنه .

(١) نبا بصره عن الشيء : تحافى عنه كراهية له .

# مستقبل البشر بقسائم نواة الذرة

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون  
ومراقب مصلحة النقل

الدكتور محمد محمود غالى عالم مصرى كبير ، تعرف الدوائر العلمية فى أوروبا وفى الشرق قدره ، وهو من أوائل العلماء المصريين الذين تبجوا بحوث الذرة ، واشتركوا فى بعض تجاربها فى السوربون بباريس ، وكانت رسالته العلمية الثانية عن « الأشعة الكونية » ذات صلة وثيقة بهذه البحوث ، وهو يقنى مكتبة قيمة عن الذرة تحوى الكثير مما كتب عنها قبل الحرب وبعدها ، وقد فرغ منذ قريب من إعداد كتاب عنها باللغة العربية . وها هو ذا نعدنا فى هذه الصنحات فيما يشغل بال العالم أجمع فى هذه الآونة الدقيقة من تاريخ البشر .

وسيرى قراؤنا - إن شاء الله - كثيراً من بحوثه العلمية على صفحات هذه المجلة .  
[ المحرر ]

فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ وبعد إشعاع القنبنتين الذريتين كما سماها الناس فى هيروشىما وناكازاكي ، طلب إلى الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربى ، أن أكتب فى أول عدد لمجلة الكاتب المصرى التى كان يرأس تحريرها مقالا عن الذرة والقنبلة الذرية ، ولم تكن قد صدرت فى ذلك الوقت هذه المجموعة الكبيرة من الكتب والبحوث التى غمرت العالم منذ ذلك الحين عن الذرة ، والتى طالعنا ما يزيد عن مائة كتاب وبحث فيها .

وفى ذلك المقال الذى نشرته فى أول أكتوبر سنة ١٩٤٥ حاولت أن يفهم القارئ كيف يمكن أن يحصل الإنسان على طاقة فوق الوصف من جزء يسير



من المادة ، وقد اعتقدت في متالى أنه عند تحقيق القنبلة الذرية لا بد أن يكون هناك تسلل من جسيم صغير أسماء العلماء « النترون » إلى النواة ، فتسبب عن دخوله خروج طاقة عظيمة من المادة على نحو لم يعهده البشر .

والحق أنى عند ما أعيد مطالعة مقال المتقدم أشعر بما للبرعة الصحيحة ، وطول المطالعة من أثر في التعرف ما أمكن على ما نجمله ، ففي سنة ١٩٤٥ لم أكن قد طالعت بعد نشرة « أوتوهان » الألمانى ، صاحب انفلاق نواة الذرة ، والتي نشرت في يناير سنة ١٩٣٩ ، ولم أكن قد طالعت ما تبعها من بحوث قيمة نشرت خلال الحرب ، بل كان آخر ما طالعت في هذا الشأن كتباً علمية صدرت للعالم . « لويس دى بروى » ولشقيقه « موريس دى بروى » العالم المعروف ولغيرهما ، بمعنى أن معارفى وقفت عند سنة ١٩٣٨

وتطورت الدنيا في أوروبا ونحن في غفلة من الزمن ، وجاءت الشهور التي سبقت الحرب شهورا خصبة للعلم والمعرفة ، خطرة على الإنسان والمستقبل ، وإذا أعمال خالدة « لأوتوهان » عن انفلاق نواة الذرة ، وإذا أخرى خالدة « لايرين كورى كريمة مدام كورى » عن التعرف على متطوعة جدد من بين جسيمات المادة لإحداث عمليات انفلاق أخرى لا دخل لعمل الإنسان فيها تحدث من تلقاء ذاتها على أثر حدوث أول انفلاق وهو ما يسمونه اليوم بالسلسلة ، وهو ما سأحاول أن أشرحه في هذا المقال .

واليوم ونحن في مستهل عام ١٩٤٩ . تطلب إلى نخلة « رسالة الإسلام » أن أكتب مقالا عن مستقبل البشر بعد انفلاق نواة الذرة .

ولئن سعدت في الحالين فلأن رجال الأدب ورجال الإسلام قد شعروا معا بتقدم العلوم ، وما سيكون لهذا التقدم من أثر على حياتنا الحاضرة والمستقبلية ، وأنهم يودون مخلصين أن يتعرفوا ويتعرف قراؤهم من سطور المشتغلين بالعلوم حقيقة هذا الكون ، ويتبينوا علاقته بالإنسان .

وإني ألبى خلاصاً هذه الدعوة الكريمة لكتابة هذا المقال ، وهأنذا أقدم هذه الصفحات لأبين للقارىء ما أعتقد أن ستحدثه نواة الذرة في مستقبلنا القريب أو البعيد ، ولا بد لي للوصول إلى هذه الغاية أن أشرح للقارىء بشيء من الإيجاز : ما الذرة ؟ وما قدرها ؟ وما نواتها ؟ وما خطرها ؟ ولماذا انفطنت هذه النواة ؟ وما السر في خروج طاقة خطيرة منها ؟ .

ولئن ظفرت بعدد من القراء يرتاحون لقراءة مثل هذا المقال ، الذى أحاول جاهداً أن أجعله مبسطاً ، من بين المتشوقين لمطالعة هذه المجلة الرفيعة التى تعنى فى الدرجة الأولى بالناحية الإسلامية ، وتعنى قبل الذرة ونواتها بعلاقة المسلمين بعضهم ببعض ، وتعنى بما هو محجب إلى النفس من تاريخ الإسلام ومستقبل المسلمين ، إني أكون قد سعدت بالشئ الكثير مما أرجو ، ولعل مقالى هذا يصادف هوى من هؤلاء الذين وهم يتطلعون للدين يؤملون فى فكرة سامية هى من وحي الأديان - فكرة السلام والأخاء بين البشر .

ولعل من ينعم النظر فيما أكتبه اليوم ويحاول تفهمه يشعر بالعبء الفادح علينا كآدميين بات من واجهم المحافظة على كياناتهم كجنس عاش إلى الآن أحقاباً طويلة ، وذلك بالتوجه إلى المثل العليا ومحاولة معرفة ما يحيط بجنسنا البشرى من أخطار أو ما ينتظره من سعادة .

إن فهم ما يحيط بنا من مادة وإمكانات أثرها علينا أو أثرنا عليها من الموضوعات التى أعتقد ضرورة معرفتها لكل إنسان كائن على وجه الأرض .

فليكن مقالى إذن رسالة للمعرفة والسلام يصدر فى أول عدد لرسالة الإسلام . وأنه ليسرنى أن يطالع سطورى عدد كبير من طلاب المعرفة ومن الطلبة والأصدقاء الذين صادفهم فى البلاد الإسلامية ، ومنهم من يتم ثقافته فى الوقت الحاضر فى أمريكا أو أوروبا ، ومنهم من لا يزال على ضفاف النيل أو الدجلة فى الجامعة المصرية أو فى دار المعلمين العالية ببغداد ، ومنهم من تخرج ويقوم بالتدريس فى الجامعة أو فى مدارسنا هنا وهناك ، ومنهم من طالعت له

متملات قيمة عن الذرة ، كذلك المقال الذى نشره الأستاذ محمد كاشف الغطاء في مجلة المعلم الجديد التى تصدر في بغداد ، لهؤلاء جميعاً أبعث بخالص تحياتي وأشكر مجلة «رسالة الإسلام» التى أتاحت لى هذه الفرصة فى الاتصال بأبناء العروبة والإسلام .

\* \* \*

ستحدث القوى النووية - لا الذرية كما أفضل تسميتها - انقلاباً عظيماً وسريعاً في حياة البشر ، انقلاباً لم يتوقعه العلماء بهذه العظمة وهذه السرعة ، ولا يمكن للفرد العادى أن يتصوره في سهولة .

ولفهم مصدر هذه القوى فهماً مبسطاً يجب أن نعرف أن الذرة وهى أصغر جزء في المادة يمكن فصله بالوسائل الكيميائية ، مكونة من نواة وسطى شمس ومن سيارات تدور حول نفسها وحول النواة ، كما تدور الأرض حول محورها وحول الشمس ، فالذرة إذن عالم شمسي صغير ، وهذا العالم من الصغر بحيث لو أمكننا أن نضع عشرة مليون ذرة الواحدة منها جوار الأخرى لبلغ طول المجموعة مليمترأ واحداً في الطول ، أما نواتها وهى شمسها الوسطى فهى من الضآلة بحيث لو أمكننا أن نضع مائة ألف نواة الواحدة منها بجوار الأخرى ، لبلغ طول مجموعها ذرة واحدة ، ومعنى ذلك وفي بعض الحالات أننا إذا استطعنا أن نحدد أوزنى بوسيلة ما طول جزء من الحيز مقداره واحد من المليون من المليمتر ، فإنه يلزمنا أن نضع مليون نواة الواحدة جوار الأخرى لكي نملأ هذا الطول المتناهي في الصغر .

فإذا علمت بعد هذا أن لهذه النواة على ضآلتها تركيباً معقداً ، فهى مكونة في كل العناصر الثقيلة من نوعين اثنين من الجسيمات ومن عدد عديد منها ، يبلغ ٢٣٨ جسيماً في مادة اليورانيوم مثلاً ؛ فلك أن تصدق وأنت تتأمل هذه الجسيمات داخل النواة الصغيرة أن لها قوانين تختلف جد الاختلاف عما اعتدناه من قوانين .

مثال لك : يختلف مجموع كتل هذه الجسيمات داخل النواة عن مجموع كتلتها

إذا تفرقت بمعنى أن هذه الجسيمات إذا خرجت من النواة نقص وزن مجموعها على حساب طاقة كبيرة تخرج للخارج .

إنما أود أن أصل مع القارئ إلى نتيجة صعبة : ذلك أن أشرح له إحدى الحالات التي تتحول المادة فيها إلى طاقة ، وأعود فأقول أننا إذا وضعنا عشرة قروش على كفة الميزان فإن مجموع وزنها يساوى مجموع وزن كل من هذه القروش مأخوذة على حدة ، ولكن إذا اعتبرنا الجسيمات المكونة للنواة فإن أمرها يختلف عن ذلك ، فمجموع كتلة هذه الجسيمات مجتمعة يختلف عن مجموع كتلتها متفرقة ، ذلك أنه من الميسور لنا وضع العشرة قروش فرادى أو مجتمعة في مكان ما ، بينما لا نستطيع أن نجتمع في سهولة مجموعة من جسيمات النواة على الشكل المجتمعة فيه بالنواة ، ويبدو أنه قد صرفت طاقة كبيرة لجمعها على هذه الصورة ، طاقة أخرجتها لنفسها لبقائها مجتمعة ، وهى الطاقة التي تخرج إذا استطعنا تفريقها ، وهذه الطاقة تعادل النقص المادى فى كتلة المجموعة بعد تشتيتها .

ويعتبر هذا فى نظر العلماء المحدثين انعدام جزء من المادة تحول إلى طاقة . من هنا نرى أن ما يقال عن عالمنا الكبير الذى نعيش فيه لا يقال عن هذا العالم الصغير عالم النواة وسكانها وكأنى بالدنيا طاقة ومادة موجودتان فى الحيز والزمان ، وكأنى بالمادة صورة متبلورة من صور الطاقة يمكن بعملية معينة أن تعود سيرتها الأولى .

\* \* \*

على أن أول من دل على طاقة تخرج من المادة على شكل جسيمات هاربة أو على شكل إشعاع هو : « بكارل ، ومدام « كورى » ، وتم ذلك فى معامل السوربون بباريس منذ نصف قرن ، فقد كشف بكارل الخواص المشعة لمادة اليورانيوم وكشفت كورى مادى البولونيوم والرادىوم .

ولم تمض بضع سنوات حتى بات معروفاً كنتيجة لنظرية النسبية لصاحبها « اينشتاين » ، العالم الألمانى المعروف الذى هاجر إلى جامعة برنستون بأمريكا ،

أن المادة إذا تحولت إلى طاقة كانت الطاقة التي نحصل عليها عظيمة جداً .

هذه الطاقة حصل عليها العلماء بانفلاق حدث في نواة الذرة ، ولعل أعظم ما حدث في العلوم بعد حادث بكارل وكورى هو ما حدث « لأوتوهان ، الألماني في يناير سنة ١٩٣٩ في معهد برلين أى قبل الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور عند ما انقسمت نواة الذرة في تجاربه إلى قسمين كبيرين وأقسام أصغر منهما : وقد حدث ذلك بضرب نواة اليورانيوم العالى بإحدى جسيمات النواة ( وهو نيوترون بطيء ) فقد حدث من دخول هذا الجسم أو هذا الجاسوس في النواة قسمتها وخروج طاقة عظيمة منها ، بل حدث ما هو أعظم من ذلك ، فقد دلت « مدام جوليو كورى ، وهى كريمة مدام كورى وبعد تجربة « أوتوهان ، بأيام قليلة على خروج ثلاثة جواسيس متطوعين من النواة المصابة ، وضربهم من تلقاء ذاتهم لثلاث نويات أخرى مجاورة تصاب في الحال وتخرج كل واحدة منها ثلاثة جواسيس جديدة ، وهكذا دواليك ، بحيث يصبح العمال المتطوعون لقسمة غيرها من النوى ثلاثة ثم تسعة ثم ٢٧ ثم ٨١ وهكذا بضرب كل عدد من المتطوعين الجدد في ثلاثة يزداد عدد المتطوعين وفق المتواليات الهندسية التي يدرسها الطلاب في صفوف الدراسة التي تصل في هذه الحالة التي نحن بصدها في كسر ضئيل من الثانية إلى بلايين البلايين من الضاربين المتطوعين ومثل هذا العدد من النوى المصاب ، وإذا لاحظنا أن الطاقة الكلية هي مجموع الطاقة التي تخرج من كل نواة فإن الطاقة النهائية من قطعة صغيرة من المادة عظيمة فوق الوصف .

ولقد كان التحول في القنابل النووية فجائياً وسريعاً ، فلم يحاولوا السيطرة عليه لاستخدامه في غير التدمير ، ومهمة العلماء الآن التحكم في هذه الطاقة وتحويلها لصالح الإنسان ، ولو أننا حاولنا أن نحسب ما نحصل عليه من تحول جرام واحد من الماء أو من أية مادة إلى طاقة بتطبيق معادلة التحول لاينشتاين لوجدنا أننا نحصل من هذا الجرام في حالة انعدامه انعداماً كلياً وتحوله إلى طاقة على أكثر من ٣٣ مليون حصان ، وبالتالي نحصل من لتر واحد من الماء على ألف مرة مثل المقدار المتقدم

أى على طاقة تفوق كل احتياجاتنا الصناعية والزراعية في مصر لمدة طويلة .  
 هذا سر الخليقة ، هذا سر أية مادة تصادفها ، وتلك مقدرة الإنسان المفكر  
 في إعادة المادة الى طاقتها الأولى في الكون بمعرفة ثواتها واقتحامه هذه النواة ،  
 هذه هي المادة وصفتها لك كما أراها ، وكما يراها العلماء المحدثون ، كنزاً من الأزل  
 وهدية من العصور الغابرة لا يعادها أى كنز في قيمته ، أو في خطورته ، وعلى  
 الإنسان أن يختار طريق استخدامها ، إما لحياة سعيدة على الأرض ، وإما لفنائه  
 وفناء الأرض ، وهكذا ينحدر مستقبلنا لأحد السيلين ، حتى اتى كبت عن عقيدة  
 راسخة على غلاف كتابي الذى سيصدر قريباً العبارة الآتية :

« لقد خطت البشرية مع « بكارل » الفرنسى منذ نصف قرن ، ومع  
 « أوتوهان » الألمانى حديثاً خطوتين حاسمتين ، فإما مدنية فوق التصور نصبح  
 فيها ككلائكة نستطيع ما لا نستطيعه اليوم ، وإما مفاجأة مخزنة قد يمحى معها  
 الكوكب الوديع الذى نعيش عليه .

ويكفى أن نتصور أنه قد يمكن بوضع جرائمات من مادة تقبل نوانها الانفلاق  
 أن نسير باخرة كبيرة عدة رحلات بين مصر وأوروبا بدلاً من آلاف الأطنان  
 من الفحم أو البترول .

بل إن علماء أفاضل يكتبون اليوم أشياء أشبه بالخرافات منها بالحقائق ،  
 أذكر للقارئ على سبيل المثال ما يفكر فيه الدكتور « أرفنج لانجهاير » من استبدال  
 قطارات السكك الحديدية بمركبات تقذف داخل نفق كبير ، فتسير المركبات وسط  
 مجال مغناطيسى قوى ، فلا المركبة تصطدم في طيرانها بسقيفة النفق ، ولا هي  
 تلس في سيرها أرضه ، بل هي تسبح بسرعة فائقة في هذا النفق المفرغ من الهواء ،  
 بحيث يصل المسافر من نيويورك الى سان فرانسكو في نصف الساعة ، ومعنى  
 ذلك أنك تسافر من مصر للاسكندرية في حوالى دقيقة واحدة ، ومن مصر  
 لأسوان في حوالى خمس دقائق ، ومهما يكن من أمر تفكيرى في الصعوبات  
 الفسيولوجية أو البيولوجية التى تواجه العلماء في العصر النووى لحماية الانسان ،  
 والعمل على استمرار حياته عند هذه السرعة ، وهى الصعوبات التى يذكرون ألا

وجود لها ؛ فلا أقل من أن نفكر أن مثل هذه المركبة إن لم تصلح للإنسان فستصلح لإرسال البريد ونقل البضائع .

إنما الذى يفكر فى أمر هذه المركبة الجبارة هو لانجهاير ، ليس عالما بحسب بل هو من حملة جائزة « نوبل » المعروفة ، فلك إذن أن تأخذ كلامه فى محل الاعتبار ، بالطريقة التى نظرت بها إليه

\* \* \*

ومع ذلك فلندع « لانجهاير » الذى نجح فى تحريك اسطوانة معدنية فى الفراغ دون أن تستند الى شيء أو تعلق من أطرافها فى شيء ، وهى اسطوانة عرضها فى أحد معارض أمريكا، لنقول أول نتائج الطاقة النووية هى حصولنا على تيار كهربائى لكل حاجياتنا بأثمان زهيدة ودون عناء ، وعند ظنى سيتمكن الانسان قريبا من إدارة موتورات كبيرة جدا فى محطات رئيسية ، وذلك بواسطة الطاقة الحرارية الناتجة من النواة ، وهذه الطاقة الحركية البتور تولد الكهرباء فى دينامو كبير بالوسائل العادية ، وهذا الدينامو يعطى بدوره التيار الكهربائى الذى ينعم به الناس .

سيختلف إذن عهد النواة عن عهدنا الحالى ، وعن جميع عهود الإنسان الغابرة و سيزداد استخدامنا للضوء الكهربائى وجميع مشتقاته ، وعد ظنى أن الأنوار المنعكسة على معبد الهند الصينية الذى أقيم فى معرض باريس سنة ١٩٣١ ، والذى استمتعنا به واستمتع به ملايين البشر بصورة لا ينساها الذهن ، ستحل أمثالها وأقوى منها على واجهات منازلنا ويوتاتنا التجارية .

ستتألق هذه الأنوار وغيرها للدرجة التى سوف يحن معها الإنسان مرة أخرى إلى الاستمتاع بالليل الدامس ، فيهرب أحيانا إلى الريف البعيد ، يسعى إلى الليل الذى لا يجد السبيل إليه فى المدن التى يفوق الضوء فيها ليلا ضوء النهار .

\* \* \*

كل هذا يجيزه العلم اليوم ولا يمكن أن تتصوره غالبية الناس ، ولو أنك قلت لأحد سكان الجزيرة العربية أيام عمر بن الخطاب إن الإنسان سوف يستطيع

أن يخاطب أخاه البعيد عنه ، ويسمعه ويراه دون أن يكون بينهما أى واسطة ، كما نفعل نحن الآن بواسطة التلفزيون ، لما صدقك أحد .

ومع ذلك فثمة أمران أعتقد شخصياً أنهما وشيكا الوقوع خلال حياتنا إن قدر لنا فيها بقية من الأجل .

الأمر الأول : يتلخص في أن الناس سوف تستطيع السفر بطائرات لم نألفها تتسع الواحدة منها لآلاف الأشخاص حول الأرض عند خط الاستواء مثلاً ، حيث يبلغ محيط الأرض أقصاه ، بحيث تسافر الطائرة حول الأرض لتصل إلى النقطة التي بدأت منها المسير في زمن مقداره ٢٤ ساعة ، وهو الزمن اللازم لدوران الأرض حول محورها دورة كاملة ، وفي هذه الطائرة سوف لا يتغير الوقت على المسافرين ، فإذا بدأوا رحيلهم الساعة ١٢ ظهراً فستظل الساعة عدهم ١٢ دائماً وذلك لمواجهتهم الشمس بزاوية ثابتة لا تتغير ، فلا عمر هناك لهؤلاء القوم ، ولا مغرب ولا عشاء ، إنما يساعد على تحقيق مثل هذه الطائرة الجبارة في حجمها وفي سرعتها عدم حاجتها لحل هذا الوزن الثقيل من الوقود .

الأمر الثاني : أنه قد يصبح الصعود الى القمر أقرب الأجرام السماوية لنا في متناول العصر النووي ، رغم علنا يبعده عنا مسافة تبلغ حوالى أربعائة ألف كيلو متر أى حوالى أربعين ضعفاً للمسافة بيننا وبين نيويورك ، بل ثمة اعتبارات علمية رغم عدم وجود الهواء في هذا السيار ، تجعل احتمال العودة منه في العصر النووي أمراً غير مستحيل .

\* \* \*

كل هذا قد يحدث ، وقد يحدث بعضه سريعاً ، ولكن الذى أرجو ، أن تتطور الأخلاق نحو الفضائل ويتطور الانسان نحو الكمال ، فيجب السلام ويعمل للسلام ، ويحب الحياة ويعمل من أجلها ، وهذا وذاك رهن بتصرفاتنا ، وموقف على درجة إدراكنا للأمور .

عند ذلك يأتي عصر النواة مسرعاً إلينا ، ليكون عصر سعادة وهناء ، لا عصر شقاء وفناء ؟



# الْيَمِّتْ

منذ ظهور الإسلام

لحضرة القاضي عبد الله الجرافي الصنعاني

مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر

يثل اليمن في جماعة التقريب لئنان من كبار رجالاتهم ، هما : حضرتنا  
صاحبي السعادة السيد علي بن اسماعيل المؤيد مندوب اليمن بمصر ، والقاضي  
محمد بن عبد الله العمري رئيس مجلس الجامعة العربية في الدورة الحالية .  
ونظرا لنياب سعادة القاضي العمري في أسفاره الكثيرة أناب عنه في  
الحضور بمجلسات التقريب حضرة القاضي كاتب هذا المقال .

١ — ظهور الإسلام باليمن ووفود أهله  
الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

لما ظهر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم استقبل اليمنيون دعوته بكل تهليل  
وترحيب ، وأسلم الكثيرون منهم ، وعلى رأسهم باذان ، وكان والي اليمن من قبل  
كسرى ملك الفرس ، وفشا الإسلام باليمن ، وكتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم  
إلى أقيال حمير ، قيل ذى رعين ، والحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ،  
وقيل ذى القلاع ، وغيرهم يدعوهم الى الإسلام فأجابوه ، وترادفت الوفود من  
اليمن إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فوفد في العاشرة من المبعث نصارى نجران  
ووفد ضماد الأزدي والطفيل بن عمر الدوسي ، ووفد بعد الهجرة أبو موسى  
الاشعري ، وقبائل الأشاعرة أهل وادي زبيد ، والتقت سفينتهم بسفينة جعفر  
ابن أبي طالب ، ومن معه من مهاجرة الحبشة عند قفولهم الى المدينة في السنة السابعة  
من الهجرة ، وقدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد فتح خيبر ، فأشركهم  
في الغنائم ، ووفد من نجران بنو عبد المدان ، ووفدت قبائل همدان وكان منهم مالك

ابن نمط ذو المشعار ، وافوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة عند رجوعه من تبوك عليهم الخيرات والعيائم العدينية ، وهم على النجائب المهرية والأرجية ، وكان الوفد من خازف ويام وشاكر ، ووفدت قبائل خولان والنخع ، ووفد الأشعث بن قيس الكندى ومن معه من كندة ، ووفد وائل بن حجر ومن معه من حضرموت ، ووفد فروة بن مسيد المرادى ، واستعمله النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مراد وزيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة .

ومن وفد عليه أبيض بن حمال المازني فوجهه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الملح قليل له : أن المال العد فاستقاله ، ووفد غير هؤلاء ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهل اليمن : أناكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة ، الإيمان يمان والحكمة يمانية . رواه البخارى والترمذى عن أبي هريرة .

## ٢ — عماله صلى الله عليه وآله وسلم على اليمن :

بعد ظهور الإسلام باليمن بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عماله عليها ، وأمرهم بإرشاد الناس ، وتعليمهم معالم دينهم ، وأخذ واجباتهم المسالية .

فمنهم على بن أبي طالب بعثه مرة إلى نجران ، ومرة إلى همدان ، وأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، وبعث على عليه السلام بإسلامهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسجد لله شكراً .

ومنهم أبو موسى الأشعري وخالد بن الوليد والبراء بن عازب وزباد بن لبيد الأنصاري والظاهر بن أبي هالة ويعلى بن أمية وعمرو بن حزم وعكاشة بن ثور وجريز بن عبد الله البجلي وعامر بن شهر وشهر بن بادام ووهر بن مُحَنَس وأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعمر مسجد صنعاً في بستان باذان وأمره أن يعمر الجبانة في شمال مدينة صنعاً .

ومنهم معاذ بن جبل وأمره أن يعمر مسجد الجند ، وفي صحيح البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن

« إنك ستأتى قوما أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فآخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك فآخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

وعن معاذ قال ، بعثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمين وأمرنى أن آخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافياً أخرجه أهل السنن وابن ماجه ( والمعافرية ثياب كانت تصنع بالمعافر ) .

### ٣ — عمال اليمين أيام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم .

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقر أبو بكر عمال رسول الله على اليمين ولم يزل العمال يتداولون على اليمين أيام الخلفاء الراشدين ثم أيام الدولة الأموية والعباسية .

### ٤ — استنفار أهل اليمين للجهاد .

كان في أيام أبي بكر استنفار أهل اليمين للجهاد فساروا إليه أفواجا ، وبعث نصفهم إلى الشام وهم قبائل عكر وحير وبعث النصف الآخر إلى العراق وهم قبائل همدان ومذحج وغيرهم وكان لهم أثر عظيم في الفتوحات الإسلامية ونيح كثير من أبنائهم في الشام والعراق والاندلس وسميت بعض قلاع الاندلس بأسمائهم من ذلك قلعة همدان بالقرب من غرناطة وقلعة خولان بالقرب من أشيلية وقلعة يحصب وغير ذلك مما ذكره المؤرخون .

### ٥ — الدول المتعاقبة على اليمين .

ظهرت باليمن أيام الدولتين الأموية والعباسية فابعدهما عدة دول منها ما نبت باليمن ومنها ما أتى من خارج اليمن وقد أمت بها كتب التاريخ ولنشر هنا إلى الدولة الهاشمية فهي التي لا تزال قائمة منذ ألف عام ، ثم نذكر المذهب الزيدى باليمن .

## ٦ — الدولة الهاشمية باليمن ومؤسسها الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم .

ولد الإمام الهادى يحيى بن الحسين بن القسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بجبل الرس من بلاد الحجاز حول المدينة المنورة سنة خمس وأربعين ومائتين ، ونشأ فى طلب العلم ومعالى الأمور وأخذ العلم عن أبيه الحسين وعمه الحسن ابني القسم وعن غيرهما ، واستدعاه أهل اليمن لاطهار معالم السنن فخرج إليها المرة الأولى سنة ثمانين ومائتين ، ثم عاد إلى الحجاز وخرج المرة الثانية سنة أربع وثمانين ، واستولى على مدينة صعدة وما حولها ثم فتح بلاد نجران وجبل برط وامتد نفوذه فى كثير من البلاد اليمنية وسار إلى مدينة صنعاء ، وجال فى البلاد وأظهر السنن وأخذ البدع وعمر كثير من المساجد وأسس الدولة الهاشمية باليمن وقفا أولاده أثره على طريقة ما عدوها وهى التمسك بالنقوى والتردى بشعار الدين مع لين الحجاب ، والمثابرة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما زالت القبائل اليمنية ولا سيما صميمها ، وهى قبيلة همدان أنصار هذا البيت الهاشمى إلى التاريخ الحاضر .

## ٧ — وفاة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين .

توفى الإمام الهادى إلى الحق بمدينة صعدة لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين ومائتين وعمره ثلاث وخمسون عاماً ، وقبره بمدينة صعده مشهور وأكثر أشراف اليمن من ذريته ، وكان مشهوراً بالقوة والشجاعة والورع والفقه والحاصل الحميدة والأعمال الحميدة ، وتولى الأمر من بعده ولده الإمام المرتضى محمد ثم صنوه الإمام الناصر للدين أحمد ، وتلاهما أولادهما ، ولهم مع الدول المعارضة خطوط وحروب تضمنها التاريخ .

## ٨ — الزيدية باليمن .

الزيدية باليمن ينتمون إلى الإمام الشهيد زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ويواقفونه فى كثير من المسائل ، ويقلدون الإمام الهادى يحيى

ابن الحسين في المسائل الفقهية ويعتمدون مؤلفاته في الفقه منها كتاب الأحكام ،  
والمنتخب ، والقنون . وقد قام بخدمتها كثير من فقهاء الزيدية وخرجوا من نصوصها  
مسائل فرعية ، كما فعله أصحاب الأئمة الأربعة ، وانتشرت مؤلفات الهادى في بلاد  
جيلان ودبلان في شمال إيران ، وقام بخدمتها بعض أئمة تلك البلاد ، منهم الإمام  
المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى ، والإمام أبو طالب يحيى بن الحسين ، ومعظم  
الزيدية بالين هم أهل الجبال . أما أهل تهامة والجزء الجنوبي ، فغالبيتهم ينتمون  
إلى الإمام الشافعى ، والجميع في العهد الحاضر إخوة ، وقد خمدت العصية المذهبية  
بمساعى الإمام الراحل المتوكل على الله يحيى بن محمد رضى الله عنه . وبما بذله وبذله  
جلالة نجله الإمام الحالى الناصر لدين الله أحمد بن يحيى ، ومذهب الإمام زيد  
ابن على والإمام الهادى وأولاده برىء من الغلو في الدين ، وكتبهم ومؤلفاتهم  
شاهد عدل على ذلك ، والتقليد إنما هو لمن لم يتمكن من الاجتهاد ، أما من تمكن  
من الاجتهاد ، فإنه يجتهد لنفسه ، فباب الاجتهاد مفتوح عند الزيدية كما هو كذلك  
عند غيرهم من المذاهب الاسلامية ، وقد ظهرت بالين بدع وقتن ، منها : فتنة  
على بن الفضل القرطلى في القرن الثالث ، وكان اضمحلالها واخماد نارها بسيوف  
الأئمة من أهل البيت ، وذلك معروف في كتب التاريخ ؟

## في اللغة

يقال : امتاز القوم ، إذا تنحى عصابة منهم ناحية ، وكذلك استماز .

قال الأخطل :

فإن لا تعبرها قريش بمالكها يكن عن قريش مُستماز ومرحل

ويقال : امتاز القوم إذا تميز بعضهم من بعض ، وفي الحديث : لا تهلك أمتى  
حتى يكون بينهم التمايل والتمايز ، أى يتحزبون أحزابا ، ويتميز بعضهم من  
بعض ، ويقع التنازع .

# الباكستان

شخصية جديدة في المحيط السياسي الدولي

للأستاذ الأديب أحمد محمد عيسى

أمين مكتبة جامعة فؤاد الاول

في مطلع القرن الثامن الميلادي ومغرب القرن الاول الهجري ، تقدمت جيوش المسلمين نحو الهند ففتحها وأقامت بها دولة إسلامية قوية . وقد شاهدت الهند زمن الحكم الإسلامي أزهى لحظاتها التاريخية . وامتد حكم المسلمين إلى أرجاء بعيدة ، واستطاع حكام المغول أن يجعلوا من الهند إمبراطورية شرقية ذات سطوة وسيطرة

خلال تلك العصور امتد الإسلام إلى كل بقاع الهند ، وترك الفاتحون الجدد والدين الجديد أثرهما في تقاليد الناس وعاداتهم ولغاتهم ، كما تركا أثرهما في أساليب الحكم وأنظمتهم ، وعاشت الهند في ظل الحكم الإسلامي أحسن حالا وأرغد عيشاً من ذي قبل . ولكن تلك الدولة التموية لم تلبث أن شاخت ونحرت عظامها سوسة التدخل الأوربي ، فلم يحل القرن الثامن عشر إلا وقد سيطرت على تلك الجهات شركة الهند التجارية الإنجليزية فأذاقت الهنود ألواناً من البؤس والبلوى وكثرت المجاعات وعمت الفوضى وانتشرت الرشوة ، ورأت الحكومة الإنجليزية أن ذلك كله خطر على مركزها في الهند ، وأنه لا بد أن تنحى الشركة الإنجليزية عن إدارة الهند فقررت سنة ١٨٥٧ تبعية الهند للتاج البريطاني .

على أن ذلك القرار الذي اتخذته البرلمان البريطاني لم يكن في صالح الهند بقدر ما كان في صالح بريطانيا المستعمرة ، التي أخذت ترسم سياستها لتحجب عن الهند

أى مناس لها فيها ، ولتجعل منها مزرعة تدر عليها النعمة ، وسوقاً تجنى منها الربح وفى ظل الحكم البريطانى زادت أسباب الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين ، واستغلت بريطانيا ذلك لأنه وسيلتها فى تثبيت سلطانها ، وقاسى المسلمون قسماً وافرأ من الاضطهاد لأنهم قاوموا سيادة الانجليز عليهم ، ولأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم دون غيرهم ، أصحاب الحق الشرعى فى البلاد . وفى ظل الاستعمار الإنجليزى أيضاً انتشرت المسيحية وزاد الاهتمام بالديانة الهندوكية ، ونشطت حركة التبشير بين المسلمين وقد لفت هذا كله نظر زعماء مسلمى الهند فحاولوا القضاء عليه بالتفاهم والتعاون ولكنهم فشلوا فى ذلك ، فاتجه تفكيرهم إلى ضرورة تكوين دولة اسلامية مستقلة .

ومن المؤسف أن محنة الاستعمار لم تقنع جميع الهنود بالتفاهم والاتحاد ، ولم يكن الزمن الطويل بكاف للقضاء على ما بين المسلمين والهندوكيين من خلاف ولا على ما بين الهندوكيين والسيخ من فروق ، ولم تكن انجلترا نفسها راغبة فى أن تخف حدة الخلافات الطائفية والمذهبية محافظة على مصالحها الخاصة فى الهند ، وظن المسلمون أنهم هالكون لو خلتى الأمر للهندوكيين ، وطاف ذلك الظن بعقول الهندوكيين أيضاً . وقد تأثرت حركات الهند الاستقلالية بتلك الحركات المليئة بكثير من الحذر والارتياح فأضعفت تلك الحركات ، أو جعلت نصيبها الفشل المحقق .

وعند ما قام حزب المؤتمر للمطالبة بمنح الهند استقلالاً داخلياً ، نهض المسلمون فى أول الأمر يؤيدون الفكرة برغبة قوية وإخلاص شديد ، ولكن تعنت متطرفى حزب المؤتمر وتعصبهم الأعمى ضد المسلمين جعل هؤلاء يعيدون النظر فى موقفهم ورأوا أن مستقبلهم سيكون مأساة مليئة بالأحزان إذا ما استقلت الهند داخلياً وسيطر عليها الهندوكيون . ومنذ تلك اللحظة استقر رأى زعمائهم على تكوين حزب يدافع عن مصالحهم ويطالب فى الوقت نفسه باستقلال الهند فكونوا حزب « الرابطة الإسلامية » .

وفى سنة ١٩١٧ تقاربت وجهات النظر بين حزب الرابطة الإسلامية وحزب

المؤتمر ، واتفقت أغراض الحزبين على السعى للدطالة باستقلال الهند الذاتى ، على أساس حق المسلمين فى تمثيل أنفسهم على حدة . وبدأ الحزبان منذ تلك اللحظة كفاحا مشتركا ضد بريطانيا للحصول على استقلال الهند الذاتى .

ولكن بريطانيا لم تسعف الهنود بالأمل المنشود ، فقام غاندى بحركات العصيان المدنى ، ورضى عن تلك الحركات رجال حزب المؤتمر غير أنها لم تقنع الكثير من المسلمين ، فحدث الخلاف بين الهندوكيين والمسلمين من جديد ، أما بريطانيا فقد اضطرت إلى محاولة إيجاد حل للمشكلة الدستورية فى الهند ، فدعت لعقد مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن سنة ١٩٣٠ ، ولكنه فشل ، حيث لم يمثل الهند فيه غير المسلمين . وفى العام التالى دعت إنجلترا المؤتمر آخر فى لندن بعد أن مهدت له بتقريب وجهات النظر بين حزبى الهند الكبيرين . وقد عقد هذا المؤتمر فعلا ، ومثل المسلمين محمد على جناح ، ومثل الهندوكيين المهاتما غاندى ، وأصر المسلمون على التمسك بمطالبهم وحقوقهم التى سبق أن أعلنوا عنها ، وأصر الهندوكيون على رفضها وعدم الاعتراف بها ، ففشل هذا المؤتمر كما فشل سابقه ، وإن كانت بريطانيا قد اقتنعت بوجاهة مطالب المسلمين وعدالتها .

ولا يهمنى هنا أن نبحت فى مدى صدق اقتناع إنجلترا بعدالة مطالب المسلمين بقدر ما تهمنى الإشارة إلى انزعاجها من مظاهر الخلاف بين حزب المؤتمر والرابطة الإسلامية ، وأحست فى مرارة أن تلك الخلافات لن تصرف أى الحزبين عن مواصلة جهوده من أجل استقلال الهند ، وتحت هذا الضغط أصدرت إنجلترا قانونى سنة ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ ، وبمقتضاهما أعطيت الأقاليم الهندية نوعا من الاستقلال فى إدارة شئونها الداخلية ، وإن كان هذا نفسه قد زاد أسباب الخلاف بين المسلمين والهندوكيين ، لأنه أعطى الهندوكيين فرصة للتحكم فى إخوانهم المسلمين لأنهم على رغم قوتهم لا يمثلون ربع عدد السكان .

وكانت الانتخابات العامة بحكم تلك النسبة تأتى فى صالح حزب المؤتمر ، وعن هذه الطريق سيطر الهندوكيون على كافة شئون البلاد ، وجعلوا لأنفسهم الأولوية



في كل شيء، وأنفذوا ما رغبوا فيه من قرارات دون اهتمام أو مبالاة بمطالب المسلمين أو الحرص على اشتراكهم وإيادهم في الحكم بطريقة تكفل احترامهم وتناسب مع مركزهم في البلاد . من أجل هذا اضطر المسلمون إلى أن يعلنوا في صراحة سنة ١٩٤٠ عن الفكرة التي طالما طافت بروسهم ، وأن يتحركوا جميعا لمطالبة « بالباكستان » .

وكانت الحرب العالمية الثانية عاملا مهما في محاولة حل المشكلة الهندية ، ذلك أن بريطانيا كانت بحاجة قاسية إلى كثير من الرجال والعتاد الحربي ، وكانت الهند تستطيع أن تمدّها بكثير من هذا أو بالجانب المهم منه . ولكن هل يكون من السهل دائما أن تضحي الهند في سبيل الامبراطورية بالرجال والأموال دون أن يكون في مقابل ذلك أشياء ؟ وهل تستطيع انجلترا أن تفرض على الهند إرادتها وهي ضعيفة في الميدان الأوروبي أمام الألمان ، وضعيفة في الميدان الشرقي أمام اليابانيين ؟ وهل أمام انجلترا غير الهند يقدر أن يمدّها بما تريد من مادة الحرب ؟ ذلك وغيره رغب انجلترا في محاولة الوصول إلى حل لمشكلة الحكم في الهند ، وحل تلك الرغبة واحد من وزارة الحرب البريطانية هو السير ستافورد كرييس فقام برحلته إلى الهند في مارس سنة ١٩٤٢ للتفاهم مع الهنود على تعاون تام في جميع العمليات الحربية مع بريطانيا في نظير تمتع الهند باستقلالها كبلاد الدومين بعد الحرب .

وفي أثناء التفاهم الذي قام به سير ستافورد كرييس بين أحزاب الهند ، اتضح تمسك المسلمين بوجهة نظرهم وإصرار الهندوكيين على رفض مقترحات المسلمين ، وكانت النتيجة أن فشلت مهمة كرييس لمجرد اعترافه بأحقية المسلمين في تمثيل أنفسهم وبوجاهة مشروع « باكستان » وزادت من جديد عوامل الخلاف والفرقة بين حزب المؤتمر وحزب الرابطة الإسلامية .

وقد استعان حزب المؤتمر ببعض أعضائه من المسلمين في القضاء على فكرة « باكستان » ، ولكنهم كانوا أقلية لم يستطيعوا التأثير في الرأي العام الإسلامي في

الهند ، وقد وضح ذلك في انتخابات سنة ١٩٤٦ إذ فاز حزب الرابطة الإسلامية في المجلس التشريعي بـ ٤٢٧ مقعدا من مجموع عدد المقاعد المخصصة للمسلمين ، وقدرها ٤٨٢ مقعدا ، وأصبح من الواضح ضرورة الاعتراف بأحقية المسلمين في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وأن تكون لهم دولة خاصة ، لأن تسعين مليوناً ليسوا أقلية ، وإن كان مجموع السكان يبلغ ٣٦٠ مليون نسمة .

أما إنجلترا فقد فكرت طويلا ، واتفق تفكيرها إلى ضرورة نقل السلطة من يدها إلى يد الهنود أنفسهم ، وتركزت لهم حرية اختيار نوع الحكم الذي يريدونه وكلفت لورد مونتباتن ليحمل مشروعها إلى الهند ، وليأخذ بأسباب تنفيذه ، وأيقن الهندوكيون أن مشروع باكستان أصبح حقيقة لا مفر منها ، وأنه لا مندوحة عن تقسيم الهند ، أرادوا ذلك أم لم يريدوا . وأثارت تلك الحقيقة أعصاب متطرفيهم فتحركوا للانتقام من المسلمين ، وذبحوا منهم في الشوارع ، وحرقوا بهم البيوت واقتحموا عليهم المساجد ، وطاردهم في كل مكان حتى أفنوا منهم خلقا كثيرا .

وخوفا من نتائج ازدياد تلك الحركة الإجرامية قبل حزب المؤتمر في يونيو سنة ١٩٤٧ الموافقة على مشروع التقسيم الذي تقدم به لورد مونتباتن لينهى حالة الفرع والفوضى والتفتيل التي سادت البلاد ، ومما يجدر ذكره أن لجنة حزب المؤتمر قد قبلت هذا المشروع بأغلبية ١١٥ صوتا ضد ٢٩ صوتا ، ولم ينتصف أغسطس سنة ١٩٤٧ حتى أعلن قيام دولتي الهند والباكستان ، كما أعلن انتهاء الاحتلال البريطاني للهند ، ذلك الاحتلال الذي استمر قرابة ثلاثة قرون .

أساس مشروع الباكستان هو أن تكون من الولايات الهندية ذات الأغلبية المسلمة ، دولة يكون الحكم فيها للمسلمين وحدهم . وهذه الولايات هي : بنجاب ، أفغان ، كشمير ، سند ، بلوستان ، ومن هذه الولايات جاء اسم : باكستان ، غير أن جغرافية الباكستان الحالية تختلف عن هذا ، فالدولة الجديدة تكون من وحدتين جغرافيتين منفصلتين هما : الباكستان الشرقية في شرق الهند ، وهو عبارة عن مقاطعة كبيرة من البنغال ، وقسم من إقليم سيلهت الغني المجاور لمقاطعة آسام

أما الباكستان الغربية فتشمل : البنجاب الغربي والسند وبلوخستان ، ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية التي يطلق عليها أفغان ، وبعض بلاد أخرى آثرت أن تنضم الى الباكستان .

هذه الدولة الجديدة ليست رقعة واحدة إذ يفصل قسمها الشرقي عن قسمها الغربي مسافة تزيد على الألف ميل هي عبارة عن أراض للدولة الهندية التي تكونت الباكستان على الرغم منها . وهذا الانفصال ليس في مصلحة الباكستان إذا ما هوجم أحد جزئها من الخارج أو من الهند نفسها ، وإذن فلا بد أن يكون بين الدولتين تفاهم وتعاون تام لحل كثير من المشاكل المعقدة التي أمامهما .

إن مشكلة تقسيم دولة أصلية إلى دولتين أمر عسير شاق . وهو لا يخلو من عوامل ضعف وأخطاء . وقد شاهدت أوروبا شيئاً من هذا عند ما تكونت الدول الحديثة على أنقاض الامبراطوريات الكبيرة المنهارة بعد الحرب العالمية الأولى . فكانت الدويلات الحديثة المجموعة ، أو الدول القديمة الممزقة سبباً في كثير من المشاكل التي أخذت تزداد تعقيداً حتى أدت إلى الحرب العالمية الثانية . ومنها مشاكل البلقان أيضاً وحدودها وأقلياتها . لا تزال هي الأخرى مثار منازعات لا تنتهى . وبالاختصار فإن مشاكل السكان أعتمد من أن تحل بتلون الخريطة أو بتبادل السكان حيث ظهر فشل تلك التجربة .

وقد واجهت دولة الباكستان هذه المشكلة عند التقسيم ، إذ ضمت إليها بلاد قد يكون بها أغلبية غير مسلمة ، ولكنها بحكم موقعها الجغرافي كان لا بد أن تصبح ضمن حدود الباكستان ، كما ضاعت منها بلاد ذات أكثرية مسلمة ، ولم يكن من السهل الحصول عليها . وإذن فقد اضطر بعض المسلمين من دولة الهند إلى النزوح إلى دولة الباكستان ، إما خوفاً من اضطهاد الهندوكيين لهم أو أملًا في خير جديد ، كما اضطر البعض الآخر أن يتم في الدولة الهندية راضياً بما يجري عليه في أرضها لأنه لا يقدر أن يتجاهل ماضيه بالمكان الذي ولد فيه ، ولا صلته بالأرض التي يعيش عليها ، أو لأنه رأى أن مقامه بالباكستان لن يختلف كثيراً عنه بالهند .

ولا تزال بين الهند وباكستان مشاكل عدة ، كمشكلة كشمير ، ومشكلة اضطهاد المسلمين عامة في الهند ، ومشكلة مسلمي حيدر آباد بعد الحوادث الأخيرة ومشكلة النقل والمواصلات ، وهذه المشاكل عويصة معقدة وفي حاجة إلى حل يطمئن إليه الطرفان ، ولا أمل في الوصول إلى ذلك الحل ما لم تُصَف النيات وما لم يكن هناك استعداد حسن عند الحكام والمحكومين على السواء . ويبدو أن باكستان صادقة الرغبة في مودتها و صداقتها للهند ، لأن تلك هي السياسة التي رسمها القائد الأعظم المغفور له محمد علي جناح ، والتي يسير عليها من أتي بعده ، ولا شك أن تلك السياسة سوف تتيح للباكستان التفرغ إلى شئونها الداخلية العديدة وإلى الاستعداد للمستقبل الزاهر الجدير بها وبشعبها .

وفي طليعة ما تعنى به الباكستان الآن تنظيم اقتصادياتها ، ووضعها على أساس متين ، وهنا يجب أن نعلم أن ميزانية الدولة في عامها الأول ١٩٤٧ - ١٩٤٨ كانت ٩٠ مليوناً من الجنيئات تقريباً ، والمتنظر لها أن تكون أضخم من ذلك بكثير ، وأن الباكستان دولة زراعية يعتمد ٨٠ في المائة من سكانها على الزراعة ، وهي من أجل هذا بحاجة إلى تحول صناعي سريع ، وتبذل الحكومة غاية جهدها لتنشيط الحركة الصناعية ، ودفع الناس إلى التحول من الإعجاب بالحقل إلى الإعجاب بالمصنع ، وأهميته بالنسبة لمستقبل البلاد الاقتصادي . وما قد يهدى من سرعة ذلك التحول الصناعي قلة مواد الوقود في الباكستان ، وعدم كفايتها لحاجة البلاد . على أن أمل الباكستان في تفريج تلك الأزمة يعتمد على ما توى القيام به من مشروعات لتوليد الكهرباء من المساقط المائية بها .

ولا يسمح المجال هنا بالكلام عن ثروة الباكستان الزراعية والحيوانية والمعدنية ، فلندع ذلك الآن ، ولننتقل إلى ذكر شيء عن السكان فنقول إن عددهم ٧٥ مليوناً من الأنفس تقريباً ، وتبلغ نسبة المسلمين حوالي ٨٠ في المائة من مجموع السكان ، وأكثر مسلمي الباكستان على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأقليتهم من الشيعة ولكن رجال هذه الأقلية من أرباب النفوذ وأصحاب المقامات العالية

في البلاد، والمذهب السائد هناك هو مذهب الامام أبي حنيفة، على أنه توجد بين المسلمين فرق أخرى فيها خروج على العقيدة الإسلامية. وكان متظراً أن يكون لتعدد مذاهب المسلمين أثر سيء في الدولة الجديدة، ولكن السياسة التي رسمها المغفور له القائد الأعظم محمد علي جناح أنقذت البلاد من كل هذا، وجعلت كل واحد ينسب مذهبه، ويذكر أنه مسلم فقط. وعلى هذه السياسية السمحاء سارت الباكستان، فنجدها مثلاً قد أسندت وزارة العدل إلى مستر موندل، وهو هندوكي من المنبوذين في الهند نفسها، ولكنه مخلص للدولة ثم إنه قوى الإيمان بفكرة الباكستان.

ومنذ دخول الباكستان عضواً في هيئة الأمم المتحدة وهي تعمل جاهدة لخدمة قضية السلام العام، كما أنها تبذل اهتماماً خاصاً بالمسائل الشرقية، وإن ذلك يبدو واضحاً من عنايتها بمشكلة فلسطين، ومشكلة أندونيسيا، ومشاكل العرب والمسلمين بوجه عام. وهي ترجو أن يكون انضمامها إلى مجموعة دول الشعوب الإسلامية عاملاً له أهميته نحو الوصول إلى التحرر من كل نفوذ أجنبي، وإلى تحقيق حلم جميل: هو أن يكون الشرق للشرقيين.

### مكتبة التقريب

ينص قانون الجماعة في مادته الرابعة على أنه (تكون للجماعة دار تسمى «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ومكتبة تحوى كتب المذاهب الإسلامية والمراجع التي تحتاج إليها في بحوثها الدينية والاجتماعية).

ويسرنا أن أهل العلم والفكر من كافة الطوائف الإسلامية، بين أفراد وهيئات رسمية وشعبية، يدركون ما لهذه المكتبة الجامعة من أهمية، وأنها ستكون بعون الله طرازاً فريداً بين المكتبات تلم المتفرق وتجمع الشتات، وتسعف العلماء والباحثين بما لا يجدونه مجتمعاً في سواها، وهم لذلك يغذونها بكل نافع، ويحرصون على أن تلقى لديها أفكار علماءهم وأدبائهم وباحثيهم في القديم والجديد.

وإن دار التقريب لتشكرهم أجزل الشكر، وتحبب فيهم جميعاً هذا الشعور الكريم.

## المغرب الإسلامي

لعمري المجاهد السبر محي الدين القليبي

يبتدىء تاريخ المغرب الإسلامي بصفته بلداً إسلامياً له آثاره في مختلف نواحي الأوطان الإسلامية ، ومختلف خطواته أثناء تطوره وانتشاره في أواخر القرن الأول للهجرة ، أو بالأحرى في أيام عبد الملك بن مروان عند ما ولى عليه حسان ابن النعمان الغساني للمرة الثانية ، فأنشأ منه هذا الوالى بحصافته ولاية إسلامية تتمتع بكامل استقلالها الإدارى ، وتعود أمورها السياسية العامة مباشرة إلى مقر الخلافة الأموية دون أن يكون لعمال مصر أى سلطان عليها كما كانوا يحاولون ، وعلى الرغم من أن ظهور النزعات المناوئة لحكم الأمويين من شيعة وخوارج لم يكن بصفة فعالة إلا بعد ربع قرن من هذا التأسيس ، فإنه مما لا شك فيه أن العناصر الأولى التى استطاعت أن تسير على الخلافة الأموية ما أثارت من زواجر في المغرب وانتهت بفصله نهائياً عن الخلافة فى أوائل الدولة العباسية كانت موجودة من قبل ذلك فيمن نزع إلى المغرب من جنود وأساتذة ومهاجرين .

على أن جميع الأطوار التى مرت بالمغرب الإسلامى من لدن استقراره كبلد إسلامى حتى الآن ، والتي اصطبغت بشتى النزعات والأهواء كانت تدل على شئ واحد فى جوهرها ، وهو وحدته كوطن واحد فى جميع مقوماته من طبيعية وملية ولغوية ، تلك الوحدة التى تجلت أحياناً فى طابع سياسى عام ، كما وقع فى دولتى الفاطميين والموحدين ، وفى مد وجزر إقليميين ، كما وقع فى مختلف الدول التى نشأت فيه خلال هذه المدة الطويلة ، والتي لم يتفق أن استقرت على حدود معينة فى فترة من فتراتهما ، وبهذا نستطيع أن نفهم العلة التى جعلت الاختلاف المذهبى الذى لعب فى المغرب الإسلامى دوراً خطيراً لم يؤثر فيه كوطن واحد بكل معانى الوحدة على اتساع رقعته التى تمتد من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسى

ومن شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى ، وبهذا أيضاً نستطيع أن نفهم العلة في أن الحدود التي أقيمت منذ السيطرة العثمانية عليه بين أجزائه وقسمته إلى أربع مقاطعات — ليبيا وتونس والجزائر ومراكش — لم تحل دون تأثر كل قطر من هذه الأقطار بما يحدث في القطر الآخر من أحداث ، فعلى الرغم من أن السياسة الإيطالية كانت تحاول تبديل الجنس العربى بالجنس الإيطالى فى طرابلس ، كما حاولت ذلك من قبل فرنسا فى الجزائر ، إن هاتين المحاولتين يرجع الكثير من إخفاقهما إلى وجود دولتين محميتين ، إحداهما تونس الواقعة بين طرابلس والجزائر ، والأخرى المغرب أو مراكش الواقعة فى الطرف الأقصى من المغرب الإسلامى ، فالصورة الدولية الشكلية التى بقيت لهاتين الدولتين كانت عاملاً فعالاً فى إحباط محاولات الإبادة والإدماج فى كل من الجزائر وليبيا المستعمرتين استعماراً مباشراً ، وبهذا كله يتضح السبب الرئيسى فى فناء معظم النزعات والمذاهب التى كان لها دعاة وأنصار فى المغرب الإسلامى ، والتى لم يبق منها إلا المذهبان الحنفى والمالكي اللذان يسودان الأغلبية الساحقة من سكانه ، ثم المذهب الإباضى من مذاهب المحكّمة الذى لا تزال من أنصاره بقايا تذكر بدولة بنى رستم الإباضية المذهب والتى قامت فى الجزائر الغربية قبيل منتصف القرن الثانى على أن هذه المذاهب على اختلافها استطاعت أن تحيا بعضها مع بعض فى وئام ، كما سنبينه فى الفصل الآتى إن شاء الله ؟

# من الأدب الغزلي

## مولد عبقرية

للمؤلف الأستاذ الدكتور مصطفى طه مبيب

السكرتير الفني لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

منذ أربعة قرون تنفس صبح الحياة في بلدة من بلاد الريف الإنجليزي عن مولد فتي لأسرة تجرى في الحياة جريان الأسر التي لا تنتمي إلى عراقة أصل يوفر لها من أسباب النعيم الموروث ما يدفعها في خضم الحياة ثابتة القدم ، نائية عن التفكير في مر أو حلو ، فالحياة لديها راتبة النعيم ، دانية القطوف ، مiale الأعطاف ، لا تدعو إلى جد ، ولا تستثير هممة ، ولا هي من الأسر المعروفة المكدودة ، التي لا تعرف من الحياة إلا الشظف في العيش ، والخشونة في المظهر ، والرق في الحال بل كانت أسرة متوسطة كثيرة الأولاد ، فلم يكن وليدها الجديد محل حفاوة ولا موضع اعتبار ، بل مر عابراً أو أقل من العابر كما تمر ملايين المواليد في كل يوم ، وفي كل جيل ، وماذا يهم الناس من مولد غلام لرجل متوسط الحال أو لرجل غني دهمته الأحداث وعفت على ثروته ومجده خطوط الزمن التي لا ترحم .

هذا الغلام الذي ولد في غير ضجة ، ولم تحظ مولده مراسم ، ولا سبقته علامات أو إرهاصات ، أضحى اسمه في فم الزمن عنواناً على المجد الخالد والعبقرية الفذة ، هذا الغلام هو وليم شكسبير ، شاعر الكون ، وسيد من كتب للسرحة على طول الزمن .

ولد وليم شكسبير في الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٥٦٤ م في قرية استراتفورد على نهر الإفون من قرى الريف الإنجليزي الجليل ، فتفتحت عينه على



الطبيعة في أجلى مظاهرها تداعب أذنه شقشقة الطيور وأغاريد العصافير ، ويهز أعطافه خرير الماء ، يدفع في موسيقا حلوة هادئة ، بين شاطئ نهر الإثون الجميل .

ذاق هذا الفتى مرارة العيش ، وقسوة الزمن وهو بعد حدث لم يتضج ، فقر الألم في نفسه ، واكتملت معانى الوجود في حسه ، حتى إذا أرادت المنادير أن تلهب هذا الحس ، وأن تثير مكنون هذه العبقرية ، وجدت الشعلة الإلهية صدراً مليئاً لما أرادته له .

وفي العشرين من عمره فر ولیم شكسبير من قريته إلى لندن العاصمة ، وقلب انجلترا النابض ، وهناك بزغ نجم هذا الفتى المغمور ، وسكن الدهر ليستمع لصوت هذا العابر الذى لم يحفل لمقدمه أحد ، ولا وعى تاريخ حياته الأول لإنسان . علا نجم هذا الفتى ، وإذا هو بعد فترة غامضة ، قد تكون هى فترة التجربة شاعر مجيد ، يكتب فى الحب وللفن كتابات عاشت ، وستعيش على الزمن ، لأنها وحي الخلود ، وتناج العبقرية ، عشرون عاما عاشها هذا الفتى عبداً لقلبه ، يكتب ويؤلف للسرحد قصصاً حياً رائعا يصف الحياة بما فيها من خير وشر ، ويحلل النفس الإنسانية تحليلاً صادقا عميقاً هو الحق بعينه ، تقرأه فتجد فيه صور الحياة كما تحسبها أنت .

فأنت تقرأ فى كتاب شكسبير صور العظمة ونفاذ البصيرة وتقرأ فيه الوشاية والدس والحقْد وكيف تعمل فى السيطرة على النفوس حتى تقلب من الحب والإجلال إلى السخط والكراهية ، ترى ذلك مجسماً فى قصة عطيل وكيف استطاع « إياجو » النمام أن يجرىك أحاييله ، وأن يوقع فيها هذا البطل المدرّه والمارد الجبار « عطيل » ، فإذا هو قد هدّته الغيرة ، وأعمت بصره وبصيرته فتأجج أتون الغضب فى صدره ، واشتعلت نار الحقْد بين جوانحه فقتل زوجته وحبيته التى ضحت بهنائه من أجله فلما أتى فعلته ، وتبين لإفك صاحبه ، انهار كيانه ، وتصدعت أركانه ، وتحطم بنيانه ، وأصبح لا شئ بعد أن كان كل شئ .

واستمع إلى شكسبير يصور الغيرة على لسان « إياجو » ، فيقول : حذار يا مولاي

من الغيرة ، فهي ذلك الوحش الضارى ذو العيون الخضراء ، الذى يسخر من فريسته  
ويثير فيها كل يوم ضروبا من الشك ويلهو بشجوها المتزايد .

وكما صور شكسبير الغيرة ، وكيف تفعل بالنفوس ، صور لنا الطمع والجشع  
وكيف يغلب على النفس الإنسانية الهادئة فيقلب أوضاعها ، ويصم آذانها ، ويحول  
قلبا صخراً لا يلين ، فتقدم على قتل ضيفها ، بعد أن سكن إليها ، وارتاح إلى صحبتها  
وأسلم إليها زمام أمره ، نرى ذلك فى قصة « مكبث » ، غدر وخيانة ما كانت لتصدر  
عن نفس هادئة مفكرة ، ولكنها عوامل الطمع والاثرة ، غالبة غلابه ، قاتلة قتالة  
دفعت بمكبث إلى الجريمة ، وهيات له وسائلها ، وحاطته بالمغريات ، وحفزته  
بالدوافع ، ولم تدع له سيلاً لتدبر ، ولا طريقاً لتراجع . قتل « دنكان » ضيفه  
طمعاً فى الملك . لقد كشف لنا شكسبير فى شخصية مكبث الجحيم الذى كانت تدافع  
فيه نفسه بين الإحجام والإقدام ، حتى اندفعت فاحترقت . وغير هذه كثير يفيض  
بها كتاب شكسبير ، وليس هذا من عجب ، فإن شكسبير خلق لفنه دنيا بأسرها  
متعددة الأجواء ، مختلفة الأشخاص متلونة المظاهر تفيض بالحياة الخالصة ، وهو  
فى تنوعه وشموله لكل ما يمكن أن يخطر على البال وجوده بين البشر من الشخصيات  
قد برز الحقيقة الواقعة ، وأضحى الدنيا المريضة تكاد تكون خاوية بالنسبة إلى دنياه  
العامة بكل حى مهما تنوع قبيله ، واختلف صفاته ؟

### من خطبة للإمام على كرم الله وجهه

أيها الناس : احفظوا عني خمساً ، فلو شددتم إليها المطايا حتى تُتَضَوها  
لم تظفروا بمنزلها : ألا لا يرجون أحدكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحى  
أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم . فإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، إلا وإن الخامسة  
هى الصبر . فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . من لا صبر له  
لا إيمان له ، ومن لا رأس له لا جسد له .

# صَوْتُ التَّقْرِيبِ

« دار التقريب » بمثابة جهاز لإرسال واستقبال  
بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، عنها  
يصدر « صوت التقريب » وإليها يرجع ، وعلى هذه  
الصفحات من « رسالة الاسلام » في كل عدد تسجيل  
الصدى (\*)

نبدأ هنا بتسجيل أول صوت انبعث من « دار التقريب » وهو « بيان الجماعة  
إلى العالم الاسلامي » الذي أقرته في أول جلسة عقدتها ؛ نسجله عهدا وتاريخا وذكرى  
وهذا نصه :

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله . والسلام والصلام على رسول الله . وآله وحجبه ومن والاه .

أما بعد . فإن الدين الإسلامي دين واضح الأصول ، بَيِّن المعالم لا تعقيد فيه  
ولا غموض ولا حرج ولا إغاثات . أنزله الله على رسوله وخاتم أنبيائه محمد  
صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل ، وضلالة من الناس ؛ واختلاف بالهوى  
وتنازع وتطاحن بالقوى فهدى الناس في العقيدة إلى كلمة سواء هي كلمة الله التي  
بعث بها كل رسول ، وأنزل بها كل كتاب ، وبين لهم شريعة الحكمة  
والرحمة والصلاح .

(\*) « دار التقريب » هي المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيريتها ومكتبتها الكبرى

وأساس هذا الدين هو القرآن الكريم والسنة المطهرة ، بهما تقررت عقائده وأصوله ، ومنها استنبطت قواعده وأحكامه ، وإليهما يرجع المسلمون في كل شأن من شئون دينهم وديناهم .

تلقى المسلمون الأولون هذا الذين كما أنزله الله ، والتفوا حوله يعتقدون عقيدته ، ويدرسون شريعته ، ويمضون على سنته وطريقته ، فما كان من نص ظاهر واضح في دلالته . قاطع في معناه ، اجتمعوا عليه ، ونزلوا على حكمه متوافقين ، وما كان محل نظر وتأمل أعملوا فيه عقولهم واجتهدوا فيه بقدر وسعهم في دائرة الأصول التشريعية ، والمقاصد التي أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله . فإذا شجر بينهم خلاف عاجلوه بالحجة والإقناع ، ولم يتجاوزوا به دائرة العلم والبحث ولم يسمحو له — مهما تباعدت وجهات النظر فيه — أن يقطع ما بينهم من الأواصر أو يفسد ما أصلحه الله من التلويح ، بل كانوا يتبادلون الثقة والمحبة والاحترام ، وربما سأل بعضهم بعضاً عن دليله أو مدركه على ما يقول : فإذا لقيته واستراح إليه سارع إلى إعلان قبوله والرضى عنه غير مستكبر على الحق ، ولا متعنت في الخطاب .

هكذا كان شأن الأمة الإسلامية في أولها ثم عدت عليها بعد ذلك عواد جعلتها تتفرق فرقاً وتقسم طوائف وشيعاً وابتدأت هذه الانقسامات بأواخر عهد الراشدين ثم ما زالت السياسة والحرب الأهلية تغذيها وتنفخ في نارها حتى تمخضت البلاد الإسلامية عن فرق شتى ، وتشعبت كل فرقة إلى شعب وكان هذا هو الأساس الأول لما عاناه وما يزال يعانيه المسلمون إلى الآن ، من تفرق وتنازع وتقاطع وتدابير .

وقد كانت المساجد والمجامع والمجالس أندية رأى ونقاش وجدل ، ذهبوا فيها مع الحرية الفكرية والنشاط العقلي إلى مدى بعيد جعلهم يخوضون حتى فيما نهوا عن الخوض فيه من البحوث العقيمة ، والمسائل التي لا تتصل بها فوائد عليية ، وساعد على اتساع دائرة هذا الجدل امتزاج الثقافات المختلفة والعلوم الجديدة التي جامتهم من الأمم الأخرى حين دخل الناس في دين الله أفواجا من كل جنس ولون حاملين معهم قضايا تفكيرهم وأساليب منطقهم وجدالهم .

ولم تقف الخلافات والآراء عند دائرة المعارف الفكرية الكلامية ، بل شملت  
 الفقه والأحكام التشريعية المستنبطة ، غير أنها لم تكن في هذه الناحية الأخيرة  
 عنيفة ولا مشتتة ، وإنما كانت تجرى في هدوء وسكينة ووقار ، لا يسيطر عليها  
 إلا العلم والحجة والبرهان ، وذلك في عهد الأئمة المجتهدين ، ومن بعدهم من تلاميذهم  
 الذين أشربوا مبادئهم ، وساروا على سنتهم ، فلم نعرف أن أحداً منهم رمى غيره  
 بالخروج على الشريعة ، أو المروق من الدين لخلاف بينه وبينه ، ولم نعرف أحداً  
 زعم لنفسه أنه هو وجهه صاحب الرأي المقدس في الشريعة ، أو فكر في حمل  
 الناس على ما يراه ، بل كلهم ورد عنه ما يدل على أنه يجتهد قد أتى بما وسعه أن يأتي  
 به ، ويحتمل أن يكون مصيباً وأن يكون مخطئاً ، وأن العمدة في ذلك كتاب الله  
 وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما ارتضاه المسلمون من قواعد الشريعة  
 وأصولها العامة ، وما هو ذا مالك رضى الله عنه يصرف أبا جعفر المنصور عما  
 هم به من حمل الناس على « الموطأ » ، ذاكرًا له أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم قد تفرقوا في الأمصار ، وعند كل منهم علم ، وليس من الرأي أن يحمل الناس  
 على كتاب ما إلا كتاب الله .

هكذا كانت روح الفقه تجرى رخاء ، ولذلك نما وزكا ، وأبنت ثمراته ، ودنت  
 قطفه ، ووقى أعظم التوفية بحاجات المسلمين أمة ودولة وأفراد ، وحفظ به  
 التاريخ أعظم تراث فكرى في الأحكام التشريعية والمبادئ الإصلاحية التي تقوم  
 عليها الأمم .

ولذلك أيضاً استطاع الفقه الإسلامى أن يقف على الرأس عزيزاً كريماً فلم  
 يغزه يومئذ فقه فارسى ولا فقه رومانى ولا فقه يونانى ، على كثرة ما دخل بلاد  
 المسلمين من علوم هذه الأمم وثقافتهم ، وعلى ما عهد في المسلمين من ترحيب بالنافع  
 من هذه العلوم والثقافات ، وتلقيه بسماحة وحسن قبول .

ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلدين والمتعصين للذاهب ، كلت مهمهم  
 عن حل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر ، وصادف ذلك عهود الضعف السيامى

وانقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة ، ولا تجمعها جامعة ، ومن شأن الضعف السياسى — إذا أصيبت به أمة — أن يخيّل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة ، وعلم ، وتفكيراً ، وأن تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء .

بهذا وبغيره تأثر أكثر المشتغلين بالفقه ؛ فحكوا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم فى زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط ، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله ؛ ومن ثمّ حكموا بإغلاق باب الاجتهاد ، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد ، وأن تعصب كل منهم لرأى إمام وزعم أنه الحق ، وأن ما سواه باطل ، وأسرفوا فى ذلك إسرافاً بعيداً حتى كان منهم من لا يصلى وراء إمام يخالفه فى مذهبه ومن لا يزوج ابنته لفلان ، أو يتردد فى أكل ذبيحة فلان ، أو فى قبول قضاء فلان ، لمجرد أنه يخالفه فى المذهب ، ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتباعهم فى عدد معين ، وهكذا ضاق أفق الاتباع والأشباع عما اتسع له أفق المتبوعين ، وضاق بهم دائرة الفقه الإسلامى ، وركدت ربحه ، وصوّح نباته ، وقلت ثمراته ؛ وكان من آثار ذلك أن خرج كثير من البلاد الإسلامية عن هذا الفقه عامة ، والتمسوا فقهاً آخر فى هذه القوانين الوضعية يحكمون به ، ويجعلونه نظامهم فى القضاء والتشريع والمعاملات ، التمسوا فقهاً لم يتقيد بهذه القيود الطارئة ، ولم يحد بهذه الحدود المصنوعة ؛ ومن ثمّ رأينا القذى فى العيون ، والشجى فى الخلق حين رأينا أم الإسلام تحكم فى بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام .

ولكننا قد استطعنا فى عهدنا الحاضر — ونرجو أن يكون ذلك أولى الخطا فى سبيل العودة إلى مجدنا الفقهى التشريعى — استطعنا أن نتخلص إلى حد بعيد من آثار هذه العصيات التى تنكرها الشريعة ، ولا يعرفها الأئمة المجتهدون أنفسهم وأن يسير بعضنا مع بعض على وفاق ، فلم نعد نسمع خلافاً يؤدى إلى تضارب أو تقاذف أو تراشق بالتهم بين حنفى وشافعى مثلاً ، وما هو ذا الأزهر الشريف أكبر جامعة إسلامية يدرس فيه فقه المذاهب الإسلامية الأربعة ، ونرجو ألا يكون

هناك من يمنع أو ما يمنع من دراسة غيرها من مذاهب المسلمين إذا تهيأت له أسباب هذه الدراسة ، وإن كلية الشريعة لتدرس في العهد الحاضر إلى جانب الدراسات المذهبية دراسات فقهية متمارئة لا تتقيد فيها بالمذاهب الأربعة ، وما يبشر بالخير أن الأساتذة والطلاب يتلقون هذه الدراسات المقارنة بإقبال وشغف ، وبروح من السباحة ، ورفض العصية المذهبية غير ناظرين إلا إلى الدليل ولا باحثين إلا عن الحق .

إذن قد انتهت هذه المشكلة أو كادت ، ولم يعد لها خطرها ، ولا ضررها ، ولعلنا نشهد في القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرس قهها في الأزهر كما يدرس فقه المذاهب الأربعة ، ويؤمنذ يحق لنا أن نستوفي جهات الفخر برجوع الفقه الإسلامى إلى مجده الأول يوم كانت الآراء المحتكة ، والحجج المتقابلة ، والأدلة ، ووجهات النظر هي مادته وغذاه ، وعمدته في التنوير الفكرى والوصول إلى الحق ، لا قول فلان ولا رأى فلان .

إننا لنستبشر خيراً بهذا ، وقد قارنه في نفس العهد إحساس المسلمين بأنه لا ينبغي أن يحكموا بغير شريعتهم ، وتلك هي الصيحات ترتفع عالية من كل جانب ينادى بها المشتغلون بالفقه الإسلامى والمشتغلون بغيره من رجال القانون والقضاء والتشريع أن عودوا إلى فقههم فإنه عنوان مجدم وعزكم ، وقد أعترف بقيمة هذا الفقه وعظيم صلاحيته مؤثر دولى عمق في مدينة لاهى سنة ١٩٣٧ م . حضره ممثلون للأزهر الشريف والحكومة المصرية ، وما كان هذا كله - علم الله - إلا لأننا نبذا التعصب فتجلى لنا ما في شريعتنا وقهنا من روعة وجلال ، ومن قدرة على مسaire أرقى أنواع الحضارات والمدنيات . هذا هو تاريخ الخلاف في الفقه والتشريع . بدأ خلافاً علمياً مهذباً ، فكان بركة وفتحاً مينا ، ثم تطور إلى عصية مذهبية عمياء ، فكان جموداً وركوداً ، وكان سبياً في انسلخ كثير من الشعوب الإسلامية من تشريعها ، ثم أخذ يعود إلى هدوئه وستته الأولى ، فاستروحنا منه

روح الهضة والتجدد، وابتدأنا نلتفت إليه، ونستعز به، ونسأله بأنه فكرتنا ومنهجنا في الحياة.

هكذا كان شأن الفقه، فإذا كان شأننا في غير هذه الدائرة؟ ما ذا كان شأننا في المعارف الفكرية والتمضيات التي أثارها الخلاف الطائفي والكلامي؟

لقد بكرت هذه الخلافات على المسلمين منذ أول الأمر كما قلنا، وكانت عفيفة حادة، وكانت في نفس الوقت متلونة بألوان مختلفة تبعاً لما كان يمددها من السياسة والأهواء، ولما كان يغذيها من النقائص المختلفة، وظلت هكذا تتزايد وتقوى وتتسع آفاقها، ويتفاقم شرها، حتى أصبح المسلمون فرقاً شتى وطوائف مبعثرة، بل أصبحت الأمة الواحدة متشعبة إلى فرق، والفرقة الواحدة متشعبة إلى شعب، وكلهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم أرباب أديان مختلفة، فلا تعاون ولا تزواج ولا تبادل للأفكار، كل طائفة عاكفة على ما عندها، متعصبة له، نافرة عما سواه تعتقد أنها على الحق، وأن سواها على الباطل، وإذا تقاربت منها طائفتان أو أكثر في بلاد واحدة احتك بعضها ببعض وهاج بعضها على بعض، وكثيراً ما أفضى ذلك إلى سفك الدماء، وتخريب البيوت، وعداوات الأسر والطوائف مما نشهده بأعيننا، ونسمعه بآذاننا في الحين بعد الحين.

وساعد على ذلك المستعمرون الذين يهمهم أن تقطع أسباب المودة، وعوامل الائتلاف بين المسلمين ليسودوا عليهم في بلادهم، وليكونوا هم قبلة المختلفين، والحكم الأعلى بين المتنازعين، وهكذا طواع المسلمون هذه الأساليب الاستعمارية الماكرة، فزادوا من حدة الخلاف بينهم، وتراموا بالكفر والفسوق والزندقة والخروج على الدين، وأمثال تلك الاتهامات الطائشة التي أرثت بينهم العداوة والبغضاء، وزرعت في قلوبهم الحقد والضغينة وسوء الظن، وبذلك ساعدوا على أنفسهم، ومكنوا لأعدائهم من رقابهم وأوصالهم.

حدث هذا كله، وما زال يحدث، مع أن هذه الخلافات عند كثير من طوائف المسلمين وفرقهم لا ترجع إلى أصول الدين، ولا تمس العقائد التي أوجب الله



الإيمان بها ، والتي يعد الخروج عنها خروجاً عن الدين . ومن الممكن — إذا وجدت هذه الفرق من يقرب بينها ، ويدرس أسباب خلافاتها — أن تعرض هذه الخلافات عرضاً هادئاً ، دون تأثيرات خارجية ولا تعصية ، فيتبين الحق فيها ، ويذول كثير من أسباب الجفوة والقطيعة بين أرباب الدين الواحد ، والنبي الواحد والكتاب الواحد .

من الممكن أن يتقارب المسلمون فيعلبوا أن هناك فرقاً بين العقيدة التي يجب الإيمان بها ، وبين المعارف الفكرية التي تختلف فيها الآراء دون أن تمس العقيدة ، ويومئذ يهون الأمر ، فنجمع على ما نجمع عليه ، وإذا اختلفنا لم يكن خلافنا إلا كما يختلف أهل المذاهب الفقهية دون خصام ولا اتهام ، ودون توجس واسترابة وسوء ظن ، مما يجعلنا متقاطعين في معاملاتنا ، ومصاهراتنا ، وثقافتنا .

يومئذ يعود المسلمون كما كانوا أمة واحدة ، دينها الإسلام ، وكتابها القرآن ، ورسولها محمد عليه الصلاة والسلام ، تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتتقبل الكلام فيما وراء ذلك على أنه آراء يدلى كل بما يراه منها ، دون أن تسيء إلى وحدة المسلمين ، أو تكون عاملاً من عوامل فرقتهم وضعفهم .

كان هذا ممكناً ، وما زال ممكناً ، ولا سيما بعد أن اتسع نطاق العقول ، وانتشر لواء العلم خفاقاً ، وأحس المسلمون بضرر ما هم عليه من التفرق والتطاحن . وبأن هذه الخلافات قد احتسبت خلافات متصلة بأصل الدين وأساس العقيدة ، واتخذت لذلك علامة عند أعداء الإسلام على أن هذا الدين لا يستطيع النهوض بأمة تريد أن تنهض وأن تتخذ لها مكانة بين الأمم .

لقد كان من نتائج هذا الاضطراب في الأفكار والمعارف الدينية ، وتكفير كل طائفة للآخرى أو اعتدادها بآرائها على أنها هي الحق وما سواها هو الباطل ، وأن من خرج على هذه الآراء ، فقد خرج على شيء مقدس ومرق أو تزندق أو تطرف . كان من آثار ذلك مثل ما كان من آثار الركود الفقهي حين خرجت

الامة الاسلامية عن فقها إلى ما سواه ، ذلك أن كثيراً من الشباب يخرجون على هذا التراث الفكرى عامة ، ويحبون أنفسهم مشقاته وأهواله ، ويتعدون عن أخطاره ومزالقه ومغبة البحث فيه حذراً أن يضلوا في مجاهله ، أو يصيبهم رشاش من التكفير أو التفسيق ، فتراهم يتجاوزون هذه الثقافات الفكرية الاسلامية ، غير مميزين بين غثها وسمينها إلى غداء على آخر لأرواحهم وعقولهم في المعارف الفكرية الأجنبية ، يتلقفونها من علماء الغرب ومفكره ومستشرقه والمأخوذين به ، ويعتقدونها هى العلم الصحيح ، والغذاء المفيد ، والآراء الصالحة للحياة .

ولقد رأينا هذه النزعة الخطيرة تستولى على شبابنا وكثير من مفكرينا ، وتغلغل في أعماق نفوسهم ، وتسيطر على أفكارهم وعقولهم ، وتعمل عملها دون أن يشعروا أو تشعر الامة بها لها من إيماءات خفية ، وضرر يسرى كالسم الزاعف في أناة ومثابة حتى يهلك أو يتارب ، ومن شأن هؤلاء أن يهون عليهم تاريخهم ، وتصر في أعينهم ثقافتهم ، بل أن يصبح دينهم غير عزيز عليهم ، ولا أثير لديهم ، وربما مقتوه ، وفروا منه ، وتباهوا بأنهم علوا عنه ، وارتفعوا بأنفسهم عن مستواه .

هذه بعض أخطار الفرق الذى منى به المسلمون ، أضعفتهم وأطمعت فيهم أعداءهم ، بل سلطت عليهم هؤلاء الأعداء يسومونهم الحسف والذل وسوء العذاب وهونت من شأن ثقافتهم ودينهم ، وجعلت العزة والسلطان لغيرهم ، وإلما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

من الممكن أن تتلافى هذه الأخطار ، وأن ينجب المسلمون شرها وضررها إذا تعاونت القلوب وتأزرت الجهود ، ونُسيت العصبيات ، ورجعنا جميعا إلى الحق ننشده مخلصين .

إن حوالى أربعمائة مليون من المسلمين منبئين في بلاد الله شرقا وغربا ، لم يؤتوا من قلة ، ولم يؤتوا من فقر في عقولهم ، أو في بلادهم ، أو في استعدادهم ، أو في ثرواتهم الطبيعية ، ولقد شهد التاريخ كيف كانوا أقل من ذلك عددا ، وأقل

من ذلك مالا وثروة وخصبا ، ومع ذلك سادوا وشادوا ، ولفتوا إلى علومهم وأفكارهم ومدنيتهم أهل الزمان ! .

فالمسألة إذن إنما ترجع إلى هذا التفرق والتقاطع ، إلى هذا الفقر الطارىء على النفوس والههم والعزائم ، وقد تنبه إلى ذلك كثير من أهل العلم والفكر من المسلمين في عهود مختلفة ، وكانت صيحاتهم تنبعث في الحين بعد الحين ، عالية طورا وطورا خافتة ، ينادون أمتهم أن تنبهى إلى هذا المرض الخطير ، وإلا قضى عليك القضاء الأخير .

ولكن هذا كله — مع شديد الأسف — لم يتجاوز حدود الأمل الذى يساور النفوس . أو القول الذى تجرى به الألسنة والشفاه ، ولم تتخذ خطوات عملية مشمرة لتنفيذه حتى كاد الناس ييأسون من شفاء هذه الأمة . ويتوجسون أن يدركها بسبب هذا الداء الويليل موت نهائى بعد أن ألحت عليها العلة حتى أضعفتها وبرتها !

ولكن الله — جلّت حكمته — أرحم من أن يترك الأمة المحمدية لهذا المصير الفاجع ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، نعم إنها أساءت إلى نفسها ، وخرخت عن دائرة دينها ، وغيرت وبدلت وأعرضت ، إلا أنها ما تزال أمة القرآن ، وأمة خير الأنبياء عليهم السلام ، وإن القرآن الذى أئقذ المسلمين وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، وجمع بينهم ، وألف بين قلوبهم ، وقد كانوا على شفا حفرة من النار فأقذهم منها ، وجعلهم سادة العالم وقادته ، لموجدير بأن ينقذهم مرة أخرى ، وبأن يرفعهم من وهدة خلافهم وأطاحنهم ، وقد أنبأنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بأنه ما تزال طائفة أو طوائف من أمته على الحق لا يضرهم من خرج عنهم إلى يوم القيامة ، وأن الله يبعث في الحين بعد الحين إلى هذه الأمة من يجددها ويسددها ويهديها بفضله إلى سواء السبيل .

لعلنا نلح نور هذا الفجر المنتظر يشع على العالم الاسلامى ، لعلنا ننتظر هذا التجديد الموعود به فى هذا العصر الذى تنبه فيه الغافلون ، واستيقظ النائمون ،

لعلنا نلتبس أن تبزغ هذه الشمس في مصر والعالم الإسلامي بعد أن طال احتجابها عن المسلمين .

نقول ذلك ونحن نقدم جماعتنا هذه - جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية - إلى العالم الإسلامي الذي رزح تحت أثقال التفرق أجيالا بعد أجيال ، وقرونا تطاول عليها الأمد ، فنبشر المسلمين بعهد جديد نرجو أن يكون بدءاً لانقشاع سحب الخلاف من جوهم ، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلى هذا الأرض الشريف سريعة موفقة إن شاء الله .

وقد ألفت هذه الجماعة في مصر حاضرة الإسلام . وملتقى أفكار المسلمين . ونهضاتهم ، ومشرق شمس الأزهر الشريف ، تلك الجماعة العلمية الإسلامية التي تهوى إليها أفئدة من الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، على أن تكون لها فيما بعد فروع في شتى البلاد ، ومختلف البقاع ، تسير على نهجها ، وتخدم فكرتها . وتعاون على جمع كلمة المسلمين بكل ما تستطيع من أنواع المعاونة .

وإننا — حين نعلن في العالم الإسلامي نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمى — لندرجو من كل مسلم أن يتقبلها بقبول حسن ، وأن يضم جهده إلى جهود أعضائها ، وأن يبث فكرتها ويعمل على تحقيق غايتها ، نرجو ذلك من كل أمة وطائفة وجماعة وفرد ، ونرجوه من كل من يؤمن بالقرآن ، ويعتقد برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

على بركة الله إذن تقدم هذه الجماعة إلى العالم الإسلامي ، وتعلن بادىء الأمر أنها ذات أغراض دينية اجتماعية فقط ، كما جاء في قانونها الأساسي ، ذلك القانون الذي اتفق عليه أعضاؤها المؤسسون ، وهو العهد بيننا وبين المسلمين ، في ظل الإسلام ، وتحت راية القرآن ، نستعين الله على الوفاء به ، والنهوض بتبعاته « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

## في الحجاز

١ — اتصل بدار التقريب بعض الحجازيين ، طالباً مزيداً من الإيضاح عن مهمة الجماعة ، وهل تتناول إدماج المذاهب الإسلامية بعضها في بعض كما يتساءل عنه كثير من أهل العلم في الحجاز ؟

وخير ما نجيب به عن هذا السؤال ، هو أن ننشر ما كتبناه بهذا الشأن إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وهذا نصه بعد الديباجة :

إن قانون جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ويانها يوضحان البواعث التي دعت إلى تكوين هذه الجماعة ، والآمال التي يرجى أن تتحقق على أيديها للمسلمين جميعاً إن شاء الله ، ومع هذا نحب أن نبين في كتابنا هذا إلى جلالكم بعض الحقائق التي يفيد بيانها في تحديد غايتنا وأهدافنا :

١ — أن « جماعة التقريب » لا تريد المساس بالفقه الإسلامي ، ولا إدماج مذاهبه بعضها في بعض ، بل هي على النقيض من ذلك ، ترى في هذا الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين ، لأنه دليل على خصوبة التفكير ، وسعة في الأفق ، واستيفاء وحسن تقدير للصالح التي ما أنزل الله شريعته إلا لكفائتها وصونها ، وكل ما تبذله الجماعة من جهود في سبيل الفقه الإسلامي ، إنما هو في دائرة خدمته وتنميته وتسلط نوره الوهاج على شئون الحياة الإسلامية كلها ، وبحث المشكلات التي جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها .

٢ — ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية التي تعتقد العقائد الصحيحة التي يجب الإيمان بها .

٣ — وهي ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية يجعلون لبعض المعارف والآراء التي لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنازع بالألقاب ، ونسيان ما جمع الله عليه القلوب ، وألف به بين المسلمين وترى أن أعداء الاسلام والطامعين في استعمار بلاده وإذلال أهله ، يتخذون

من هذه الخلافات أبواباً يلجئون منها إلى مقاصدهم الباغية ، ويعملون كل ما في استطاعتهم على أذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربوهم جميعاً .

٤ — وتؤمن إيماناً عميقاً بأن من أهم الواجبات الدينية على كل ذى علم ورأى في شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلامية ، العمل على تبصير المسلمين بدينهم ، وقطع أسباب الخلاف والفرقة بينهم بيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها ، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها ، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنه من العقائد وهو ليس منها .

٥ — فالغرض من تأليف « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » هو : أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة ، تركز فيه جهود جميع المقتنعين بها في أنحاء العالم شرقيه وغريه ، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وآراؤهم في رفق وحسن تقبل ، فيتهيئ لها جو من البحث العلى الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة ، وحيثئذ تتجلى أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها ، ويصلون في المسائل والظريات الخلافية نفسها إلى رأى الصحيح الذى يهذى إليه المطلق والدليل ، فإذا بقى بعد ذلك ما لم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به الإبراهيم ، كان أمره بعد ذلك هيناً لا ينبغي أن يفضى إلى التقاطع والتناكر والتقاذف ، وإنما هو الخلاف فى الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضاً ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين .

\*\*\*

ب — كان من نشاط « دار التقريب » أنها نشرت فى موسم الحج جدولاً مفصلاً عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة « الحنفى ، والمالكي ، والشافعى ، والحنبلى ، والإمامى ، والزيدى ، وقد راج هذا الجدول فى البلاد المتقدمة رواجاً عظيماً ، ولقت أنظار كثير من المسلمين . إلى أن آراء فقهاءهم فى فروع عباداتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم .

\*\*\*

## في تركيا:

تبادلت « جماعة التقريب » مع كثير من علماء تركيا ومفكرهم رسالات هامة تتضمن أفكاراً عن بعض المسائل الإسلامية ، وفي مقدمتها مسألة التقريب ، واهتمت بذلك الصحافة التركية بدورها ، وقد كتب إلينا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حمدى الأعظمى عميد كلية الشريعة ببغداد بعد رجوعه من رحلة إلى تركيا كتاباً جاء فيه :

« انتهزت فرصة وجودى فى الآستانة ، فأخبرت الأصدقاء هناك ، وجلّهم من أرباب الفكر وأهل رأى ، وفيهم العالم والمؤرخ والصحافى بما أقدمتم عليه ، وسعيت من أجله ، فاستبشروا كثيراً بخبر إنشاء دار التقريب ، وأظهروا ترحيباً كبيراً بالفكرة ودعوة لها ، حتى أن الأستاذ أشرف أديب ، وهو صاحب مجلة ( ترك إسلام انسكلوبيد ياسى ) ومحرر جريدة ( سبيل الرشاد ) وهو من أفاضل رجال وأساطين النهضة الدينية هناك رجا أن أكتب فى مجلته بحثاً عن دار التقريب فنشرت مقالاً مفصلاً كان له على قصر فى الباع ، وعجز فى الإراع . دوى استحسان كبير ، وإعجاب وتقدير لما تهدف إليه الدار المؤسسة على التقوى والخير والاتحاد إن شاء الله تعالى . »

وقد اتصلت « دار التقريب » بأحد مراسليها فى تركيا طالبة منه موافقتها بأصل المقال المشار إليه . ويسرنا أن نوافى القراء بهذا المقال تقديراً لكتابه ، وللمجلة التى نشرته والبيئة التى اهتمت به :

« إذا كان هناك اختلاف فى الفروع والمعاملات ، وأحياناً فى بعض المسائل الأصولية بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو التابعين ، فما كانت أبداً هذه الخلافات بالتى توجب الخصومة والقطيعة بينهم ، بل إنهم كانوا يرجعون كتاب الله والأحاديث النبوية ، ويحكمونها فيما بينهم ، ونرى خلافتهم فى أكثر الأحيان ترمى إلى التيسير فى الأحكام الشرعية . »

وبعد توسع الفتح الإسلامى رأينا أعداء الإسلام يتدخلون فيما بين المسلمين

ليحرضوا كل طائفة على غيرها ويستفيدوا من الاختلافات الفكرية بين المسلمين ،  
ويذروا بذور النفاق والخصومة .

وبهذا ساقوا المسلمين إلى الضلال ، وجعلوهم فيما بينهم ألد الخصوم ، ومن  
جهة أخرى تدخلت بعض الأغراض السياسية وسارت على قاعدة ( فرق تسد )  
والترفة بين المذاهب والفرق الإسلامية فأوجدت هوة كبيرة ، وسببت النفور  
والقطيعة ، واشتدت المجادلات والمجادرات ، ولم تقف عند حد على أو إقناعي  
بل تعدت ذلك إلى الشتم والسب والتقاذف بالتهم ، حتى انتهى الأمر إلى الاشتباك  
بالسيوف ، وعلى أثر ذلك ضعف المسلمون ، ومع أن معبودهم واحد وكتائبهم واحد  
ورسلهم واحد وقبلتهم واحدة ، تفرقوا وذهبت ريحهم ، وكسرت شوكتهم ،  
وضاعت قدرتهم ، وبدل أن يدخلوا العالم تحت لواء التوحيد والهداية الإسلامية  
رجعوا القهقري وخسروا نفوذهم وسلطانهم .

هذا الوضع المؤلم المفجع دفع بعض علماء المسلمين ومفكرهم إلى التفكير في  
القضاء على هذه التفرقة ، والتثبت بالعمل لعلاج هذه الحالة ، لكنهم وجدوا أن  
الخصوم جعلوا هذه الحفر بالفرقة بين المذاهب عميقة إلى حد لايسهل معه التغلب  
عليها ، والوصل بين المسلمين .

ومنذ خمسة وثلاثين عاما فكر بعض علماء أهل السنة ونجتهدى الشيعة في العراق  
في الاتحاد والاتفاق للقضاء على الاختلافات ، وتوسلوا إلى ذلك بالمواظع والتشرات  
ولكن ذلك للأسف صادف وقت الحرب العالمية الأولى وفيها استشهد بعضهم  
، ما جر إلى تعطيل العمل ، أما في هذه المرة فقد تكونت في مصر جماعة من كبار  
علماء المذاهب الستة ومفكرهم ليقضوا على الخصومات والفرقة ونظروا إلى ذلك  
الأمر نظرة جدية على أساس قويم يبشر بنتائج عظيمة .

حين كنت بالعراق واصلني من العالم الكبير والمفكر الإسلامي العظيم حضرة  
صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم كتاب بنبأ أن هذه الجماعة ألقت  
في مصر وأذاعت على العالم الإسلامي بياناً ووزعت على المسلمين قانونها الأساسي



ومن واجب كل مسلم أن يعضد هذه الجماعة ويؤيدها لتصل إلى مقاصدها السامية .  
وبعد أن ذكر الأستاذ أسماء أعضاء الجماعة ومذاهبهم الدينية التي تشمل الحنفية  
والمالكية والشافعية والحنابلة والإمامية والزيدية ، ذكر أن أهل العراق بصد  
تكوين فرع لهذه الجماعة هناك ، وأن النشاط والهمة في ذلك مبذولان ، ثم ختم  
مقاله بقوله :

« نرجو أن يتقبل العالم الإسلامي في كل الممالك أفكار هذه الجماعة تقبلًا حسنًا ،  
وأن لا يدخروا وسعًا في نصرتها . إن السعي والعمل علينا . والتوفيق والنصر  
من عند الله تعالى . »

### في إيران :

وهذه مقتطفات مما ورد إلى دار التقريب بأقلام أصحاب الفضيلة والسماحة  
كبار علماء إيران ، نرتبها في النشر بحسب تاريخ ورودها :

« لقد تسلمنا بيد التكريم قانونكم الأساسي الكريم ، فكان - والحق يقال -  
برداً وسلاماً على إبراهيم وآل إبراهيم ، وهذا قصارى ما كنا نتمناه من الباري  
عز اسمه ، أن يقيض الله للعالم الإسلامي رجالاً غيارى يدركون ما آل إليه أمر  
المسلمين من التفكك والانقسام ، ، وما هم عليه من التفرقة وعدم الزمام ، فيقومون  
بالواجب الملقى على عاتقهم خير قيام ، فالمسجدون اليوم نيام ، فهل من مستيقظ ؟  
« لييك اللهم لييك ، جهاداً في سبيلك ، وتوكلاً عليك ، »

الحاج شيخ اسماعيل نجفی - أصفهان

\* \* \*

« لا أجد عبارة تعرب عن سرورى وابتهاجى بتشكيل تلك الجمعية ، وسعيها  
وراء المقصد العالى الذى هو السبب الوحيد لإعادة مجدنا الأول ، ونجاتنا مما أصبحنا  
فيه ، فحسبى أن أسأل الله التوفيق وتحقيق الآمال »

سيد صدر الدين صدر - قم

« نحن معجبون بطريقكم المثلّي ، ورويتكم المرغوبة الحسنى ، ومعاونون لكم في فكرتكم السامية ، ومظاهرون إن شاء الله إياكم في أداء رسالتكم الإسلامية ، ونسأل الله أن يثبتنا وأياكم بالقول الثابت ، ويمن علينا وعليكم بالتأييد والنصر »  
محمد تقى الموسوى الخوانسارى - قُسم

[ وقد جاءنا كثير من الرسائل غير هذا من كبار العلماء هناك ، وموعدنا بنشره الأعداد القادمة إن شاء الله ]

## في الباكستان :

بين « الباكستان » و « جماعة التقريب » صلة وثيقة ، فقد تقاربا حتى في الوجود والنشأة ، فبينما كانت دولة الباكستان على أهبة الظهور في المحيط الدولي ، كانت « جماعة التقريب » تتكون ثم تظهر في المحيط الإسلامى ، وقد اشترك أهل الفكر والرأى في الهند قبل التقسيم في مشاورات التقريب عن طريق المراسلة ، بل اشترك فيها بعض حضرات علمائها بحضور الجلسات الأولى ، حين كان قانونها الأساسى يدرس ، وبيانها الأول إلى العالم الإسلامى يوضع ، ولم تزل هذه الصلات الوثيقة تزداد قوة وتأكداً بعد نشأة « الباكستان » تحت قيادة زعيمها الأول المرحوم السيد محمد على جناح ، وتبادل الرسائل والمشاورات بين التقريب وكبار أهلها ، وعلى رأسهم الزعيم المبرور ، حتى كانت الجلسة العامة التى عقدت بدار التقريب في اليوم الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ١٣٦٨ هـ ، وحضرها — بصفة خاصة رجال السفارة الباكستانية — فتقرر في هذه الجلسة تفويض حضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا رئيس الجماعة بمناسبة سفره إلى الباكستان في عمل كل ما يراه لصالح الجماعة ، وتوثيق الصلات بينها وبين أهل باكستان ، ولاسيما إنشاء فرع للجماعة هناك ، وقد كان هذا القرار بالإجماع ، واقترن بترحيب كبير من الأعضاء ، ثم ورد إلى الجماعة بعد ذلك كتاب من الباكستان بتوقيع حضرة السيد المحترم الأستاذ عبد المنعم العدوى يبشر فيه « بأنه قد تأسس فرع للجماعة في الباكستان ، وانضم إلى عضويتها كثير من الوجهاء والكبراء ، وأنهم

ينتظرون بفارغ الصبر وصول حضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا  
رئيس الجماعة ليعرضوا على سعادته نتيجة ما تم في ذلك ، ويستشيروا بأرائه القيمة  
في استكمال الأمر على خير وجه .

ويسر رسالة الاسلام ، أن تقل إليهم في أول أعدادها تحيات الجماعة ونهنتاتها  
وأن تحي على وجه أخص سعادة الرئيس وهو بين ظهرانيهم ، والله معكم ولن  
يسركم أعمالكم ؟

## رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار القُرْآنِ بين المذاهب الإسلامية بالقطيف

مدير الإدارة  
عبد العزيز محمد عيسى

رئيس التحرير  
محمد محمد المدني

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا - الزمالك - بالقاهرة

تليفون ٥٨٩٨٤

في البلاد العربية : خمسون قرشا مصريا  
في أمريكا : أربعة دولارات  
في البلاد الأخرى : ليرة انجليزية

قيمة الاشتراك للسنة

# فهرس

٣	كلمة التحرير	محمد محمد المدني
٥	المسلمون أمة واحدة	لصاحب السعادة محمد على علوبة باشا
٩	بيان للسلمين	لصاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم
١٣	تفسير القرآن الكريم	د محمد شلتوت
٢٢	التثبت قبل الحكم	د العلامة كاشف الغطاء
٢٦	وظيفة الدين في المجتمع	د العزة الأستاذ أحمد أمين بك
٣٠	بين القانون الروماني والشرعة الإسلامية	د محمد الشافعي اللبان بك
٣٦	وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية	د الفضيلة الشيخ محمد تقى التميمي
٤٠	فريضة الحج	لفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف
٤٥	إلى الدين من جديد	لصاحب المعالي الشيخ محمد رضا الشيبى
٤٨	لاخلاف فى الدين الحق	د العزة محمد فريد وحدى بك
٥٢	الفقه والفقهاء فى مصر على عهد المالك	لفضيلة الشيخ عبد العزيز المراغى
٦٠	مستقبل البشر بعد انقسام نواة الذرة	للدكتور محمد محمود غالى
٦٩	اليمن منذ ظهور الاسلام	لحضرة القاضى عبد الله الجرافى
	الباكستان : شخصية جديدة فى المحيط	
٧٤	السياسى الدولى	لأستاذ أحمد محمد عيسى
٨٢	المغرب الإسلامى	للسيد محى الدين القليبي
٨٤	من الأدب الغربى - مولد عبقرية	لحضرة الأستاذ مصطفى طه حبيب
٨٧	صوت التقريب	
٨٧	(أ) البيان الأول لجماعة التقريب	
٩٧	(ب) فى الحجاز	
٩٩	(ج) فى تركيا	
١٠١	(د) فى إيران	
١٠٢	(هـ) فى باكستان	

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

جمادى الآخرة ١٣٦٨ هـ  
أبريل — ل ١٩٤٩ م

السنة الأولى  
العدد الثاني

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونُ  
”قرآن کریم“

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التحرير

لاشك أن بلاد العالم الاسلامى تتمتع فى هذا العصر بقسط وافر من المدنية وألوان الحضارة ، وتعلق من العلوم الحديثة بأسباب ربما جعلت بعض شعوبها فى طليعة الأمم فناً وصناعة وعلماً .

ولاشك أن الوعى القومى ، والإدراك السياسى فى الشعوب الإسلامية قد صحا بعد غفوة طال عليها الأمد ، فاشترأت الأعناق ، وارتفعت الرؤوس ، وامتدت العيون إلى أفق الحياة ترصد كوكب العزة والقوة والحرية أن يبرز ، فيعود الإسلام سيرته الأولى ، ويراه العالم — كما كان ، وكما ينبغى أن يكون — دين السادة والقادة ، والأباة الأحرار .

ولو أن أمراً رجع إلى التاريخ القريب ليعرف حالة الأمة الإسلامية فى القرنين الماضيين ، لوجدها قد وصلت الى أدنى درجات الضعف والانحلال ، والجهل والتخبط ، والذل والاستعباد ، لا فرق فى ذلك بين النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية والصناعية والصحية ، ولا فرق فى ذلك أيضاً بين شعب وشعب فى ربوع أفريقيا ، أو أنحاء آسيا ، أو أرجاء أوروبا ، أو حيث تردّد كلمة التوحيد فى أصقاع الصين والملايو واندونيسيا ، ولكن هذا الظلام قد بدأ ينجاب شيئاً فشيئاً منذ أواخر القرن الماضى ، حتى أصبحت العيون ترى ، والآذان تسمع ، والقلوب تدرك ، ولا سيما بعد هاتين الحربين الضروسين وما سبقتهما أو توسط بينهما من حروب أخرى هزت العالم من بطاحه ورعانه ، وكانت للأمم بمثابة قوارع تصيهم أو تحل قريباً من دارهم ، فتعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

نستطيع أن ندخل تحت هذا الحكم العام - حكم النهضة بعد الرقاد، والصحة بعد الغفوة - كل ناحية من نواحي الأمة الإسلامية إلا ناحية واحدة ، لانحسب أن نسرف فنقول إن الأمة رجعت فيها التهمى، ولكننا نقصد فنقول : إن حظها من النور والتقدم فيها جد ضئيل . تلك هى الناحية المتصلة بالدين علماً وعملاً وأخلاقاً وتشريعاً ، واقتناعاً وتحمساً .

هؤلاء شبابنا لا يدركون من شئون دينهم — إذا استثنينا بعض الخاصة والأزهريين فى مصر ومن اليهم فى البلاد الإسلامية الأخرى — إلا صورة باهتة حائله عن بعض عقائده وتعاليمه ورثوها عن الآباء والأجداد كما يورث المتاع بالانتقال من مالك إلى مالك ، ولم يدركوها عن تطلب وتحصيل واكتساب ، ولذلك نراها مغمورة أو مطمورة فيما حولها من مذاهب وفلسفات وأفكار ، فلا تكاد تبين . على أن النابهين من الخاصة لا يزعمون أنهم قد أوفوا بدراساتهم وتوجيهاتهم وقيادتهم الفكرية على ما ينتظرون ويُنظر منهم ، فما زال بينهم وبين هذه الغاية أشواط وأشواط .

وهذه هى المدارس العامة ، والكليات الجامعية المدنية فى سائر البلاد الإسلامية تحبب فى علوم الغرب وتضع ، فتقدم الى الأمة أعلاما فى الطب والصناعة والفنون المختلفة ، على حين تهمل فيها الثقافة الإسلامية العليا إهمالاً واضحاً .

وتلك هى الكتب التى ورثناها عن سبقنا ما تزال هى المسيطرة على تفكيرنا ، الموجهة لعمولنا ، لأننا لم نجد خيراً منها ، بل لم نستطع أن نجارى أصحابها ونسامتهم فيما نحاول إخراجه للناس من تأليف أو بحوث ، دون أن نعتد عليهم ، أو تنقيد بأساليبهم ، فكان قصارى المفكر فىنا ، أو الباحث منا ، أن يبسط عليهم ، وينشر آراءهم ، أو يولّد من كلامهم وأحكامهم ، فإذا اختلفنا فى شىء كانت لهم الكلمة العليا ، والقول الفصل ، وفى ذلك دليل أى دليل على هبوطنا عن مستواهم - وإن زعمنا لأنفسنا غير ذلك - حيث درنا على محورهم ، وجعلنا لمقاييسهم وموازينهم الفكرية سلطان الحكم لنا أو علينا .



وهذه مواطن الحكم والتشريع والنظام والإدارة والاقتصاد ، جلّتها - إن لم نقل كلها - مقتبس مجلوب مستعار ، نلبسه ضيقاً حيناً ، وحيناً فضفاضاً ، ونحن في غنى عنه بما قدّ الله علينا من دنار ، وشعر لنا من شعار .

ثم أخلاق الإسلام ، وتقاليده الإسلام ، وامتلاء النفوس غيرة على الإسلام وحاسة للإسلام . أين نحن من ذلك اليوم ؟ لقد كان ذلك فيما مضى سياجا حصينا يعصمنا من التدهور الخلق ، والانحلال النفسى ، وكنا نؤمن بإيمان الراسخين بأن لنا مقومات ، لو خرجنا عنها لخرجنا عن أنفسنا ، ولو فرطنا فيها لفرطنا في وجودنا ، فلما طوّعنا المدنية الحديثة تطوّعنا لها بأنفسنا ونساتنا وأبنائنا وتقاليدها ومقوماتنا ، فصاغتنا خلقاً جديداً ، لتجعلنا أسواقاً تجارية لسلعها ، وخذّاماً مخلصين لسياستها وأغراضها ، وميادين تتنافس عليها دولها ، ويطلع فيها كل طامع حتى مُنفايات الأمم ، وشذّاذ الآفاق .

هذه حالتنا - معاشر أهل الإسلام - وهذا موقفنا من شريعة الإسلام ، وتراث الإسلام : حقيقةٌ يجب أن تُعلم وتذاق ، وإن كانت بَشِعة الطعم مُرّة المذاق .

على أن الأمر لم يصل بنا إلى حد اليأس ، ومعاذ الله أن يئس المؤمنون ، إنه لا يئس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون .

فن الممكن أن يتآزر المسلمون في جميع شعوبهم وبلادهم على إصلاح هذه الناحية الأساسية فيهم ، وإن الفرصة لذلك لسانحة ، حيث تنبه المسلمون ، وفتحت عيونهم على حالة العالم الآن ، وهو يتنقل بسبب إنكاره للقيم الروحية ، وإفراطه في المادية ، من فشل إلى فشل ، ويرزح تحت أثقال حروب متلاحقة ، لا يكاد يفيق من إحداها إلا ليصرع بأخرى .

ألا وإن أول من يطالب بذلك هم العلماء وأهل الرأى والفكر ، فإن الله قد أخذ عليهم الميثاق كما أخذه على النبيين : لِيُبَيِّنَنَّه للناس ولا يكتمونه ، وقد نادى بذلك حكماء الأمة من قبل في القديم والحديث ، ومن بينهم السيدان المصلحان :

جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده المصرى ، ولعل المسلمين يؤمنون لم يكونوا قد انبعثوا لإصلاح شئونهم كما انبعثوا اليوم .

وإني أثبت هنا نص ما جاء فى العدد الخامس من مجلة « العروة الوثقى » ، التى كان يصدرها الحكميان العظيمان ، عن تلك الناحية من نواحي الإصلاح فى الأمة :

« من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشرع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذى وقع ، بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهيئاً لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهرته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ، ويجعلوا لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، يأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معتمد واحد حتى يتمكنوا بذلك من شدة أزر الدين ، وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات اللغة ، إذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى إلى نشر العلوم ، وتوير الأفهام ، وصيانة الدين من البدع » .

وإننا نلرجو أن يكون الله قد أذن بتحقيق هذا الأمل الذى طالما اشتاقت إليه القلوب المؤمنة ، والنفوس الطيبة ، وأن يكون « المعقد العام » الذى أشار به الحكميان و « المعاهد » الأخرى التى تتصل به هى « دار التقريب » فى القاهرة ، وفروعها فى شتى البلاد الإسلامية .

أما « رسالة الإسلام » ، فلعلها « العروة الوثقى » فى هذا الزمان ؟

محمد محمد المرنى

# تفسير القرآن الكريم

محضر صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَكْتُمُ  
فِيكَ السِّرِّ . أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم  
بسم الله الرحمن الرحيم  
جملتان : تعرف أولاهما في لسان  
الشرع ، وعند المسلمين « بالاستعاذة »  
وتعرف الثانية « بالبسملة » أو « التسمية » .  
الاستعاذة :

وقد أمر الله بالاستعاذة عند أول كل قراءة ، فقال في سورة النحل المكية :  
« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » وأمر بها في كل موضع  
يتوجس فيه الإنسان شيئاً من المخاوف أو الوسوس التي تدفع به في مجرى العادة  
إلى الشر ، قال تعالى في سورة الأعراف المكية أيضاً : « وإما يئزغك من الشيطان  
نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » وأمر رسوله على وجه العموم أن يستعذ  
به ، وأن يلجأ إليه ، وأن يتحصن من كل شر « قل رب أعوذ بك من هزات  
الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » . « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق  
ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد » .  
« قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي  
توسوس في صدور الناس من الجنة والناس » .

ولإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم في جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر الهداية ، والشيطان مصدر الضلال ، فهو يتف للإنسان بالمرصاد في هذا الشأن على وجه خاص ، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك فيما يقرأ ، وفيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته ، فعلمنا الله أن تنق ذلك كله بهذه الاستعاذة التي هي في الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله ، وقوة عزيمته في طرد الوسوس والشكوك واستقبال الهداية ، بقلب طاهر ، وعقل واعي ، وإيمان ثابت .

وقد أجمع المسلمون على أن جملة الاستعاذة ليست من نصوص القرآن ، وإنما هي تنفيذ لأوامر القرآن التي ذكرناها ، وتبعاً لها لم يخرج خلاف في أنها تقرأ مع الفاتحة في الصلاة أو لا تقرأ على النحو الذي جرى في البسمة .

#### البسمة :

أما البسمة فقد نقل عن كثير من العلماء أنها لم تعرف بتامها عند المسلمين إلا بعد أن نزلت سورة « النمل » ، وأنهم كانوا يقولون أولاً : « باسمك اللهم » ثم قالوا : « بسم الله » ولما نزل قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » قالوا : « بسم الله الرحمن » ولما نزلت سورة النمل ، قالوا : « بسم الله الرحمن الرحيم » تبعاً لما جاء في السورة من قوله تعالى : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » .

وسواء أصبح هذا التدرج أم لم يصح ، فقد صار من المقرر الثابت عند المسلمين جميعاً أن الشرع أمر بها ، وتندب إليها في أول كل فعل ذي بال ، وصح في ذلك بعض الأحاديث .

#### الرأى الذى نختاره فى البسمة :

وقد أجمع العلماء على أن « البسمة » جزء من سورة النمل ، أما أنها جزء في أول كل سورة ، أو في أول الفاتحة فقط ، أو أنها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة واحدة ، فتلك أقوال ليس من سبيلنا الآن أن نغنى يبحثها ، ولا

بعرض استدلالاتها ، وحسبنا في ذلك : أن الذى يترجح عندنا أنها لم تكن من القرآن إلا في قوله تعالى من سورة النمل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » . وقد تبع الخلاف في أنها جزء من الفاتحة أو ليست جزءا منها : اختلافهم في وجوب قراءتها أو عدمه في الصلاة ، والجهر بها أو الإسرار إذا قرئت .

وقد تكلم المفسرون كثيراً في معنى البسملة ، وفي علاقة بعض ألفاظها ببعض وفي المقصود منها أول السور ، وقد راقنا في هذا المقام ما قاله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه :

ويتلخص في أنها تعبير يقصد به الفاعل إعلان تجرده من نسبة الفعل اليه ، وأنه لولا من يُعَنَّوُ الفعل باسمه لما فعل ، فوله ، وبأمره ، وإقداره ، وتمكينه ، فعنى افعل كذا باسم فلان ، افعله معنونا باسمه ولولاه لما فعلته ، قال الأستاذ : وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات . وأقربه اليوم ما يرى في المحاكم النظامية حيث يتدثون الأحكام قولاً وكتابة باسم السلطان أو الخديوى فلان .

تحقيق المقصود من التسمية في أول السور :

ولعل هذا يرشدنا الى أن القصد منها في أوائل السور ليس هو مجرد التبرك أو الاستعانة كما يقولون ، وإنما القصد منها أولا وبالذات ، لفت أرباب العقول بادى ذى بدء الى أن هذه السُّورَ وما يتلى فيها من آيات ، وما تدل عليه من أحكام وقصص ، إنما هي لله ومن الله ، وليس لأحد من خلقه شيء فيها ، فليست من قول محمد ، ولا من تعليم بشر ، « ان هو إلا وحي يوحى » ، « الرحمن علم القرآن » ، ألا وإن مجيئها على هذا الأسلوب المألوف في إفادة هذا المعنى ، الجامع لوصفين كريمين لم يعهد عندهم أحدهما ، كما لم يعرف اجتماعهما ، وهما الرحمن الرحيم ، لما يُشعر بأن هذا القرآن قد جاء على غير ما يألّفون من كلام الملوك والزعماء والشعراء . وفي هذا إضعاف لروح المعارضة التى يعلم الله أن فريقا من الخصوم سيقوم بها ويروجها ضد القرآن وضد نبي القرآن ، هذا ولا يبعد أن يكون انحطاط ما أثار عنهم في معارضة القرآن ، حتى عن مألوف كلامهم ، أثرا من روعة هذا الشعار الإلهى القوى العظيم : بسم الله الرحمن الرحيم .

### التسمية شعار المسلمين :

هذا هو معنى البسملة في أوائل السور ، وقد صارت بعد شعاراً للمسلمين يقصد به إظهار التبرى من الحول والقوة ، وليس معنى هذا أن الإنسان يتجرد من كل حوله وقوته ، ويلقى بنفسه في أحضان القضاء المجهول أو المصادفات المباغته دون تفكير ولا عمل ولا جهد ، كما يطيب لبعض ذوى الأغراض الفاسدة أن يتصوروا أثر الاستعانة واللجوء الى الله على هذا النحو ، ويجعلون ذلك سبيلاً إلى القول بأن الإسلام يربى في متبعيه بمثل هذه الأساليب روح الاستكانة والضعف والاعتماد على القوى والغيبة المجهولة ، وقد أخطأوا في ذلك ، وضلوا وأضلوا ، فما كان الإنسان في نظر الدين إلا خليفة في الأرض ، يعمل ويكده ، وينظم ويتصرف ويكلف ويحاسب ، ولا ريب أن كل ذلك ينشأ عن الإسلام تهمة إهمال القوى الإنسانية وتعطيلها اعتماداً على اللجوء إلى الله .

على أن التعبير في « بسم الله الرحمن الرحيم » ينشأ هذه التهمة ، فهو صريح في أن للعبد عملاً أساسياً ، وأنه إنما يعمل بأمر الله ولولا الله لما فعله ولما قدر عليه . فأنه هو الذي خلقه ، وهو الذي أودع فيه قوى التفكير والعمل ، وهو الذي أمدها برحمته ، ولو تخلت رحمته عنها طرفة عين ، لما كانت ، ولما كان الإنسان فأين هذا مما يصوره الظالمون ؟

إن الإنسان في هذه الحياة ، وفي كل ما يزاوله من أعمال ، لفي حاجة إلى قوتين يباشر بأحدهما عمله ، ويتولى بالآخرى روحه المعنوية ، فإن للروح المعنوية قيمتها وآثارها في العمل والإنتاج ، فإذا اتجه الإنسان إلى ربه القوى القاهر ، وتمثل عظمته ورحمته ، وجبروته وغضبه ، كان ذلك أدعى إلى أن يُتهدم على ما يريد قوى النفس ، ثابت العزم ، غير متزلزل الإرادة ، ثقة بأنه يأوى إلى ركن شديد ، وكان ذلك في الوقت نفسه أدعى أيضاً إلى تحرى ما يرضى ربه ، والبعد عما يغضبه ، فهو لا يعنون عمله باسم الله ، إلا حيث يعلم أن ذلك العمل يرضى الله ، وإلا كان هائلاً بربه ، ساخراً بولاه .

وبهذا تتجلى فائدة البسملة في اللاحيتين : في تقوية الروح على عمل الخير ، وفي صرف النفس عن عمل الشر ، وهذا أسمى ما يتصور من شعار يتخذ عنواناً لامة من الأمم ..

« الحمد لله رب العالمين » .

هذه أول آية من سورة الفاتحة ، وأصح ما قيل في سورة الفاتحة أنها مكية نزلت قبل الهجرة ، وجاء في بعض الروايات أنها أول سورة كاملة نزلت من القرآن ، ولهذا ، ولأنه يبدأ بها المصحف كتابة ، والقرآن حفظاً وقراءة ، سميت : « فاتحة الكتاب » وقد سميت أيضاً بأسماء أخرى لمعان مناسبة كتسميتها « أم الكتاب » أو « السبع المثاني » أو « سورة الحمد » ... الخ

« الحمد » هو الثناء بالجميل على واهب الجميل ، و « الله » علم الذات الأقدس واجب الوجود ذى الجلال والجمال ، و « الرب » هو السيد المالك المربى ، و « العالمين » جمع عالم ، أريد به جميع الكائنات من كل ما سوى الله عز وجل .

تقرر هذه الآيات ثبوت الثناء المطلق الذى لا يحد لله سبحانه ، وتقرر اختصاصه الأقوى به ، فليس لأحد أن ينازعه إياه ، وليس لأحد أن ينال منه ذرة إلا والله مرجعها ، ومنه مبدؤها ، وتقرر أن هذا الاستحتماق العام الشامل للثناء المطلق إنما كان لأنه سبحانه هو رب العالمين .

فليس شئ من الكائنات سماويها وأرضيها ، مجردها وماديها ، روحانيها وجسمانيها إلا والترية الإلهية قد شملته في جميع أطواره ، ومن جميع نواحيه ، في ذاته وخواصه ، في وجوده وبقائه ، في تمكينه ونفعه والانتفاع به .

تربية الله للعالم :

عمت تربيته جميع الكائنات ، وأعطى كل شئ نهاية ما يطلبه استعداداً ومركزه في مراتب الوجود ، وهذا هو الإنسان الذى جعله الله في أقصى درجات الوجود المادى ، ومنحه مركز الخلافة فى الأرض ، قد رباه فوق هذه الترية الجسمية

الكونية العامة تربية نفسية وعقلية ، ثم رباه تربية تشريعية سبيلها الوحي وبعثُ الرسل ، وكما أنه لا شريك له سبحانه في تربية الخلق والتكوين ، لا شريك له في تربية الوحي والتشريع ، وكما أنه ليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيباً في الخلق أو حقاً فيه ، فليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيباً في التشريع ، والتحليل والتحرير .

ومن هنا كان لله في خلقه عامة تربيتان : تربية خلقية وأخرى تشريعية ، وقد انتظمهما قوله تعالى « رب العالمين » ، وفي ذلك إيحاء قوى إلى أن يُعَمَل الإنسان عقله في هذا العالم ليدرك نواحي هاتين التريتين اللتين جعلتا مناط استحقاق الله للحمد ، واختصاصه بالناء ، فعلى الإنسان لذلك أن يبحث أسرار الله في نفسه ، وفي الحيوان ، وفي البات ، وفي الجناد ، وفي السماء ، وفي الأرض ، وفي الماء ، وفي الهواء ، وفي كل ما خلق الله من شيء ، وعليه أن يبحث في طبيعة العقل البشري ، وما يعرض له من وجوه الزلل إذا استقل بالنظر إلى الأشياء والآراء والأفهام ، وما هو بحاجة إليه من تشريع إلهي يعصمه ويؤازره في إدراك الحق والعمل بالحق .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الإيحاء في هذه الآيات الكثيرة التي تحت على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء كي يدرك الإنسان جهات هذه التربية ، ويؤمن عن علم وبرهان أن الله سبحانه هو رب العالمين ، وأنه المستحق للحمد والثناء ، فانظر إلى آثار رحمة الله . . « وفي الأرض آيات للدوقين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

### سور الحمد في القرآن :

وفي القرآن غير الفاتحة سور أربع بدئت بالحمد لله ، هي : سورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر ، وبذلك تكون سور الحمد خمساً .

ومما تجدر ملاحظته أن هذه السور الخمس قد دارت حول بيان ربوبية الله للعالم من ناحيتها : الخاتمية والتشريعية ، وأن سورة الفاتحة تختص من بينها بأنها أجملت ذكر هذه الربوبية من الجانبين ، وأن السور الأخرى جاءت كتفصيل



لهذا الإجمال ، وافتحت كل سورة منها بعد الحمد لله بما يشعر بنوع التربية التي فصلتها .

فبينما تبدأ الفاتحة « بالحمد لله رب العالمين » فتعم تربية الخلق والتشريع ، وتتبعه بما يؤكد هذا المعنى في الجانبين ، نرى أن سورة الأنعام تبدأ بقوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » فتذكر شأن الخلق والإيجاد ، وتذكر أعراض الكائنات من الظلمات والنور ، وخلق الإنسان من طين ، والقرون الذين مكثهم الله في الأرض ، والسماء والأنهار ، وما سكن في الليل والنهار ، ومفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو ، واستدلال إبراهيم على الله بظواهر الشمس والقمر والنجوم ، إلى غير ذلك مما تغلب عليه ناحية الخلق والتدبير .

ونرى سورة الكهف تبدأ بقوله تعالى : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثرين فيه أبداً وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا يآبأهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » . ثم تمضي في بيان هذه الناحية من ربوبية الله المتصلة ببيان الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله ، ولقت نظر الإنسان إلى ما فيها من عبر ، فيذكر قصة أهل الكهف ، ويذكر تصريفه في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وأنه ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، ويذكر قصة موسى وفتاه والعبد الصالح ، وما كان فيها من عبر ، إلى غير ذلك مما تغلب عليه روح التربية الإلهية عن طريق الوحي وإنزال الكتب ، ثم تحتم بقوله تقريراً لبشرية الرسول ، وإمداده بوحى الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » .

ونرى سورة سبأ تبدأ بقوله تعالى « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير » يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ، فتذكر جانب التربية الخلقية كما ذكرته سورة الأنعام ولكن على نحو آخر ، فتذكر أن جميع ما في

السموات والأرض لله علماً وتصريفاً ، وتعرض للساعة وعلم الغيب على صور شتى ، ثم تعرض لقصص بعض الأنبياء من جهة ما مكن الله لهم في الأرض من تسخير بعض الكائنات لداود وسليمان ، وتذكر سبأ ومساكنهم وما كان لهم من متاع ، وما أصابهم حين أعرضوا عن دعوة الحق ، وتعرض للرزق في مواضع متعددة ، ثم تحتم بيان عاقبة من ضلوا عن الصراط المستقيم ، ولم يُعملوا عتولهم في تلك الآيات الكونية ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا في شك مُريب .

ونرى سورة فاطر تبدأ بقوله تعالى: « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فتجمع كما جمعت سورة الفاتحة نوعي التريية ولكن على تفصيل ، فتذكر خلق السموات والأرض ، وتذكر رسل الوحي من الملائكة ، وأن الله مصدر الرحمة ، بيده إمساكها وإرسالها: رحمة بالخلق ، ورحمة بالتشريع ، ثم تسير في ذكر بعض ظواهر الكائنات ، من إرسال الريح ، وإثارة السحاب ، وخلق الإنسان من تراب وتصريف الله الليل والنهار ، والشمس والقمر ، واختلاف الناس والدواب في الألوان ، ثم تذكر الذين يتلون كتاب الله وينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ، وتبين أن ما أوحى الله به إلى محمد هو الحق المصدق لما بين يديه ، وأنه تعالى يورث الكتاب من اصطفاهم من عباده ، وهكذا تتردد بين التريية الخلقية والتشريعية تفصيلاً بعد تفصيل .

هذه سور الحمد في القرآن ، وهذا هو أسلوبها وهي كلها مكية نزلت في وقت تأسيس الدعوة إلى التوحيد ، واعتقاد أن الله هو مصدر كل خير يصيب الإنسان من جهة حياته المادية ، وحياته الروحية ، وكان ذلك بمثابة تهديد يغرس في النفوس الاقبال على الإيمان ، ويهيئها لاستقبال ما سينزل من التشريع بعد في رضا

واطمئنان وطاعة وخضوع ، وقد أجملت الفاتحة — كما قلنا — جميع ما فصل في هذه السور بكلمة « رب العالمين » .

« الرحمن الرحيم »

هذه هي الآية الثانية من آيات سورة الفاتحة ، تشتمل على اسمين كريمين من أسماء الله الحسنى : الرحمن الرحيم . وقد كثرت أقوال المفسرين في العلاقة بين هذين الاسمين ، فبينما يرى فريق أن الرحمن هو المنعم بجلالته النعم ، والرحيم هو المنعم بدقائقها ؛ يرى فريق آخر أن الرحمن هو المنعم على جميع الخلق ، وأن الرحيم هو المنعم على المؤمنين خاصة ، ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد ، وأن الثاني تأكيد للأول .

ورأى بعض المتأخرين أن الوصفين متغايران تمام التغاير ، فالرحمن صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة والإحسان ، والرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعليمهما إلى المنعم عليه ، ويدل على هذا أن الرحمن لم تذكر في القرآن إلا مجزئاً عليها الصفات كما هو شأن أسماء الذات . « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » « لمن يكفر بالرحمن » « أن دعوا للرحمن ولدا » « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » « الرحمن علم القرآن » ، الرحمن على العرش استوى ، وهكذا .

أما الرحيم ، فقد كثر في القرآن استعمالها وصفا فعليا ، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه . « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » « وكان بالمؤمنين رحيما » « وهو الغفور الرحيم » كما جاءت الرحمة كثيراً على هذا الأسلوب « ورحمتي وسعت كل شيء » « ينشر لكم ربكم من رحمته » ولم يرد في القرآن تعبير ما « برحمانية الله »

وهذا الرأي في نظرنا هو أقوى الآراء ، مما ذكرنا ومما لم نذكر ، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه ، كما أنه ليس مستساغاً أن يقال في القرآن ، إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها .

وللإتيان بهذين الاسمين الكريمين بعد ذكر ربوبية الله للعالمين مغزى عظيم ، ذلك بأن الله بين بهما أن ربوبيته وملكه للعالم ليس مصدرها جبروته وقهره وهو القهار الجبار ، ولكن مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه لجميع خلقه فإنهم بالرحمة يوجدون ، وبالرحمة يتصرفون ، وبالرحمة يرزقون ، وعلى الرحمة يعتمدون ، وبالرحمة يوم القيامة يعثون ويسألون ، فإذا استقر هذا المعنى في نفوس العباد ، وأن الله يتحبب إليهم بصفة الرحمة والأحسان ، كان ذلك أبعث لإقبالهم عليه بصدور مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ، ونحن إذا تتبعنا آيات القرآن وجدنا أن رحمة الله بعباده لها مظهران : مظهر التربية الخلقية ومظهر التربية التشريعية ، والحياة كلها تقوم على المادة والزوج ، وبهذا يتبين معنى قوله تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء » .

وإذا كان الحمد لله ، والثناء عليه ، مرجعهما وأساسهما هو تربيته للعالم ، وإحسانه إليه ، فما أجدد المؤمن أن يتخلق بخلق الله ، وأن يلتمس الحمد والثناء والرضى من الله عن هذا السبيل الكريم . فمن آتاه الله حق التربية ، وحمّله مسؤوليتها من إمام ، أو أب ، أو معلم ، أو زوجة ، أو كذا ، أو كذا . وكلّم راع ومسئول عن رعيته - فإنّ عليه أن ينظر إلى ما كلف رعايته على أنه أمانة عنده من المربي الأعظم ، استخلفه في القيام بها ، والإحسان فيها ، ولويض فيها على سنن الرحمة والإحسان لا الجبروت والطغيان ، فإن ذلك أدنى إلى أن يصلح الله به ، ويصلح له ، وأقرب أن تناله رحمة الله وإحسانه « الراحون يرحمهم الله » . « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

تفرد الله بالملك والمُلْك في يوم الجزاء :

« مالك يوم الدين » ، أو « ملك يوم الدين » .

قراءتان يدل مجموعهما على أن الملك والمُلْك في هذا اليوم العظيم - يوم الدين والجزاء والحساب - لله وحده ، وقد جاء في القرآن : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » ، وجاء : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » ، وقد خول الله في الدنيا لبعض خلقه شيئاً من مظاهر الملك أو المُلْك تنفيذاً لحكمته ونظامه

الذى أرادته لهذا الكون ، ورسم لهم حدود ما يرضيه وما يفضبه ، وأوجب على الناس فى هذه الحدود طاعة الملوك والمالكين ، وانفرد فى يوم الدين بالملك والحكم والإدانة والجزاء ، لا يشاركه فى ذلك أحد من خلق ، ولا يشفع أحد إلا لمن ارتضى ، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ويومئذ توضع موازين الدنيا ، وترفع موازين الآخرة ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وفى هذا تربية أخرى للعبد ، فإنه إذا آمن بأن هناك يوماً يظهر فيه إحسان المحسن ، وإساءة المسىء ، وينال كل منهما جزاءه دون محاباة ولا ظلم ، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم العظيم بيد العليم الخبير الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، تكون عنده 'خلق المراقبة' ، وتوقع المحاسبة ، فكان ذلك أعظم سبيل لصلاحه وصلاح كل ما يعمل .

« إياك نعبد وإياك نستعين » .

كان ما تقدم من الآيات الثلاث تقريراً للحقيقة فى جانب الربوبية ، وعظمتها ، وعموم سلطانها ، وسعة رحمتها ، تقريراً لطرق المبدأ والمعاد ، وأن ربوبية الله قد شملت ما وانفردت بالرحمة والرحمة فيهما ، وقد جاءت هذه الآية تقريراً لجانب العبودية والاستعانة ، وبينت أن الذى يجدر بالعباد أن يتجهوا إليه وحده بالخضوع والخشوع والاعتراف بالحاجة إليه هو ذلك الذى تجلت أوصافه ، ووضحت عظمته ، وصار ظاهراً فى كل شئ حتى لكأنه يُرى ويُتوجه إليه بالخطاب « إياك نعبد وإياك نستعين » .

وبذلك يتجلى - مع ما تقدم من الصفات - معنى جديد هو : معنى قرب الله لعباده ، وشهوده كل أحوالهم ، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد - ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبثق بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم .

## معنى العبادة :

ومعنى العبادة خضوع لا يحد ، لعظمة لا تحد ، وهي تدل على أقصى غايات التذلل القلبي ، والحب النفسى ، والفناء فى جلال المعبود وجماله فناءً لا يدانيه فناء ، وقد يحب الإنسان ويتفانى فى عشق محبوبه ، ويخضع ويتفانى فى الخضوع ، ويستعذب العذاب فى سبيل هذا المحبوب ، ولكنه مهما بلغ لا يسمى عمله «عبادة» فان العبادة هى ما كانت أثراً لشعور بسلطان لا يحد ، ولا يدرك كنهه ، ولا تحصى نعمته .

وإن صور العبادات متى خلت عن هذا الروح ، ولم تكن مبنية على ذلك الشعور . لم تكن واقعة موقعها ، ولا مقبولة عند الله ، ولا مثمرة ثمرتها من رضى الله .

وإذا كانت العبادة هى الفناء فى الله وحده ، فهو صاحب الحق الأوحد فى رسم صورها ، وتشريع أحكامها .

وليس لأحد من العابدين أن يضع أو يزيد أو ينقص فيما رسم الله ، كما أنه لا ينبغي لأحد أن يتوجه بما رسم الله لعبادته إلى أحد من خلقه . فلا ركوع إلا لله ولا سجود إلا لله ، ولا طواف إلا ببيت الله ، ولا نذر إلا لله ، ولا خضوع ولا تذلل إلا لله .

والاستعانة طلب المعونة ، بعد بذل الوسع فى العمل ، والعاقلة لا يطلب المعونة إلا من القادر عليها ، والله هو القادر ، وقدرته شاملة كاملة لا يعجزه شئ . ولا يخرج عن سلطانه شئ . فهو الذى يهيئ الأسباب ، وهو الذى يزيل الموانع ، وهو الذى يعطى إن شاء ويمتنع إن شاء .

وهى شقيقة العبادة ، فلا تكون إلا لله ، ولا ترجى مطلقة عامة شاملة إلا من الله ، وفى ذلك مُسمو بالمؤمنين عن مواطن الذلة والاحتياج لبشر أمثالهم ، أرباب قوى مستعارة محدودة ، وهم فى قوام محتاجون كاحتياجهم ، مستعينون كاستعانتهم ،

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفُسهم ينصرون ، .

التعاون ليس استعانة بغير الله :

وليس في هذا ما ينافي التعاون بين الناس ، وقد طلبه الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، فإن هذا التعاون في دائرة الحدود البشرية لا يخرج عنها ، ولهذا لا يأمر الدين ولا يرضى بطلب المعونة إلا بمن يملكها ، فلا يرضى بالتوجه في طلب الحاجات الى الأموات ، ولا يرضى باستكشاف الغيب بمن يدعون علم الغيب ، ولا يجعل بين خلقه وبينه وسطاء في طلب المغفرة والرضوان .

هذا هو التوحيد الخالص ، وهو سبيل المؤمنين كما رسم الله : « فهؤلاء الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ؛ هم عن سبيل التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون ، .

« اهدنا الصراط المستقيم . »

الصراط المستقيم : هو الطريق الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، وقد كثر كلام المفسرين في المراد بالصراط المستقيم الذي جعل الله طلب الهداية إليه في هذه السورة أول دعوة عليها الإنسان ، وأجمع ما نرى في ذلك أن الصراط المستقيم هو جملة ما يوصل الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام من جهتي العلم والعمل ، وهو سبيل الإسلام الذي ختم الله به الرسالات السماوية ، وجعل القرآن دستوراً شاملاً ، ووكل الى محمد صلى الله عليه وسلم تبليغه وبيانه .

وحسب القاري في معرفة أن الاسلام هو الصراط المستقيم ، وأنه لذلك كان الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، أن يتبع حالة العالم في عصوره المتتابعة قبله ، فإنه سيجد أن العالم كان يتردد بين طرفين من أنراط وتفريط ، وكان ذلك شأنه في كل شيء : في العقائد ، في الأخلاق ، في صلة الإنسان بالحياة ،

في علاقة الفرد بالمجتمع ، في علاقة الأمم بعضها ببعض ، في طريقة التشريع ؛ إلى غير ذلك من سائر الشئون ، وقد جاء الإسلام فأدرك أن العالم لا يصلح بوحدة من هاتين الخطتين ، وأنهما منافيتان للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية ، مُنافيتان لسنن الاجتماع التي تقضى بالوقوف عند الحد الوسط في كل شيء لضمان البقاء والصالح ، وعدم التعرض للانحلال والفساد ، أدرك الإسلام ذلك فجاءت شريعته وسطا لا إفراط فيها ولا تفريط ، ووقعت أحكامها ومبادئها مهما تنوعت وتشعبت في هذه الدائرة التي رسمها كتاب الله عز وجل . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس . . . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . .

هي في العقيدة وسط بين الذين ينكرون الاله ، ويرغمون أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » وبين الذين يقولون بالتعدد ، ويتخذون مع الله أندادا : تقرر في صراحة وجلالة ، أن الله اله واحد ، وأنه المعبود الذي لا يعبد سواه ، « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » ، وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فأياى فارهبون ، ، « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . .

وهي في الأخلاق وسط بين الذين يتحللون من كل الفضائل والذين يشتطون في تصور الفضيلة والتزام طرف التشديد فيها : تقرر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : لا جبن ولا تهور ، لا بخل ولا تبذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لا جزع ولا استكانة . وأساس ذلك كله قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . .

وهي في صلة الانسان بالحياة وسط بين المادية البحتة ، التي لا تعرف شيئا



وراء ما يقع عليه الحس من طعام وشراب ولذات وشهوات وغلبة وبطش وجمع للأموال ، وتكاثر وتفاخر ، والروحانية البحتة التي تزهد في الحياة وتعرض عنها إعراضاً تاماً ، فلا زواج ولا سعى ولا عمل ، ولكن تبطل مطلق وإهمال للأسباب ! يقرر الاسلام في ذلك الوسط أيضاً فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وهي في طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة وسط : لم تدع الناس يشعرون لأنفسهم في كل شيء ، ولم تقيدهم بتشريع من عندها في كل شيء ، بل نصت وفوضت : نصت فيما لا تستقل العقول بإدراكه ، كالعبادات زماناً ومكاناً ، وكيفية ونحو ذلك ، وفيما لا تختلف المصلحة فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، كالمواريث وأصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك ، وفوضت فيما يدرك العقل الخبير فيه ، وتختلف المصلحة فيه بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، ومن هنا وجد الاجتهاد ، وكان من أركان الشريعة الاسلامية حفظ الله به للعقل الإنساني كرامته .

وهي في تحديد علاقة الفرد بالجماعة وسط أيضاً : لم تترك الفرد طليقاً يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ، ولم تدعه كالوحش في القفلة يجرى ويهرج ويعبث ، ويفترس ما يقدر عليه ، ويتحكم فيه الأقوى منه ، ولم تلغ شخصه ، وتنس استقلاله وتضييعه في غمار الجماعة لا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعرف لنفسه وجوداً غير وجودها ، كأنه جزء من آلة يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها ، ولكنها اعتبرته ذات شخصية مستقلة ، وفي الوقت نفسه اعتبرته لبنة في بناء المجتمع ، فأثبتت له ، بالاعتبار الأول ، حق الملكية لماله ودمه والهبة على نفسه وولده ، ومنحته في هذه الدائرة حق التصرف بما يراه خيراً له وسبيلاً لسعادته في حياته ، وأوجبت عليه بالاعتبار الثاني ، حقاً في نفسه بالخروج للغزو والجهاد في سبيل رد العدوان

عن الوطن ، وحقا في ماله بالبذل والإنفاق في سبيل الله ، وأوجبت عليه إرشاد الأمة ، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، وأوجبت عليه أن يعمل لإنجاب النسل الصالح وتكثير سواد الأمة به ، فيختار الولود ذات الدين والخلق ، لتقوى بذلك الأمة ويعلو شأنها .

وفي مقابل هذه الحقوق التي قررتها الشريعة على الفرد للجماعة ، أوجبت على الجماعة للفرد حقوقا لا سعادة إلا بها : كفلت له حفظ دمه وماله وعرضه ، وشرعت لحمايته حق القصاص وحق الحد والتعزير ، وجعلت له حقاً في أن تميته بما لها إذا افتقر ، وبذلك تبادل الفرد والمجتمع الحقوق والواجبات ، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين ، وعدم طغيان أحدهما على الآخر : فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله أو لسانه على المجتمع ساءت حالته وأدركه الضعف والانحلال . ولو ضن المجتمع بقوته على الفرد فلم يكفل له سعادته ، ولم يحفظه في ماله ونفسه وعرضه ، ولم يعنه في حال فقره أو ضعفه ؛ أشقاه وعرضه للهلاك ، وبهذا وذاك تصبح الحياة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل ، بل جحماً لا يطاق !

وكذلك كان شأن الشريعة الإسلامية في تحديد علاقة الأمة بغيرها من الأمم : لم ترض للمسلمين بحياة الضعف والذلة ، وأن يكونوا عزلاً من القوة ينتظرون حظهم ، ويتربصون مصيرهم ، وما تقرره الأمم الأخرى في شأنهم ، ولم ترض لهم كذلك بحياة الظلم والاستبداد ، والفتك بالضعفاء ، والاعتداء على الأمنين في أوطانهم وأموالهم ، ولكنها أمرت المسلمين بالاستعداد والتقوى بالعدد والعدة ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وأمرتهم أن يدعوا إلى الله بالحجة والبرهان لا بالإلجاء والقهر « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ،

ونظرت إلى الحرب وأسبابها الداعية إليها والمفضية إلى شب نيرانها نظرة تتفق وغايتها من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة ، فحصرت أسبابها في دائرة معقولة ، تتناسب وكونها ضرورة من

الضرورات: هي دفع الظلم والعدوان ، وإقرار حرية الدين ، والدفاع عن الأوطان .  
وإن القرآن الكريم ليرشد إلى ذلك في عدة مواضع إذ يقول :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ،  
« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » « أذن للذين  
يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير  
حق إلا أن يقولوا ربنا الله ،

وأساس الدستور العام في ذلك هو قوله تعالى « إنما ينهاكم الله عن الذين  
قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن  
يتولهم فأولئك هم الظالمون ، .

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للسلين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم  
وبين الذين لم يعتدوا عليهم في الدين أو الوطن من كل ما يروونه عوناً لهم على حياتهم  
في شئون التجارة والصناعة والعلم والسياسة والثقافة ، ينظمون ذلك كله على الوجه  
الذي يتبين صلاحه ، والذي تقضى به سنن الاجتماع والفطرة ، والذي لا يتعارض  
مع دستورهم الخاص ، وقد أجازت الشريعة أن تصل هذه العلاقات إلى حد البر  
بهم والإحسان إليهم .

وأساس الدستور العام في ذلك هو قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم  
يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله  
يحب المقسطين ،

هذا هو الصراط المستقيم ، والمبدأ الوسط ، الذي تسير عليه الشريعة الإسلامية  
في جميع أحكامها ، والذي صلحت به لكل زمان ومكان ، واستحقت به الخلود  
إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ،

وقد أكل الله نعمته على عباده - بعد نعمة العمل التي يميز بها المرء بين الخير  
والشر ، والنافع والضار - بهذه الهداية التشريعية التي من شأنها أن تشد أزر العقل

وأن تحمله على الجادة حتى لا يتأثر في أعماله وأفكاره بشهوة ولا رغبة ، فتسلم عقائد الناس من الضلال ، وتصلح أعمالهم وتبرأ من الفساد .

وقد وصف الله هذا الصراط المستقيم بقوله :

« صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

فكان ذلك بياناً له من ناحية العاملين به ، المستقيمين عليه ، الذين حازوا رضا الله ، وتجنبوا غضبه ، وحفظوا من الضلال ، وفي هذا من الإغراء به والإطعام فيه ما يدفع بالناس إلى تلمسه والاستقامة عليه .

وكما بينه الله من هذه الناحية بينه في ذاته بما بثه في القرآن الكريم من آيات العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والمعاملات ، وبذلك ظهر الصراط المستقيم من ناحيته ، وتحدد من جانبيه ، وتمت بذلك نعمة الله على عباده .

### طوائف الناس أمام الحق :

هذا وقد اختلفت أقوال المفسرين في بيان معنى النعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين ، والذي نراه أن الناس أمام الحق ، والهداية الإلهية - كما بين الله في صدر سورة البقرة التي تلي هذه السورة في الترتيب القرآني - أصناف ثلاثة ، وهؤلاء هم طيعي في الجماعة البشرية في كل وقت ، وفي كل مكان :

الصف الأول : المؤمنون : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وبما رزقناهم ينفقون » ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، وهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم ورضى عنهم .

والصف الثاني : الكافرون : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » . وهؤلاء هم المغضوب عليهم .

والصف الثالث هم المناقون الحائرون ، المترددون بين إيمانهم الظاهر وكفرهم الباطن « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » . « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . وهؤلاء هم الضالون المتحيرون .

### كآال الإنسان بكآال قوته :

هذه سورة الفاتحة ، ونحن إذا ألقينا إلى ما سبق نظرة إجمالية ، وجدنا هذه السورة الكريمة ، قد استوعبت ما يتوقف عليه كآال الإنسان وسعاده في الدنيا والآخرة : ذلك بأن كآال الإنسان إنما هو باستكآال قوتين : قوة النظر والعلم ، وقوة الكسب والعمل ، فبالأولى يدرك الحق ويؤمن به ، ويغذى به نفسه وعقله وبالآانية يسلك طريق الخير والفلاح ، والهدى والرشاد .

والفاتحة تكفّل نصفها الأول ببيان الحقيقة التى هى أساس هذا الوجود ، وأصل السعادة المطالمة بتقرير ربوبية الله للعالمين ، ورحمته ورحمانيته ، وتفردة بالسلطان في يوم الدين والجزاء ، وهذا هو الحق الذى يادراكه تكمل قوة العلم والمعرفة .

وتكفّل نصفها الثانى ، ببيان أساس الخطة العملية في الحياة سواء في العبادات أو في المعاملات ، فالعبادة لله ، والاستعانة بالله ، والهداية من الله ، وبالآزام طريق الله ، والبعد عن طريق الجاحدين المستكبرين ، والضالين المتحييرين ، وإن المتبوع للقرآن جميعه ، الواقف على مقاصده ومعارفه ، يرى أنه جاء تفصيلا لما أجملته هذه السورة وحددته من طريق الكآال الإنسانى في قوته .

بهذا كانت هذه السورة « فاتحة الكتاب » ، وكانت « أم القرآن » ، وكانت هى السورة الوحيدة التى تُطلب من المؤمنين أن يقرءوها في كل صلاة ، وفي جميع الركعات ، وفي كل الأوقات ، ويُسرت على لسان كل مؤمن ، وأصبحت في الإسلام كأنها « مجمع أشعة » تثير بضوئها كل شيء ، وتبسطه على كل شيء .

## الحرية والإخاء والمساواة من المبادئ الأساسية في الإسلام

محاضرة صاحب المعالي محمد ملمي عيسى باشا

من توفيق الله أن اختارت « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية (\*) »، لجلتها عنواناً متضمناً غايتها، جامعاً لأهدافها، وهو (رسالة الإسلام)، فإن رسالة الإسلام تنطوي على تبليغها لأهلها فيعملون بأحكامها، ويتبعون أوامرها ونواهيها ولغيرهم، فيفهمون سماحتها وعدلها، ويقفون على ما تقتضي به من مساواة بين الناس جميعاً، وحرية وأمن، ويسلبون بفضائل الإسلام، وبأنه دين يسر لا دين عسر، وبأنه صالح لكل زمان ومكان، يمر للفرد بحقه وللأسرة بكيانها وحرمتها وللعقائد الدينية باحترامها، وحرية إقامة شعائرها، وللدولة بنظامها وسلطانها في حدودها المشروعة، ويوحى بأن الله يؤتي الحكمة من يشاء، ويسيطر الرزق لمن يشاء ويقدر، وينهى عن الغدر والخيانة، وعن الإثم والعدوان، وأن لاعتقاب إلا بعد النهي والتحذير « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

لذلك اخترت الموضوع الذي اتخذته عنواناً لأنه بلغة العصر الحديث شعار الديمقراطية عند الإفرنج، والجامع لحقوق الإنسان التي أعلنتها الفرنسيون في أواخر القرن الثامن عشر إبان الثورة الفرنسية بعد أن قررتا جمعيتهم الوطنية وهم يحملونها في هذه الكلمات الثلاث ( الحرية والإخاء والمساواة )، ولأبين أنها من أسس الدين الاسلامي منذ نشأته أي من نحو أربعة عشر قرناً .

يتفنى بهذه المبادئ كتاب الإفرنج، ويفخرون بأنها سرت سريان الضوء في جميع الشعوب الأوروبية التي قبلتها قبولاً حسناً حيث صادفت هوى في أفئدة أبنائها كما تلقفتها جميع البلاد للمقهورة على أمرها، والواقع أنها أخرجتهم

(\*) محاضرة صاحب المعالي محمد ملمي عيسى باشا هو أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب

من الظلمات إلى النور وقضت على ما كانوا يرزحون فيه من قيود الاستبداد والاستعباد حيث كان الفرد يلقي في غياهب السجون بلا ذنب معين ، ولا زمن محدد حتى يكاد ينسى الى أن يأتيه القضاء المحتوم . وبددت نظام الاقطاعات التي كان يسودها سيد مطاع ، لا معقب لأمره ، له السيطرة التامة على مسوديه في الأموال والأرواح .

ومن يتأمل ير أنها في ذلك الوقت وهو وقت إعلانها ووقت شيوعها وذيوها لم ترن هذا الرنين ، ولم تطن هذا الطنين ، في أهل البلاد الإسلامية ، لأنه لم يكن لها من أثر في أنظمتهم ولا في حياتهم العامة أو الخاصة ، فلم يعتبر الاسلام الفرد مسلوب الإرادة ، مهضوم الحق لا يملك لنفسه أمرا . وقد جاءت تعاليم الشريعة السمحة وأوامر القرآن الكريم ، بالمساواة وبالحرية بين الناس ، ومنعت الفوارق ، فلم يكن لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى ، وأوحت بالإخاء ، إنما المؤمنون إخوة ، ونظمت أفرادهم جميعاً في عقد واحد ، لتجعل منهم أمة واحدة ، إن هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ،

أما في البلاد الأوروبية حيث كان الحال كما صورنا فقد وجب على أهلها أن يهملوا ، وأن يستشروا ، بتلك المبادئ وبضرورة احتضانها ، ولذلك بادروا بتسجيلها ، والعمل على تنقيتها ، فشرعوا يضمنونها دساتيرهم ، ويبنون على أساسها أنظمتهم النيابية ، واعتبروها حقوقاً مقدسة ، لا يحيد عنها ولا يحيص ، وأوجبوا احترامها ، وعدم العبث بها ، ليتمتع بها بنو البشر جميعا ، ومن لم يسر على هداها كان طاغيا ، مستبدا ، عابثاً بالحریات وبالكرامة الانسانية ، قاضياً على المواهب التي أودعها الله عباده ، واختص نفسه بهبتها ، فهو الذي يؤتي الحكمة من يشاء ، فإذا كمت الأفواه ، وخفقت الأصوات ، وخنقت الحريات ، وخرست الألسن ولم يعد يشعر الانسان بحرية في تفكيره وعقيدته ، وقوله وعمله ، فلن تبرز له كفاية ولن تنمو مواهبه ، ولن يخضب ذهنه ، وإذا أحس أنه دون أخيه مرتبة في الانسانية شعر بالمذلة والهوان ، وفترت همته ، وقعدت عزيمته ، ولم يأت نشاطه

بكل ثماره إذ يعمل لحساب غيره لا لحساب نفسه ، ولا يرى أن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولا يعيش قرير العين مطمئن البال ، هادئ النفس .

لهذا أخذت جميع الدساتير تبنى أحكامها على هذه الأسس ، واعتبرتها شعار الديمقراطية الحقة التي تقضى بالمساواة والحرية وحكم الشعب لنفسه ، وأنه مصدر السلطات ، وقد جاء الإسلام من قبل بهذا الحكم فجعل الله أمور المسلمين شورى بينهم ، وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم في الأمر .

نقلت الدساتير بعضها عن بعض هذه الأحكام ، وعلى نهجهم سار الدستور المصرى أخذاً بلغة العصر الحديث . مع أنه نص على أن دين الدولة الإسلام علماً من واضعيه بأن هذه المبادئ لا تتخالف روح الإسلام ، ولا تناقض أحكامه وأوامره ونواهيه ، وقد جرى عليها أهله منذ ظهور الإسلام . وربما كان من المفيد بيان تلك المبادئ . ليعلم المطلع مقدار تطابقها وتمثلها .

تص الدساتير على أن جميع الأفراد لدى القانون سواء ، وأنهم جميعاً متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين ، وأن حريتهم الشخصية مكفولة ، فلا يجوز القبض على أحد ولا حبسه إلا بمقتضى القانون ، وتجعل لمسكنه حرمة ولملكه حرمة لا يجوز العبث بهما ، وتجعل حرية الرأى مكفولة ، ولكل إنسان أن يعرب عن فكره بالقول أو الكتابة في حدود القانون ، ولا تقيد حريته في أى شيء ما لم يحرمه القانون ، ثم أطلقت له حرية الاعتقاد ، وأوجبت على الدولة حماية حرية القيام بجميع شعائر الأديان والعقائد .

هذه هي حقوق الإنسان الشاملة لحرته .

وقد سارت البلاد الأوروبية على هذا النهج حتى نهاية الحرب العالمية الطاحنة الأخيرة ، وبدأت تظهر في الأفق غيوم تلبد ، وسحب تكثف ، تنذر بالويل والتهور وعظائم الأمور ، وانقسم العالم الأوروبى الى كتلتين : كتلة شرقية محورها



الاتحاد السوفيتي وما يدور في فلكه من بلاد البلقان ، وكتلة غربية تتناول سائر بلاد أوروبا الغربية وتوازرها أمريكا .

ولقد اشتد الخلاف بين الفريقين ، وانقلب اتحادهما الحربي الذي كان قائما أثناء الحرب الأخيرة لقمع النازية الألمانية ، الى عداة مستحكم منذر بشر مستطير ومظهر لانشقاق عميق في أنظمة الحكم بين نظام الديمقراطية من جانب ، ونظام الشيوعية من جانب آخر ، وأخذوا يتقاذفون التهم ويجهرون بالسوء ، ويعتلون المساوىء والنقائص .

وترى الانقسام والشقاق واضحاً جلياً في صحافتهم وإذاعاتهم وأحاديثهم السياسية ومناقشاتهم في مؤتمراتهم ، وأدى خوف كل فريق من الآخر الى أن جعله يصرف وقته وماله في تهيتة نفسه للسلح والكفاح واختراع الأدوات المدمرة والأسلحة الفتاكة المهلكة التي قد تؤدي لقضاء البشرية ، والقضاء على المدنية ، وذلك في الوقت الذي بدأت تجاهد فيه شعوبهم لإصلاح ما خربت الحرب من مساكن كانوا يأوون إليها ، وما أهلكت من زرع ، وضرع كانوا يقتاتون منه ، وما يجدونه من صناعة انهارت لتأمين أنفسهم من الجوع والفقر .

وليس يعنينا في هذا المقام من ذلك كله سوى بيان أثره في الناحيتين : الدينية والاجتماعية ، وما تتأثر به حقوق الانسان التي قدسوها وأشادوا بفضلها ، وما حاق بها نتيجة لهذا الشقاق والانقسام ، ومرجعنا في ذلك كله الى ما تأتى به أنباؤهم ورواياتهم ، وما يشاهد من واقع محسوس .

وتعنى الكتلة الغربية على الاتحاد السوفيتي وأتباعه أنهم ينشرون الشيوعية الدولية ، ويبشرون بها في سائر بلاد العالم ، حتى اعتنق مذهبهم شيع من أهلها ، وأنهم يرمون الى قلب النظم الاجتماعية ، وهدم الديانات ، والتشكيك في العقائد السماوية والاستعاضة عنها باعتناق مبادئ هدامة مدمرة ، ويدعون أشياءهم لاضطهاد رجال الدين وتعذيبهم وإلقاءهم في السجون بناء على محاكمات صورية ، واعترافات معتصبة ، والحض على الاضراب والاعتصاب ، وتخريب المنشآت العامة أو تعطيلها

المؤدى لحرمان السكان الآمنين من الماء الذى يشربونه ، والنور الذى يستضيئون به ، والمواصلات التى تنقلهم الى مراكز أعمالهم ، والإغراء على الاغتيالات بغية الاستيلاء على الحكم عنوة واقتداراً بلا مبالاة لآثر ذلك فى الفتك بأرواح الأبرياء الذين لم يرتكبوا ذنباً ، ولم يقتروا جرماً ، وتوحى إليهم بالتجسس وخيانة الوطن ، والقعود عن الدفاع عن حوضه إذا غزاه الاتحاد السوفيتى أو اعتدى على أرضه .

وقد سعى رجال السياسة من أهل الديمقراطية الى العمل لإظهار حقوق الانسان وإعلانها بغية الوصول الى كسب شعوب الاتحاد السوفيتى لجانبهم ، وإظهار مكثون خفائاه وما تضمنه ، ولكن خاب فآلمهم ، وضاع رجاؤهم ، وأعرض عنهم رجال السوفيت أثناء أخذ الآراء أمام هيئة الأمم المتحدة ، ورفض ممثلوه إعطاء أصواتهم والموافقة على الحقوق الآتية :

الحق فى حرية الفكر والضمير والدين وحرية التنقل والإقامة داخل حدود الدولة ، والحق فى ترك بلد الفرد والعودة إليها بحرية ، والحق فى الاشتراك فى الثقافة ، كما امتنع عن إعطاء صوته فى الحق العام الآتى ، وهو أن كل إنسان يولد حراً متساوياً فى الكرامة والحقوق ، بلا سيطرة على عقله وتفكيره وأن له الحق فى الاتصال بالآخرين بروح الأخوة ، وكان من أثر هذا الشقاق والانشقاق أن قررت هيئة الأمم المتحدة إعلان حقوق الإنسان ، وقررت إنشاء محكمة عليا للدفاع عنها .

يدلنا ذلك على أن الأقوام انقسموا فيما بينهم ، فيما يتعلق بحقوق الإنسان ومشتملاتها بينما هى راسخة الأصل فى العالم الإسلامى من وقت نشأة الاسلام ، وظهور رسالته على يد رسوله الكريم .

ولا يزال كذلك الخلاف قائماً إلى يومنا هذا فى أمريكا وجنوب أفريقيا بسبب الأجناس والألوان فلا يحل لجنس أن يجلس مجلس الآخر أو يرانقسه فى مدارسه أو ينتقل معه فى مكان واحد فى مواصلاته ، أو يجالسه حتى فى محلات

اللهو أو المشارب ، وتقدمت أمريكا للكونجرس بقانون يمحو الفوارق بين الألوان الأبيض والأسود والأصفر ، ويجعل الجميع سواء في الحقوق والتمتع بها ، ولكنه لم يصدر إلى الآن ولم يصبح قانونا معمولاً به .

هذا ما يقع اليوم ، فهل نسمع بمثله في عرف الإسلام من يوم نشأته وتدرج فتوحاته الواسعة ، أم جعل الناس سواسية ، لأن الله خلقهم من ذكر وأنثى ، وأمر بمعاملتهم بالعدل والأحسان .

وتذيع الكتلة النزية فوق ذلك أن الشيوعيين يصدرون تعليمات سرية للأحزاب الشيوعية في البلاد الأجنبية تقضى باضطهاد القسس لإرغامهم على الانضمام إلى الشيوعيين والانخراط في سلكهم ، والتبشير بمبادئهم من فوق منابر الكنائس ودحض الدعايات المناهضة للشيوعية ، والمعادية لروسيا .

وجزعا وفزعا من ذلك ، هب جميع رؤساء الكنائس في روما وإنجلترا وغيرهما ، يدينون للناس سوء ما عمل الشيوعيون من عسف وظلم وافتراء ويحذرونهم من الوقوع في شركهم المؤدى للحلاد ، والكفر بالديانات ، وينادى بابا روما بضرورة التسك بأسباب الدين ، لأن الأمم لا تعيش بغير معرفة الله .

ولا نعجب ، إذا رأينا رجال الدين المسيحي يقومون بزيارة رجال الدين الإسلامي ، ويطلبون إليهم أن يتضافروا معهم لمكافحة قوى الشر المدمرة التي تهدف إلى القضاء على الكرامة البشرية ، والعقائد الدينية ، وتستعبد الإنسان بدعوى العمل على إسعاد الطبقات العامة والعمال .

وكان من نتائج ذلك أن تبين خطأ النظرية القائلة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية فصلاً تاماً ، فقد تبينت البلاد الإسلامية بعد ماس شيطان الشيوعية بعض أفرادها ، أن تعاليم الدين الإسلامي ، وتشبع أفرادها بروحها ، أو لإحياء تعاليمها من أقوى العوامل لمناهضة الشيوعية ووقف تفشيها .

فهذه تركيا قررت أن تعلم الدين في مدارسها ، وأن يتلى القرآن في مدارسها

باللغة العربية . وهذه باكستان قررت أن يقوم نظامها على أساس التعاليم الإسلامية ، وأن تضمن لأهل الأديان الأخرى حرية عقائدهم ومذاهبهم ، فإنه دين يأمر بالعدل والإحسان ، ودفع الأذى بحسن الصنيع ؛ قال تعالى « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

وينعى الاتحاد السوفيتي على الكتلة الغربية ، أنها تعمل على إثارة حرب عاتية لماوأتها ترجو من ورائها تحقيق أغراض استعمارية واقتصادية ، ولكنها لا تدفع عن نفسها ما يعزى إليها من إحداث شغب واضطراب وقتن وقلقل مدعية لنفسها أن بلادها بلاد ديمقراطية حقا ، وأنها تحكم بقوة الشعب وحكوماتها ليست بحكومات ديكتاتورية .

وخلاصة القول أنه يظهر أن لاعاصم لهذا الخلف والخلاف إلا بقوة السلاح والفتك بالآرواح ، فقد أنشأت الدول الأوروبية اتحاداً أوروبياً ، تسعى لتدعيمه بالاتفاق مع دول أخرى ، تعاضدها إذا قامت حرب ، واشتعل لهيبها ، واستعر أوارها ، وهي ناحية لا محل لبسطها هنا ، لأن قوام بحثنا الدين وأثره ، وحق الفرد وما يجب أن يتمتع به ، وأن وازع الأديان خير من وازع السلطان .

والمأمل يرى أن مبادئ الاسلام الشاملة لهذه الحقوق لم تأت نتيجة لثورة قامت ، ولا حروب نشبت ، وإنما ظهرت بظهور الاسلام فجاء بها القرآن الكريم وحضت عليها السنة المحمدية ، وعمل بها الخلفاء وأولو الامر من الحكام المسلمين .

ولإني - وإن كنت قابلت فيما سبق بين بعض أحكامها ، وأحكام المبادئ الحديثة - أعود الى تلخيصها فيما يلي ، لأن المقام لا يتسع للبسط والإفاضة :

### في الإخاء :

قال الله تعالى : ( إنما المؤمنون إخوة ) فذكر الإخاء إطلاقاً ، ولم يجعل فارقاً بين حاكم ومحكوم ، ولا سيد ومسود ، وإنما جعلهم جميعاً سواء « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنتى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فالفضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح والعدل والاحسان ، والحض

على التعارف حض في نفس الوقت على نزع الغل والحقد والعدوان . ونهى عن الإثم ، ومن آيات التعارف عند المسلمين أن يأق المسلمون لحج بيت الله من كل فج عميق ، ومن شعوب مختلفة وبلاد متباعدة يجمعهم صعيد واحد ، ويرعون ربهم في يوم واحد ووقت واحد ، وهو يوم عرفات ، ويتساوون فيه جميعا بارتداء رداء واحد ، حتى لا يكون تمييز بين أمير وحقير وغنى وفقير ، بل الكل أمام الله سواء ، أكرمهم عند الله أتقاهم .

### في العدل :

أمرُوا أَنْ يَحْكُمُوا النَّاسَ بِالْعَدْلِ وَأَذْهَبْنَا بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، ومضمون ذلك أنهم أمام القانون سواء ، ولا يحق عليهم عقاب إلا بعد النهي والتحذير ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، وما أمرهم به الله أخذه ، وما نهاهم عنه انتهوا .

وقد أمرهم باحترام دين غيرهم ، لكم دينكم ولي دين ، فاحترموا الديانات الأخرى ، وصانوا أهلها ومعابدها ، وتركوا لهم حرية إقامة شعائرهم وممارسة حقوقهم كما يشاءون .

تركوا لرؤسائهم أن ينظروا في أفضية أهل دينهم ، وجرى الحال على هذا المذوال لعهدنا هذا ، وفي أحوالهم الشخصية لا يقضى بينهم حاكم مسلم إلا برضاهم ، قال تعالى : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ » وبسطوا على أديرتهم وبيعهم وكنائسهم حمايتهم حتى لا يعتدى عليها معتد أو يبغي باغ ، وبلغ من حرص الاسلام أن أشار القرآن الكريم الى ما يجعل معابد المسيحيين ومعابد المسلمين في مرتبة واحدة في حمايتها وأجرى عليهما حكما واحدا حيث قال : « وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَيُوعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » .

فالدفاع عنها جميعا بمثابة واحدة يتولاه القائمون على أمرها أفرادا أو جماعات كما تقوم به الحكومات ، وهذا منتهى احترام العقائد وحرية إقامة شعائرها ، والدفاع عن حرمانها وكيانها .

وكان من أثر ذلك أن رأينا المسلمين والمسيحيين يتكاتفون في الدفاع عن فلسطين والعمل على إنقاذها من أيدي الطغاة الصهيونيين المعتدين على قوم كانوا في ديارهم آمنين ، وينضمون للمسلمين في حماية الأماكن المقدسة وفي بقائها تحت أيديهم لأن تاريخهم الطويل وواقع الحال دلهم على احترام المسلمين لتلك الأماكن وإطلاق الحرية لأصحابها في أداء شعائرتهم كما توجبها مذاهبهم بلا عائق ولا مانع .

أباح للمسلم الزواج من كتابية ، ولم يرغبها على اعتناق دين زوجها ، بينما الاضطهاد قائم لحض الناس على ترك دياناتهم واعتناق المبادئ الشيوعية .

لم يعرف الإسلام نظام الإقطاعات ، وجعل كل نفس بما كسبت رهينة ، فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويمكر ، وجعل نظام التوريث قائما على وضع عادل مانع لحصر الملك في يد فرد واحد كما لا يزال الأمر قائما في بعض البلاد التي تجعل الابن الأكبر يرث التركة جميعها من مال ولقب .

وجرى على اعتبار الفرد حرا من يوم ولادته . ومن الأقوال المأثورة بين المسلمين : فم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وهو الحق الذي رفض الاتحاد السوفيتي الاعتراف به .

لم يعرف تفريقا بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم ، كما هي الحال الآن في أمريكا وجنوب أفريقيا كما شرحنا من قبل ، بل الناس جميعا سواء في حركاتهم وسكناتهم وتنقلاتهم وتصرفاتهم

قال عليه الصلاة والسلام : أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

وإذا شاهد أجنبي مساجد المسلمين رأى المساواة التامة بين جميع من أموا بيت الله ، فلا يتقدم متأخر على سابق بجاهه أو ماله ، ورأى الفقير من المصلين يجلس في صف واحد مع ملك البلاد وعلمائها ووزرائها لا يستطيع أحد أن يصدمه عن مكانه ، وهل بعد هذا من مساواة .

جعل أمر المسلمين بشورى بينهم ، فلم يقصر على حاكم معين ، ولا سيد مطلق التصرف ، فقد اختار المسلمون أول خليفة لهم بالبيعة ، لا بالحسب ولا بالنسب ، ولا بقوة السلاح .

والخلاصة أن تلك الحقوق التي أسموها بحقوق الإنسان وحرياته ، والتي يسعون إليها هي حقوق قائمة معمول بها من وقت ظهور الاسلام ، ولم تنشأ نتيجة لثورة أو حرب ، وعلمنا أن نذكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وأن ندعو إلى سلوك سبيلها لئلا يتنبه الغافلون عن أمور دينهم الذين لم يتبينوا ما كفل الاسلام من نظام شديد حكيم في جميع المعاملات الدينية والمدنية ، حتى لا يخدع أحد بما درس وما قرأ عن المدنية الأوروبية في الديمقراطية ، وهو لم يدر بخلفه أن يدرس ويبحث ويفكر في أصول دينه وما قضى به من أحكام هي أقدم عهدا ، وأثبت أصلا . وهي نور الله الذي يريدون أن يطفئوه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

## الوحدة سبيل العزة

ما استقامت أمة على سنن الرشاد ، ولا تم لها نظام ، ولا بلغت ما تريد من المجد والعز إلا بالوحدة . وما عزت أمة وهابها الأعداء ولا قام فيها عدل وجرت أمورها على الطريق سوى إلا بالوحدة ، وأعظم الأمم قوة وأكثرها منعة هي الأمم التي نسيت الجنسيات التي تسلك منها ، ونسيت العصبيات واستحالت كلها إلى أفراد متجانسة في اللغة والدين والعقيدة والغاية ، والأمة التي تشعر الطوائف فيها بأصولها التي اشتقت منها ، وتشعر بأن هناك فارقا بين طائفة وأخرى ، لا تزال تعاني الشدائد .

[ الشيخ المراغى ]

# أسئلة الإسلام

## لحضرة الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك

من أروع ما في الإسلام وصفه الله ، فإله هو رب العالمين ، عالم الجاد ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، وعالم الإنسان وعالم المجموعة الشمسية ، وعالم غير المجموعة الشمسية مما نعلم وما لا نعلم ، وهو واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . هو الذى خلق الخلق أولاً ، ثم هو الذى يمدّه بالحياة دائماً ، وهو الذى يدبر نظامه ويسيره إلى غايته ، فعلاقته بمخلوقاته لا تنقطع ، ولو انقطعت لحظة لفسدت السموات والأرض ومن فيهما وهذا هو الذى يميز العقيدة الإسلامية عما يعتقده الأوروبيون اليوم فهم يعتقدون أن الله خلق الخلق وتركه يدبر نفسه كما شاء ويدبرونه هم فى دنياهم كما يشاءون ، فهم الذين يقررون الفضائل والذائل ، وهم الذين يسنون قوانينهم وشرائعهم حسبما يترأى لهم ، فإذا ذكروا الله فى أوقات الشدة — كأوقات الأزمات الحرجة فى الحرب — فكل أمة تدعى أنه معها وتستنجد به فى النصر على عدوها ، كأن الله تعالى خادمها لا المسيطر على العالم كله يصرفه ويتمضى فيه حسب سنته التى رسمها . فيزة العقيدة الإسلامية أنها تصفه بالخلق ، وتصفه بأنه يرعى العالم دائماً ويهديه سبيله دائماً ، وتطلب من الإنسان أن يوثق علاقته بربه فيرعى أوامره ونواهيه فى كل تصرفاته ، ويطلب منه الهداية ويؤسس نظراته الى الأخلاق على ما أمر الله به أو نهى عنه ، ويشكل حياته الفردية والاجتماعية حسب تعاليمه ويجتد فى اكتشاف إرادة الله فيتبعها ، ويدقق فى فهم إشاراته فيعمل على وقفها ، ويجعل صلته بالله أقوى صلة ، وجهه لله أقوى حب ، والخوف منه أكبر خوف ، يؤمن أن لا شئ فى الوجود يستطيع أن يبق لحظة من غير إمداده ، هو أول الخلق وآخره ، بمعنى أنه السبب فى خلقه ، والغاية التى



ينتهي إليها وجوده ، وهو الذى وضع للناس القواعد الأخلاقية الأساسية لسيرهم ، وربط الأمر والنهى بما ينفعهم وما يضرهم ، فأمر بما ينفع ، ونهى عما يضر ، وهو الذى يحاسبهم على تصرفاتهم فى دنياهم يوم يلقون ربهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، يقرب إليه المطيعين ، ويبعد عنه العاصين ، يريد من الإنسان أن يعمل لدنياه كما يعمل لآخريته ، وأن يسعى ويجدد فى الحياة مراعىاً أوامره ونواهيه ، لا يترهب ، ولكن يسعى ويعمل ، ولا يغمض عينه عن الدنيا التى يعيش فيها ، كما لا يغمض عينه عن الآخرة التى يرى فيها ربه . وقد كتب الله على نفسه أن يمد بالمعونة من استعان به فى شئونه ورعاه فى حياته ، وأن يخذل من صد عنه ، وعصى أمره ، بيده الملك وهو على كل شئ قدير .

\* \* \*

هذه العقيدة عقيدة وحدانية الله وعظمته وقدرته على هذا النحو، من شأنها أن ترفع نفس معتقها ، فمن الذى يؤمن بإله هذه أوصافه ، ثم يذل لمخلوق أو ينزل الى سفساف الأمور ؟ ومن الذى يؤمن بإله هذه صفاته ثم لا يتحرى الفضيلة فى حياته ويتجنب الرذيلة فى سلوكه . إن عقيدة الوحدانية تجعل الإنسان على أحسن صلة بالناس وبالحيوان وبكل الخلق ، لأنه وإياهم تتاج صانع واحد ومدبر واحد ، فاتصاله بهم وبكل موجودات العالم اتصال أخوة . تجعله لا يذل للغنى وللحاكم ، ولا لذى السلطان ، لأنه لا سلطان إلا لله ، والفروق بين الإنسان والإنسان فروق فى العرض لا فى الجوهر ، وفى الأوصاف الزائلة للأشياء لا فى الخالدة فيها ، والله لا يقوّم الناس بغناهم وجاههم ، ولكن بقلوبهم وأعمالهم . تجعله لا يحتقر الفقير ولا الضعيف ولا المرموس لأنه أخوه أيضاً ، وشريكه فى الحياة ، وشريكه فى العبودية لله ، فهو عزيز النفس فى غير كبر ، أبىّ فى غير عتوّ ، متواضع فى غير ضعة ، ناظر إلى كل شئ نظرة عطف ورحمة ، لا يرضى بالهوان ، لأنه ينتسب إلى الله العظيم ، ولا يرضى أن يظلم أو يُظلم ، لأنه ينتمى إلى الله العادل ، يعمل ويكد فى الحياة ويبتغى أن يكون فى أعلى مقام ، بفضل عقيدته فى الله التى هى أحسن العقائد ، ويحب أن تكون أمة خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . يطيع الله فيما أمر به ، ويتنهى عما نهى عنه ، ويُعمل عقله حيث لا أمر ولا نهى ، لأن العقل منحة الله ، والله أمر باستخدامه والاستبداء به .

\* \* \*

إن كان هذا فما الذى جعل المسلمين فى أنحاء العالم فى الذيل لا فى الصدر ، وفى المؤخرة لا فى المقدمة ، وكان مقتضى العقل أن تجعلهم هذه العقيدة فى طليعة أهل العالم ، وحاملى لوائهم وهداتهم ، والسابقين إلى الخيرات ، والآمرين لا المؤتمرين ، والقائدين الأعزة لا المقندين الأذلة ؟ .

سؤال صعب : والجواب الصحيح أن العقيدة الصحيحة تقوِّم بذاتها لا بمعتقها فقد ينحرف أهلها عنها ، أو يحتفظون بشكلها لا بجوهرها ، ولو آمن بها أتباعها حق الإيمان لصحَّ أن يكونوا مقياساً كما كان معتقوها الأولون ، ولكن مع الأسف فقد المسلمون روح العقيدة وحرارتها وحياتها ، وتمسكوا بظواهرها ، والظواهر لا عبرة بها ، ولا قيمة لها ، والحق أن العالم الآن مسلمه ومسيحيه ويهوديه يعيش من غير عقيدة صحيحة ، أو من غير توفيق بين العمل والعقيدة ، أو بعبارة أخرى هم يعملون من غير أن يكون الباعث على عملهم العقيدة ، ومن غير أن ينظروا فى أعمالهم هل هى مطابقة لعقيدتهم أولاً ، فالعالم صنفان : صنف من الأمم يعيش من غير دين ، أو بدين يؤمن بالله ، ولكن يجعل إلهه طرفة من الطرف فى مكان مغلق يستمتع بالنظر إليه من حين إلى حين ، ولكنه لا يُدخله فى حياته ولا فى تصرفاته ، وصنف يعتنق الدين بصفاته الصحيحة التى ذكرنا ، ولكنه يعتقد نظرياً لا عملياً ، فالنظم الاجتماعية عند الجميع فى العالم والنظم السياسية ، قائمة على نظرات آلية ميكانيكية ليس مبعثها الاعتقاد بالله ، واتباع أوامره ، بدليل أن السياسى المتدين والسياسى الملحد يتفاهمان كل الفهم على التصرف فى الأمور ، والاجتماعى المتدين والاجتماعى الملحد سواء فى النظر إلى الأمور على وفق المصالح من غير نظر الى روح الدين .

وقد فقد الدين والعقيدة فى الله ساحة الحياة العملية ، وأصبح المتدينون على

اختلاف أديانهم لهم دين متافيزيقي يعيشون فيه أحياناً بتفكيرهم أو خيالهم، ولم حياة عملية منفصلة عن الدين بتاتاً تسيّر لها الأغراض والمادة، ويخدم كل ذلك العقل، ولا يلاحظ فيها أى ملاحظة، خالق الخلق، وأوامره، وإشاراته، ولا ينبض فيها القلب بأى معنى من معانى العطف والرحمة والطاعة.

والفرق بين المؤمن والكافر اليوم أن المؤمن مؤمن نظرياً كافر عملياً، والكافر كافر نظرياً وعملياً، ولذلك سيبقى العالم مضطرباً حائراً فاسداً حتى يجد روحه وقلبه، وقد تفوق العالم المسيحي على العالم الإسلامى اليوم لأنه كان أعرف بوسائل الأعمال ووسائل الحياة، وأكثر استكشافاً لقوانين التقدم المادى، وقوانين القوة المادية لا لأنه أرقى ديناً وأعظم روحاً، فالعالم كله اليوم مخطئ. إذا نحن نظرنا إليه نظرة روحية، وهو شقى بتقدمه المادى وتقدمه العقل من غير أن تسندهما قوة الروح، وليس ينقص المسلمين إصلاح فى عقيدتهم، ولا روحانية فى دينهم، ولكن ينقصهم أمران: الأول أن يكون الدين روحاً لا شكلاً، وقلباً لا سمواً، وحرارة لا مظهرأ، ونبضاً لا جودأ، وأن تكون «لا إله إلا الله»، و«الحمد لله رب العالمين»، معنى لا لفظاً، وصادرة من أعماق القلب لا من طرف اللسان، وأن يكون معنى «لا إله إلا الله»، أن ليس عرض من أعراض الدنيا إلهأ فالمال والجاه والسلطان ليست آلهة تعبد، ولا قوة يُخضع لها، وإنما الخضوع للحق وحده لأن الله هو الحق، ومعنى أن الله رب العالمين: أن ليس فى العالم رب يطاع وتسمع أوامره ونواهيه إلا هو — جل شأنه —؛ والثانى: ارتباط عملهم بعقيدتهم، وإيجاد العلاقة الوثيقة بين ما يعملون وما يعتقدون، فليس للعقيدة من قيمة إذا حفظت فى خزانة لا تفتح، أو قدست وأهملت. أو لفتت فى ثياب من حرير ثم تركت، فكما أن لا قيمة للسان إلا ما انتفع به ولا لأى عرض من أعراض الحياة إلا إذا استغل للصالحه؛ فأهم من ذلك كله العقيدة: إذا لم يُبين عليها العمل كانت نجماً جميلاً فى السماء، أو لوحة جميلة فى المعرض أو خيالاً بديعاً من أخيلة الشعراء، أو صورة فنية من صور الأدباء. إنما العقيدة الصالحة هى العقيدة يتبعها العمل وتبعث النور فى طريق الحياة وتهدى إلى الصراط المستقيم.

## كيف يسار الفقه الإسلامى تطوراً إنشائياً

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ عبد الوهاب خلاف بك

الفقه الإسلامى هو مجموعة الأحكام العملية التى شرعت لأفعال المكلفين من المسلمين تنظيماً لعلاقة المسلم بربه . ولعلاقة المسلمين بعضهم ببعض . ولعلاقة المسلمين بغيرهم من الأفراد والجماعات فى حال السلم وفى حال الحرب . وبعبارة أوجز هو مجموعة القوانين الشرعية التى يقضى بها فى خصومات المسلمين وتطبق على أفعالهم وأقوالهم وتصرفاتهم فى السلم وفى الحرب .

وفى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكونت المجموعة الفقهية من الأحكام التى أفتى بها رسول الله فيما استفتى فيه . والتى أجاب بها عما سئل عنه . والتى قضى بها فى الخصومات التى عرضت عليه ، وكانت هذه الأحكام تارة يتلقاها الرسول عن الله بالوحي الظاهر فى آية أو آيات من القرآن الكريم . وتارة يتوصل إليها باجتهاده فيما لم يتلق فيه وحياً ظاهراً من ربه . وكان فى اجتهاده ملحوظاً بالرعاية الإلهية ، إما بالهامه بالحق والصواب إذا أخذ فى اجتهاده ، وإما برده إلى الحق إذا اجتهد ولم يصل باجتهاده إلى الصواب . والله حكمة بالغة فى أنه شرع أحكامه بالوحي القرآنى الظاهر تارة . وبالوحي الباطنى وهو إلهام رسوله تارة وبالإرشاد إلى الصواب بعد الخطأ فى الاجتهاد تارة

وهذه المجموعة الفقهية الأولى تجلت فيها عدة ظواهر :

الظاهرة الأولى : أنها كانت قليلة فى عدد أحكامها ، لأنها شرعت الأحكام لما وقع فعلاً من الحوادث ، ولما واجه المسلمين فعلاً فى حربهم وسلمهم من

الطوارئ . وما شرعت أحكاما لوقائع فرضية ، ولا لطوارئ احتمالية ، وحاجات المسلمين فى ذلك العهد كانت محدودة ومعاملاتهم كانت سهلة يسيرة ، لم تعقدها مشاكل الحضارة ولا السعة فى مبادلات التجارة ، وخصوماتهم كانت قليلة ، ولهذا نرى أن آيات الأحكام فى القرآن نحو خمسة آية ، أكثرها فى العبادات ، وما يلحق بها من الأحوال الشخصية ، مع أن عدد آيات القرآن كله نحو ستة آلاف ، وأحاديث الأحكام أكثرها بيان لأحكام القرآن ، أو تأكيد وتقرير لها . والأحاديث التى شرعت أحكاما سكنت عنها القرآن ، تقرب من آيات الأحكام فى عددها

الظاهرة الثانية : أن أحكام هذه المجموعة مستقاة من المنبع التشريعى الأول لأنها إما من كتاب الله . وإما من سنة المعصوم ، ولهذا كانت لها قدسيها ، ولم تكن فى حاجة إلى قوة مادية لحل المسلم على اتباعها ، وكان قضاء الرسول أشبه بإفئته ، فى أن كلا منهما تبيين للحق ولحكم الله ، والمسلم مدفوع بدينه إلى اتباعه

الظاهرة الثالثة : أنها ما كان فيها اختلاف ولا اشتباه . فما نص على حكمين مختلفين لواقعة واحدة وما اشتبه على مسلم فهم حكم ، لأن مصدر الأحكام الله ورسوله ، والمرجع هو رسول الله وحده . وكانت هذه الأحكام مصوغة فى قالب قانونى روحى أخلاقى وفى أكثر موادها يتبين الحكم ، وتبين المصلحة التى شرع لها ، وما يترتب عليه من تحصيل نفع أو دفع ضرر ، وبهذا كان المسلم يفهم الحكم حق فهمه ، لأنه يعرفه ويعرف ما قصده الشارع به ، وينفذه بدافع من ضميره ووجدانه ، لأنه يتق بتنفيذه الضرر ، أو يحصل به النفع : وأكثر أحكامها كانت مبادئ عامة وقواعد كلية : بمجملتها حيث المصلحة فى إجمالها ، ومفصلة حيث المصلحة فى تفصيلها . وكانت هذه المجموعة كاملة وافية بحاجات المسلمين . وخصوماتهم ، ومعاملاتهم ، ملائمة أحوالهم ، ولقد عدلت بعض أحكامها لتطور حال المسلمين فى ذلك العهد : فنسخ حكم ، وشرع بدله ما هو مثله أو خير منه فى تحقيق مصالح الأفراد والجماعات من المسلمين

ولما انتهى عهد الرسول وأبتدأ عهد أصحابه ، واجهت الصحابة طوارئ

لم تواجههم في عهد الرسول ، وحدثت لهم وقائع ، وظهرت فيهم خصومات ، وجدت لهم حاجات فنظر خاصتهم وأهل العلم والفتيا منهم في تعرف أحكامها الشرعية ، وكان أساس نظرهم واجتهادهم المجموعة الفقهية الأولى بما سنته من أحكام وما قررته من مبادئ ، وما أرشدت إليه من مصالح ، فتوصلوا بالنظر فيها وبالاجتهد على ضوئها الى جملة من الأحكام الشرعية العملية ، استمدوا بعضها من النصوص من طريق عبارتها أو إشارتها أو دلالتها ، واستمدوا بعضها من طريق القياس على ما ورد في النصوص أو رعاية المصالح المرسلة أو غير هذين من طرق استمداد الأحكام التي أرشدهم إليها الله ورسوله ، ومن فتاوى الصحابة واجتهادهم في النصوص وفيما لا نص فيه تكونت المجموعة الثانية مبنية على أساس المجموعة الفقهية الأولى ، ومبينة وموضحة لنصوصها ومسيرة مصالح المسلمين وحاجاتهم . فكما سائر الفقه مصالح المسلمين في عهد الرسول سايرها في عهد أصحابه وكما نما واتسع في عهد الرسول تبعاً لنمو معاملات المسلمين واتساع دائرة حاجاتهم نما واتسع في عهد أصحابه . وكانت هذه المجموعة الثانية على سنن المجموعة الأولى تشريعاً لحوادث واقعة ، في قضاء في خصومات عارضة ، وليس فيها تشريع لفروض احتمالية ، ولا لإجابة عن «أرايت» ، وإنما افترقت هذه المجموعة الثانية عن المجموعة الأولى في أنه وجد فيها اختلاف في أحكام بعض الوقائع تبعاً لاختلاف الفتاوى التي صدرت من الصحابة فيها . وهذا الاختلاف ضروري الوقوع إما من اختلاف المفتين في فهم النص ، أو من وقوف أحدهم على سنة لم يقف عليها الآخر ، أو من تقديره لمصلحة لم يقدرها الآخر تقديره .

ولما انتهى عهد الصحابة وابتدأ عهد التابعين وتابعيهم والأئمة المجتهدين في أوائل القرن الهجري الثاني كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت رقعتها ، وانتظمت بلاداً متناحية ، وشعوباً مختلفة النظم والامادات والمعاملات بما فتح الله للأمويين في الشرق وفي الغرب ، ودخل في دين الإسلام أفواج من غير العرب من الفرس والروم وغيرهم ، ولكل هذه البلاد المتناحية والشعوب المختلفة نظام ومعاملات ومصالح ، ما كان للمسلمين عهد من قبل بأكثرها ، والحاجة ماسة الى التقنين لها ،

وسن الأحكام التى يقضى بها فى خصوصاتها وتطبق على معاملاتها ، لهذا أخذ فقهاء التابعين وتابعيهم وعلى رأسهم فقهاء المدينة السبعة ، وفقهاء الكوفة ومكة ومصر ، وسائر الأمصار الإسلامية فى استنباط الأحكام وسن القوانين التى تقتضيها حاجات المسلمين ومصالحهم ، وكان أساس اجتهادهم المجموعة الفقهية الأولى ، والمجموعة الفقهية الثانية ، وكان ميدان اجتهادهم التشريعى فسيحاً ، وحاجات المسلمين تتطلب منهم قوانين كثيرة ، وقد وفوا بحاجات المسلمين ، واستنبطوا الأحكام التى اقتضتها وفى هذه البيئة التشريعية الخصبة ، والحركة الاجتهادية المباركة ظهر الأئمة المجتهدون أبو حنيفة ومالك والشافعى وداود والأوزاعى وأحمد وكثير غيرهم ، فاجتهدوا واستنبطوا واستضاءوا بنور المجموعات الفقهية التى تكونت من قبلهم ، وسايروا مصالح المسلمين ، وما ضاق الفقه بحاجة ولا قصر عن مصلحة بل استنبطوا الوقائع فرضية ، والخصومات احتمالية ، وما شعرت حكومة إسلامية ولا فرد أو جماعة من المسلمين بقصور الفقه عن مصالحه أو بالحاجة الى غير الفقه الإسلامى لتدبير شأن من الشؤون المدنية أو الجنائية أو التجارية فى السلم أو فى الحرب ، وهذه الموسوعات الفقهية فى مختلف المذاهب تشهد بأن أولئك الأئمة المجتهدين ما جسدوا ولا وقفوا أمام حادث أو طارئ ، وكل عتد أو تصرف أو نوع من المعاملات جد فى عهدهم شرعوا له الأحكام التى تتفق والمصلحة ، وتكفل للمسلمين ضرورياتهم وحاجياتهم وتحسينياتهم .

ولما انتهى عهد الأئمة المجتهدين ونبئت فى القرن الهجرى الرابع فكرة سد باب الاجتهاد والوقوف عند اجتهادات السابقين ، والالتزام متابعتهم ظهر نوع من الحرج ، لأن الأئمة السابقين رضوان الله عليهم ما استنبطوا أحكاماً لكل ما وقع وكل ما يقع ، ولأن كل عصر تولد فيه حاجات وتحدث فيه أفضيه ومعاملات ، وتتجدد له مصالح وحاجات ، فإذا لم يقن الفقه الإسلامى لكل ما يجد قانونه ، قصر عن مسيرة الناس وتحقيق مصالحهم ، وقد وجد اتباع الأئمة المجتهدين طريقاً لرفع هذا الحرج ، والعمل على أن يظل الفقه نامياً مسيراً تطور المسلمين فاخذوا أنفسهم بأنواع من الاجتهاد ، ولكنهم لم يسموها اجتهاداً ، فمنهم من أخذوا فى استنباط

الأحكام لما يجد من الحوادث والوقائع ، ولكن على أساس القواعد التي قررها أئمتهم للاستنباط ، وهؤلاء يسمون مجتهدى المذهب أو أهل الاجتهاد المقيد ، ومنهم من أخذوا في توسعة أقوال الأئمة وتفصيل مجملها وتبيين مأخذها لتنظيم وقائع جديدة وهؤلاء يسمون أهل التخريج ، ومنهم من أخذوا في الموازنة بين أقوال أئمتهم وترجيح أحدها بناء على أنه أرفق بالناس وأولى بالقياس .

وهذه الجمود وإن كانت جهودا محدودة ، كان فيها رفع لخرج الجمود والوقوف وأخذ من الفقه الإسلامى ليسير مع الحاجات والمصالح .

ولكن الضعف الذى انتاب المسلمين سياسياً وخلقياً وعلياً قضى على هذه الجهود الجزئية أيضاً وسد باب الاجتهاد المقيد كما سد باب الاجتهاد المطلق ، وأصبح المسلمون وليس لهم أن يستنبطوا من الكتاب والسنة ، وليس لهم أن يخالفوا السابقين من الأئمة ، وكل معاملة نجد لهم أو حادث يطرأ لهم ، عليهم أن يرجعوا فيه الى اجتهادات الأئمة السابقين ليعرفوا منهم حكم ما لم يكن فى عصرهم ، وليطبقوا ما استنبطه السابقون لبيتهم ولمصالحهم ، حتى شرط الواقف الذى يجب أن يفهم حسب عرفه يجب أن نطبق فيه ما قاله السابقون فى عرف سابق .

من هذا الإيجاز تبين أن الفقه الإسلامى لما كان نامياً متجدداً فى عهد الصحابة وفى عهد التابعين والأئمة المجتهدين سائر مصالح الناس ووفى بحاجاتهم ، ولما كان مرعياً بالتعهد والتجديد بعض الرعاية فى أول عهد التقليد للأئمة المجتهدين ، ظل كذلك يسائر التطورات ويحقق المصالح ، ولما وقف وجمد بسد باب الاجتهاد المطلق وسد أبواب الاجتهاد المقيد وقف عن مسيرة التطور والمصالح ، وبهذا تمكن بعض ولادة الأمور من التشريع بالاهواء ، والتقنين بما يحقق أغراضهم ، سواء أخالف المجموعات الفقهية أم وافقوا ، وأدى ذلك الجمود وهذه الفوضى إلى أن سنت للمسلمين قوانين من غير فقهم وأصبحوا عالة على غيرهم فى التشريع كما أصبحوا عالة على غيرهم فى الحرب والاقتصاد والتجارة وسائر مرافق الحياة ، وليس العيب عيب الفقه الإسلامى ، وإنما العيب عيب المسلمين وجودهم واستكانتهم للضعف



وسوء الظن بأنفسهم، ولن يصلح الفقه الإسلامى لمسايرة تطور المسلمين إلا بالرجوع به إلى حالته الأولى، ولا يتم ذلك إلا بأمرين :

أولهما خدمة التراث الفقهى القديم وإظهار موسوعاته للمسلمين إظهاراً يمكنهم من الوقوف على كنوزه واستثمار جهوده بحيث يتسنى لرجل الفقه والقانون أن يرجع إلى المبسوط والمدونة والألم كما يرجع إلى كتاب قانونى مرتب مفهرس مبوب

وثانيهما : تكوين جماعة من رجال الفقه والقانون للعمل بأنواع الاجتهاد المقيد فيجتهدون فى الوقائع التى لم يجتهد فيها المجتهدون المطبقون ، ويخرجون اجتهادات المجتهدين ، ويوازنون بين أقوالهم ويرجحون أنسبها بحال الأمة ومصالحها

فأما إذا ظللنا على هذه الحال : تراثنا القديم مغبر معقد لا سبيل إلى فهمه إلا لأفراد قلائل . والجديد من الوقائع ليس فينا من ينظر فيه نظرة اجتهادية مصلحية ، فسيذهب هباء كل نداء بأن يكون الفقه الإسلامى مصدر التقنين ؟

## ثقة

وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق ، وهو القائم عليهم بأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجها ولا يخصص لها طريقا ، فإننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشاطهم ، ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على سواهم فى فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة ، حفظا لحقوقهم ، وضنا بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع .

## الشخصية المحمدية تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

أينما أجلت طرفك في تاريخ الجماعات البشرية ، وفي الأفذاذ الذين أنجبهم في خلال تاريخها الطويل ، وأجلته في حوادثها وانقلاباتها ، وفي الرجال الذين تولوا كبرها ، فلا تصادف من جمع ما جمعه محمد صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال الخلقى والعقلى ، ولا وفق إلى مثل ما وفق اليه من بناء أمة وتحليتها بكل ماهى في حاجة إليه من عوامل البقاء ، ودواعى الارتقاء ، وأعداها لأن تصير أعظم أمة استحققت أن تنال خلافة الله في الأرض . ربما قال قائل إن هذا المآل لم يكن مقدراً لها وإنما بلغته هى اتفاقاً بسبب توسعها العلمى والجغرافى ، كما بلغته أمة قبلها استعدت له بفطوحاتها ومدنيتها . يرد هذه الشبهة ما ورد في الكتاب الكريم من قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

فهذه المهمة الخطيرة ، مهمة تأليف أمة مثالية ، تتكون على مقتضى الأصول الاجتماعية القويمة ، والمبادئ الأدبية الكريمة ، وتحدث في العالم ما أحدثه المسلمون من تدارك الأمم من تدهور بعيد القرار ، كان يدفعهم فيه قادة لا يهمهم إلا إشباع نهمهم ، والمتاع بشهواتهم ، ورجال أديان كانوا لا يعبأون بغير ما يحفظ سلطانهم ، ويستبقى الزعامة لهم ؛ قلنا هذه المهمة الخطيرة ما كان الله ليعهد بها إلا إلى رجل منحه شخصية تدرك قيمة ما يوحى إليه من أصول العلم وأسرار الحكمة ؛ رجل يستطيع بقوة ارادته ، وحسن قيادته ، أن يجمع بين القلوب المتنافرة ،

والنفوس المتناكرة ؛ رجلٌ وُهب من الذكاء ، ومُنح من سعة المدارك ، ما يعرف به مكان اللين والشدّة من النفوس فيضع كلا منها موضعه من وُكل إليه أمر جمعهم وقيادتهم ؛ رجل لا يشتبه عليه الحق بالباطل مهما كان الفارق ضئيلاً بينهما فيخفى عليه حد كل منهما ؛ رجل حاضر البديهة ، ثاقب البصيرة ، يستطيع أن يدرك ما وراء المظاهر الخلابيّة من قوى كامنة فيتقيها ، أو يستفيد منها على حسب الأحوال الطارئة ، والشؤون المفاجئة ؛ فكان محمد صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى في جميع هذه الصفات التي يمتاز بها كبار القادة ، وأفذاذ العباقره ؛ فاهيك أنه استطاع أن يؤدي الرسالة العامة التي عهد إليه بها على أكمل ما يمكن أن يكون من نجاح وبُعد أثر .

كان محمد في عهد الجاهلية على غير ما كان عليه الناس ، في أدب نفسه ، وسمو فطرته ، فكان يشغله ما لا يشغل الناس من أمر الدين والدنيا : كان من أمر الدين حائراً لا يثلج له صدر على ما ثلجت عليه صدور الملايين حوله ؛ وكان من أمر الدنيا يرى أن الحياة على ما كان عليه الناس من التنازع والتناهب ، ومضارعة الحيوانات في سيرته ، لا توصل إلى ما خلقت له الإنسان من نيل الدرجات العلى علماً وأدباً ونظاماً ، وتوفراً على الخير ، فكان ينقطع عن بيته وأهله إلى نفسه في غار في الجبل ليالى يقضيها مفكراً متأملاً ، لعله يجد عجزاً مما كان يُقضى مضجعه ، ويحزمه مما كان ينعم به سواه . هذه الحاجة الملحة للوصول إلى الحقيقة ، والوسيلة التي توصل بها إليها ، دلت دلالة قاطعة على أنه كان يائساً من التهدى إليها بواسطة واحد من الذين تقع عينه عليهم ، فكأنه عرض على عقله ما كانوا عليه فلم ير أنه يبلغه الغاية مما كانت فطرته العالية ترتاح إليه من المعرفة ، وهي نزعة لم يتأثر بها غيره من أهل عصره ، وطريق للبحث عن الحقيقة لم يسلكه أحد قبله في البيئة التي كان فيها .

نعم كان رجال يتبذون نواحي من الأرض يقضون فيها أعمارهم بعيدين عن مشارق الفتن ، في صوامع لا يبرحونها مدى حياتهم ، يمارسون فيها الدين الذي ورثوه عن آبائهم ، ولكن محمداً لم يكن من هذا القبيل ، فلم يلجأ إلى الغار هرباً

من فتنة العمران ، ولا ليؤدى شعائر دين موروثة ، ولكنه كان ينشد الحقيقة التي يثلج عليها صدره ، فقد قضى عليه سمو عقله أن لا يرتضى ديناً من الأديان التي يرى الناس عليها في زمنه . فإن تعجب أن يحدث ذلك لرجل ولد وتربى وكبر في عهد الجاهلية ، وفي منأى عن ينابيع العلم والحكمة ، فأعجب منه أنه هدى الى طلبته وانكشف له من عالم الروح ما لم يكن يتوقعه ، حتى خشى أن يكون قد قصد من الكائنات السفلية بسوء ، بسبب ما كان يوجد فيه من الظلام والوحدة .

لا جرم أننا هنا بسبيل نفس من النفوس التي لا يسمح لها بالنبوغ إلا في أدوار الانتقالات الاجتماعية ، وهذا لا يكون إلا في كل عدة أجيال مرة ، وهي تمنح من المواهب النفسية ما يجعل الفارق بينها وبين أعقل المعاصرين ، كالفارق بين الرجل المستكمل قواه العقلية وبين الأطفال الذين تستهويهم الشئون الصيانية . فما ظلك بالرسول الذي أعد ليكون خاتماً للرسل ، ويكلف تربية الأمة التي أراد قيم الوجود أن تحدث أكبر انتقال عالمي بين الجماعات البشرية ؟

هذا أمر لا يحتمل الماراة ، فلم يبق علينا إلا بيان إلى أى مدى بلغ محمد صلى الله عليه وسلم من الميزات النفسية ، والمنح العقلية ، وعلى أى ضرب من السياسات التعليمية اعتمد ، ليصل بأمة جاهلية في مدى ربع قرن إلى أرفع ما يمكن أن تبلغه أمة من آداب النفس ، وسمو النظر ، وشرف المقصد ، وبعد الغاية ، حتى بلغت أقصى ما ترمى إليه أمة من الحضارة والعلم والسلطان ، في مدة لم توفق إلى مثلها أمة أخرى .

تأمل في قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإلنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، قال ذلك تفسيراً لقوله تعالى : ( فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) فانظر كيف فسر هذا الحديث المبين لجوهر الاسلام وحقيقته ، تفسيراً لا يستطيع أعرف الناس بما طرأ على الأديان ، وأعلمهم بما يجب أن يكون عليه الدين الخالص من شوائب التحريف ، أن يزيد عليه حرفاً واحداً .

ووجه إكبارنا لهذا التفسير أن قائله يجب أن يكون عالماً بأن الخالق جل شأنه خلق الأنواع الحية ، وألهم كل نوع منها ما به حياته وكالته ، وخلق الإنسان وهو أكرمها عليه ، وفطره من الصفات والميول على ما به بقاؤه وارتقاؤه ، ووصوله الى الغايات البعيدة ، ومن هذه الميول إخباراته لخالق الكون ، وتحري محابته ومكارهه ، ، ليصل الى ما يشعر به من سعادة الاتصال به ، واليأذ بجنابه ، إخباراتاً خالصاً من الاشرار والتجسيد ، منزهاً عن التأويل والتحديد .

وقوله صلى الله عليه وسلم : وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، يُشعر بأن الدين الحق لا يلحق تلقيناً ، وإنما يُشعر به شعوراً ، فإن كان لابد من تلقين فهو ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إليه من أن الذين هو الفطرة الخالصة من الشوائب ، وأنها هي الإسلام ، أى الاستسلام إلى إرادة الله ، والتخلق بكل ما ثبت أنه خلق بالإنسان من الصفات الحميدة ، والحالات الشريفة .

فهذا الإدراك لمعنى الدين ليس من نوع ما كانت تحوم أرفى العقول البشرية حوله في بلاد العرب ، ولا في أية بقعة من بقاع الأرض ، ولم يحى مقيساً على عقلية الناس الذين عاصروا صدورهم ، ولا على عقلية الذين سيخلفونهم بعد قرن أو عدة قرون ، ثم يزول ، ولكن جاء مطلقاً ليخلد خلود الحقائق العلية ، ويؤتى ثمرته للأجيال الخالفة أضعاف أضعاف ما آتاه للذين جاء على عهدهم ، فهو حجة الإسلام الخالدة ، ووصفه المميز ، ودليله القاطع على أنه خاتمة الأديان ، وأنه أقصى ما يبلغه العقل من عرفان مصدره ، وعوامل شيعه .

تقف هنا اليوم ، ونرجو أن نجول جولات أخرى في تقدير الشخصية المحمدية ، وهيئات أن نبليغ كل ما نريد ؟

# الفقه السياسي عند المسلمين

للباحث القانوني الكبير

الأستاذ محمد الشافعي اللبان بك

المستشار السابق بمجلس الدولة

— ١ —

١ — اطلمت على بحث قيم عن أنظمة الحكم عند المسلمين لأستاذنا الكبير حضرة صاحب المعالي على عبد الرازق باشا قال فيه : « من الملاحظ البين في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين أن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم الأخرى أسوأ حظ ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود ، فلستنا نعرف لهم مؤلفاً في السياسة ولا مترجماً ، ولا نعرف لهم بحثاً في شيء من أنظمة الحكم ، ولا أصول السياسة ، اللهم إلا قليلاً لا يقيم له وزن إزاء حركتهم العلمية في غير السياسة من الفنون . ذلك وقد توافرت عندهم الدواعي التي تدفعهم إلى البحث الدقيق في علوم السياسة ، وتظاهرت لديهم الأسباب التي تُعدهم للتعلم فيها . وأقل تلك الأسباب أنهم مع ذكائهم الفطري ونشاطهم العلمي كانوا مولعين بما عند اليونان من فلسفة وعلم ، ولقد كانت كتب اليونان التي انكبوا على ترجمتها ودرسها كافية في أن تغريهم بعلم السياسة وتحبب اليهم فإن ذلك العلم قديم ، وقد شغل كثيراً من قدماء الفلاسفة اليونانيين ، وكان له في فلسفة اليونان ، بل في حياتهم شأن خطير . »

وفي بحث آخر عن الديمقراطية في الإسلام لصديقي الدكتور عبد الله العربي بك أستاذ القانون العام بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول سابقاً والأستاذ بكلية التجارة

بتلك الجامعة حالا ما نصه : « إن علماء الفقه الإسلامى لم يخصصوا هذه الأصول الديمقراطية بالعناية التى عرفت عنهم فى أبحاثهم حتى إن المرء ليقرب نظره فى كتبهم الحافلة بكل صغيرة وكبيرة فى شئون هذه الحياة والحياة الأخرى فلا يجد فيها تدويناً متجانساً مجتمع الشمل للدستور الإسلامى ، بل يجد معها نبذاً متفرقة عارضة وصفحات متباعدة مبعثرة هنا وهناك ، منبثة فى غير موضعها بحيث لا تبرز وهى على هذا الشتات صورة قوية كاملة للديمقراطية الإسلامية . »

\* \* \*

٢ — وفى الحق إن هذا القول على علته يحتاج إلى كثير من التعليق وهو إن صدق على المتأخرين من علماء المسلمين فإنه لا يصدق على المتقدمين منهم الذين عاشوا فى عصور النهضة الأولى قبل أن ينتاب البلاد الإسلامية من عوامل الضعف والوهن والتفكك ما اضمحلت معه الحركة الفكرية وقلَّ به البحث والإنتاج العلمى . لم يهمل المسلمون الأولون البحث فى نظريات الحكم والسياسة ، بل كانت لهم فى هذا المضمار نظريات وآراء خطيرة الأثر أقاموها على أساس من مبادئ الحكم العامة التى جاء بها الكتاب ، ودعت إليها السنة ، وسار عليها الصحابة ، وأصبحت مع الزمن تقاليد ثابتة فى بناء الحكومات الإسلامية .

عنوا ببحث نظرية الإمامة والخلافة ، وما يتفرع عنها من مبادئ سياسية على وجه فصلوا فيه هذه النظم وأصولها أوسع تفصيل ، وكانوا فى ذلك متقدمين على معاصريهم من كل شعوب العالم الذين عاشوا إذ ذاك تحت سلطان الحكم المطلق وأوضاع الحكومات المستبدة ، وظل هذا السبق طويلاً حتى قامت النهضة الفكرية الحديثة فى أوروبا ، وظهرت معها فى أواخر القرن السابع عشر وما تلاه النظريات السياسية الحديثة .

\* \* \*

٣ — تقرر أصول الحكم فى الإسلام إجمالاً على أساس سليم من الديمقراطية فقد جاء هذا الدين داعياً الى نظام حكومى دعامة اختيار رئيس الدولة أو الخليفة

بالمبايعة ، أو الانتخاب العام ، ثم تقييد هذا الخليفة في تصريف شئون الدولة بالشورى ، وجاء في نفس الوقت مقررا للحريات بكافة مظاهرها من حرية شخصية وحرية مسكن ، وحرية عقيدة ، وحرية رأى ، وحرية ملك ، وللساواة بين الأفراد في التكاليف وأمام القضاء والقوانين ، لا فرق في ذلك بين عربى وعجمى ولا بين أمير وصغير ، ثم نسج على هذه الأصول والمبادئ ثوباً طهوراً من الأخلاق ليكون وقاية منيعة لهذا البنيان الديمقراطي الرفيع .

وإن المطلع على كتب الفقه الإسلامى ليراها زاخرة بكثير من نظريات الحكم والسياسة بشكل تناول كل أوجه البحث والنظر ، عرضوا لذلك عند تفسير الآيات وشرح الأحاديث الخاصة بنظم الحكم وحمق الأفراد وواجب الوالى نحو الرعية وواجب الرعية نحو الوالى . تلك الآيات والأحاديث التى أقامت المبادئ الأساسية للحريات العامة ، ومبادئ المساواة وحكم الشورى ، وهى المبادئ التى انفجر فى سبيلها بركان الثورة الفرنسية بعد ثلاثة عشر قرناً من تقريرها عند المسلمين .

ظهرت كل هذه الأبحاث فى كتب الفقه على وجه تناول أصول الحكم عند المسلمين ، ومصدر السلطات ، وشكل الحكومة ، وحقوق المسلمين وواجباتهم ، وحقوق غير المسلمين ، وما عليهم من تكاليف ، وضمن الحريات ، وأعلن المساواة وأمر بالعدل فى الأحكام .

ومن مجموع هذه الدراسات والأحكام المجملية الأصول ، تكونت نظرية كاملة عن الحكومة فى الإسلام فى حدود الأوضاع التى أسلفنا ، وهى نظرية نالت عناية الفقهاء فى كل العصور ، حتى صارت أوضاعها بحق خير نظم الحكم فى إجمالها .

\* \* \*

٤ — وكان من أثر هذه العناية أن أفرد بعض الفقهاء لهذه الأوضاع كتباً خاصة بها ، فظهر أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة ٥٠٤هـ هجرية ، يتحدث فى كتابه الشهير ( الأحكام السلطانية ) عن الإمامة وشروطها وعن الإمام وصفاته



وما يخرج به عن الإمارة ، وما يجب عليه نحو الأمة ، وعلى الأمة نحوه ، ثم عن الوزارة وأنواعها ، والولاية وأقسامها ، والقضاء وشروطه ، والخراج والجزية والدواوين ونظامها ، ويعرض لذلك كله من الناحية الفقهية فى حدود مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه . ويقول أبو الحسن الماوردى فى مقدمة كتابه عن الأسباب التى دعت إلى وضع مؤلفه « لما كانت الأحكام بولاية الأمر أحق ، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يتطلبهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ، ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه ، وما عليه منها فيوفيه ، توخياً للعدل فى تنفيذه وقضائه ، وتحرياً للنصفة فى أخذه وعطائه . »

وظهرت كذلك كتب أخرى نذكر منها ( آراء أهل المدينة الفاضلة ) وفيه يتحدث صاحبه الفارابى عن الاجتماع والتعاون وعن نشأة القرى والمدن ، وعن الفرق بين أهل المجتمع الصالح وأهل المجتمع الضال وعن خلال الحاكم وواجباته . وبعده ظهرت ( رسائل إخوان الصفا ) وفيها مباحث عن بعض الموضوعات السياسية كالْحكمة من الملك ، وكالإمامة وشروطها وأحكامها ، وكالرياسات على الجماعات المختلفة وغير ذلك .

وفى كتاب ( الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ) يتحدث مؤلفه الطقطقى عن واجبات الملك وعن حقوقه وعن أسباب ضعف الدول الإسلامية التى تقدمت عصره وسقوطها ، وعن سياسة الملك نحو مختلف الطبقات وعن خطر الانغماس فى الشهوات . وهو فى أبحاثه يخرج عن النطاق الفقهى فيعتمد على الوقائع والحوادث التاريخية لتأييد آرائه وأفكاره .

وأخيراً جاء المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربى المتوفى فى مصر فى أوائل القرن التاسع الهجرى ومهد لبحوثه التاريخية بتلك المقدمة الشهيرة التى ضمنها ما أدى إليه اجتهاده من دراسات هى فى نظره علم مستقل بنفسه مستحدث

الصنعة انتهى إليه بالبحث الخاص ولم يقف لأحد قبله على كلام فيه . وهي في نظرنا أول كتاب عرض لعلم السياسة كعلم مستقل ذى كيان خاص .

تعرض ابن خلدون في مقدمته للعمران بصفة عامة وشرح طبيعة الاجتماع وضرورته ، وكيفية تنوعه ، وما يؤثر عليه ، من العوامل وأثر الطبيعة في أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم وعن المجتمع البدوى وخواصه ، وعن الحضرة ، وعن اختلاف الملك وأثر الغلبة في الأمم المغلوبة ، وعن الدولة وقيامها بالقبيل والعصية ، وعن خواصها وصورها ، وعن أعمارها وأسباب سقوطها ، وعن تحول الدول من عهد البداوة إلى عهد الحضارة ، وعن الملك وأصفاه ، وعن الإمامة والخلافة ، ورسوم الخلافة من بيعة وولاية عهد ، وعن القضاء ، وعن الإدارة والوزارة والدواوين ، وعن الشرطة والجيش ، وعن الجزية والخراج ، وعن الحروب ومذاهبها ، وعن التجارة والصناعة والعلوم . عرض ابن خلدون لهذه النظريات وعالجها جميعاً كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه عن ابن خلدون « معالجة دلت على فضله وعلو مكانته وكان فيها موقفاً غاية التوفيق » ، نظر ابن خلدون إلى موضوعه الاجتماعى من أفق واسع فجعل من المجتمع الإنسانى وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لبحثه وموضوعاً لدراساته وكان لأبحاث علم السياسة محل كبير من عنايته فعالجها بإفاضة في سلك منتظم الروابط والشواهد ، متخذاً من التاريخ عدته في تأييد أفكاره ، ومن المنطق السليم طريقاً في توضيحها وجلائها ، فكان بحق من أكبر واضعى علم السياسة وبناته .

\* \* \*

٥ — عالج فقهاء المسلمين هذه المسائل على أساس جديد خالفوا به من تقدمهم من فلاسفة الإغريق وغيرهم : نظر فلاسفة اليونان الى العلوم السياسية نظرة اجتماعية واسعة ، ونظر إليها علماء المسلمين نظرة قانونية محضة ، وعالجوا مباحثها مع ما عالجوا من أحكام الفقه الإسلامى المختلفة ، وهو طريق سليم واتجاه لا شك

سديد أخذ به أخيراً كثير من علماء الدستور فى العصر الحديث ، وخاصة الألمانين منهم الذين رأوا أن الدولة هى الشكل القانونى لحياة الجماعة ، وأن مباحث الحكم وما يتصل به هى مباحث قانونية تتناول علاقة الدولة بالأفراد من ناحية القانون حتى لقد قالوا فى بيان أن الانسان مدنى بالطبع محتاج الى الاجتماع ببنى جنسه - قالوا : « إن الشعب فى الدولة يتلقى أمراً قانونياً يلزمه بأن يعيش حياة الجماعة . - كتاب أساس القانون الألمانى للدولة تأليف جرير ، وقالوا فى شأن الدولة : « إنها شخص معنوى يستمد وجوده من القانون ، وله حقوق وعليه التزامات قانونية . - نفس المرجع - ، وقرروا فى صدد علاقة الفرد بالدولة « أن مبنها ما بين الاثنين من روابط الصلة القانونية - نفس المرجع ، .

ولعل فى هذا الإيضاح ما يكفى للرد على ما تساءل عنه أستاذنا الكبير على عبد الرازق باشا حين قال فى بحثه المشار إليه « ما لهم أهملوا النظر فى كتاب الجمهورية لأفلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو ، وهم الذين بلغ من إعجابهم بأرسطو أن لقبوه المعلم الأول ؟ وما لهم رضوا أن يتركوا المسلمين فى جهالة مطبقة بمبادئ السياسة وأوضاع الحكومات عند اليونان ؟ ، .

لم يترك علماءنا الاهتمام بعلوم السياسة عند اليونان غفلة منهم عن تلك العلوم ولكن لأن وجهة النظر فى معالجتها قد اختلفت عندهم عنها عند الإغريق .

وقد أطلق مونتسكيو وبور لا ماكى وجان جاك روسو وغيرهم من علماء علم السياسة على تلك العلوم اسم : « القانون السياسى ، وقد أسماها الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى كلمة له « الفقه السياسى ، وذلك تسليماً منهم بالرابطة التى تجمع بين علوم السياسة والقانون .

\* \* \*

٦ - وإذا كانت النظرة الغالبة عند الغربيين إلى تلك العلوم السياسية قد ظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر مبنية على أساس من السياسة والاجتماع والفلسفة ،

فإن هذه النظرة لم تلبث أخيراً - تحت تأثير النظريات الألمانية وقوة الحجج التي قامت عليها - أن تغيرت ، وأصبحت علوم السياسة تدرس من ناحيتها السياسية والقانونية معاً ، حتى لقد قال بعض العلماء الفرنسيين : « إنه من المستحيل أن نجنى أية ثمرة محسوسة من دراسة نظم الدولة إذا نحن لم نجتمع بين السياسة وعلم القانون » .

\* \* \*

٧ - والواقع أن أثر علماء المسلمين في الفقه السياسي أثر ملبوس كبير القيمة عظيم الخطر ، وأن الأساس الذي قامت عليه مباحثهم في هذا الشأن من الاتجاه صوب الفقه مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، والعدالة السياسية والاجتماعية ، وحاجات الأمم ؛ هو خير أساس عولجت به هذه الشؤون .

وإذا كانت المبادئ العامة التي وضعها علماء المسلمين لم تخرج إلى أوضاع ذات إجراءات مفصلة ، ومراسيم مرتبة ، وتقاليد راسخة ، بل بقيت على حالتها الأولى من التعميم والإجمال ، مما لم يجعل لها سلطاناً كبيراً على عقلية جمهور المسلمين بحيث سهل صرفهم عنها بالخداع أو القوة ؛ فإن ذلك راجع - كما يقول بحق صديقنا الدكتور عبد الله العربي بك - إلى « أن الأجيال التي أعقبت الصدر الأول من الإسلام غفلت أو تغافلت عن خطر هذه الأصول ، وعن ضرورة استنباط القواعد التنفيذية والإجراءات العملية التي تكفل نفاذها في كل نواحي سياسة الدولة ، إذ توالى الأجيال المتعاقبة ، وهي ذاهلة عن واجبها في استخراج تلك الأوضاع والأساليب العملية التي تكفل التوفيق بين هذه الأصول العامة واحتياجات كل عصر ، فلم تلبث هذه الأصول الإسلامية لطول الترك أن اندثر أثرها في وجدان الشعب ، ولحقها من تشويه المعنى وعبث التفسير ما جعلها مطية ذلولاً لبغي الطغاة وسمق الحريات ، والمطلع على تاريخ الشرع الإسلامي لا يسهه إلا أن يقرر أن وزر هذا البلاء واقع على نفر من الخاصة استهانوا بالأصول

الديمقراطية التى دعا الإسلام الى إقامتها ، وقلبوا منصب الخلافة الى ملك أتوقراطى وهدموا مبدأ الشورى ومستلزماته .

\* \* \*

٨ — وإذا كان الكثير من مبادئ الفقه السياسى التى وضعها المسلمون قد جاء عاماً وبمجال ؛ فان لهذا التعميم والإجمال ميزته المتصودة . ذلك أن التعميم الذى لا ينزل إلى التفصيلات الجزئية لا يقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات بل يتركها حرة . تقتبس الوضع الحكومى الذى توافرت فيه الملائمة العملية لحاجات كل زمان ومكان مع التقيد بالفكرة الإسلامية بوجه عام . وتلك هى المرونة اللازمة فى المبادئ التى يراد لها الخلود ، لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر .

\* \* \*

٩ — لما عهد إلى بتدريس القانونين الدستورى والإدارى بالجامعة الأزهرية وجدت من واجبى - وأنا أدرس فى جامعة تعتبر الحارس الأول على تراث المتقدمين من علماء المسلمين ، والعامل على نشر آرائهم ومذاهبهم - وجدت من واجبى أن أعمد على قدر الإمكان إلى البحث المقارن لأضع أمام طلبتى نظريات السياسة الحديثة وبجانها ما جاء به المسلمون المتقدمون من آراء فى هذه الشؤون .

ولا أعدو الحق إذا قلت إنى وجدت لكل حديث من تلك النظريات تقريباً بجناً قديماً فى نفس الفكرة مما يجوز معه القول بأن أوائلنا لم يتركوا فى هذا المضمار للأواخر شيئاً يذكر ، وأن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم أكبر حظ ، وأن وجودها بينهم كان أقوى وجود ، مما سأتناوله بالتفصيل والإيضاح فى مقالاتى المقبلة إن شاء الله إتماماً للبحث وخدمة للغرض الذى من أجله قدمت هذه الكلمة ؛ والله الموفق وهو الهادى إلى خير سبيل .

# الفقه والفقهاء في مصر

على عهد المماليك

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغي

الإمام الخاص للحضرة الملكية

— ٢ —

عرضت في حديثي الماضي حول هذا الموضوع للظروف التي هبّت لمصر  
تسكون زعيمة العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد ، وتحمل راية الثقافة العلمية بعد  
أن فتن المغول المسلمين وشرّدوا البقية الباقية من علمائهم ، وعفّوا على آثار الثقافة  
الإسلامية التي كانت ميراثاً ضخماً لأجيال وقرون أفنت زهرة العمر في تحصيلها ،  
وعرضتُ للمماليك وبلائهم الحسن في الدفاع عن الإسلام ، ولموقف العلماء والشعب  
إجمالاً منهم .

واليوم نريد أن نعرض بشيء من التفصيل — بالقدر الممكن طبعاً — لبعض  
هذه المواقف وأثرها على التشريع والتدوين الفقهي ، وحركة التأليف بوجه عام ،  
وأحب أن ألاحظ بادئ ذي بدء أن الفقهاء كانوا في شيء من الحرج ، وكان  
موقفهم في غاية من الدقة ، إذ كان عليهم أن يلائموا بين شيئين :

(١) سلطان المماليك بعد أن أصبح صولجان الحكم في العالم الإسلامي تقريباً  
بيدهم ، وقد كانوا كثرة يحسب حسابها ، لا يتورعون عن قتل أو نفي أو سلب  
أو كما يصفهم شوقي :

جنود وراء كبير لهم من الدين قد جردوا وألحقوا  
أتوا دارنا فمضى نصفهم أزال العقاف ونصف سرق

وكان ذلك شأنهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، لا فرق في ذلك بين طبقة وأخرى  
من هذه الطبقات التي كان ينقسم إليها نظامهم .

(٢) ما ورثه العلماء من ميراث السلف الصالح ، وفي الحق أن مصر ظلت  
طول حياتها موالية للسنة ومذاهبا ، وهؤلاء هم الفاطميون عاشوا ما عاشوا في مصر  
بكتبهم ودعاتهم وقضاتهم لم يستطيعوا أن يغيروا من ناحية الجوهر شيئا من العقائد  
السنية ، وما هي إلا أن زالت أيامهم ودالت دولتهم حتى رجع المصريون سيرتهم  
الأولى سنين مخلصين .

وفي سبيل الملاممة بين هذين العاملين سارت الناحية العلمية بين المد والجذب ،  
واختلف العلماء طرائق قديدا : فريق لا يرى شيئا من التساهل في سبيل سلطان  
الممالك إلا إذا كان تحت شرع صريح يحيزه ، وفريق كان يحاول الفينة بعد الفينة  
أن يجد طريقا لها أو سيلا هناك من مستند شرعي ولو على تأويل ضعيف لتثبيت  
دعائم هذه الدولة التي أبلت البلاء الحسن ، والتي كثيرا ما كان بعض سلاطينها  
يتظاهرون بغيرتهم على الفقه والشرعة والدين ، بل كثيرا ما كان بعض سلاطينها  
يجلسون للقضاء ويجلسون بعض القضاة معهم ، كما كان يفعل الظاهر يبرس ،  
والأشرف خليل بن قلاوون ، وكان إذا ما استوى على منصة القضاء قدمت إليه  
الخصومات على اختلاف أنواعها ، فيستشير قضاة الشرع ثم يحكم بما يملكه عليه  
رأيه ، وقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة وصفاً بمتعاً لجلوس السلطان للقضاء  
في دار العدل ، بل إن السلطان كثيرا ما كان يتدخل في أحكام قضاة الشرع أنفسهم  
ويعنفهم أحيانا إذا لم يقضوا بحكم يرضيه ، وإليك ما رواه ابن إياس في حديثه  
عن السلطان الغوري : « وفي صفر من عام ٩١٧ صعد الخليفة إلى القلعة لينها  
بالشهر ، وكذلك القضاء الأربعة ، فحصل في ذلك اليوم للقاضي شمس الدين الحلبي

غاية المنة من السلطان وكاد يبطش به ، وسبب ذلك أنه حكم في بعض الوقائع بما اعترض عليه في ذلك ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ولم يقبل له عذرا ، وخط على قاضي القضاة الشافعي كمال الدين بن الطويل بسببه ، وكان مجلساً مهولاً . وهم بهذا التصرف يرجعون لطبيعتهم من حب القلب والاستبداد بالأمر مهما حاولوا ستر ذلك بالتظاهر بحب الشرع وخدمته ، وخدمة الدين وحملته ، ولم يكن موقف الخليفة الذي كانت تستمد منه في الظاهر سلطة هذه التولية ، والأذن في القضاء والأوقاف لتغني فتيلاً ، فلم يكن هو أسعد حالاً من الفقهاء ، ولم يكن يملك من الأمر من شيء ، وكانت باسمه تؤخذ الدنيا جميعاً ، وما من ذاك شيء في يديه ، بل إن أحد خلفاء بني العباس في مصر نفي إلى الصعيد بسبب كلمة قالها .

وكان بعض الفقهاء في بعض الأحيان لا يرون من دين الله أن يسكتوا على ما لا يتفق وذلك الدين كما روى أن عز الدين بن عبد السلام ترك دمشق لأن سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالافرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف فأنكر الشيخ عز الدين عليه ذلك وترك الدعاء له في الخطبة وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي ، فغضب السلطان منهما فخرجا إلى الديار المصرية ، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين وهو في الطريق قاصداً يتلطف به في العود إلى دمشق ، فاجتمع به ولأينته ، وقال له : ما تريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير . فقال الشيخ له : يا مسكين ، ما أرضاه يقبل يدي ، فضلاً عن أن أقبل يده ؛ يا قوم أتم في واد ونحن في واد ، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به .

وظل الشيخ عز الدين بن عبد السلام يتناصب عظماء المالك العداء لا لغرض شخصي يتعلق به ، بل لأنه كان يرى وقفته هذه خالصة لله وحده ، وكان يرى فيها نوعاً من الدفاع عن تلك الطوائف المستضعفة التي ما كانت تجد لها نصيراً إلا بين العلماء الأحرار المخلصين الجراء فيما يتعلق بدين الله .

وكان بعض سلاطين المالك يضيقون ذرعاً بما يديه بعض العلماء من مواقف



فإن أعيانهم حلها بطريق اللطف والملاينة لجئوا إلى حلها من طريق آخر على نافع لهم ولا يغضب العامة ، كما حصل من الظاهر بيبرس ، فقد سأل مرة القاضي تاج الدين ابن بنت الأعر في أمر فامتنع من الدخول فيه ، فقيل له : مُر نائبك الخني - وكان القاضي هو الشافعي يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة - فامتنع من ذلك ، فلجأ الظاهر إلى تعدد القضاة الثلاثة من كل مذهب قاض ، في القاهرة ، وفي دمشق .

هذه صورة عجل مما كان الفقهاء يفعلون تحت تأثير ظروفه ، وما من شك في أن هذه الأشياء ما كانت تمر دون أن تترك آثاراً واضحة في الفقه الإسلامي فقد حاول العز أن يتصدى لبيع عظماء الماليك ، وذكر أنهم لم تثبت حرمتهم وأن حكم الرق باق عليهم ، فبلغهم ذلك منظم الخطب - كما يقول السيوطي في حسن المحاضرة - والشيخ لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً ، وتمطلت مصالحهم ، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضباً ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلساً وننادى عليكم ليت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة ، فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى وشرح له الحال ، فما اكترت لذلك ، وقال : يا ولدي ، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعوله ، وقال : ياسيدي ايش تعمل ؟ قال : أنا نادى عليكم وأبيعكم ، قال : فقيم تصرف ثمتنا ، قال : في صالح المسلمين ، قال ، من يقبضه ، قال : أنا ، فتم له ما أراد ونادى على عظامهم واحداً واحداً ، وغالى في ثمنهم ، ولم يبيعهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير .

تأمل هذه العبرة لتعرف رأى الشيخ الفقهى في الحرية وثبوتها والاعتماد على الظاهر أو تركه ، وفي قيام القاضي بقبض مال بيت المال وإنفاقه ،

وفي محاولة تعطيل كل التصرفات التي تمت على يد هؤلاء وتصور آثارها في الحياة المصرية الاجتماعية والاقتصادية ، ومصر كما تعلم — كلها كانت موزعة على طريق الإقطاع من بيت المال هؤلاء الممالك ، ثم هم يعطونها للفلاحين مزارعة أو مقاطعة أو غير ذلك .

وقد ذكر الأسعد بن ممتا في كتابه : قوانين الدواوين ، كشفا تفصيليا للإقطاعات استغرق جميع الأراضي في مصر ، فكيف يكون الحال لو طبق هذا الحكم الفقهي طوال عهد الممالك من الناحية الاقتصادية ، والتصرفات الناتجة عن مثل هؤلاء الممالك ، في الوقت الذي كانت مصر محاطة بأعداء لها من جميع النواحي .

وعند ماتحرك المظفر قطز لقتال التار صقّع الأملاك وقومها ، وأخذ زكاتها من أربابها ، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا ، وأخذ من الترك الأهلية ثلثها — كما يقول المقرئ في كتابه السلوك — فلما تولى الظاهر بيبرس أبطل جميع ذلك لثورة العلماء وغضب الشعب ، فكان جملة ما أبطله ستمائة ألف دينار ، وكانت هذه سنة أغلب الممالك الاقتصادية ، مما كان يؤدي إلى إتهام كاهل الشعب بالضرائب المكوس ، وكانوا يلجئون إلى ترك الأرض ، وإغلاق الحوانيت ، وكان لذلك أثر يبيّن في الأسعار ، وكان بدوره يؤدي إلى هبوط مستمر في قيمة النقد ، وقد ذكر المقرئ في كتاب السلوك صورة تقليد الخليفة المستنصر للظاهر ، وقد جاء في ذلك التقليد بعد الديباجة . . . ومما تومرون به أن يمحي ما أحدث من سيئ السنن وجُدّد من المظالم التي هي من أعظم المحن ، وأن يشتري بأبطالها المحامد ، فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن : المظالم إذن كانت تتجدد في صورة أو أخرى ، وكان الشعب يئن مرة وأخرى .

ولم يكن ذلك النظام الإقطاعي الذي ساد مصر وساد أوروبا بأسرها في العصور الوسطى ليسمح يصيهر من النور للطبقات العامة في الشعب فهم محصورون

في الإقطاعات يعملون فيها ولا يصل لهم شيء من نتائج ما كانوا يعملون ، بل كانوا كما يقول القائل :

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غمًا وسط ما هو ناسجه

وما عليهم إلا أن يعملوا ، ثم يعطوا الأموال لهؤلاء الموظفين الذين كانوا يؤلفون سلسلا مدرجاً يبدأ بالناظر وينتهي بالخازن والحاشر ، وقد أوضح كل هذه الوظائف صاحب قوانين الدواوين ، فكان على الفقهاء إذن أن يوجدوا حلولاً شرعية لهذه الأحوال ، وأن يحدوا من طغيان هذه المظالم ، وكثيراً ما كان بعض الفقهاء يلجأ إلى التشديد حتى في المباح دفعاً للفساد بالقدر الممكن ، فقد أقي جبهة العلماء - كما قال في المستصفي - بالرد على الزوجين لفساد بيت المال ، ولأن الظلمة لا يصرفونه إلى مصرفه ، وقال ابن عابدين بعد نقل هذه العبارة ، فمن أمكنه الإفتاء بذلك في زماننا فليفت بدون حول ولا قوة إلا بالله .

وقد كان لهم العذر في التشديد في الضرائب والأموال التي كانت تجبي ، وقد ذكر المقرئ في الخطط نوعاً من الرسوم التي كانت تتقاضى ، فقال عن واحد منها : « إنها كانت جهة تتعلق بالولاية والمقدمين فيجيبها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيت ( الفواحش ) ولهذه الجهة ضامن ، وتحت يده عدة صبيان ، وعليها جند مستقطعون وأمرأ وغيرهم ، وكانت تشتمل على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، وهجم بيوت أكثر الناس ، .

هذا حال الفقهاء في الزكاة والموارث والضرائب ، أما أمرهم في نظام الوقف والإجارة والإقطاع ، فكان أوسع مدى من ذلك ، فقد كانوا في الأمور الأولى ينظرون إلى الشعب بدافع الرغبة في التخفيف عليه ، وتفريج الضائقة عنه ، أما في الأمور الأخيرة فقد فتحت لهم هذه الأوقاف والافتنان فيها وفي إسهاداتها مادة دسمة للأبحاث الفقهية وتطبيق قواعد الأصول عليها وبدأت تشعر بنوع جديد من التقنين والتشريع ، وبدأت تحس بالفاظ جديدة ومصطلحات جديدة وأساليب جديدة في التوثيق واستتبع ذلك النضال بين الفقهاء ، كل يؤيد رأيه في الأمر ويستوحى

القواعد العامة للتشريع ، لابل إن بعض المسائل كان يستدعى تأليف رسالة أو كتاب بأكمله ، كما فعل السبكي في فتاواه ، إذ ألف كتاباً قرابة خمسين من الصفحات في مسألة وقف ، وسماه : « موقف الرماة في وقف حماه » .

ونحن لانعدو الحق إذا قلنا إن أغلب الكتب التي عني أصحابها بمسائل الوقف وفتاواه كانت وليدة هذا العصر الذي كثر فيه الواقفون ، وكثرت أوقافهم ، وتعددت شروطهم ، وتعمدت عباراتهم . وتعثر العلماء في فهم وجه الأمر فيها ، لا فرق في ذلك بين مذهب ومذهب ، خصوصاً في الوقت الذي كان القضاء فيه في مصر متعدداً ، فلم يكن تطبيق قواعد الفقه على الحوادث مقصوراً على مذهب دون آخر ، ولا بحث المسائل فيه خاصية لفقيه دون آخر ، ولذلك تجد فتاوى غير قليلة من علماء جميع المذاهب في المسائل المتعلقة بالأوقاف ، سواء منها ما كان للأمراء وللأفراد ، وسواء منها ما كان على جهات لا تقطع ، أو كان من قبل الوقف الأهلي ، حتى كان نوع التوثيق الذي كان سائداً في ذلك العصر أنموذجاً يحتذى حتى اليوم في الوثائق الخاصة بالأوقاف وشروطها ومصارفها ، وإن كان قد حصل بالتقنين تعديل فيها ، فهو نقل من مذهب إلى مذهب ، أو عدول عن قول إلى قول ، مما كان معمولاً به في ذلك العصر الذي نتحدث عنه .

ولا نعدو الحق أيضاً إن قلنا إن الباب الوحيد الذي أفرد بالتأليف فتاوى وشروحا وتعليق ، هو باب الوقف ، مع أن هناك أبواباً كانت جديرة بالتأليف لنوع الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة يومذاك ، كأنواع الضرائب والجبايات ما حل منها وما حرم ، لا بل إن هناك أبواباً أخرى يعجب القارىء والسامع لعدم إفرادها بالتأليف ، كالمسائل المتعلقة بالضمانات والغرامات والالتزامات ، وإنك لتجد فيها كتباً قليلة تعد على أصابع اليد في جميع المذاهب ، ولست بمستطيعين أن نعزو ذلك إلى سبب خاص ، فهناك أسباب عدة يمكن التماسها ، بعضها مادي وبعضها أدبي ، يرجع لرغبة العلماء في حب الغلب ، والرغبة في إظهار البلاغة والبراعة في التفريع والتخريج ، مع أن الصلات المالية التي كانت تحكم العقود بين المقتطعين والفلاحين — كما كانوا يسمونهم — والالتزامات العسكرية التي كانت تفرضها

الدولة ، كانت تستدعى كتباً لا يحصيها عد لتتخلف للتاريخ لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسود مصر قرابة خمسة قرون وأكثر وقد يكون سبب ذلك ما أسلفنا من أن بعض الموضوعات التي كانت بحكم الطبيعة من اختصاص قضاة الشرع قد نزعَت منهم وسلت للحجاب ، ليحكموا فيها بين الممالك لا بل بين الممالك والمصريين مما أذهب كثيراً من الأحكام دون أن تدون طبعاً لأن الفقهاء كانوا يعدونها أحكاماً جائرة ضد الشرع يجب أن تهمل .

هذه لمحة عابرة عن أثر نظام الممالك في الحياة المالية والاقتصادية في الضرائب ورأيهم فيها ، وفي الأوقاف ، وما تركت من آثار ، ونرجو أن يكون لنا رجعة نتكلم عن أثر النظام في باقي أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات ، وعن الظاهرة التي كانت تبدو على جميع الكتب الفقهية المؤلفة في ذلك العهد ؟

## لون من التعصب

نقل الإمام الرازي عن شيخه ، في موقف المقلدين من النصوص التي تكون مخالفة لآراء أئمتهم ، عند تفسيره لقوله تعالى : « اتخذوا أجبازهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال :

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض المسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف ذلك ، فلم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يفتتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلى كالمتعجبين - يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية وردت عن سلفنا على خلافها !

[ تفسير الرازي ]

## الدِّينُ والدَّولَةُ فِي مَشْرُوعِ الزَّكَاةِ

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

تتجه النية في هذه الأيام إلى إصدار قانون يجعل جباية الزكاة إلى الدولة ، وينظم نصابها وقيمتها ، وأنواع الأموال التي تكون فيها والتي تعفى منها ، ومصارفها التي تنفق فيها ، على أن يستمد هذا القانون من أحكام الشريعة الإسلامية الغراء ، دون تهيد بمذهب معين من مذاهب المسلمين

ولا شك أن الدافع إلى ذلك دافع شريف يجب أن يحمد ويشكر ، بيد أن بعض الكتاب أثار اعتراضاً على فكرة إصدار هذا القانون ، لا من حيث موضوعه فحسب ، ولكن من حيث المبدأ الذي يتوهم عليه أيضاً ، وهو مبدأ الاعتراف بالصلة بين الدين والدولة ، مع أن الواجب - في نظره - هو قصر الدين على ميادين العبادة والأخلاق والعواطف الشريفة .

ولما كان هذا الموضوع ذا أهمية وخطر لدى المشتغلين بالفقه والقانون في شتى البلاد الإسلامية ، وكان للزكاة نفسها شأن في الدين والمجتمع بعيد الأثر ، فإنني أرى من الحق على أن أدلى فيهما برأى ، لعل فيه خيراً للإسلام والمسلمين ..

يقسم البحث في هذا الموضوع قسمين :

- (١) المبادئ التي ذكرها الكاتب وبنى عليها معارضته لهذا المشروع .
- (٢) رأيي في جواز إصدار تشريع يُلزم مالكي النصاب بأن يؤدوا زكاة أموالهم للدولة .

\* \* \*

أما القسم الأول فإني أقدم بين يدي بحثه ، نص ما ذكره الكاتب ، ليشترك القراء معي في فهمه ، وإدراك ما يطوى عليه :

يقول الكاتب بعد أن ساق ملاحظة شكلية لا تتصل بالموضوع :

« ... أما الملاحظة الثانية فهي أخطر من أختها ، لأنها لا تتعلق بالشكل والاختصاص ، بل بصميم الموضوع ، وأساس التشريع ، فالمشروع كما يظهر من اسمه ، ومن التفاصيل المحيطة باستصداره ، يستمد حكمته وأحكامه من الدين الإسلامي الحنيف ، وهنا يواجهنا بحث جد دقيق وخطير ، وهو علاقة الدولة بالدين ، وعلاقة الدين بالسياسة ، ولا يخفى أننا في مصر نجرى في حكمة واعتدال على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة ، وأن الحركة الوطنية أورتتنا مبدأ جليلاً ينبغي لنا أن نعص عليه بالواجب ، وهو يقضي بأن الدين لله ، والوطن لجميع المواطنين ، ولقد حاول البعض أخيراً خلط الدين بالسياسة ، ودعا إلى جعل القرآن الكريم أساساً للتشريع ، فما جئنا من هذه التجربة غير الشر المستطير الذي نعاق بأسه حتى الآن ، أقول ذلك وأنا أول الفخوريين بدينهم الإسلامي الكريم ، وأعمل مع العاملين على أن يرجع المسلمون إليه في تهذيب نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم وتحريك هممهم ، وبعث وطنيتهم ، ولكن الوطن المصري ليس لأهله المسلمين وحدهم ، والدول المتعدنية كلها تحوص على فصل السياسة عن الدين ، والتجارب الماثلة عندنا جديرة بأن تفتح أعيننا على الأخطار التي تتعرض لها إذا تسكنا هذا السبيل القويم . »

ثم طالب الحكومة بالعدول عن هذا المشروع لهذه الأسباب ، مينا أنه لا يكره أن تضرب الضرائب المدنية مهما ثقلت ما دامت مطلوبة لحاجات الإصلاح والعدالة الاجتماعية ، وختم كلمته بقوله : « ولكنى أحرص وأخشى على مبدئنا الوطنى الحكيم : الدين لله والوطن للجميع » .

من هذا يتبين أن الكاتب يبنى معارضته للمشروع على أمور يزعم أنها حقائق مسلمة ، فرغت مصر منها ، وأصبحت أسساً ثابتة فى نظامها ، يجب أن تفتح عنها على الأخطار التى تتعرض لها إذا تنكبت سبلها القويم .

وتلك الأسس المزعومة هى : —

(١) الفصل بين الدين والدولة ، وهو مبدأ جليل ، نسير عليه فى حكمة واعتدال ، وقد ورثناه عن الحركة الوطنية ، وأخذناه عن الدول المتمدينة ، وحرصنا عليه فى سائر تشريعاتنا .

(٢) وجوب قصر الدين وأحكام القرآن الكريم ، على ما يتصل بهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتحريك الهمم ، وبعث الوطنية .

(٣) الاعتبار بما أثبتته التجربة حينما حاول البعض الدعوة إلى جعل القرآن الكريم أساساً للتشريع ، تلك الدعوة التى ما جئنا منها إلا الشر المستطير .

\* \* \*

ولقد أخطأ هذا الكاتب خطأ عظيماً ، وضل ضللاً بعيداً ، وأساء إلى دينه ووطنه وقومه ، وهو يحسب أنه من الذين يحسنون صنعا ، وإليك البيان :

(١) أما عن المبدأ الأول الذى زعمه متقراً ثابتاً ، فإنه قد اشتبه عليه أخذ الدولة ببعض النظم والتشريعات التى تتنافى فى جملتها أو بعض تفاصيلها مع الشريعة الإسلامية ، فظن ذلك رفضاً للشريعة ، أو فصلاً بينها وبين شئون الدولة ، والواقع أن نظامنا المصرى ، منذ العهد التركى كان قائماً على اعتبار التشريع الإسلامى هو الأساس والمصدر ، فكانت الدولة العثمانية هى دولة الخلافة الإسلامية ،



وكانت تأخذ في أحكامها وتشريعاتها بمذهب الحنفية ، وكان كل مشروع من مشروعات قوانينها يخرج على أساس هذا المذهب غالباً ، أو على أساس غيره من المذاهب الإسلامية ، إذا مست الحاجة إلى ذلك ، ومن المعروف أن الشريعة الإسلامية صالحة لمسايرة الإصلاح والرقى ، وأن الله لم يجعلها كلها نصوصاً ، وإنما جعل شرطاً عظيماً منها ، بل أعظم شرطها ، راجعاً إلى الاجتهاد وتحرى المصلحة في دائرة القواعد العامة التي ترشد إليها النصوص القاطعة ، والأصول المحكمة ، وقد كان ذلك من أسباب الخصوبة والمرونة التي اشتهر بها الفقه الإسلامى ، وأصبحنا نرى في كثير من المسائل التي تعرض للبحث على بساط هذا الفقه ، سائر الاحتمالات التي يحكم بها العقل ، وقد قال بكل احتمال فقيه مجتهد له دليله وحجته ، حتى يصعب أن نرى حكماً من الأحكام العملية ليس له إمام يقول به من بين فقهاء المسلمين .

كانت الدولة العثمانية تسير في تشريعاتها على هذا الأساس — ولا أقصد طبعاً أنها لم تكن تشذ عنه في شيء ما ، ولكنه كان هو الأصل والكثير الغالب — وكانت مصر تبعاً لها ، بل كانت من قبلها ، تجري على ذلك في تشريعاتها وأحكامها وكان فيها قاض لكل مذهب من المذاهب يحكم بما أنزل الله ، وقد ظلت على ذلك رغم قلب حكوماتها ، والدول المسيطرة عليها ، لا يستطيع أحد أن يدعى خروجها على الشريعة أو الفصل فيها بين الدين والدولة ، وإن كانوا في بعض الأحيان يخالفون أحكام الإسلام ، ويقرون ما لا يقره الإسلام ، حتى كان عهد النفوذ الأوربي ، فعمل المستعمرون والمحتلون على إصدار بعض القوانين المستمدة من قوانينهم في الأمور المدنية والاقتصادية والجنائية ، ليست كلها مما يخالف الشريعة الإسلامية ، وليست مبنية على تقرر مبدأ الخروج عليها ، والانفلات منها ، وبقيت مع ذلك أمور كثيرة على حالها من الصلة الوثيقة بالفقه الإسلامى ، كالوقف ، والزواج ، والطلاق والميراث ، والوصية ، وغير ذلك من الأمور التي اصطُلح فيها بعد على تسميتها « بالأحوال الشخصية » ، وأُفردت لها محاكم خاصة .

ولما قامت الحركة الوطنية لم يكن من أشراطها التخلص من أحكام الشريعة

الإسلامية ، ولم نسمع أو نقرأ عن أحد قوادها أنه نادى بذلك أو عمل عليه ، وكل ما حدث في ذلك ، أن المغفور له سعد زغلول باشا نادى بعدم التفرقة بين سكان مصر من حيث الأديان ، فالجميع مواطنون لهم ما للسلبين وعليهم ما عليهم وذلك ليسد الثغرة التي كان المحتلون يودون لو استطاعوا توسيعها ، وهي ثغرة « الأقليات » ، وقد فوت عليهم المصريون ذلك باتحادهم واتفاقهم على تحرير وطنهم من غير أن تسود بينهم فكرة الانسلاخ من أحكام الشريعة الإسلامية ، أو أن يشترط بعضهم على بعض أحكاماً معينة ، وليس من المعقول أن يشترطوا ذلك ، أو يتفقوا عليه ، فإنه ما دامت الأحكام المدنية في أوروبا وفي مصر لا تستمد من مبادئ الدين المسيحي أو الدين اليهودي ، فسواء على أهل هاتين الملتين أن يُحكموا بتشريع أوربي أو بتشريع إسلامي ، وكل ما يهمهم في ذلك أن يُحكموا بتشريع ملائم للصالحة والعدل مطابق لما تقضى به سنن الحياة ، ولا شك أن التشريع الإسلامي كفيل بذلك بشهادة خصومه قبل أصدقائه .

ولِذْنِ فلم تأت الحركة الوطنية في هذا الشأن بجديد ، وإنما ذكرت بمبدأ إسلامي مقرر منذ أول الإسلام ، هو رعاية حق المواطنين من أهل الأديان الأخرى ، والسماح لهم بإقامة سائر الشعائر ، حتى كانت الدولة - وما زالت - تقيم لهم الكنائس والمعابد ، وتتفق على مجالسهم المالية ، وتعين مدارسهم ، ولا تحول بينهم وبين ما يريدون في أنفسهم وأموالهم وأقضيّتهم وأنكحّتهم وسائر نظمهم ، إلا ما تقضى الضرورة بوحدة الحكم والنظام فيه .

وقد جاء الدستور المصري على أثر الحركة الوطنية ، فرعى هذين الأصلين ، ولم يبلغ واحداً منهما : إذ اعترف بأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، وحفظ لكل إنسان حقه في معتقده ، وفي إقامة شعائره الدينية على ما يريد ، وتقريره لهذا الدين رسمياً يتأفي القول بالفصل بين الدين والدولة ، لأن الدول التي قررت هذا الفصل ، لم تنص مثل هذا النص في دساتيرها ، وإنما نص بعضها على أنها دول لادينية ، وترك بعضها الأمر دون نص على شيء إيجاباً أو سلباً ، والدول التي تجرى

فعلا على أساس الفصل بين الدين والدولة إنما تجرى على ذلك لأنه ليس في دينها أحكام عملية تفصيلية في شئون الحكم يمكنها أن تعمل بها ، وتسير على تفاصيلها . وما زال رجال الدولة المصرية رسميين وغير رسميين مقتنعين بأن هذه الشريعة الإسلامية هي الشريعة الصالحة للأمة ، المسيرة لما ترجو من نهضة وتقدم ، وإن كانوا يرون أنهم مضطرون - الى وقت معلوم - لمسيرة الواقع العملي فيما لدينا من تشريعات أجنبية ، حتى تتهيا النفوس تدريجياً للعمل بسائر أحكام الشريعة ، ولنا لئرى كثيرا منهم يبدى نشاطا محمودا في لفت الأنظار الى الشريعة الإسلامية وفي اقتباس ما تتهيا الظروف لاقتباسه منها .

فإنقول بأن الفصل بين الدين والدولة مبدأ متقرر ثابت تجرى عليه مصر ، قول باطل لا صحة له ، وزعم جرىء لا دليل عليه ، وفيه طعن سافر على رجال الحكم والدولة ، وإغضاء عن دستورها وأحكامها .

\* \* \*

(٢) وأما عن المبدأ الثاني وهو وجوب قصر الدين وأحكام القرآن الكريم ، على غير العمليات من شئون الحكم والسياسة ، فهو يدل على جمل هذا الكاتب بطبيعة الشريعة الإسلامية أو تجاهله ، فإن هذه الشريعة لم ينزلها الله شريعة روحية قاصرة على شئون العبادة والتهذيب ، وإنما هي شريعة عملية ، تضع أسس المبادئ التي تكفل سعادة الأفراد والجماعات ، وتنبئ على المصالح وتقدرها حق قدرها ، ولا تتعارض مع أى أسلوب من أساليب الحكم والسياسة والنظام ما دام مبنياً على الشورى ورعاية حق الحاكمين والمحكومين ، وكفالة الطمأنينة والقرار والامن للأمة ، وإذا كان مثل هذا المبدأ الذى يطالب الكاتب بتطبيقه يقال في الشرائع الأخرى ، فلأنها شرائع روحية أو نصية حرفية ليست لها قوة الشريعة الإسلامية واستقواؤها وقدرتها على مجابهة المشكلات ، ومسيرة النهضات الإصلاحية .

وإنى لأعجب كيف ينادى مثل هذا الكاتب المسلم بذلك ، وكيف يجمع بين إيمانه بالقرآن وشريعة القرآن ، وما يدعو اليه من شل هذه الشريعة ،

واطراح كتابها ظهرياً ، وإذا كانت المسألة في الدين والشرعية مسألة تهذيب للنفس وتقويم للأخلاق فحسب ، فأى فرق في هذا بين شريعة وشريعة ، ولماذا نعتز بشريعة الإسلام ، ونعتبرها أكمل الشرائع ، وأجدرها باتباع الناس والفرض أنها كغيرها مقصورة أو يجب أن تكون مقصورة على التقويم والتهذيب ؟

ولكن هؤلاء لا يقولون ما يقولون إلا تقليداً للغرب ، وإعجاباً بما عند الغربيين ، فقد رأوا القوم هناك يقولون بهذا فقالوا هم أيضاً به ، وفاتهم أن هناك فرقاً بين الشريعة التي تؤمن بها ، والدين الذي يؤمن به القوم ، وأن ما يصلح أن يقال هناك لا يصلح أن يقال هنا ، وقد كانت شريعة الاسلام سائدة أيام الراشدين والأمويين والعباسيين ، فلم تحل بين المسلمين والتقدم ، بل هي التي هيأت لهم النصر والقوة والعزة والعلم والعدل ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وإن الأمر في ذلك لو اوضح ، وإن الحقائق فيه لمشهورة معلومة ، ولكن الذين غزونا في ديارنا وأوطاننا غزونا أيضاً في عقولنا وثقافتنا ، وطبعوا كثيراً من شبابنا على الشعور بالنقص ، والتطلع إلى مسaire ركب الغالين سواء أقادونا إلى خيرنا أم إلى شرنا ولعمري إنهم لقواد الشر ، ودعاة الفساد والانحلال .

\* \* \*

(٣) وأما عن المبدأ الثالث فما نشك في أن الكاتب أراد أن يستغل غضب الرأي العام على طائفة رآها تحرف عن القصد ، وتلتوى عن السبيل ، وتجانب خطة الرشاد ، فدعا إلى الاعتبار بموقفها ، وأنذر بالشر المستطير إذا تغاضينا عنه فلم نفتح له أعيننا ، وهذا خطأ ، فما كان الاسلام ليدعو إلى الإسراف أو إلى الاتواء ، وما غضب الرأي العام لأن تلك الطائفة التي يعنها الكاتب كانت تغذ تعاليم القرآن ، وأحكام الاسلام ، وتسير على نهجها القويم ، وإنما غضب لأنه رآها تحرف عن ذلك وتبعد عنه ، وتسير في طريق لا تقضي إليه ، والله يعلم أن كل ذى عقل وإيمان من رجال الحكومة ورجال الشعب جميعاً يسره أن تسير البلاد الاسلامية في سبيل التدرج بسائر التشريعات حتى تكون

كلها متفقة مع الشريعة ، بل إنى لأعرف بعض المسيحيين يسرم ذلك لما عرفوه في الشريعة الاسلامية من عدل وإنصاف ، وملاءمة لطبيعة الناس ، ومسايرة لكل خير وإصلاح .

ألاَ إن ما كتبه هذا الكاتب الجريء لدليل على حاجة الأمة الاسلامية إلى من يحذرها من فتنة الغرب وضلاله ، ويبصرها بما في دينها وشريعتها من مزايا ، يأخذ بأيدي شبابها الذين غرتهم بهارج المدينة ، وزلزلت إيمانهم بأنفسهم وقومهم وتاريخهم وثقافتهم وأفكارهم ، ليعلموا أنهم قوة يخشاها أعداؤهم فيحاولون إضعافها ، وأن دينهم هو الدين ، وعليهم هو العلم ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا إلا حين قبلوا في أنفسهم وفي ثقافتهم ودينهم حكم الغرب ، وتركوا دعاوته الكاذبة الخاطئة تغفل في أعماق نفوسهم ، وتوحى إليهم أن يتبعوهم ويفرقوا في لججهم ، ويتنازلوا لهم عن شخصيتهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

إن الأمة الاسلامية لفي حاجة الى من يبصرها بذلك ، وإن حقا على كل ذى علم وإيمان وغيره على دينه ووطنه أن يساهم في حمل جانب من هذا العبء ، لنهض جميعاً بأنفسنا ، ونخرج من هذه المحن المتلاحقة التي شككتنا في أنفسنا وشككت فينا أبناءنا ونحن خير أمة أخرجت للناس .

\* \* \*

أما التشريع المراد إصداره ، فإنى — مع إعظامى وإجلالى للروح الكريم الذى دفع إليه وأوحى به — أحسب أن ضرره أكبر من نفعه ، ذلك أن الزكاة بمقاديرها المقدرة في نصابها ، وقيمة المخرج منها ، والأموال التي تكون فيها ، وكل ما يتصل بها في الشريعة ، شأنٌ يجب أن يبقى له خطره وجلاله ، وألا يشوه بمجعله ضريبة كسائر الضرائب ، فإن المالك هو أعرف الناس بنصابه ، وما له وما عليه ، وهو أعرفهم بمن يستحق بذله ومعروفه من جيرانه وعشيرته وذوى رحمه ، وهو أحوج الناس إلى استحضار معنى العبادة فيما يؤديه من زكاة ماله ، واستشعار روح الطاعة

لربه الذى أعطاه وأغناه ، وقد جعل الله من حكمة الزكاة أنها توجد بين الغنى والفقير صلة مودة وحب شخصى ، فالغنى يتعرف أحوال الفقير وتأخذه عليه الرحمة والشفقة ، والفقير يدرك هذه العاطفة فى الغنى فيجبه ويظهر نفسه من درن الحقد عليه ، ويتمنى له المزيد من الفضل والخير ، وبهذا يتطهر المجتمع من كثير من أسباب الشر والعداوات ، أما إذا جمعت الزكاة من ذوى الأموال بواسطة الحكومة فإن هذه المعانى تضيق ، ويشعر الناس بأنها ضريبة كسائر الضرائب ، ويأبى الفقير إلا أن يأخذ من الغنى ما تعود أن يأخذه فى كل عام ، فإما أن يعطيه وهو كاره متبرم ، وإما أن يقول له : لا حق لك عندى فقد أعطيت الحكومة زكاة مالى ، وكلا الأمرين له مرارته وعضاضته ، على أن مشروع الزكاة الذى يراد إصداره سيضطرم بكثير من العقبات فى تشريعه وتنفيذه ، كجعله على جميع أبناء الوطن دون تفريق بين مسلم وغير مسلم ، وجعله على الأرباح دون رؤوس الأموال ، وجعله على نصاب غير النصاب الذى تعرفه الشريعة ، وسيحمل الدولة أموالا كثيرة لتحصيله وضبطه ، والفقراء والمساكين أولى بهذه الأموال ، وقد علل الفقهاء المسلمون أفضلية دفع المالك زكاة ماله لمستحقها بنفسه ، بمثل هذه الأسباب التى ذكرتها ، وربما كانت أجمع عبارة فى ذلك هى عبارة موفق الدين بن قدامة فى كتابه « المغنى » جزء ٢ ص ٥٠٩ إذ يقول :

« وأما وجه فضيلة دفعها بنفسه فلا أنه لإيصال الحق إلى مستحقته مع توفير أجر العالة ، وصيانة حقهم عن خطر الخيانة ، ومباشرة تفريج كربة مستحقها ، وإغناؤه بها مع إعطائها للأولى بها من محاييج أقاربه وذوى رحمه ، وصلة رحمه بها ، فكان أفضل كما لو لم يكن أخذها من أهل العدل ، فان قيل قال كلام فى الإمام العادل إذ الخيانة مأمونة فى حقه ، قلنا الإمام لا يتولى ذلك بنفسه وإنما يفوضه إلى سعاته ، ولا تؤمن منهم الخيانة ، ثم ربما لا يصل إلى المستحق الذى قد علمه المالك من أهله وجيرانه شيء منها وهم أحق الناس بصلته وصدقته ومواساته . »

لهذا أرجو من أصحاب الشأن فى هذا المشروع أن يترثوا ولا يتدموا على هذه

الخطوة ، فإن ضررها فيما أعتقد أكبر من نفعها ، ولهم أن يضربوا ما شاءوا من الأموال غير الزكاة المعلومة المقدرة نوعاً ونسباً باً وقدرها ، كما هو رأى كثير من الفقهاء ، يقول الغزالي في كتاب الزكاة من « إحياء العلوم » ما نصه : « وقد ذهب جماعة من التابعين - إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم . أما سمعت قوله عز وجل : « وآتى المال على جبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » - يريد مع قوله في هذه الآية بعد ذلك « وآتى الزكاة » - واستدلوا بقوله عز وجل « وما رزقناهم ينفقون : وبقوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقاكم » وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة » .

## طلائع الأعداء

« علستنا التجارب ، ونطقنا مواضى الحوادث ، بأن المقلدين من كل أمة ، المتحللين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذة وكُؤى لتطرق الأعداء إليها ، وتكون مداركهم مهابطة الوسواس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون - بما أفعمت أفتدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثالهم - شؤماً على أبناء أمهم ، يُذلونهم ويخفقرون أمرهم ، ويستهنون بجميع أعمالهم وإن جلت ... ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات ، يهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم » .

## نشأة الرواية ونظورها في تاريخ الأدب العربي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمد فؤاد السيد  
المدرس بالأزهر

حدثنا التاريخ بأنه قد تسنى للأمة العربية من قوة الحفظ والتحمل ما لم يتسنّ لكثير من الأمم القديمة الأخرى ، وذلك لأنه قد توافر لديها أمور عدة ، جردت من ألسنتهم أقلاماً وجعلت من حوافظهم صحائف ، وأوجدت من بدائهم أوعية لأنفصل الحجج حداً ، وأقواها منطقاً وأنصعها بياناً ، وأسرعها انطلاقا ، وألفت من حياة كل فرد أو عشيرة كتاباً أو بعضاً من كتاب ، حتى تكون لهم من هذا كله ذلك السجل الأدبي العظيم الذي يجمع تاريخهم ، ويشمل نسبهم وحوادثهم . وأنهم في ذلك كانوا أصحاب الشأو الأبعد ، والغاية التي ليست بعدها غاية بالنسبة لمن شاكلهم من الأمم والشعوب القديمة الأخرى كاليونان .

وإذا حاولنا حصر هذه الأمور ألفيناها أربعة هي : طبيعة بلادهم أو بيئتهم الجغرافية ، ونظامهم الاجتماعي ، ونظامهم السياسي ، وأميتهم . فساكنوا يقرأون إلا ما تسطره لهم الطبيعة ، ولا يكتبون إلا ما تمليه عليهم من معانيها ، فينقلون عنها بحسّهم ومشاعرهم ، ويدونون بألسنتهم في صحائف أفكارهم ؛ تسعدهم في ذلك طبيعتهم المواتية ، وقراءتهم الصافية ، وحوافظهم الماضية ، واستعدادهم المتوثب المتحفز ؛ وما نعرف شيئاً غير هذا ، أو لعله لا يوجد شيء غيره نستطيع أن نجعله سبباً في قوة حفظهم التي اشتهروا بها من بين جميع الأمم ؛ كما أننا لا نستطيع أن نجرد واحداً من هذه الأمور الأربعة ونعتبره على انفراده سبباً في هذا ، فهي



على الأكثر علل تختلف قربا وبعداً من معلولها عند النظر ، ولكن لا بد منها جميعا في إحداث هذا الأثر ، ولإيجاد تلك النتيجة ؛ ولتبيين ذلك نقول كلمة في أثر كل منها على حدة :

أما طبيعة بلادهم ؛ فكل ما فيها معنوى شعري ، يداخل ثنانيا النفس ، ويتغلغل في باطن الشعور ، ويوحى بشديد التأمل ، ويرسل الفكر من كل قيد ، ويمسّ أوتار القلب ، ويصيب مباحث الوجدان ، ويبعث الخاطر قوياّ حاداً .

آثارها في النفس مفصلة غير مجملة ، واضحة غير مبهمه ، متميزة غير مختلطة ، يعدها العادّ إذا شاء ، فهي سبيل إلى الصفاء ، بل هي الصفاء عينه ، وذلك مما يرحّب به الطبع ، ويلتقاه القلب بأحسن التّبول ، ويتركز في النفس ، وتنقش آثاره في الحافظة ؛ ولا أدل على عكس هذا من حياتنا الحاضرة في تراحبها وتداخلها واضطرابها .

وأما نظامهم الاجتماعي : فإن الحكم القبلي يستتبع من الفرد الناشئ فيه حياة خاصة غير تلك الحياة التي يحياها أفراد الشعوب المحكومة بحكومات منظمة ، لأن أثره في تربية الفرد وتقوية الذات — بالاعتماد على النفس حرة طليقة — أشد وأمعن من النظام الحكومي الواسع الذي تكون فيه السيطرة للقوانين المدونة ، محوطة بعوامل الإرهاب ، فالوازع فيها أجنبي ضاغط مخوف ، بخلاف الحكم القبلي الذي كانت عليه العرب في جاهليتها ؛ إذ هو أقرب إلى نظام الأسرة في بساطته ، إلا بما يُؤثر في عشيرته أو قومه من عرف موروث ، أو عادة متبعة ، وما هذا بالوازع الأجنبي ؛ لأنه وليد بيته التي يعيش فيها فيشعر شعورها ، ونتجه اتجاها بدون استيحاش أو نفار ؛ على أن سنائر وجوه الارتباط فيهم بين الأفراد والجماعات بسيطة ، لا كلفة فيها ولا تعاضل ، وذلك مما يعين على الصفاء ، ويهيئ الأذهان للتأثر بما يرد عليها من المعارف والحوادث ، وبخاصة معارف الحياة العربية وحوادثها ؛ فإنها مما يهز النفوس ، ويلقى بها أشد التعلق .

وأما نظامهم السياسي : فإن طبيعة حياتهم ، وما فيها من كثرة الانتقال في طلب العيش والأخذ بالتأثر ، ورعاية الجوار ، والتساند مع الحليف ، والعصية المتمترجة بدمائهم . كل ذلك وما إليه أوجد لهم سياسة خاصة في حربهم وسلمهم ، استوجبت لفوسهم معاني قوية كثيرة لا يغنى فيها إلا الخاطر والبديهة المسعفة ، أو المفارقة ، أو التعاير بالمثالب ، أو التناز بالآلقاب ، أو التفاضل بالأحساب والأنساب ، كل أولئك لا تفيد فيه الكتابة شيئاً حتى وإن كانت من صفاتهم ، ولا ينصرهم فيه إلا الحوافظ القوية ، والألسنة الحادة ، تدرك الفرصة ، وتصيب المحرّ بأطلق حجة .

وأما أميتهم : فقد كانت عوناً لهم على توجيه أذهانهم وتنشيطها في تلقى الحوادث والنقاط المعلومات والمعارف من غير تواكل أو اعتماد على شيء آخر غير المحافظة . هذا ما يتعلق بكل أمر من تلك الأمور الأربعة على حدته ، ولعلنا بعد في حاجة للكلام عليها مجتمعة تحت ضوء من علم النفس ، رُوما لتحقيق هذا البحث ، واستجلاء لهذه الآثار واضحة مؤيدة بما يتسع له المقام ، فنجد أن أقوى الوسائل وأهمها لجودة الحفظ هي :

١ — الإكثار من الروابط بين المعاني ؛ لأن ربط المعاني بعضها ببعض مما يزيد قراراً وثباتاً في المحافظة .

٢ — قوة الإحساس ودقة الإدراك الحسى ؛ فإذا كان الإحساس ضعيفاً كروية شيء أو سماع صوت من بعد ، أو كان إدراكه إدراكاً حسياً مبهماً وغير دقيق أصبح من الصعب حفظه وتذكره .

٣ — استمرار المعنى وتكرار عروضه ؛ لأن الصور العقلية تضعف بمرور الزمن إذا لم تتكرر دائماً خواطرنا بها .

٤ — قوة تأثير المعنى وقت ولوجه في النفس ؛ لأن المعنى إذا اقترن به وقت ولوجه في النفس روعة وقوة تأثير كان ذلك أدعى لتقرره ورسوخه فيها ؛ فإن الحوادث التي تهيج أنواع الوجدان لا تنسى .

هـ — انتخاب الوقت ؛ لأن ما يرد إلى الذهن وقت صفاته أشد رسوخاً فيه وانطباعاً به من المعاني التي ترد إليه وهو مضطرب ، ولذا اعتبروا البكرة خير وقت للحفظ والاستظهار .

فإذا نحن أردنا أن نتحقق وجود هذه الوسائل وتوافرها في الحياة العربية ، أو إذا نحن شئنا تطبيق تلك الحياة على هذه الوسائل ، وإرجاعها إليها لنحقق لنا ذلك معهم برّمتهم على أدق الوجوه وآكدها .

هذا ولقد بقي أمر آخر له خطره : هو الاستعداد الطبيعي الذي خصّهم الله به من الحوافظ القوية التي امتازوا بها كما تمتاز كل أمة من الأمم بخصائص فطرية ، تكون مشخصاتها ، وتنزنها قواها ، ويكمل بها تركيبها الطبيعي .

فإذا كانت تلك حالهم ، وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي ، كان طبعياً أن ينشأ فيهم الأخذ والتحمل ، وكان طبعياً أن يكون كل عربي راوية فيما هو من شؤنه أو شئون أبناء جنسه .

#### رواية الشعر في العصر الجاهلي :

ولقد كان للشعر في الحياة العربية مكانة ممتازة ؛ لما هيأت له طبيعته السلسلة ووسعه صدره الرحب ، وتسنى له دون النثر من الترجمة عن دقيق الشعور ، والتعبير عن المعاني النفسية الشعرية التي كانت تفيض بها حياتهم فيضا ، حتى كان الشاعر في قومه اللسان الناطق ، والقلب الخافق في الدفع عن الأحساب والأنساب والاعتماد في الأعداء ، يسجل أيامهم وما تستبعا من مكاره ، ويتحدث عن سلمهم وما يكنه من مباحج ، إلى غير ذلك مما تقتضيه حياتهم .

وبهذا كان للشعر مقام خاص في الرواية ، واعتبره الرواة عموداً لها ، وكان أكثر ما يروونه للتاريخ دون سواه ، حتى اتخذوه حكماً يفتون إليه ، ومرجعاً يستشهدون به على الزائف والجيد من الأخبار ، فكانت الرواية فيه أعم ، ونشأت له طبقة خاصة ترويه عن الشعراء الذين كانوا بمثابة المؤرخين .

### رواية المثالب والمفاخر في العصر الجاهلي :

أما المثالب والمفاخر فقد كان لها في القبائل أفراد غير الشعراء يقومون عليها ، ويؤدون رسالتها ، ويُرجع إليهم خاصة فيها ، وطبقتهم في الغالب من شيوخ القبيلة وساداتها من أهل أنسابها ، والقائمين على مفاخرها ، فصارت رواية ذلك غير رواية الشعر وأخص منها ، حتى تفرغ لها ناسٌ كل منهم رواية المفاخر والمثالب ، وحفظ الأنساب ، ينتقلون لذلك في العرب متقصين مستوعبين حتى تطورت الرواية بعض التطور باقترابها من المعنى العلوي قبل الإسلام ، وظهرت طبقة من الجاهليين علماء بهذا النوع من الرواية تسمى : طبقة النسّابين كعُبَيْد بن شَرِيّة الجُرهمي وابن لسان الحُمَرة وغيرهما .

### الرواية في الصدر الأول من الإسلام :

فلما ظهر الإسلام ، وكان المرجع في أحكامه إلى القرآن والحديث ، كان الصحابة رضوان الله عليهم يأخذون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت حلق مجالسه عليه الصلاة والسلام أول حلق عليّة عرفها العرب .

ولاشك أن هذا الحدث الجلل ابتدأ يحوّل تيار الحياة العربية تحويلاً كبيراً ، ظهرت آثاره على المسلمين أكثر من غيرهم ، فقد كانوا في شغل عن حياتهم الأولى بما توجهوا إليه من أمر دينهم ليتفقهوا فيه ، وشغل المسلمون كذلك بصدّ هذا التيار القوى الذي صار يحرفهم في طريقه ، حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم .

وجاء عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، فكان لا بد لهم في حكوماتهم من الاستدلال عليها ، والفصل فيها ، بالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا تكون أحكامهم وآراؤهم مجردة عن التأييد بالحجة ، وكان لا بد لهم في هذا من شرط الإسناد الصحيح في الرواية ، والتثبت في النقل كما حصل من أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، توخياً للصواب ، وصوناً للدين من عبث الفجار ومن مردوا على النفاق ؛ حتى كان جلّة الصحابة — وفيهم عمر وعثمان وعائشة — يجلسون للنظر

في الأحاديث وتصفّح وجوها ، ليفرقوا بين صحيحها وكاذبها ، فاكتملت الرواية بهذا روحا علمية جديدة ، كان للإسلام فيها كل الفضل .

وكانت الرواية الدينية الناشئة قد غلبت أختها الأدبية في نفوس المسلمين ، وظهرت عليها ، وسترتها وراها ، حتى صارت بسلطانها عليهم ، وقوة دواعيها فيهم ، بالمسكان الأول ؛ ومع هذا كانت الرواية الأدبية إذ ذاك أقوى منها في عهد الجاهلي ؛ لأنها مع بقائها بحالها عند المشركين ، انتقلت كما هي إلى الإسلام ؛ فقد استمرت في المسلمين رواية الشعر والخبر والأيام والأنساب ونحوها ، مما ورثوه عن أسلافهم في الجاهلية ؛ ولم يهدمه الإسلام فيما هدم من الشرك ، أو ما يؤدي إليه ، حتى كان في عطاء الصحابة الحافظون للأنساب ، والعارفون بالأيام ، والراوون للأشعار والأخبار ، والقائفون للناس .

على أن العداوة والحرب بين الفريقين كانت سبباً في تضخيم الثروة الأدبية وتوسيعها ، وتقوية كيائها ، وزيادة فنونها ، بما استبعت من نتائجها الطبيعية فيهم ، من مهاجرة بين الشعراء ، ومفاخرات بين السادة في كل من الفريقين ؛ وبقيت رواية ذلك سلاحاً في يد كل خصم لم حاجة الآخر ، فضلاً عما أحس به المسلمون من دواع قوية جديدة للاحتفاظ بهذه الثروة ، زادت عنايتهم بها ، وقيامهم عليها وأكدت في نفوسهم الرغبة في التعلق بروايتها ونقلتها من بعدهم خوف أن يفوت الانتفاع بها في هذه الناحية الجديدة ، التي هي حاجتهم إليها في تفسير القرآن والحديث

هذا ولقد بقي الحفظ عمدة الجميع في الرواية ، كما كانوا قبل الإسلام ، حتى مضى هذا العصر من غير أن يدون شيء من مروى الشعر أو الأخبار أو غيرهما .

#### الرواية في العصر الأموي وبداية تدوينها فيه :

ثم جاء العصر الأموي ، وظهرت الكتابة ، وابتدأ تدوين العلوم التي اقتضاها الإسلام من شرعية ولسانية وغيرها من العلوم الأخرى التي اشتغل بها المسلمون في ذلك العصر كالتاريخ والكيمياء والفلك والطب .

فكان النحو أسبق هذه العلوم في التدوين ، وكان أول الكتب فيه صحيفة أبي الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ وهو أحد التابعين بالبصرة ، لما كثرت الدواعى بانتشار الفتح الإسلامى ، واختلطت الأعاجم بالعرب ، فسرى اللحن في اللغة ، وبدأت الألسن تلتوى بالعجمة ، وخشى المسلمون أن تمتد سراية اللحن إلى القرآن والحديث في القراءة ؛ لما امتازت به اللغة العربية من اختلاف حركات الإعراب ؛ ثم كان من الطبعى أن يبدأ أمر التدوين لسائر العلوم الأدبية الأخرى ؛ لما بينها من الارتباط ، ولأن الحاجة إلى الجميع كان قد أحسها القوم ، فقد دُون في عهد معاوية بن أبي سفيان بأمره كتاب في التاريخ لعُبَيْد بن كَثْرِيَّة الجُرهميَّ النسابة الاخبارى ، وكان قد استقدمه معاوية مع من استقدمه من علماء القوم ؛ ليقصوا عليه أخبار الماضين من العجم والعرب ؛ وكذلك دونت كتب تاريخية أخرى ذكرها ابن النديم عن هذا العصر لم يوقف لجمعها على أثر ، وقد وُضع في الأنساب والمثالب كتابان ، وضعهما زياد بن أبيه لابنه عبيد الله ، أحدهما في نسبته إلى أبي سفيان ، والثاني في مثالب القبائل العربية ، ليستظهر به ولده على العرب ، وكانوا قد أنفوا لنسبته إلى أبي سفيان ونازروه فاتصروا عليه ، فعمد بعد الى وضع هذين الكتابين ليكونا سلاحاً في يد ولده عليهم ؛ وفي هذا العصر أيضاً ألّف في السيرة عروة بن الزبير المتوفى حوالى سنة ٩٣ هـ ؛ وهكذا ابتدأ التدوين يأخذ مكانه في العصر الأموى ، بجانب الحفظ ويزاحمه إلا أنه — نظراً لبده نشأته — إذ ذاك — لم يكن في مثل هذه الكتب التي ذكرناها تدويناً بالمعنى العلمى التأليفى وإنما كان جمعاً لما يصيبه العلماء من الشعر والخبر وغيرهما مجرداً عن التوبيخ والتهذيب .

هذا وقد كان من الطبعى أيضاً - تبعاً لمقتضيات ذاك العصر - تدوين العلوم الأخرى ، وكان أسبقها من العلوم الشرعية الحديث الشريف الذى كانت روايته بعدُ ملايحظى في رواية الأدب ، إسناداً وتدويناً وحفظاً للسند ؛ إلا أنهم لم يبلغوا بها في شيء من ذلك مبلغ الدقة في رواية الحديث ؛ لما للحديث من شأن خاص

في أصل الشريعة ، وبذا أخذت رواية الأدب طريقها إلى الصناعة العلمية ؛ ولقد نهض بها علماء الحديث ، بجانب من تفرغ لها من علماء اللغة والأخبار والأيام والمغازي والأنساب والمثالب والمفاخر ؛ وذلك لأنهم جميعاً كانوا يطلبون رواية الأدب للاستعانة به على تفسير ما يشته عليه من غريب القرآن والحديث ، وهما أفصح الكلام العربي على الإطلاق ، فكان من الضروري رواية هذا النوع ، والاستزادة منه ، مع شديد العناية به ، والاحتياط فيه بالمقدار الممكن ، حتى تستقيم آراؤهم ، وتهض حججهم فيما هم بسبيله من تفسير الغريب والمشتبه ، ولا يتم لهم ذلك إلا بما يحتجون به من الشعر العربي والكلام العربي الصحيح ، مدعماً بالسند ، دفعاً لما قد يتهمون به من الوضع والاختلاق .

ولا ريب أن الاتصال الشديد القائم بين الأدب والدين على النحو الذي ذكرنا جدير ببحث العلماء في ذلك العصر على اتخاذ الحيلة ، وصيانة الأدب مع الحديث من عبث أهل الأهواء ، وذوى الأغراض من الزنادقة والملاحدة الذين كثروا بكثرة الفرق الإسلامية ، وتحزّب الناس شيعاً ، إذ كان من همّ هؤلاء وهؤلاء أن يتصيدوا الفرص لإشباع أهوائهم بالدس والكذب والاختلاق في الحديث وفي الأدب ، إما للتشجيع على أهل الإيمان كما كان يفعل الزنادقة ، وإما لاستدرار ما عند القوم واستمالتهم كما كان يفعل القصاص وأهل الأخبار .

لذلك دعت الحاجة إلى السلوك بالأدب مسلك الحديث إلى أن صارت روايته مثل روايته صناعة علمية محضا في عهد بني مروان ، وكانت قد نشطت فيه الحركة العلمية نشاطاً قوياً ، وظهرت فيه الطبقة الأولى من الرواة أمثال عامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٤ هـ ، وحماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، وأبي عمرو بن العلاء المتوفى حوالي سنة ١٥٧ هـ ؛ فإنهم تصدوا للرواية وعقدوا لها مجالهم الخاصة ، فكانوا بهذا المعنى العلمي في أول تاريخها ، ولذا كان يكتب في رواية الأدب بإيصال الإسناد إليهم (١) ، ولأنهم — لقرب العهد — كانوا يدعون أنهم قبلوا معظم ما يروونه عن أدركوا الجاهليين ، أو عن بعدهم عن أدركهم ، هذا مع ما ذكر

(١) وقد اشتهر الاسناد بعد في كتب الأدب إلى من ولي هؤلاء كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الكلبي

بعد من انه لم يصح في رواية الأدب سند يتصل بالعصر الجاهلي ، ولعل هذا هو الوجه المعقول .

وكان قد سبق هؤلاء طبقة أخرى هي التي أخذت النحو عن أبي الأسود ، ومنهم ميمون الأقرن ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر العدواني .

كانت هذه الطبقة كغيرها ترجع إلى الشعر والخبر ، وتتبع لغات العرب ، وتسمع منهم ، التماساً للشاهد ، واصطيداً للشارد المثل ، إلا أنهم لم يشتهروا باسم الرواة كغيرهم ، لأن ذلك غلب على أهل الأدب .

من ذلك العهد ابتدأت مذاهب الرواة تتفرع ، واتجاهاتهم تختلف بسبب ما قام بينهم من المناظرات في تعليل النحو وفريعه ، وابتداء القول بالقياس في اللغة وفي النحو ؛ ومرجعهم في ذلك كله كلام العرب ولغات قبائلها ، وكانت اللغة قد ضعفت في الحضرة واستعجمت ، فصاروا يطلبونها في المناطق الخالصة من شوب اللحن ، وهجنة الدخيل ، في بطون البوادي وأطرافها ، يأخذون عن الأعراب ، ويروون عنهم للقصد العلمي ، حتى اتسعت فنون الأدب ، وتعددت نواحيه ، وتشعبت أطرافه واصطبغت كل طائفة من الرواة إذ ذاك بصبغة خاصة ؛ بما غلب عليها من بعض فنون الأدب ، دون بعض ، إلى أن ظهر ذلك جلياً في أئمة الأدب ، وهم أهل الطبقة الثالثة التي هي أبعد طبقات الرواة شهرة في تاريخ الأدب العربي ، ألا وهي طبقة الخليل وأبي عمر بن العلاء وأبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي الذي هو أئمة القوم وأبعدهم صيتاً وأكثرهم حظاً وشهرة ؛ فمن هؤلاء أخذت جميع فنون الأدب من لغة وشعر وأخبار ، وفي عهدهم دونت .

وكان ذلك في العصر العباسي الأول ؛ لأن الوضاعين من الرواة قد كثروا فيه ، وأكثروا من الروايات المكذوبة ؛ طمعاً في بذل الخلفاء الذين اشتدت عنايتهم في ذلك العصر بأمر الرواية والرواة فضلاً عن اهتمام الأمراء والوزراء والعظماء وسائر الأمة بهما ، وبذلك انتهى أمر الرواية إلى التدوين واقتصر فيها بعد على ضبط الأداء ، وتصحيح النطق فيما هو مدون على الشيوخ الذين يجيزونها كما سمعوها .



# دُنْيَا الذَّرَّةِ

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ركيل مصلحة النقل

قدماء المصريين ودوران الكواكب — دوران الألكترونات  
داخل الذرة — بوهر ووثبات هذه الكواكب نحو نواة الذرة —  
علاقة ذلك بفكرة الكم — تشابه حركة الكواكب فى الكون  
وحركة الكواكب فى الذرة — هذى هى الدنيا ليست هادئة .

متقلبين بين معابدهم فى الليل البهيم على ضفاف النيل ، أدرك الكهنة من قدماء  
المصريين ، أن للنجوم حركة تستمر طول الليل ، وأنها تتكرر من ليل إلى آخر ،  
ويقيني أنهم أدركوا أيضاً ، أن للكواكب حركة تختلف عن هذه الحركة للنجوم .

ألم يعرف المصريون القدامى فى سنة ٢٦٥ قبل مولد المسيح ، دوران عطارد  
حول الشمس ؟ . هذا الكوكب الذى سماه المصريون « سوبكو » ، والذى يتم  
دورته حول الشمس فى ٨٨ يوماً ، بينما اعتقد خطأ الذين عاشوا بعد ذلك العهد  
القديم — متأثرين بفكرة لأرسطو — أن الأرض مركز للكون .

أليس من العجيب أن يخطئ فلاسفة الإغريق فيما لم يخطئ فيه المصريون ؟  
هؤلاء علموا الناس قاطبة أن عطارد كوكب دوار حول الشمس ، وسائح مخلص دائم  
الدوران ، هؤلاء علموا الناس هذه الحقائق ، رغم أن عطارد لا يرى إلا فى شهرى  
أبريل وسبتمبر قبل طلوع الشمس بقليل ، وفى شهرى يناير ويونيو وقت الغروب .

إني أذكر مع الإعجاب معارف المصريين عن هذا الكوكب الذي لم يره في القرون الوسطى إلا «سكوت أوريجين» في القرن التاسع الميلادي ، و «براهيه» في القرن السادس عشر . هذا الكوكب الذي كان لرؤية «كاسندي» له عند مروره أمام قرص الشمس في ٧ نوفمبر سنة ١٦٣١ قصة رائعة ؛ رآه المصريون وعرفوا دورته حولها قبل ذلك بما يقرب من ألفي عام .

\* \* \*

مضطجعين حول أغنامهم في الليل الساكن على ضفاف الفرات ، يرقبون السماء بعيونهم ، ويتأملون الكون على حد عقولهم ، أدرك رعاة الغنم من الكلدانيين هذه الحركة للنجوم ، ولا ندرى ، أأدركوا أيضاً هذه الحركة للكواكب ؟

وفي الساعة الزمنية التي يُخَيَّل إلى أنها لا تنتهي ، أدرك المصريون والكلدانيون وغيرهم أن هذه الحركة للنجوم والكواكب لا تتبع في سيرها الصدفة العمياء ، وإنما تسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير ولا تبدل ، هذه القوانين لم تتضح بطريق لا يقبل الجدل إلا بعد الأعمال الخالدة التي خطتها «كوبرنيك» ، «بولندي» منذ خمسة قرون ، وهو الذي لم ير عطارده طول حياته ، تلك الأعمال التي أثبتت فيها أن أرضنا التي نعيش عليها ليست مركزاً للكون ، وإنما هي تابع لإحدى نجومه : الشمس ، وأن هذه الحركة للنجوم التي نراها ليلاً من الشرق إلى الغرب ، ما هي إلا دورة للأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق .

\* \* \*

ومر الزمن وكرّ ، وتوالت القرون ، وتابعت الأحقاب ، وجاء الفِرِنجية ورثة الإغريق ، فأدركوا أمراً آخر له خطره ، وفطنوا إلى تشابه عجيب بين الكواكب السيارة في دورانها حول النجوم وبين المادة التي يتكون منها كل شيء في الكون ، ذلك أن المادة صلبة كانت أم سائلة أم غازية تتركب مما نسميه ذرات «جمع ذرة» وهذه الذرة التي كانت في نظر العلماء إلى عهد قريب جزءاً لا يتجزأ ؛ باتت في نظر العلماء المحدثين عالماً شمسياً كاملاً ، فكل ذرة لأي عنصر

في الوجود تتكون على صائتها من نواة وسطى هي شمس الذرة يدور حولها سيارات متناهية في الصغر يسمونها «الكترونات» كل سيار منها أى كل «الكترون» يدور حول نفسه ويدور حول النواة ، كما تدور الأرض حول نفسها ودور الشمس ، وإنى أرجع القارىء في دوران هذا الكوكب الصغير حول النواة المتناهية في الصغر الى أعمال خالدة «لذر فورد» و «نايلز بوهر» الذى سأتق على ذكره في هذا المثال ، كما أرجع القارىء في دوران هذا الكوكب حول نفسه خلال دورانه حول نواة الذرة الى أعمال «لاهانك» .

وهكذا أيقن العلماء أن الذرة على صغرها ، وهى التى يتسع المليمتر الواحد فى الطول لعشرة مليون منها ، تتكون من نواة وسطى يدور حولها كواكب ، ويطول الشرح إذا أردنا أن نوضح فى هذا المقال لماذا افترض رذرفورد منذ حوالى أربعين سنة هذا النظام الشمسى للذرة ، فعند رذرفورد ومدرسته تتكون ذرة الهيدروجين من جسيم واحد فى الوسط شحته الكهربائية موجبة يسمونه البروتون يدور حوله الكترون واحد كما تدور الأرض حول الشمس ، بينما تتكون ذرة الكربون من نواة وسطى لا ندخل فى تركيبها الآن ، يدور حولها ستة كواكب ، أى ستة الكترونات ، ويدور فى ذرة غاز النيون الذى نراه ليلا يتوهج فى تلك الأنابيب الحمراء على واجهات دور السينما والبيوتات التجارية ، عشرة الكترونات ، ويدور فى ذرة الذهب ٧٩ ، وفى الزئبق ٨٠ ، بينما يدور فى أفلاك مختلفة حول نواة ذرة اليورانيوم أثقل العناصر ٩٢ الكترونات ، وهكذا تكون الذرات المختلفة للعناصر المكونة للخلقة ، وعددها ٩٢ عنصرا ، شوسا مختلفة ، كل عنصر يتميز بعدد من الكواكب الدوارة حول نواة ذرته ، ويختلف عدد هذه الكواكب فى العناصر المختلفة من كوكب واحد إلى ٩٢ كوكبا .

ويمكن تمييز هذه العناصر بعضها من بعض بالوسائل الكيميائية المعروفة ، كذلك يمكن تمييزها بالوسائل الفيزيائية بامتحان أطياها ، والطيف هو ما نراه لحزمة ضوئية من الألوان والخطوط بعد مرورها فى منشور زجاجى أو غيره من

الأجهزة التي تعمل على تحليل الضوء وتبيان ألوانه وخطوطه ، ولا ندخل هنا في ذكر ما يسمونه خطوط الامتصاص ، ونكتفي أن نذكر أن لكل عنصر من العناصر الممثلة بهذه المجموعات الشمسية المتقدمة طيفاً معيناً ، وخطوطاً معينة تميزه عن غيره مهما قلت المادة الموضوعة تحت الاختبار .

\*\*\*

وهكذا عكفت جبهة كبيرة من العلماء وطلاب المعرفة على دراسة الذرة ودراسة هذه الحركة للسيارات حول النواة ، ولا يكفي كتاب بئله مقال لوصف المناسبات المختلفة التي أجريت فيها هذه البحوث ، أو الأسباب التي ألجأت الباحثين إليها ، أو النتائج الهامة التي توصلوا إليها خلال بحوثهم ، إن دراسة الإلكترونات التي تدور في هذه الأفلاك حول شمس الذرة ، ودراسة نوع هذه الأفلاك بالرجوع إلى الأسس العلمية الصحيحة من الأمور التي شغلت كثيراً من الباحثين ، والتي كان لها نتائج هامة في التعرف على دنيا الذرة والتقرب ما أمكن من حقيقتها .

ولعل أهم ما حدث في العلوم خاصاً بحقيقة هذه الدنيا للذرة هو تلك الخطوات الجريئة والممتعة التي خطاها عالم معاصر ما زال ينعم بما تنعم به من حياة ، هو : « نايلز بوهر » الدنمركي ، ذلك أنه استخدم فكرة الكم عند « ماكس بلانك » لتفسير مواضع الخطوط الطيفية . ولقد تطلع « بوهر » إلى « الإلكترون » هذا الكوكب السيار حول نواة الذرة محاولاً أن يحدد له نموذجاً يتفق وفكرة الكم نموذجاً يفسر به الانبعاث الضوئي ، ويفسر به مواضع ما نراه من خطوط الطيف مع استبقاء فكرة دوران الإلكترون حول النواة ، وهي الفكرة التي تتمشى مع حالة عامة نلاحظها في الكون ونلاحظها في دوران الكواكب حول الشمس ، فكرة لاحظها أجدادنا من قدماء المصريين منذ أكثر من ألفي سنة .

ولإنني أذكر للقارئ في اختصار ما هي فكرة الكم عند « بلانك » ، فالطاقة عنده في الكون ظاهرة غير متصلة ، ونحصل عليها بوحدات تسمى الواحدة منها « كلاً » معيناً .

لقد أفهمنا العلماء أن المادة لا توجد إلا بكم ووحدة معينة هي واحدة من جسيمات ذرة العنصر كالبروتون أو النوترون ، وهي الجسيمات المكونة للنواة في جميع العناصر ، فلا يوجد نصف بروتون أو ربع نوترون ، وإنما تختلف العناصر بعضها عن بعض أيضا بعدد ما يوجد داخل نواتها من بروتونات أو نوتونات ، كذلك أفهمنا العلماء أن الكهرباء لا توجد بدورها إلا بكم معين أى وحدة لا تتجزأ هي الإلكترون ، هي هذا السيار الدائر حول نفسه الحائر حول النواة الموجود في جميع العناصر ، وتختلف العناصر بعضها عن بعض أيضاً بعدد ما يدور حول نواتها من الكترونات ، وهذا الإلكترون وحدة لا تتجزأ ، فلا يوجد نصف الكترون أو ربع الكترون ، ويحدثنا ماكس بلانك ، أن الطاقة في هذا الكون مهما كان نوعها لا توجد بدورها إلا بكم معين لا ينقسم الى كمين أى الى وحدتين .

ولكى ندرك ذلك أذكر على سبيل المثال أننا إذا أردنا أن نلعب الكرة فأننا نخيرون أن نكون ١١ لاعبا أو نزداد واحدا فيصبح عددنا ١٢ أو ننقص واحدا فيصبح عددنا ١٠ ، ولكننا لا نستطيع بأى حال أن نزيد العدد نصف لاعب ، إن لا عبي الكرة لا يوجدون في الكون إلا بوحدات معينة ، كل وحدة منها هي الإنسان الكائن الحى الذى لا يمكن أن يوجد بنصف وحدة ، فهذا الإنسان موجود في الخليقة بوحدات معينة ، ويستحيل وجوده بأنصاف أو أرباع هذه الوحدات ، كذلك الحال في الطاقة لا توجد في الخليقة إلا بوحدة معينة ، وكم معين .

ونعود الآن إلى الفكرة عند نايلز بوهر من الإحتفاظ بالنموذج الشمسى للذرة مع تفسير مواضع خطوط الطيف ، فقد نظر بوهر إلى الإلكترون أنه يدور ولكنه يدور في مدار ذى قطر معين أو مدار آخر ذى قطر آخر معين أيضاً ومحدد وحسب أن لكل مدار كمية معينة من طاقة الكترونية تزداد بازدياد المسار ، وفي هذا ازدياد لطاقة الإلكترون الكامنة ، وهي الطاقة التى يعطيها كاملة فيما لو وقع في النواة مثلا ، وهنا أدخل بوهر فرضا جريئاً له علاقة بكم بلانك الذى تقدم

ذكره ، ففرض أنه لا توجد مسارات للألكترون ، إلا تلك التي تطابق التغيير في الطاقة بمقدار كم واحد ، وقد حسب هذا الكم الذي يرتبط بمقدار المسار ، وتتبع في ذلك الأعداد الصحيحة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ الخ .

وكأنى به ، قد فرض في الحيز حلقات معينة حول النواة لا يمكن للألكترون أن يدور إلا فيها .

وفي ظني أنه يمكننا أن نفترض في الحيز هذا النوع من عدم الإتصال بجوار المادة ، وهو فرض يبدو غريباً على الذهن ، ولكن يصح لنا أن نفكر كما فكرت لنفسي أن وجود المادة تفرض على الحيز الموجودة فيه فرضية بوهر المتقدمة ، هذا البرأى خطر لي وسبق أن ذكرته وأرجو أن ينال موافقة العلماء المعاصرين .

ولقد حاول بوهر أن يفسر عملية انبعاث الضوء التي لم يعزها إلى دورات الإلكترون ، وإنما عزاها إلى حادث عظيم وقع لهذا الكوكب الصغير ، حادث لم يقع على الأقل للكوكب الأرضي منذ دورانه حول الشمس ، بل لم يقع لعطارد منذ دار أيضاً حول هذه الشمس ، وهذا الحادث الجسيم الذي وقع لكوكب نواة الذرة هي وثبة له من إحدى المدارات التي يدور فيها إلى مدار آخر ليس له أن يتعداه إلا بحادث آخر مماثل للأول .

على أن هذه الحوادث وأمثالها التي أحدثت تغييراً في طاقة الإلكترون هي التي سببت لنا على شبكة العين ما نراه من الأثر الضوئي في خطوط الطيف المعروفة ، هذا الأثر الذي يرجع في أصله إلى هذا الإضطراب الإلكتروني فنرى للصوديوم مثلاً خطوطه الطيفية ونرى هذا أحمر وذاك أصفر .

هنا يحررنا بوهر من كل قيودنا العلمية ويبعد بنا عن كل معارفنا وعن كل ما ورثناه وورثه فيزيائيو هذا العصر من علوم ، فثلاً كيف يمكننا أن نتصور مع بوهر الكترونا دائراً في مدار معين لا يرسل أمواجاً كهربائية وفق نظرية مكسويل . تلك الظاهرة التي اضطر بوهر إلى هجرها مع ما لها من قيمة علمية ، بل إننا نصادف

بعد ذلك صعوبات جمة ، أولها أننا لاندري لماذا تعطى وثبة الالكترتون إشعاعا ؟  
وثانيها لماذا يتبع نظام المسارات وحدة بلانك ؟ وأخيراً يقصر بنا الفكر أن ندرك  
- دون أن تقع في الحيرة - لماذا وثب هذا السيار ؟

ومهما يكن من خطورة هذه الأسئلة فإن بوهر لم يعرها انتباها ، وربما كان  
هذا سر عظمته ، وهكذا كلما عارضته فكرة قديمة عمد إلى ترك القديم ، وهكذا  
أحدث ثورة علمية كبرى .

وقد تخلل عمل بوهر صعوبات علمية . فبينما لا يشمل حساب مجموعتنا الشمسية  
إلا تسعة كواكب هي : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل  
وإيرانوس ونبتون وبلتون ، يشمل حساب المجموعات الشمسية للعناصر عدداً  
أكبر من الكواكب . كلنا يعلم اليوم أن عدد هذه الكواكب يصل في اليورانيوم  
مثلاً إلى ٩٢ كوكبا ، من هنا نرى صعوبة يعرفها أولئك الذين وهبوا حياتهم لتتبع  
رياضيات بوهر المتقدمة .

وتتحصّر صعوبة الحساب في تحديد ما لهذه الكواكب ( الالكترونات ) من  
أثر لبعضها على بعض ، وفي ميل مسارات الواحدة منها على الأخرى ، بل في اختلاف  
درجة هذا الميل من كوكب إلى آخر .

ولعل أروع ما يتصوره القارئ الآن أن يتصور أن كل هذا يجري في عالم  
صغير جداً ، فقد سبق أن ذكرت أننا لكي نتصور ضالة عالم الذرة المكون  
من شمس وسطى يدور حولها كواكب يجب أن نعلم أن هذا العالم من الصغربحيث  
إنه يجب وضع عشرة ملايين منه الواحدة جوار الأخرى ، لكي نشغل ملليمترأ  
واحداً في الطول .

هذا العالم الصغير له شمس له كواكبه بما لها من مسارات وما لهذه المسارات  
من ميول .

ورغم أن الموضوع يعتبر من الموضوعات العسيرة ، فقد اندفع جيش

من الفيزيائيين النظريين في كل جامعات الأرض محاولين تتبع أعمال بوهر وتطبيقها ، ومحاولين الإضافة إلى معارفنا ، وذلك بدراسة العناصر المختلفة ودراسة أطرافها ، متقلين من عنصر إلى عنصر ، ومتغللين في ذلك على صعوبة كبرى في الحساب ، وتعددت الرسائل العلمية في هذا الباب لسنين طويلة بعد بحوث بوهر التي ظهرت في سنة ١٩١٣ ، حتى أتت صادفت في السوربون سنة ١٩٢٥ والسنوات العشر التي تلتها ، عشرات من طلاب البحث المشغولين بموضوع طيف العناصر والرجوع بخطوط الطيف إلى مواضع هذه السيارات الحائرة حول النواة ، وإلى وثباتها العجيبة نحوها، وهؤلاء الطلاب تصادفهم في المكتبة ، وتعرفهم في معامل البحث ، فترى بعضهم يتابع النظر إلى طيف العناصر ، وبعضهم يتابع الحساب ويقابل النتائج التي يصل إليها بالنتائج التي تفرضها التجارب ، وما زال من بين هؤلاء أصدقاء لنا عكفوا على أعمالهم أعواماً ليجدوا حلاً موقفاً بين ما يصلون إليه من طريق الرياضيات ، وما يعثرون عليه أو يعثر عليه غيرهم عن طريق العلم التجريبي ، وما له اليوم من قوة .

\* \* \*

هذه هي الإلكترونات الحائرة تدور حول النواة في الذرة كما تدور الأرض حول الشمس أو القمر حول الأرض ، بل هي تدور حول محورها أيضاً ، هذه الإلكترونات من الصغر بحيث إن النسبة بين كتلة إحداها وكتلة حبة المسبحة كالنسبة بين هذه الحبة والكرة الأرضية التي نعيش عليها . هذه الكواكب الصغيرة أصبحت معروفة في كتلتها ، في مقدار ما تحمله من شحنة كهربائية في دوراتها حول محورها ودورانها داخل الذرة ، بل إنها باتت معروفة في وثباتها داخل هذا العالم الذري . وبعد فأى تشابه عظيم بين ما في الكون في مجموعه - بين ما في العالم الشمسي مثلاً - وبين أصغر ما في هذا العالم وهو الذرة .

أى عظمة بلغت قوة العلوم النظرية والتجريبية في تتبع هذا النظام للعالم الكبير والعالم الصغير ، ومعرفة هذا النظام معرفة بلغت حد اليقين .



هذى هي الدنيا - دنيا هادئة وهي ليست بهادئة - شمس تبدو أنها تشرق علينا في الصباح حتى لقد ظننا خلال أجيال طويلة أنها هي التي تشرق علينا ، وهذه الشمس تغرب في المساء ، حتى لقد اعتقدنا خلال هذه الأحقاب أنها هي التي تغيب عنا ، والواقع أن الأرض هي التي تدور أمامها ، ومن دورانها يتكون الليل يتلوه النهار .

هذى هي الدنيا ، وما الشمس إلا نجم في مجرة من ألف مليون نجم . وفي المجرة ما هو أكبر منها وما هو أصغر ، وما المجرة إلا واحدة من مائة ألف مليون مجموعة مماثلة لها ، وهذه الشمس تدور حول محورها وهي ليست ثابتة ، بل تسير نحو ذات الكرسي المعروفة بهرقل ، وهذه المجرة بما فيها من مائة ألف مليون نجم تدور حول نفسها وهي في الوقت ذاته تبتعد في الفضاء المطلق عن مثيلاتها من المجموعات الأخرى . وهذه الشمس التي نراها تشبه النواة داخل الذرة ، ألم تغلق هذه النواة فأخرجت ضياء كضياء الشمس وطاقة فوق الوصف .

هذى هي الدنيا لا تعرف للهدوء سبيلا ، بل هي دائمة الحركة ، وهذا هو الإلكترون السيار الدوار حول نفسه وحول نواة الذرة ، وكأنى بها تشرق عليه وتغرب ، وهو لا يكتفى بدورانه بل له وثبات خطيرة يقف عندها الفكر حائرا .

هذى هي الدنيا ليست هادئة وهذى هي المادة : ملايين من المجموعات الشمسية تذكرنا بما قاله الهاتف الأصفاني في شعره منذ قرابة قرنين ، وهو من شعراء الفرس : « إذا شققت قلب كل ذرة وجدت في جوفها شمسا » .

هذى هي دنيا الذرة « ما أشبهها بالدنيا التي نعيش فيها ، حدثتك عنها حديثاً لم يخل من صعوبة ، وإنى لأرجو خلاصاً أن يفيدك أيها القارئ العزيز . ولنا رجعة إلى المواضيع التي تشغل بال العالم اليوم إن شاء الله »

# زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ

لحضرة القاضي عبد الله الجرافي الصنعاني

مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر

ذكرنا في العدد الأول طرفاً من أخبار اليمن ، وأشرنا إلى المذهب  
الزيدى ، وتذكر في هذا العدد نبذة من أخبار الامام الشهيد زيد بن علي

## مولده ونشأته :

ولد الإمام الشهيد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ،  
سنة خمس وسبعين من الهجرة ، وقتل سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فدة حياته أقل  
من خمسين سنة ، ولكنها وقعت في فترة من تاريخ الأمة الإسلامية حافلة بألوان  
من الحوادث والتقلبات ، والحروب الداخلية والخارجية ، ذات طابع معين  
من النشاط الفكرى الإسلامى فى العقائد والكلام والفقه والاجتهاد . وزيد بن علي  
هو غصن من تلك الدوحة الطاهرة الزاكية ، نشأ بين الغر الميامين من آل بيت  
النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، يقتبس من معين النبوة الصافي ،  
ويروى عن أعلام العلم والحق ، ويتخلق بأخلاق أهل الشجاعة والصدق ، ويشهد  
بلاء المؤمنين الصابرين ، وتتفعل نفسه بظلم الظالمين المتسلطين ، فلا غرو إذا كان  
هذا الإمام الشهيد درة في جبين الزمان ، وانحازت إليه صفات العلم والفقه والورع  
والشجاعة والصبر ، حتى انتهى كما ينتهى كل مجاهد فى سبيل الله ، أثر الموت الكريم  
على حياة الذل والمهانة ، والضيم والاستكانة .

## خروجه واستشهاده:

كانت المظالم في بني أمية قد عمت وطمت ، وكان أهل البيت على وجه أخص هم هدف هؤلاء الظالمين يخشونهم ، ويثنون عليهم العيون والأرصاد ، ويضطهدون من يواليهم ، ويتعقبونهم في كل أمر ، وكانت الأمة تحمل من ذلك عنتا شديدا ، وإرهاقا وإزعاجا ، ومحاربة في عاطفتها الدينية وميولها الطبيعية لآل الرسول : فالقي لا يقسم بالسوية ، والمظالم لا ترد ولا تدفع ، والجيوش والبعوث تبقى الزمان الطويل 'مجمرة' في أرض العدو لا تُقْفَل ، ولا يُسْتَبَدَل بها ، وعلى أبناء علي يلعنون ويطرودون ، وتحاك من حولهم الدسائس ، ويضطهدون في أموالهم وأهلهم وضياعهم وعلومهم وذكرهم وأتباعهم ، وكانت مقاتلهم ومذابحهم ومظالمهم هي هجيري هؤلاء ، وقصارى ما يفكرون فيه ، ويشغلون به ، وقد جعلوها مباراة يتبارى فيها كل من شغفه الشوق الى النباهة بعد الخول ، والقرب بعد البعد ، والصولة بد الضعف من هؤلاء القواد المحترفين ، والوزراء المتملقين ، وعلما السوء ، ورواة الكذب ، والبرعة في التلفيق والتشقيق ، وكانت عين الزمان مازال باكية تهاطل دموعها على الإمام الشهيد السبط سيد الشباب أبي عبد الله الحسين وكان كل ما في الأرض من حى أو جماد ، وكل ما في السماء من طير أو كوكب ، السنة تنادى بالفجيعة فيه ، وعيون تبكى ، وقلوب تحفق ، وصدور تضيق ، وجباه تقطب ، وأعصاب تهتز وتضطرب أن أوذى ابن رسول الله ، وقطعت بأهله وأصحابه الأرض ، وموت الوفاء والرحم والقربى بهم تويتاً ، وموت الحق والعدل والإنصاف تقويتاً ، فهل يقر - وهذه هي الحال - سيف من سيوف الله كريد بن علي في قرابه ؟ وإيان إذن ينتفى ويستل ؟ .

جاشت بذلك نفس زيد ، وأنها لجيشاشة بالحق ، فوارة على الباطل ، فاعتزم أمراً عظيماً ، هو الخروج على هذه الدولة الظالمة الباغية ، وصادف أنه كان قد ذهب إلى العراق في خصومة بينه وبين خالد بن عبد الله القسرى ، إذ ادعى عليه زوراً وبهتاناً ودبعة ستمائة ألف درهم . ليجعل ذلك عليه نكايه ، ويدبر له به ظلماً وإثقالاً

فلما كان في العراق لهذا ، اتصل به أهل الكوفة ، وألحوا عليه في الخروج على الأمويين ووعدوه النصر ، ولكن هشاما تنبه لما يحيط بالبطل ، وأحسن نشاطه ونشاط الناس من حوله ، فأمر عامله على العراق يوسف بن عمر الثقفي أن يخرجهم على عجل ، فأمره يوسف بالرحيل ، فرحل ولكنه لم يقطع بالعراق صلته ، ولم يكف عن بث دعاته ، والحوض في أمر بني أمية ، وذكر مظالمهم ، واستحقاقه للأمر من دون هشام ، وقد قال مرة : « والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل ، فبلغت هشاما ، وعرف ما تطوى عليه نفس زيد ، فقال له ذات يوم : اتمد بلغنى يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك وأنت ابن أمة — وكانت أمه سندية — قال : اتمد كان اسحق ابن حرة ، واسماعيل ابن أمة ، فأختص الله ولد اسماعيل فجعل منهم العرب ، فما زال ذلك ينمى حتى كان منهم رسول الله !

ولم ينشب بعد لآى أن خرج ودعا الناس إلى بيعته وكان يقول لهم : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفى بين أهله بالسواء ، ورد المظالم واقفال المجمر — أى إرجاع الجيش من أرض العدو بعد مدة لا تطول — ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجعل حقنا — أتبايعون على ذلك ؟ ، فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على يدهم .

ووصلته البيعة من كثير من الفقهاء والقراء وأهل البصائر (١) ، فلم يلبث بنو أمية أن بعثوا إلى الكوفة بالجيش لماجزته ، فخرج معه بعض أهل الكوفة وتخلف عنه آخرون ، وكانت المعارك ما بين الكوفة والحيرة ، فلما جد الجد تفرق

(١) وقد روى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين إن أبا حنيفة كان ينصر زيدا ويميل إليه ، وأنه أرسل إليه يقول : « إن لك عندى معونة وقوة على جهاد عدوك فاستعن بها أنت وأصحابك فى السكراع والسلاح » وبعث بمال إلى زيد فتقبله منه . وقال الزمخشري فى الكشف « وكان أبو حنيفة يفتى سرا بوجوب نصره زيد بن على ، وحمل المال إليه ، والخروج معه على اللس المتقلب المتسمى بالامام والخليفة » ،

عنه أكثر من بابه ، ولم يبق معه إلا ثلثائة أو أقل ، وكانت بينهم وبين يوسف ابن عمر قائد هشام ملحمة ثبت فيها زيد ومن معه ، حتى إذا جنح الليل رُمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فلما انتزع قضى ، وفاضت روحه الطاهرة ، ومات شهيدا حميدا ، فلما دفن استدلوا على قبره فأخذوه منه وصلبوه على خشبة بالكناسة ، ومكث مصلوباً حتى مات هشام ، ثم أمر به الوليد فأُنزِل وأُحرق . فشلت يمين الحادثات فقد رمت فأصمت شهاباً عالي القدر سامياً

### مناقبه وشماله :

كان ، سلام الله عليه ، جم المناقب ، نغم الشمال ، لايزيده الوصف عرفانا ، وكان في العترة الطاهرة علماً بارزاً يعرف له الجميع قدره ، ويذكرون فضله وعلمه ، ومن بينهم الإمام جعفر بن محمد الصادق ، عليه السلام .

وقد أثنى عليه علماء الحديث من تكلم عن الرجال جرحاً وتعديلاً ، وأجمعوا على جلالته وإمامته ، واعترفوا بثقته وأمانته ، وكان بريئاً من البدع والآهواء التي انتحلها أبو الجارود وغيره من ينتمون إليه ، بريئاً من الذين شبهوا الله بخلقه ، ومن الذين حلوا ذنوبهم على الله ، ومن الذين أطمعوا الفساق في عفو الله ، ومن الذين كفروا علماً أو أبا بكر وعمر . ومن قوله في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : « غفر الله لهما . ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما . لا أقول فيهما إلا خيراً ، وإن كانوا قد استأثروا بهذا الأمر علينا ، ودفعونا عنه ، فقد وُلّوا فعدّوا وعملوا بالكتاب والسنة . »

### مشايخه ومن روى عنه

روى الإمام زيد بن علي عن أبيه زين العابدين علي بن الحسين ، وأخيه أبي جعفر محمد بن علي الباقر وعروة بن الزبير ، وعبد الله بن أبي رافع ، وأبان بن عثمان وغيرهم وروى عنه جم غفير منهم ابن أخيه جعفر الصادق ، ومنهم أبناؤه : الحسين بن زيد وعيسى بن زيد ويحيى بن زيد ، ومنهم خالد بن صفوان ، وأبو مسلم راشد بن سعد ،

وسليمان الأعمش ، وشعبة بن الحجاج ، وعبد بن كثير ، وأبو خالد عمرو بن خالد ،  
الواسطي ، وأبو الجارود ، وزباد بن منذر ، والحسن بن صالح بن حي ،  
وغير هؤلاء .

وأخذ عنه الإمام عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأخذ  
عن الإمام عبد الله بن الحسن أولاده الأئمة أولو الشأن : النفس الزكية محمد  
ابن عبد الله ، وإبراهيم بن عبد الله ، ويحيى بن عبد الله ، وأدريس بن عبد الله ، واتصلت  
أقوالهم بالإمام القاسم بن إبراهيم الرسي ، وأحمد بن عيسى بن زيد بن علي ، والفقيه  
محمد بن منصور المراءى ، كما اتصلت أقوال الجميع بالإمام الهادي يحيى بن الحسين  
صاحب التين واختار اختيارات كثيرة ، وألف المؤلفات النافعة ، وصارت زيدية  
التين والحجاز على مذهبه في الفقه ، وظهرت مؤلفاته بجيلان ودبلان من بلاد إيران  
وسار إليها حفيده يحيى بن المرتضى ، وأخذ عنه السيد أبو العباس الحسني ، وأخذ  
عن أبي العباس من أئمة جيلان ودبلان الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني  
والإمام أبو طالب يحيى بن الحسين ، وكان الاتصال بين التين وجيلان ودبلان  
في تلك العصور فما بعدها .

وله قراءة مفردة مروية جمعها لإمام النحاة أبو حيان في كتاب سماه : « النبر  
الجلّي » ، في قراءة زيد بن علي ، وروى صاحب الكشف كثيرا منها ، كما روى كثيرا  
من علمه ورأيه ورأى أهل العلم والفقه فيه ، ومنهم أبو حنيفة النعمان كما قدمنا .

#### مسند الإمام زيد ومذهبه :

مسند الإمام زيد بن علي المعروف بالمجموع الفقهي من أقدم ما ألف في  
الإسلام ، وقد جمع بين المسائل الفقهية والأحاديث النبوية والآثار العلوية ، وخرج  
أحاديثه شارحوه من الدواوين الإسلامية وأنبأوا شواهدا ، وكان أحسن شرح  
له الروض النضير طبع بمصر في سنة ١٣٥٠ في أربعة أجزاء ، ومؤلفه القاضي الحسين  
ابن أحمد السياغي من علماء التين بالقرن الثالث عشر ، ومسند الإمام زيد بن علي  
هو من معتمدات علماء الزيدية بالتين ، والتين من الأقطار الإسلامية التي حافظت

على معالم الدين تحت رعاية أئمة آل البيت قرونا طويلة ، ولا تزال كذلك إلى انقضاء الدهر ، ويشهد لذلك ما قاله الحافظ ابن-جر المدوني سنة ٨٥٢ في فتح الباري شرح صحيح البخاري تعليقا على الحديث الذي أورده البخاري في باب الأمراء من قريش من كتاب الاحكام ، ورواه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان . ونفسه : ويحتمل أن يكون بقاء الأمر في قريش في بعض الأقطار دون بعض ، فإن بالبلاد اليمنية النجود منها طائفة من ذرية الحسن بن علي لم تزل تلك البلاد معهم منذ آخر المائة الثالثة ، وهم قائمون بالعدل . انتهى .

ويقرر السيد صارم الدين رحمه الله عن شيوخ العترة ، أن المهادي هو أول من رتب كتب الفقه من الأئمة وجعها ، ومن هنا سمي كتاباه « المنتخب والجامع » بالجامعين لجمعهما أبواب الفقه والفرائض ، وبالجملة فإن الأئمة الكبار بعد زيد بن علي كالقاسم بن ابراهيم والناصر الأطروش وغيره من الأئمة والمهادي عليه السلام اعتزوا في فتاويهم وعلومهم إلى زيد بن علي حتى قيل لهم الزيدية ، وانجر هذا الاسم إلى جميع الأئمة وشيعتهم ، والمراد أنهم قائلون بإمامته وإمامة سائر الأئمة ، ومعتزون إليه ، وسالكون منهاجه وعلى طريقته في أصول الدين ، وجملة الشريعة ، والمخالف له في شيء من أفراد المسائل الفرعية لا يخرجهم عن تلك النسبة ، وعن ذلك الاعتزاء ، كما في حق غيرهم من أتباع الفقهاء الأربعة ، فإنه يقال في حقهم حنفية وشافعية ومالكية وحنبلية مع مخالفة كثير من أتباعهم لهم في كثير من فروع المسائل ، وقد يفصل الاتباع بعضهم عن بعض بنسبة أخرى باعتبار اعتزاه خاص إلى بعض أتباع الإمام القديم ، ونصرة مذهبه ، ومذاكرة فيه ، وتفريع عليه ، وتخرج من أصوله .

وقال الحاكم : إن الذي يجمع مذهب الزيدية هو القول بالعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، وتفضيل علي عليه السلام وأولويته بالإمامة وقصرها في البطنيين ، وأنها تستحق بالفضل والطلب لا بالوراثة . . . الخ .

وقال السيد صارم الدين أيضاً : إن الهادي عليه السلام هو الذي صار زيديةً الذين على مذهبه في الجملة ، وبه يقتدون وإليه يعتزون ، ثم إن الأئمة الكبار قد اشتغلوا بذكر مذهبه ، وشهروا أصوله ، وقاسوا عليها ، وحصلوا منها كولدیه الناصر والمرتضى ، وكالآخوين الإمامين المؤيد وأبي طالب ، وكالسيد العباسي ، حتى صارت طبقات هؤلاء ياتمون ذلك بعضهم الى بعض سلفاً بعده خلف (١) .

#### طائفة من أحاديث المسند :

ونسوق هنا بعض الأحاديث والفتاوى التي احتوى عليها هذا المسند العظيم ، مثبتين في أولها سنده المتصل إلى أحد رواته وهم كثير مذكورون في الإثبات ، وهذه هي :

١ — باب ذكر الوضوء : أخبرنا علي بن العباس العلوي في داره بظاهر قصر الإمارة ، قال حدثنا عبد العزيز بن إسحاق بن جعفر بن الهيثم القاضي البغدادي قال حدثنا أبو القاسم علي بن محمد النخعي الكوفي قال حدثني سليمان بن إبراهيم ابن عبيد المحاربي قال حدثني نصر بن مزاحم المنقري العطار قال حدثني إبراهيم ابن الزبير فان التيمي قال حدثنا أبو خالد الواسطي قال حدثني زيد بن علي عليه السلام عن أبيه عن جده الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فغسل وجهه وذراعيه ثلاثاً ثلاثاً وتمضمض واستنشق ثلاثاً ثلاثاً ، ومسح برأسه وأذنيه وغسل قدميه ثلاثاً . قال أبو خالد : وسألت زيد ابن علي عليه السلام عن الرجل ينسى مسح رأسه حتى يجف وضوؤه . قال : يعيد مسح رأسه ويحزته ولا يعيد وضوؤه (٢) .

٢ — باب نكاح الإمام والعبيد — حدثني زيد عن أبيه عن جده علي عليه السلام أنه قال : لا تزوج الأمة على الحرية ، وتزوج الحرة على الأمة ، ولا

(١) راجع في ذلك كله نسخة المجموع ومقدماتها المطبوعة في ميلانو سنة ١٩١٩ م .

(٢) ص ٤ من المجموع طبعة ميلانو



يتزوج الرجل المسلم اليهودية ولا النصرانية على المسئلة ، ويتزوج المسئلة على اليهودية والنصرانية ، وللحررة يومان من القسم وللأمة يوم [ ص ١٩٨ ] .

٣ — حدثني زيد عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام ، أن رجلاً أتاه فقال : إن عبدى تزوج بغير إذنى ، فقال علي عليه السلام : فرّق بينهما ، فقال السيد لعبده : طلقها يا عدو الله ، قال : فقال علي عليه السلام للسيد : قد أجزت النكاح ، فإن شئت أهبها العبد فطلّقت ، وإن شئت فأمسك [ ص ١٩٩ ] .

٤ — حدثني زيد عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال : خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل رجل من الأنصار معدناه فإذا رجل يضرب غلاماً له ، والغلام يقول : أعوذ بالله أعوذ بالله ، كل ذلك لا يكف عنه سيده ، قال : فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعوذ برسول الله فكف عنه الرجل ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تعلم أن عائذ الله أحق أن يحار ؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرقاءكم أرقاءكم ، لمنهم لم يُجسروا من شجرة ، ولم يُنحتوا من جبل ، أطعموهم مما تأكلون ، واسقوهم مما تشربون ، واكسوهم مما تلبسون ، [ ص ٢٧٢ ] .

٥ — حدثني زيد عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دعا عبداً مشركاً إلى الإسلام كان له من الأجر كعتق رقبة من ولد اسماعيل . قال : وقال علي بن أبي طالب : من دعا عبداً من ضلاله إلى معرفة حق فأجابه ، كان له من الأجر كعتق نسمة ، قال : وقال زيد عليه السلام : من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أطيع أو عصى ، كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله [ ص ٢٧٣ ] ٩ .

# إندونيسيا

للأستاذ أحمد محمد عيسى

أمين مكتبة جامعة فواد الأول

بين الطرف الجنوبي الشرق لقارة آسيا والساحل الشمالى لأستراليا وعند ملتقى مياه المحيطين الهادى والهندي ، تنتشر مجموعة عظيمة من الجزائر الكبيرة والصغيرة قد تُقارب الألف عددًا ، وتسمى جزر الهند الشرقية ، ويطلق على المجموعة الغربية منها اسم الأرخييل الإندونيسى أو إندونيسيا ، وهى تتكون من جنوب شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة ، وجاوة ، ولومبوك ، وسومبا ، وتيمور ، ومولقة ، وسيليبيس ، وبورنيو ، ومجموعة جزائر أخرى موزعة الى الشرق والغرب ، وإلى الشمال والجنوب من تلك الجزر السالف ذكرها .

وتقع تلك المجموعة الهائلة فى منطقة خط الاستواء بين خطى عرض ١٠° شمالا وجنوبا على وجه التقريب ، وتعادل تلك المسافة ، المسافة بين الخرطوم وقبرص ، أما المسافة بين شرق الجزر وغربها فتقرب من المسافة بين كراتشى والإسكندرية ، ويتضح لنا من هذا التحديد الجغرافى أن إندونيسيا مزرعة استوائية من النوع الممتاز ، هذا فضلا عما تخفيه فى جوفها من مصادر الثروة المعدنية الهائلة ، على أن وقوعها فى قلب المنطقة الاستوائية لم يمنع تعشق الأوربيين لها ، فإن سطحها المرتفع ، وصغر مساحة أغلب هذه الجزائر ، والسطح المائى الكبير الذى يحيط بها ، كل ذلك جعل جوها صالحا لسكان العروض الشمالية الباردة .

والشعب الإندونيسى من أصل أسبوى ، رحل الى تلك الجزائر فى قرون ما قبل الميلاد المسيحى ، وكان الهود من أوائل المهاجرين ، ثم أعقبهم الصينيون ،

واستقر هؤلاء وأولئك على الشواطئ ، وقامت بينهم وبين إخوانهم في القسرة الآسيوية صلات وعلاقات تجارية مستديمة ، وصحب هؤلاء المهاجرون معهم ألوانا من الحضارة الهندية والصينية كما نقلوا دياناتهم التي ورثوها عن أجدادهم ، وهي الهندوكية والبوذية ، واستقروا هنا وهناك يزرعون الأرض ويرعون الماشية . ومرت بهم الأجيال جيلا إثر جيل قبل أن يسطر لهم التاريخ في كتابه أحداثا هامة حتى كان القرن الخامس الميلادي حين تأسست أول إمبراطورية إندونيسية في جزيرة سومطرة ، وقد قوى نفوذ تلك الإمبراطورية واتسع سلطانها ، وشمل كثيرا من الجزائر المحيطة بها ، وقامت بينها وبين الهند والصين علاقات تجارية واسعة ، ثم نشأت عدة ممالك أخرى متفرقة تختلف قوة وضعفا حسب من يلي أمرها من الملوك ، وحسب الظروف المحيطة بها ، ومدى طمع الجيران الأقوياء فيها .

ومن بين الإمبراطوريات القوية المشهورة إمبراطوية ماجاباهت التي سيطرت على جاوة كلها ، وعلى كثير من الجزر المحيطة بها في الفترة ما بين سنة ١٢٩٣ ، وسنة ١٤٧٨ ميلادية ، وتعد فترة سيادة هذه الإمبراطورية فترة تقدم حضارى يفخر به الإندونيسيون اليوم لما شمل البلاد حينذاك من تنظيم الشؤون المالية ، وتنسيق العلاقات الخارجية .

ويتضح لنا رقى الحضارة في ذلك العصر مما بقى من آثار المعابد الرائعة الضخمة ، فهي تدل على رخاء مادي نعمت به البلاد ، وإدراك قوى للعانى الدينية ، وعلم دقيق بقواعد فن البناء ، كما تدل على أن حضارة إندونيسيا حتى القرن الثالث عشر الميلادي كانت مزيجاً من حضارات الهند والصين التي انتقلت إليها مع المهاجرين الأولين منذ فجر التاريخ .

وقبيل انقضاء القرن الرابع عشر الميلادي كانت تلك الجهات مناطق نفوذ واستغلال للتجار العرب الذين توطدت صلاتهم بأهل البلاد نتيجة للرحلات المتبادلة ، وكان استيطان الكثير منهم في مدن الملايو وسومطرة وجاوة وسيلة من وسائل نشر الإسلام هناك .

ومنذ القرن الخامس عشر أصبح للإسلام مركز ممتاز في البلاد وأصبح معتقوه أغلبية على حساب الهندوكية والبوذية ، ونحن هنا بحاجة إلى أن نذكر أن معرفة إندونيسيا للإسلام ترجع إلى القرنين الثاني والثالث الهجري أى التاسع الميلادى ولكن سيادة الإسلام كدولة إلى جانب سيادته كدين لم تكن إلا منذ القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد سيطرت الحضارة الإسلامية على تلك الجزائر وثبتت أصولها وامتلات نفوس أهلها حباً للإسلام وتعلقاً بالقرآن الكريم ؛ وما هو جدير بالإشارة اليه أن الإسلام لم يدخل إندونيسيا في ظل سيف ولا حمله إليها جيش قاهر ولا عملت على انتشاره بعثات منظمة تدمها الحكومات المختلفة بالمال ، وتويدها بالسلطان ولكنه دخل هذه الجهات عن طريق أهلها أنفسهم ، فقد أعجبهم الإسلام وبهرم صفائه وفتنتهم مبادئه حينما رأوا أهله الذين كانوا يتاجرون معهم إما على سواحل الهند وبلاد العرب وإما على الشواطىء الإندونيسية نفسها .

وبينا إندونيسيا وممالكها الإسلامية وغير الإسلامية تعيش عيشة الاطمئنان والرخاء ، كانت حكومات أوروبا الغربية تغلى حقدأ على محتكرى تجارة الشرق من الممالك والعرب وأهل البندقية ، وقد دفعها تسلط تلك القوى على التجارة الشرقية وطرقها إلى التفكير فى كشف طريق لا تكون فيه تحت رحمة هؤلاء ، وكان فى طليعة المهتمين بتلك الحركة الكشفية البرتغال ثم أسبانيا ثم بعد ذلك هولندة وبقية الدول الأوروبية الأخرى .

وكان وصول البوكرك البرتغالى إلى الأرخبيل الإندونيسى سنة ١٥١١ إيذاناً بعصر مليء بالأحداث والمآسى إذ وقعت تلك الجهات تحت نير الاستعباد الأجنبى الذى أذاق أهلها ألواناً من البؤس وسخرهم كالسوائم لاستخراج خيرات الأرض دون أن يصيب الإندونيسيين من ذلك الخير ما يمسك رقهم .

ومنذ اللحظة التى دخلت فيها قوات المستعمرين إندونيسيا أخذت إرساليات التبشير للسليحية ترتاد تلك الجهات تؤيدها حراسة عسكرية تمنع عنها عدوان الأهالى .

على أن نشاط جماعات التبشير لم يثمر الثمرة المرجوة منه إذ يدلنا إحصاء سنة ١٩٤١ على أن المسيحيين في إندونيسيا لم يزيدوا كثيراً على مليوني نسمة أربعة أخماسهم من البروتستانت والخمس الباقي من الكاثوليك ، وهذا العدد يعادل ٣ ٪ من مجموع السكان البالغ ٧٠ مليون نسمة ويكثون المسلمون من هذا العدد ٨٥ ٪. أى ما يوازي ٦٠ مليون نسمة هم الذين يحملون اليوم علم الثورة في وجه الطغيان الهولندي .

وقد أغرت تجارة التوابل والعطور وواردات الشرق عامة أهل أوروبا ، ولذلك تكونت بهولادة عدة شركات تجارية تركزت أخيراً في شركة الهند الشرقية الهولندية وانضم إلى الاهتمام بالتجارة الاهتمام بالزراعة أيضاً ، فأدخلت أنواع جديدة فرض على الإندونيسيين زراعتها لحساب هذه الشركة ، وفي ظل سياسة السخرة والاحتكار أثرت الشركة ثراء عظيم ، ولكن كثرة الأرباح زينت لكثير من موظفيها أن يستلبوا منها ما كونوا به ثروات خاصة بهم ، وأدى هذا التصرف إلى تدهور مركز الشركة ، وانهزت ، انجلترا هذه الفرصة فاستولت على بعض أملاكها ، وانتهى الأمر بانحلالها في بداية القرن التاسع عشر ، وبعد حروب نابليون استطاعت هولندا أن تسترد سيطرتها على إندونيسيا ، وتسير في تصريف شؤونها سيرتها الأولى .

ولم تكن كل تلك الأساليب الجشعة بهينة الوقع على الإندونيسيين ، فقد دفعهم الجوع والحرمان والحسرة إلى ثورات متكررة ، ولكن قوتهم كانت دون قوة المستعمر البغيض دائماً ، ومن أبرز تلك الثورات الثورة التي أشعل نارها الأمير «ديبونيجور أورلج» في وجه الهولنديين وفي وجه المتخاذلين من أبناء وطنه . وانتهت حركات هذا الأمير بالقبض عليه خدعة ، ونفيه وإيداعه السجن حيث مات سنة ١٨٥٥ وخضع الناس لبطش القوى ، وعادت حكومة البلاد إلى سابق سيرتها البغيضة .

إن شقاء الشعب الإندونيسي يتجلى بوضوح ، إذا علمنا أن مساحة الأراضي التي تسيطر عليها هولندا وتسخّر فيها الإندونيسيين تزيد على مساحة ألبانيا

وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا وسويسرا مجتمعة . ويبدو لنا ذلك الشقاء أكثر وضوحا أو أكثر قسوة حين نعلم أن الحكومة تنقل الفلاح الإندونيسى بالضرائب مع أن دخله لا يزيد كثيراً عن جنيه في الشهر ، وتفرض عليه أن يعمل في أراضيها دون أجر مدة شهرين كل عام ، ولذلك نرى دخلها في ازدياد مستمر ، ففي سنة ١٩١٣ . بلغ دخلها ١٧٥ مليون دولار ، على حين وصل إلى ٤٣١ مليون دولار سنة ١٩٢٩ ، ومع ذلك فقد كان الجوع يتقضى على الكثير من أهل إندونيسيا .

وهذه السياسة الفاسدة وثورات الإندونيسيين المتعاقبة حركتا معتدلي الهولنديين الى التفكير في الإصلاح ، ولكن محاولات هؤلاء ذهبت أدراج الرياح وظل المحافظون من أرباب المصالح يمتصون دماء إندونيسيا دون رادع أو دافع . وقد شهد القرن العشرون حركات استقلالية عديدة في إندونيسيا كان بعضها مسالما كتلك الحركة التي تزعمتها السيدة رادين كارتيني ، التي كانت ترمي الى تعليم الشعب ، لأن التعليم هو السلاح الوحيد لنيل الحق من المقتصب ، ثم تلا ذلك تكوين عدة أحزاب وجمعيات سياسية وثقافية كحزب جاوة الفتاة وجمعية عائشة للسيدات ودشركت إسلام . أي الحزب الإسلامى وغيرها ، وكانت ثورة سنة ١٩٢٦ نتيجة طبيعية لأحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن الوعود المعسولة التي بذلتها هولندا والمبادئ الخداعة التي أعلنت من أجلها الهدنة في أوروبا ، وصيحات الرئيس ويلسن بحق تقرير المصير ؛ كل ذلك لم يسفر عن شيء ، اللهم إلا زيادة الفقر والجوع والمرض .

ثم فشلت تلك الثورة ، وزج بجميع المشتركين فيها في السجن ، وسخرت الحكومة الهولندية جانباً منهم في استغلال الأراضي البور في الجهات التي نفوا إليها غير أن هذا لم يمنع قيام ثورات أخرى ، اشترك زعماء الجمهورية الإندونيسية الحالية فيها ، ولكن الحكومة تمكنت من القبض عليهم ونفيهم ، ثم وجهت عنايتها لمراقبة الأهالي والحد من نشاطهم ، فصادرت اجتماعاتهم وجمعياتهم ، وكمت أفواه الصحف ، وشردت المشتغلين بالسياسة ، وسيطرت على الموقف بدكتانورية قاسية ، وسكن الإندونيسيون انتظاراً لفرصة جديدة .

وقد جاءت تلك الفرصة عند ما شبت نار الحرب العالمية الثانية ، واكتسحت الجيوش الألمانية هولندا ، وفرت حكومتها الى لندن ، عندئذ رأت حكومة إندونيسيا الهولندية أن الموقف في حاجة الى تكييف جديد ، لأنها معرضة لخطر لا يقل عما تعرضت له هولندا نفسها إن لم يكن أعظم منه ، فقد كانت اليابان تنظر الى إندونيسيا بكثير من الاهتمام لتوفر المواد اللازمة للحرب بها ، ولكي لا تكون نقطة ارتكاز للحلفاء ، ولتؤمن طريق وصولها الى الهند حيث تضع بريطانيا أحد قدميها ، وأحست حكومة إندونيسيا بذلك ، ورأت ضرورة الدفاع عن البلاد ، واحتالت على الأهالي لتقنعهم ، وعادت الوعود المعسولة الى الظهور فأصدرت الملكة دوهلينا ، من مركز حكومتها في لندن في ٣٠ يوليو سنة ١٩٤١ هذا التصريح :

د حالما تحرر هولندا من سيطرة المعتدين فستألف حكومة جديدة ، وسيعهد إلى تلك الحكومة أن تقوم في الحال بمراجعة الدستور مراجعة كاملة تنظم على أساسها العلاقات بين هولندا نفسها وبين باقي أجزاء الامبراطورية ،

واستجاب الإندونيسيون للموقف وتكونت فرق عسكرية منهم ، ولكن حين حانت ساعة الكفاح هرب الهولنديون من الميدان واضطر الإندونيسيون إلى التفاهم مع اليابانيين الذين أنزلوا قواتهم في كثير من الموانئ الإندونيسية . وحاولت اليابان إقناع الأهالي بأنها إنما تطهر آسيا من الأوربيين ، وأنها إنما تبقى آسيا للأسويين وفي ظل وعود أخرى كاذبة استطاعت اليابان أيضاً الاستيلاء على كثير من موارد البلاد ، وأن تصدر إلى جزائرها الماشية والأغنام والمطاط والقصدير والزيت وغيرها .

ولم يكن جهاد الإندونيسيون في سبيل استقلالهم إبان احتلال اليابان لبلادهم بأقل من جهادهم ضد الهولنديين ، ولكن اليابان لم تلق إليهم بالاً إلا حين أصبح الموقف العسكري في الشرق خطراً عليها ، فأصدرت في سبتمبر سنة ١٩٤٤ أول تصريح تعد فيه بمنح إندونيسيا استقلالها ، ولكن سير الحوادث غير الموقف كثيراً إذ لم

بعض غير قليل حتى استسلمت اليابان . وعندئذ أعلن زعماء الشعب استقلال البلاد  
وميلاد الجمهورية الإندونيسية في ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، واختير لرئاسة الجمهورية  
زعيم قديم هو المجاهد الدكتور أحمد سوكارنو .

وفي اللحظة التي انصرف فيها الإندونيسيون لتدبير شئون جمهوريتهم الجديدة  
دمتهم قوات هولندية وإنجليزية كبيرة بحجة الرغبة في تجريد اليابانيين من أسلحتهم  
والقبض عليهم كأسرى حرب ، وإطلاق سراح أسرى الحلفاء . وقاوم الإندونيسيون  
هذه الحجة الباطلة فأسكتهم طلقات المدافع ، وعادت هولندا إلى احتلال البلاد  
بفضل مساعدة إنجلترا لها .

تجدد الصراع بين الجمهورية الإندونيسية وبين الحكومة الهولندية ، واتخذ  
شكلا أكثر عنفاً ، وفي خلال ذلك اعترفت بعض الدول بالجمهورية الإندونيسية ،  
فاضطرت هولندا بعد ما أصابها من خسائر إلى الاعتراف بالأمر الواقع والاتفاق  
مع الإندونيسيين لوقف الأعمال العدوانية في أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، ولكن هذا  
الاتفاق كان ينطوي على غدر من جانب الهولنديين إذ عادوا إلى قتال الإندونيسيين  
وأصلوهم وأبلا من قنابل طائراتهم ، وهدموا كثيراً من المباني والمساجد والآثار  
القيمة ، هذا فضلاً عما حل بالأهالي من تقتيل وتشريد .

وقد أذنب الإندونيسيين أن تكون ملكة هولندا رئيسة للاتحاد المزمع  
إنشاؤه ، وهو الاتحاد الذي أسمته اتفاقية ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، بالاتحاد  
الإندونيسي الهولندي ، ورأوا أن يذهبوا بقضية بلادهم إلى هيئة الأمم المتحدة  
فلعلها تضع حداً للدجاج الدائرة في بلادهم ، ولعل الدول المجتمعة في مقر هيئة  
الأمم من أجل السلام تستطيع أن تنشر السلام على ربوع إندونيسيا . ولكن  
المصالح والأغراض اتفقت ضد إندونيسيا وعجزت هيئة الأمم أن توقف هولندا  
المستعمرة المحتكرة المستبدة عند حدها ، ولم يعد أمام الإندونيسيين إلا مواصلة  
كفاحهم من أجل الحرية في أرض الوطن نفسه . . لا في مسرح هيئة الأمم ؟



صوت من وراء البحار :

## الإسلام في أمريكا

للأستاذ الأديب محمد علي الحوماني

رائد المهاجرين في أمريكا إلى الشرق

لا أعرف عهداً ، قصر فيه المسلمون بين يدي رسالتهم القائمة على الدعوة إلى الله ، كهذا العهد الذي كثر فيه الدعاة لكل فكرة وكل مذهب ، حتى زاحم الباطل الحق ، والشر الخير ، والفساد الصلاح .

ثم لا أعرف بلداً خليفة بهذه الدعوة إلى الله ، وجديرة بعناية الإسلام ورسالته القائمة على الحق ديناً ومدنية ، غير البلاد الأميركية ، شمالها وجنوبها ، فقد رأيت بعيني ولمست بروحي ، هذا العالم ، فوجدته خالي الصدر من كل ما يحول بينه وبين الإذعان للحق إذا تبين له الحق ، والتنكر للباطل إذا تحدد له الباطل ، ورأيت أن الدين الذي ينبت في صدور أهلهم ثم ينمو ، هو الذي يجمع المادة إلى الروح ، وقرن العلم بالعمل ، وهذا هو الدين الإسلامي بحسب .

فما بال أقوام يعلنون أن دينهم حق ، وأن الدعوة إليه لازمة في أعناقهم وأن في طوقهم العمل على نشر هذه الدعوة ، ثم يدعوهم الداعي إلى العمل عليها والتضحية في سبيلها فيقفون حائرين ، ويعرضون ذاهلين

لقد وفدتُ على المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام اثنين وثلاثين وتسعمائة وألف ، باسم الهيئات الإسلامية التي تعيش في العالم الجديد « أمريكا » ورفعت

للمؤتمر يومئذ سجلاً ضافياً يكشف للمؤتمرين أحوال هذه الفئة الحية ، على قلبها ، وكيف تنشأ أعتابهم في محيط لا يعرف غير المادة ديناً ولا مدنية ، وأقنعت رجال المؤتمر بضرورة العناية بما يزيد عن مليون مسلم منتشرين في هذا العالم ، لو عنيئاً بهم لأغنوننا عن دعاية ترزح تحتها أضخم الثروات التي يضحي بها اليهود في سبيل دعايتهم تحت سماء ذلك العالم .

مئات الألوف من شبابنا المسلم الأميركي يحملون التراث الديني والقومي المنحدر إليهم من أصلاب آبائهم ، ومئات الألوف من هؤلاء الآباء الذين هاجروا منذ خمسين عاماً إلى عالم بعيد عنهم في الخلق والدين ، كل أولئك ممرّضون للفناء خلال عشرين أو ثلاثين عاماً إن لم تتداركهم بالبعثات دينية وقومية ، لتتخذ من هديهم قوة تعزز آمالنا باستعادة مجدنا في ديننا ودنيانا .

كل ذلك أعلنته في المؤتمر الإسلامي ، والمؤتمرات التي تلت من دينية وقومية ، وقدمت للأزهر والنجف من جمعيات المسلمين في أميركا رسائل تفيض رجاء واستغاثة منذ عشرين سنة . ولم ألق من الأمة جمعاء غير الإهمال والإعراض الذي لا يقره دين ، ولا يسيغه عقل .

وهأنذا أعود اليوم من جديد إلى مصر فأختلف ليل نهار ، وصيف شتاء ، إلى رجال الأزهر ومؤسسات الشباب المسلم القائم على تعزيز الدين في نفوس الأحداث ، وعلى تربية النشء تربية صالحة تعصمه من مضلات الفتن ، أقول : لا أزال منذ سنة أختلف إلى الأندية والمحافل مشيراً قضية المهاجر المسلم ، وداعياً إلى العناية بنشئه قبل أن يفنى الآباء ، ونصيح في عجز عن أن نعيد الأبناء إلى حظيرة آبائهم .

ثم هأنذا أجدد الصيحة على صفحات هذه المجلة العالمية « رسالة الإسلام » ، فهل هي واجدة صداها لدى المؤمنين بهذا الدين ؟

## صوت التقريب :

أعزز علينا أن نرى أنفسنا مضطرين إلى إرجاء ما تهيأ لهذا العدد من « صوت التقريب » فقد توارد على المجلة كثير من المقالات الممتعة والبحوث القيمة بأقلام جهابذة العلم ، وفطاحل القانون والأدب والاجتماع ، ولم نجد بدا من الإذعان لهذا الروح الكريم ، روح الرغبة في المعاونة والإقبال على المساهمة ، فضحينا بالصفحات المعدة لصوت التقريب ، ثم زدنا عن صفحات العدد الأول ثمانى صفحات ، ولم نستوف مع ذلك كل ما لدينا من بحوث .

فإلى العدد القادم إن شاء الله تعالى ومنه نستمد التوفيق والرشاد .

## مكتبة التقريب :

ينص قانون الجماعة في مادته الرابعة على أنه ( تكون للجماعة دار تسمى « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، ومكتبة تحوى كتب المذاهب الإسلامية والمراجع التى تحتاج إليها فى بحوثها الدينية والاجتماعية ) .

ويسرنا أن أهل العلم والفكر من كافة الطوائف الإسلامية ، بين أفراد وهيئات رسمية وشعبية ، يدركون ما لهذه المكتبة الجامعة من أهمية ، وأنها ستكون بعون الله طرازاً فريداً بين المكتبات تلم المتفرق وتجمع الشتات . وتسعف العلماء والباحثين بما لا يحدونه مجتمعاً فى سواها ، وهم لذلك يغذونها بكل نافع ، ويحرصون على أن تلتقى لديها أفكار علمائهم وأدبائهم وباحثيهم فى القديم والجديد .

وإن دار التقريب لتشكرهم أجزل الشكر ، وتحبى فيهم جميعاً هذا الشعور الكريم .

## فهرس

- كلية التحرير . . . . . لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير ١٠٧
- تفسير القرآن الكريم . . . . . لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ١١١
- الحرية والإخاء والمساواة ، من . . . . . لصاحب المعالي محمد حلى عيسى باشا ١٣٠
- أساس الاسلام . . . . . لصاحب العزة الأستاذ أحمد أمين بك ١٤٠
- كيف يسير الفقه الاسلامى . . . . . تطور المسلمين . . . . . لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف ١٤٤
- الشخصية المحمدية . . . . . لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد وجدى بك ١٥٠
- الفقه السياسى عند المسلمين . . . . . لصاحب العزة الأستاذ الشافعى اللبان بك ١٥٤
- الفقه والفقهاء فى مصر على عهد الممالك . . . . . لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراعى ١٦٢
- الدين والدولة فى مشروع الزكاة . . . . . لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى ١٧٠
- نشأة الرواية عند العرب . . . . . لفضيلة الأستاذ محمد فؤاد السيد ١٨٠
- دنيا الذرة . . . . . لحضرة الدكتور محمد محمود غالى ١٨٩
- زيد بن على . . . . . لحضرة القاضى عبد الله الجرافى ١٩٨
- إندونيسيا . . . . . لحضرة للأستاذ أحمد محمد عيسى ٢٠٦
- الاسلام فى أميركا . . . . . لحضرة الأستاذ محمد على الحومانى ٢١٤

## مَسْأَلَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عمانية  
تقدّر عن دار النشر بين المذاهب الإسلامية والفقه

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى . مدير الادارة : عبد العزيز محمد عيسى

الادارة رقم ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك - القاهرة - تليفون : ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة : فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات ، وفى البلاد الأخرى ليرة انجليزية

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رمضان ١٣٦٨ هـ

يوليو — و ١٩٤٩ م

السنة الأولى

العدد الثالث

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ  
”قرآن کریم“

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التحريض

تجتاز الشعوب الإسلامية في هذا العصر مرحلة من أدق مراحلها، وتمر بطور خطير ربما كان أخطر أطوارها . ذلك بأنها استفاقت بعد عهد طويل من السبات أو الخدر كانت فيه رازحة تحت كابوس من الجهل والاستعمار والتفرق بين كثير من أمرها لا تدركه ، وقليل تدركه ولا تملكه ، فكان عليها أن تصلح شئونها في مختلف النواحي ، وأن تجارى الأمم القوية في الأخذ بأسباب التقدم الملائمة للعصر ، المناسبة للظروف والأحوال العالمية ، وعليها قبل ذلك أن تحتفظ بمقوماتها فلا تذوب في غيرها معنى ، وقد وقاها الله أن تذوب في غيرها حساً وفعلاً .

وهذه المرحلة في الأمم والشعوب أشبه بمرحلة الرشد في حياة الأفراد ، تكتنفها الخطورة والدقة والصعاب من جميع نواحيها ، فإن الفتى الذى عاش دهرأ في حماية وصيه أو وليه ثم سُلم إليه أمر نفسه ، يشعر بأنه مقبل على ما لم يألف ، مكلف بالفصل فيما لم يعهد ، مضطلع بألوان من التدبير والتصرف تحتاج الى كثير من النظر والتأمل والإقدام والتجروء ، فإذا لم يكن حصيفاً واسع الحيلة قوى المعارضة مقدماً على الأمور غير هيب ، فإن الدهر لا يُنظره ، والأحداث لا تمهله .

ولقد ثقلت - لذلك - أعباء الحكومات في البلاد الإسلامية ثقلًا شديداً ، وأصبح الحكام والرؤساء فيها أولى الناس بالإشفاق والرثاء ، لكثرة ما يحملون فوق كواهلهم من أمانات كتب الله عليهم أن يؤدوها كاملة غير منقوصة ، والأمور أمامهم مشتبهة ، وميادين الإصلاح والجهاد متعددة ، ومطالب الحياة السعيدة الراقية متكاثرة ، وضمن الأمن والطمأنينة غال غال حتى إنه ليصل إلى الأرواح تبذل بذل السماح ، والدماء تراق كما يراق الماء ، وليس رجال الحكم وولاة

الأمر بالجبال ولا الحديد ، وإنما هم رجال كسائر الرجال إذا تراكت عليهم الأعمال ، واستنزفت منهم القوى أكثرت ملكاتهم ، وضعف قوتهم ، وقيل غناؤهم ، وهذا هو السرف فيما نراه من بطل وعقم وتراخ في تنفيذ خطط الإصلاح .

والشعوب الراقية تيسر على الحكومات أمرها ، وتعينها على أداء واجبها بما تبته في نواحي الحياة من نشاط ، ولقد نعلم أن فيها لكل فرع من فروع العلوم العلية أو النظرية مؤسسة تهتم به وتدرسه وتحيط بدقائقه وتفصيله ، ونعلم أن بعض هذه المؤسسات تقوم على ما يجود به رجل واحد من آتاهم الله المال ، وآتاهم مع المال حب العلم والإصلاح ، فكأنما كل واحد منهم بما يقدمه إلى الناس أمة برأسها .

ولقد كنا كذلك حين كانت أمورنا إلينا ، فكانت المساجد جامعات ، والمجالس معاهد ، وبيوت العلماء والأدباء نوادي للبحث ، وكان فينا من يرحل لتحقيق رواية ، وضبط كلمة ، وسماع حرف ، ومن يتبتل في سبيل العلم كما يتبتل الرهبان في الصوامع والبسيع ، ومن يخرج من ماله وما يملك لعالم أو أديب رفع له كتابا ثم لا يجد ذلك كفاء لفضله ، ولا عدلا لجليله ، فيعتذر إليه ، ويُغضى حياء منه ، وقد زحرت المكتبة العربية الإسلامية بآثار هذا النشاط وثمار تلك الجهود ومن بينها تلك الموسوعات ، الجامعة المستقصية في مختلف العلوم والآداب ما بين فقه وتاريخ وأدب وتفسير وحديث ولغة وتجارب وغيرها ، وكل كتاب منها — لعمري — بحر لا يدرك غوره ، وكنز لا تقنى أعلاقه ونفائسه ، وهذا مجمع الضاد يألف فيه عقد الفطاحل من أبناء الشرق والغرب فيدرسون إلى اليوم قرابة عشرين عاما ولما يُبرزوا معجمهم الوسيط ببله الكبير ، وبين أيديهم « لسان العرب » ، و « الصحاح » ، و « المختص » ، و « النهاية » ، و « القاموس » ، وكل واحد منها ثمرة من ثمار رجل واحد .

فياليت قومي يعلمون أن « الحكومات » لن تقنى عن الشعوب إذا

نامت الشعوب ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المديني



# نفس القرآن الحكيم

لحظة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

## سورة البقرة

- سبب هذه التسمية .
- قصة ذبح البقرة .
- مناهج الناس في
- فهم القصص القرآني .
- عرض لمقاصد السورة .

— ١ —

سورة البقرة أطول سورة في القرآن الكريم ، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء من ثلاثين جزءاً قسم إليها القرآن . وهي من أوائل ما نزل بالمدينة . وسميت بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت في بني اسرائيل على عهد موسى عليه السلام ، وكان للبقرة - وهي الحيوان المعروف الذي اتخذ بنو اسرائيل من نوعه إلهاً في وقت ما يعبدونه من دون الله - شأن إلهي عجيب في هذه الحادثة : وقعت الجناية ، وقتل القتل ، واختلف أهل الحى - الذى لوئث أرضه بدم الجناية - فى القتال : من هو ؟ وأخذ كل يدفع الجناية عن نفسه ويتهم بها غيره ، وفيهم من يعلم عين الجاني ويكتم أمره ، وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم

تكنمون ، وترافع القوم إلى موسى عليه السلام ليحكم في هذه الجناية التي خفي مرتكبها ، فأمرهم صلوات الله وسلامه عليه عن ربه جل وعلا أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتل ببعضها فيحيا يا ذنوب الله ويخبر بقاتله ، ولما طبع عليه بنو إسرائيل من العناد في تنفيذ الأوامر ؛ وقفوا كالساخرين أو الهازئين من الأمر بذبح البقرة في هذا المقام ، حتى لقد قالوا لموسى : ألتخذنا هزوا ؟ وما كان لنبي الله أن يسخر أو يهزأ ، ولكنها القلوب الملتوية تصرف عن الحق وتعاود في قبوله فسألوا عن البقرة : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » . « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » . « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا » . أكثروا من السؤال وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم جزاء تطعمهم وتلكتهم في تنفيذ الأمر ، شأنه في كل متشدد متطع ، وحددها لهم في دائرة ضيقة من السن والأوصاف والعمل : « قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » . « إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها » . وأخيرا وبعد حيرة وهشقة عثروا عليها « فذبحوها وما كادوا يفعلون » ، ثم ضربوا القتل بجزء منها فأحياه الله وأنبأهم بالمجرم الجاني « كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

انفردت هذه السورة بذكر تلك القصة ومن أجلها سميت « سورة البقرة » .

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة نبين فيها مناهج الناس في شأن هام يتعلق بفهم القصص القرآني . فإن مما قيل في هذا القصص : إن كثيرا مما قصه القرآن لم يكن معروفاً من قبل ، لا في الكتب الإلهية ، ولا في الآثار التاريخية ، وقد قيل هذا في تلك القصة بالذات .

وقد خرّج الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هذه القصة على أنها نوع من التشريع الذي كان موجوداً في زمن بني إسرائيل لغرض الوصول إلى معرفة للقاتل المجهول في مثل هذه الحادثة ، وشدّ أزره في ذلك الأستاذ الشيخ رشيد رضا حيث ساق نصوص التوراة الواردة في هذا التشريع الذي يشير إليه :

قال الأستاذ الإمام : يقول أهل الشبهات في القرآن : إن بني إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول أن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين إنهم نسوا حظا مما ذكروا به ، ولأنهم لم يؤتوا إلا نصيبا من الكتاب ، على أن هذا الحكم منصوص في التوراة ، وهو أنه إذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي ، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، اغفر لشعبك إسرائيل : ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء ، فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه .

ويقول الأستاذ رشيد رضا : إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

١ — إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتملكها واقعا في الحقل لا يعلم من قتله .

٢ — يخرج شيوخك وقضااتك ويقيسون الى المدن التي حول القتيل .

٣ — فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرق عليها لم تبحر بالنير .

٤ — وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرق فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي .

٥ — ثم يتقدم الكهنة بنى لاوى لأنه إياهم اختار الأب إلهك ليعخدموه ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة .

٦ — ويغسل جميع الشيوخ في تلك المدينة القريين من القتل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي .

٧ — ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعينا لم تبصر .

٨ — اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يارب ، ولا تجعل دم برىء في وسط شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدم اه .

ثم قال الشيخ رشيد : والظاهر بما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التازع في القاتل إذا وجد القتل قرب بلد ، ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره ، فن غسل يديه وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية ، ومعنى إحياء الموتي على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ، أى يحياها بمثل هذه الأحكام ، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى « ومن أحياءها فكأنها أحياء الناس جميعا ، وقوله : « ولكم في القصاص حياة ، فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين ، ثم قال : « ويرىكم آياته » بما يفصل بها في الخصومات ، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسله . وليس عندى شيء عن شيخنا في تفسير هذه الجملة ، ولكنه قال في تعليلها ما يرجح القول الأول ، وهو : « لعلكم تعقلون ، أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت . »

والذى حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته في التخلص من الاعتراض الذى ذكره بعض المستشرقين مع وجود النص التشريعى الذى أشار إليه الشيخ بمعناه ونقله الشيخ رشيد بنصه .

هذا صنيعهما ، وبذلك يتبين أنهما توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعى لا لبيان حادث تاريخى . لكننا إذا نظرنا إلى النص فى هذه الآيات وما ذيل به الكلام من قوله تعالى : « قلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فى كالحجارة أو أشد قسوة » وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على إرادة الحكم التشريعى فلا أقل من أن يعده إبعادا ، ذلك بأن كلمة « اضربوه » واضحة فى أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة ، وليس فى الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الحنفى ولا إشارة إلى غسل أيدي أهل الحى من دماء البقرة ، وقوله تعالى « كذلك يحيى الله الموتى » يدل على أن الإحياء المشبه به — وهو الإحياء فى هذا المقام — إحياء حقيقى بعد موت تسلب فيه الروح ، وليس إحياء حكىما يحصل بمعرفة القاتل والاقتصاص منه حتى يكون بمثابة « ولكم فى القصاص حياة » كما يريد الشيخان ، ولو كان الأمر كما يقرران لما صح تهريب إحياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الإحياء الحكى المجازى ، ولو أن قائلا قال : إن الله يحيى النفوس الجاهلة بالعلم ، وكذلك يحيى الموتى من قبورهم لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغا . وإن قوله تعالى « ويرىكم آياته » لواضح فى الإراءة البهرية للآيات الكونية لا فى الإراءة العقلية للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل « لتحكم بين الناس بما أراك الله » وإن قوله بعد ذلك « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فى كالحجارة أو أشد قسوة » ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر فى النفوس ومن شأن القلوب أن ترق لها وأن تتجرد من القسوة والعناد عندها . ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد ، وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعى ، فهذا الحمل تأويل منهما ولكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب .

هذا أحد المناهج التى عرفها للناس فى فهم القصص القرآنى ، وهو « صرف الكلام عن مدلوله اللغوى إلى معنى آخر دون ما يدعو إلى هذا التأويل ،

وصاحبه قد يُحَكِّم فيه مجرد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، وكثيرا ما يقصده بعض الباحثين دفعا لما يثيره خصوم القرآن على القرآن، ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحي . وحل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة . وتأويل الكواكب في قصة إبراهيم بأنها جواهر نورانية نورها عقلي لا حسي . وما نقله البيضاوي عن بعض الصوفية في معنى المائدة التي أنزلها الله حيث يقول « وعن بعض الصوفية : المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن ، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها فقال لهم عيسى : إن كنتم حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها ، فلم يكفوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم ، فبين الله تعالى أن إنزاله أياها سهل ولكن في خطر وخوف عاقبة ، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر به فيضل به ضلالا بعيدا » .

وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم وصرفوه بها عن دلالة العربية ، وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف للفظ عن معناه الوضعي إلى هذا المعنى الواقعي الذي يزعمه المؤول مدلولاً للكلام .

والرأى في هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل الذي يتلخص في أنه إذا كان التأويل لا يقضى على أصل ديني ولا يمس عقيدة ثابتة ، وهو في الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيرا صادقا ، وكانت اللغة تسمح به ، فإنه يكون مقبولا من الوجهتين الدينية واللغوية ، وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة ، صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض أيضا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلييس من الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، أما إذا كان يقضى على أصل ديني أو يمس عقيدة فإنه يكون مرفوضا أيضا من الوجهة الدينية .

أما المنهج الثاني من المناهج التي عرفناها للناس في فهم القصص القرآني فهو يتفق مع المنهج الأول في ناحية ويخالفه في ناحية ، إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما في المنهج الأول ولكن لا إلى واقع يُزعم ويدعى أنه مراد ، وإنما إلى تخيل ما ليس بواقع واقعا ، فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون لإخبارا بما حصل ، وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين أو على ألسنة الطيور والحيوان ، للإيجاء فقط بمنزى الحكاية من الإرشاد إلى فضيلة ، والحث عليها أو التحذير من رذيلة والتنفير منها .

وقد حكى ابن تيمية في أول كتابه (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) أن من جماعة الفلاسفة فرقة جعلت ما رأته بعقولها أصلا لما جاءت به الأنبياء ، فما وافق قانونهم هذا قبلوه ، وما خالفه رفضوه . قال : « ومنهم أهل الوهم والتخيل الذين يقولون : إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر ، وعن الجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ، لكنهم خاطبوا بما يتخيلون ويتوهمون من أن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيمًا محسوسا ، وعقابا محسوسا ، وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر ، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون ويتخيلون من أن الأمر هكذا ، وإن كان هذا كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور ، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة » .

ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخطب والادعاء ، فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وتزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار .

وشبيه بهذا ما فعله قوم زعموا أن ما جاء في الكتاب الكريم من الآيات الدالة على أن الله يعلم جزئيات الأشياء وتفصيلها ، لا يراد به معناه الظاهر ولا معنى آخر وإنما سيق ليورث رغبة ورهبة في قلوب الناس ، وفي هؤلاء يقول الإمام الغزالي « وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا أن الله عالم بما يجري عليهم ورقيب عليهم جاز للرسول أن يفهمهم ذلك ،

وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه ، وإن لم يكن كما قاله ، وهذا القول باطل قطعاً . لأنه تصرّح بالكذب وطلب للعذر في أنه لم يكذب ؟ ويجب إجلال منصب النبوة — ونقول نحن : وأولى مقام الألوهية — عن هذه الرذيلة في الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب .

أما المنهج الثالث ، فهو منهج جمهور المفسرين ، ويقوم على الإفراط في تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة في فهم القصة القرآنية ، واعتبار كل ما ورد متصلاً بالقصة بياناً وتفصيلاً لما جاء في القرآن ، كما أتخذ الفقهاء الأحاديث المتصلة بآيات التشريع بياناً وتفصيلاً أو تكميلاً لما ورد في الآيات من أحكام . وكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدراً ثانياً للتشريع اعتبر هؤلاء الروايات الواردة في القصة مصدراً ثانياً للقصة بعد القرآن الكريم .

والرأي السليم أنه إذا صح اتخاذ الأحاديث التشريعية مصدراً ثانياً للأحكام مبنياً أو مفصلاً أو مكملاً لأن العلماء بحثوها وميزوا صحيحها من ضعيفها ، فلا يصح ذلك في الروايات القصصية لأنها لم تبحث كما بحث هذه ، فهذا المنهج فيه إفراط أي إفراط ، وذلك يتمثل في كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أنهم كما نراه في حالة بني إسرائيل في التيه وكما نراه في وصف المائدة التي أنزلها الله . وانضرب تفسير أبي السعود — وقد يكون من المقلين في الرواية — مثلاً في هذا إذ يقول في وصف المائدة وما عليها من طعام :

« والصحيح الذي عليه جماهير الأمة ومشاهير الأئمة أنها قد نزلت ، روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما أجيب إذا بسفرة حرام نزلت بين غماتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فإذا سمكة مشوية بلا فلس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحوها من ألوان البقول ما خلا الكرات وإذا



خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ قال ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدره العاليه كلوا ما سألتهم واشكروا يمدكم الله ويزدكم من فضله فقالوا يا روح الله لو أريتنا من هذه الآيه آيه أخرى فقال يا سمكه احيى بإذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشويه ثم طارت المائدة ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير ، وقيل كانت تأتيم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفىء طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدا ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرب الناس لذلك فسخ منهم من مسخ فاصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فرعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيكون ويشيرون برموسهم ولا يقدرّون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا إنا لو عملنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا ، وسألوا الله تعالى المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أخوان حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم ، قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام إلا اللحم . وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكه فيها طعم كل شيء . وقال الكلبي ومقاتل نزلت سمكه وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم إنما

سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنة رجع إلى كفره فسخوا خنازير فكشوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ .

هذه المناهج الثلاثة مترددة بين إفراط وتفریط في شأن القصص القرآني ، وما ينبغي أن يستقبل به حتى يحقق الغاية المقصودة من قصه على الناس بالعبرة والموعظة ، وحتى يحدث التسلية للدعاة والمصلحين ، وحتى يتبين للناس أنه القصص الحق المطابق للواقع الذي لا مرية فيه ولا تزيد ولا تخيل .

وعلى أساس أن الحق وسط بين باطلين قرر المنهج الرابع الذي يجب استقبال القصص القرآني على أساسه وهو المنهج السليم والصراط المستقيم إن شاء الله ، وخلاصته الوقوف عند ما ورد في القرآن الكريم ، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هي تعبير صحيح عنه دون تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتماداً على روايات لا سند لها كما صنع المفرطون ، ودون تحيف لمعانيها ، باعتبار أن الكلام تخيل لا يعبر عن واقع كما فعل المفرطون ، ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى من غير صارف بمنع إجراء الكلام على ظاهره كما فعل أهل التأويل الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه ، وتسكبوا قانون العربية التي نزل بها .

## — ٢ —

وسورة البقرة من أجمع سور القرآن ، فقد احتوت على أصول العقيدة ، وعلى كثير من أدلة التوحيد ، كما ذكرت مبدأ خلق الانسان ، ثم وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضت الإفاضةَ فيهما حالةُ المسلمين التي صاروا إليها بالهجرة من مكة إلى المدينة .

أحدهما : أن المسلمين تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة ، فبنى النبي مسجده ليؤدي فيه مع المؤمنين الصلوات المفروضة ، وليكون بمثابة ندوة

جامعة لهم ، فيها يتعلمون ، وفيها يتشاورون ، وفيها يتحاكون ، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه بين المهاجرين والأنصار ، وصاروا جبهة واحدة تؤمن بالله وتدعو إلى الخير والفضيلة ، وتحتاج تشريعاً تنظم به شئونها .

ثانيهما : أنه قد صار لهم جوار في المدينة غير جوارهم في مكة : جاوروا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد جوارهم للشركيين في مكة . وبهذين الأمرين نجد السورة تهدف في جملتها إلى غرضين : هما : توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يبرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، وفي سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما اتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، وأقرأ في ذلك من قوله تعالى في السورة : يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، إلى آخر آية البر في منتصف السورة تقريباً . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . .

وهذا هو الغرض الأول الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب ، أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكوّن المسلمين جماعة متميزة عن غيرها في عباداتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص في القتل العمد العدوان ، وذكرت الصيام ، والوصية ، والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل . وذكرت الآلهة ، وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها في معرفة أوقات العبادة والزراعة وغيرها ، وذكرت الحج والعمرة ، وذكرت القتال وسيه الذي يدعو إليه وغايته التي ينتهي إليها ، وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم مصاهرة المشركين ، وذكرت حيض النساء والتطهر منه ، والطلاق والعدة والخلع والرضاع وذكرت الإيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق في سبيل الله والربا والبيع ، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن .

ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى إلى قبل آخر السورة ، وكان يتخلل كل ذلك على طريقة القرآن ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ووعد ووعد ، وإرشاد إلى سنن الله في الكون والجماعات ، ثم تحتم ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت في بيان أوصاف المتقين ، آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ،

وبذلك يؤكد آخرها أولها ، ويؤسس أولها لآخرها وتصير السورة كتلة واحدة ، ينتفع المسلمون الذين يهتدون بالكتاب بأحد غرضيها في معاملة من يخالطون من أهل الملل الأخرى ، وينتفعون بالغرض الآخر في تنظيم أحوالهم من عبادة ومعاملة . وبأتى الفرضان في آية البر بمجملين بين « ليس » و « لكن » ، فتفتى « ليس » أن يكون البر شيئاً مما درج عليه هؤلاء الحرفيون أصحاب المظاهر الجوفاء ، الذين يتمسكون بمثل تولية الوجوه قبل المشرق أو المغرب ، وتثبت « لكن » أصول الإيمان الحق والعمل الصالح على أنها هي البر الصحيح ، والواقع العملي للتقوى والمتقين « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ، .

ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاءً من شأنه أن يفرس فى نفوسهم سنة الله فى التشريع لهم وبناء أحكامه وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج ، ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم الى حياة سعيدة سهلة ميسرة ، ويسر لهم وسائل المغفرة والنصرة « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، ٩

# الإِسْلَام الأَزْهَرُ التَّقَرُّبُ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية (١)

ثلاث كلمات يسيرات على السمع واللسان ، راجحات في القيمة والميزان ، يتلاقين غاية ومقصدا ، وإن اختلفن مدلولاً ومعنى ، وفيهن لو علم الناس شفاء هذا الشرق الذى تحالفت عليه الأدواء ، وألحت به العلل والأسقام ، حتى أعياء الضنى ، وبرحت به الأوجاع والآلام .

\* \* \*

بزغت شمس الهداية الاسلامية من هذا الشرق على حين فترة من الرسالات ، وضلالة من الناس ، واختلاف بالاهواء والشهوات ، وظلم من الأقوياء للضعفاء ، واستبداد من الحاكمين بالمحكومين ، وسيطرة لقوى الفساد ، وعوامل الضعف والانحلال ، وتردّ في مهاوى الرذيلة أصبح به الانسان الناطق أخط درجة من

(١) حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز هو أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب .

الحيوان الأعجم ، واضطربت به شئون الحياة ، واختلت موازينها ، ووقف به العالم على شفا حفرة من النار والدمار ، فلما بزغت هذه الشمس الساطعة بدد الله بها هذا الظلام الدامس ، وأحيا بها تلك القلوب الميتة ، وسلط شعاعها الوهاج على كل ناحية من نواحي الحياة ، وألف بها بين المتنافرين ، وأصلح بين المتخاصمين ، واستل العداوات التي أنهكت القوى ، وانتزع السخائم التي عطلت المواهب ، وطفعت على العقول ، فإذا أمة ناشئة فتية متحدة متعاونة ترفع يمينها راية الإصلاح العالمي في العقيدة والشريفة والنظام والسياسة والعلم والخلق ، وتهدى التي هي أقوم ، وتنادى بالحق والعدل ، وتحارب الفساد والظلم ، وتعلن لأول مرة حق الإنسان في أن يعيش حراً كما خلقه الله ، وحق العقل في أن ينطلق حراً في مجال الكون ، يفكر ويتبع ويستقرئ فيستدل ويستنبط ، وحق المجتمع في نعمة الأمن والطمأنينة والقرار .

انطلق المسلمون الأولون يحملون هذه الراية ، وينشرون هذه الرسالة ، فتفتحت أمامهم أبواب العالم ، وانطوت فيهم المدينيات ، وتمثلت في ثقافتهم الثقافات ، كما تمثلت في جنى النحل أزاهير النبات ، وأعاصير الثمار ، وولجوا بالقرآن كل باب ، واستجلوا بالسنة المطهرة كل غامض ، وكانت عقولهم صافية ، وقلوبهم صافية ، فلم تعبث الآوهام والخرافات بالاولى ، ولم تُفسد الأضغان والاحقاد أمر الثانية ، فكانوا في العلم والفكر هداة راشدين ، وفي التعاون والتضافر على الحق والخير مثلاً علياً للتقنين ، ووقف العالم ينظر إليهم مذهولاً مشدوهاً ، وأحس أرباب السلطان وأعوان الطغيان ، بالأرض تמיד من تحتهم ، وتضطرب بهم ، وأدرك الباطل والفساد أن قوة لا تقاوم تزلزل عليهما عرشهما ، وتقوض بناءهما ، وأن مصيرهما أمام هذه القوة هو الانهزام والاندحار ، أو التسليم والاستخذاء ، فأثرا الأخرى على الأولى ، وخفضا رأسهما إلى حين ، حتى إذا واتهما الفرصة حين أثرت عوامل الفرق الأول بين المسلمين ثمارها ، وقطعت الأواصر ، واستلكت سيوف الإخوة على الإخوة ، بدا قرن الفتنة ،

وتحركت الأفاعى الكامنة المتلبدة ، وانطلقت من مكانها ، تلبس لباساً يوارى  
سوأتها ، وتظهر في صور شتى ، وألوان مختلفة ، مرة في السياسة بإثارة الأحقاد ،  
وبث الفتن والمكائد ، وإذكاء نيران العصبية ، وتخويف كل فريق من الآخرين ،  
ومرة بافساد العلم والفكر ، عن طريق الوضع والافتراء والتأويل الفاسد ، وإثارة  
الشبه ، والخوض فيما نهى الله ورسوله عنه ، وتخرج المسلمون الأولون منه ،  
وبهذا وجدت الأحزاب السياسية ، وانبعثت العداوات القديمة والإحن الماضية  
من مراقدها .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وبهذا وجدت الفرق الدينية ، واشتغل الناس عن المتمر من العلم والنظر  
بالخلاف فيما لا يغنى ولا يجدى ، وامتلات البلاد من أقصاها الى أقصاها بالفتن  
السياسية والعلمية ، وشخت الكتب بآثار هذا الخلاف فاختلط الحق بالباطل ،  
وشيب الصالح بالفاسد ، وتوالت على ذلك القرون والأجيال ، والضعف يتبع  
الضعف ، والداء يسرى من جانب الى جانب ، حتى أفضى الضعف السياسى إلى  
تلك التكببات التى يلاقها المسلمون على أيدي المستعمرين « وأفضى الضعف الفكرى  
إلى تبليبل أفكار الأمة ، وتفاوت النظر فيها ، فن عالم ينادى بأن كذا هو الحق ،  
وما سواه باطل ، بل هو الدين وما سواه كفر وإلحاد ، ومن آخر يعكس القضية  
ويزرى على الأولين ، ومن طائفة تعكف على نفسها ، وتؤمن بما عندها ، وتخاف  
من كل طائفة سواها ، الى طائفة تظن بها الظنون ، وتفرض فيها السوء ، وتحمل  
عليها ، وتبذع علماءها ، وتحقر أهلها .

وقد غذيت هذه الخلافات ، وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة ،  
والأحاديث الموضوعة ، والأخبار المفتراة ، وامتلات كتب التفسير والمغازى  
والمناقب بما لا يحصى من الأكاذيب ، وأصبح بجوار كل آية في كتاب الله رواية  
من الروايات تحمل عليها ، بل تلوى إليها ، وفسر القرآن بما يوافق أصحاب  
الآراء ، وقبل من الأحاديث ما يؤيدهم ، وطعن فيما يخالفهم ، واشتبه الأمر فيما

يقبل وفيما يرفض ، وفيما يصح وفيما لا يصح ، ليس على الوسط من الناس فحسب ولكن على بعض ذوى العقول الراجحة والذكاء الأملح أيضاً ، ولم يسلم من ذلك إلا من عصم الله وقليل ما هم .

وقد شهدت الأمة الإسلامية مع هذا نوعاً آخر من أنواع الخلاف والتفرق هو خلاف الأتباع والمتعصبين للأئمة الذين ظنوا التزام مذهب من المذاهب بعينه ديناً لا يجوز للسلم أن يخالفه ، وأدرجوا ذلك في حكم العقائد ، ورتبوا عليه مسائل فقهية بحثوا فيها حكم من قلد غير الأربعة ، ومن قلد غير إمامه حتى من الأربعة ومن لفق في العبادة أو المعاملة بين مذاهب عدة ، ومن أفتى بغير الراجح أو المعول عليه أو المفتى به ، أو بتعبير أدق ، بغير ما وصف في الكتب بأنه كذلك ، إلى غير هذا من المسائل التي ما أثارها إلا العصية المذهبية ، والتي قامت بنصيها في تفريق الأمة الإسلامية .

بات المسلمون من ذلك كله في ضعف ، وقاسوا منه أهوالاً شداداً ، وأدرك المخلصون من أبناء هذه الأمة أن لا نجاة لها بما وقعت فيه إلا إذا عادت إلى ما كانت عليه في عهدها الأول ، حين كان الشمل مجتمعاً ، والعلم صافياً ، والدين واضحاً ، والمرجع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي صحت روايتها ، واستقامت دلالتها ، ينزل على حكمها المختلفون ، ويصطلح عليها المتخاصمون . وذلك في نظرنا يستدعي أمرين عظيمين ، يجب على كل مؤمن أن يكون له مساهمة في نجاحهما :

الأمر الأول : إصلاح الحالة العلمية ، والعمل على إنشاء جيل من العلماء يكثر به سواد المصلحين ، وتعزز به جهود أولئك الدعاة إلى الحق ، المجاهدين للباطل والفساد ، الذين يلاقون من خصومهم ما يلاقون من الرمي والتبذ والتأنيم لمجرد أنهم تجرموا على خلاف ما درجوا عليه وورثوه .

إن أعداء الإسلام ينظرون إلينا فرحين مستبشرين ، إذ يحدون التفاوت



العقل في معارفنا التي يغلو بعضها فيسميها عتائد تفاوتنا واسع المدى ، من شأنه أن يجعل الدين الواحد أديانا مختلفة ، وقد قالها بعض المستشرقين للبغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ف ضرب المثل في هذا التفاوت الواسع ببعض العلماء من القدامى والمحدثين ، وبعض الطوائف الحاضرة والماضية متساثلا : من من هؤلاء هو الذي يمثل الإسلام الصحيح ، وكلهم يدعى الإسلام الصحيح ؟

إن الأمل في تحقيق هذا الأمر العظيم لمعقود بالأزهر تلك الجامعة الكبرى التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي ، فكان للشيعة فضل إهدائها للثقافة الإسلامية وتوالى عليها فضل الملوك والعلماء من أهل السنة فكان لهم فضل بقائها وازدهارها .

إن الأزهر هو الوارث الوحيد للثقافة الإسلامية ، منه نبتت ، وعلى أيدي شيوخه وتلاميذه ترعرعت ، وهو الذي آواها حين تنكر لها الناس ، وحفظ أمانتها حين ضيعت الأمانات ، وفي أروقه ، وعلى بساطه ، نثر العلم ، واشتجر الرأي بالرأي ، وشهدت الحرية الفكرية أزهى عصورها ، وأمنع حصونها ، والعالم الآن يرقبه فإن هو أدرك واجبه لهذا العصر ، وقام بحق الدين والعلم والإصلاح والتقويم ، فقد أثبت أبنائه أنهم ورّاث هذا المجد التليد عن جدارة وفضل لاعن تشبه وتمثل ، وإن تكن الأخرى فإن العالم لا يميل للمتخلفين ، ولا يعذر المقصرين وما واجبه إلا أن يعكف على درس علومه الدينية والعربية دراسة قوية ، يكون الغرض منها الوصول إلى معرفة الحق دون تعصب ولا تحيز ، وتجلية الإسلام وجميع معارفه في الثوب الناصع القشيب ، الذي لم يغبر بغبار الأوهام ، ولم يصبغ بغير صبغة الله .

أما الأمر الثاني : فهو العمل على جمع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وتصفية الخلافات القائمة بينهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الأول من المؤمنين ، وسوف يظهر أنهم في الحقيقة متحدون غير مختلفين فالأصول واحدة ، والوسائل واحدة ، وما الخلاف إلا في التطبيق ، ولعمري إذا جاز اختلاف المسلمين في الفقه والفروع ، فكان منهم الحنفي والمالكي

والحنبلى والشافعى والزيدى والإمامى ، وأزال الله فى هذا العصر ما كان بينهم من عداوة وبغضاء ، فلم لا يجوز بينهم اختلاف هادى عفا فيما هو وراء الأصول المتفق عليها من ألوان المعارف الفكرية التى ليست من العقائد ؟  
واقعد ندب الله لهذه الغرض الشريف ، والمقصد الأسمى ، تلك الجماعة الموقرة :  
جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، التى تؤذن بتكوينها من جميع الطوائف المؤمنة بالقرآن والرسالة المحمدية ، بعهد جديد من التآلف والتآزر بين المسلمين سيكون إن شاء الله خيراً وبركة على العالم الإسلامى أجمع .  
وإنى أسأل الله جلّت قدرته أن يهيء للمسلمين من أمرهم رشداً ، وأن يوفقهم إلى صراطه المستقيم فى الحق والعلم والدين ، وأن يجمع بين قلوبهم ، وينقذهم من نار الخلاف والشقاق ، كما أنقذ آبائهم الأولين ؟

### من مضار التفرق

التفرق يوزع القوى ، فشخص يبني وشخص يهدم ، وشخص يهاجم وآخر يدافع . أما الوحدة فتجمع القوى ، وتوجد التعاون بين الأفراد لبلوغ الغايات وتسمم أرفع الدرجات . والتفرق أمانة من أمارات عدم النضوج ، فإن العقل الناضج يلزمه عادة حب الانصاف ، حتى إذا طرح شئ للبحث وكانت هناك عقول ناضجة واتجاه للحق لا تصده الأهواء ، لا يلبك الحق أن يظهر مشرقاً أبيض الوجه ، ولا يلبك الخلاف أن يزول .

وقد عمل الاسلام على الوحدة فى كثير من المظاهر ، غليفة واحد تتجه إليه الانظار ويكون قبلة الجميع ، أفضل من خلفاء متعددين . وصلاة الجماعة خلف إمام واحد يضمهم ويوحدهم ، أفضل من الصلاة مع التفرق . وقد أمر المسلمين بالاجتماع فى الجمعة والعيدين والحج . كل ذلك تنمية للوحدة وتقوية لها . وقد هدم نظام الجنسيات والعصبيات ، وساوى بين الجميع فى الأخوة ، وجعل الفضل للتقوى . وهكذا عند التأمل نجد نعمة يرمى إلى الوحدة فى جميع التكاليف ذلك لأن الوحدة أساس الإصلاح فى الحياة الدنيا ، وأساس العزة والسلطان .

[ الشيخ المراغى ]

# الاجتهاد في الشريعة

## بين السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

من أهم الموضوعات الحية التي تتصل بالفقه الإسلامي اتصالاً عملياً موضوع « الاجتهاد » ، وإنما كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات ، لأن عليه يترتب أهم وصف يوصف به الفقه الإسلامي ، من حيث صلاحيته لكفالة الحياة السعيدة للعاملين به المنظمين شئونهم على أساسه ، فن المقرر أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان ، وأن الله في كل واقعة حكماً حتى أرش الخدش ، وما من عمل من أعمال المكلفين من حركة أو سكون إلا والله فيه حكم من الأحكام الخمسة : الوجوب ، والحرم ، والتدب ، والكراهة ، والإباحة ، وما من معاملة على مال أو عقد نكاح ونحوهما إلا وللشرع فيها حكم صحة أو فساد .

ولما كانت الأعمال غير محدودة ، ووجوه التصرفات غير منحصرة ، وإنما هي متجددة بتجدد الأزمان والامكنة والأحوال ، وقد يوجد في عصر لاحق ما لم يوجد في عصر سابق ؛ فإذا أن يقف الناس أمام تلك الأمور حائرين مشدوهين ، لا يجدون من يفتيهم فيها بحكم الله ، ويبين لهم ما عليهم أن يفعلوه ،

وما عليهم أن يتركوه ، فتكون دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان في موضع الشك والتزلزل عند عامة الناس وخاصتهم ، ويتمس الناس لأنفسهم فقهاً وضعياً ملائماً لهم ، قادراً على تلبية حاجاتهم ، وإما أن يستقبل العلماء كل حادثة تجدد ، وكل قضية تعرض ، بما كان يستقبل به الفقهاء الأولون حوادثهم ، ووجوه التصرفات والمعاملات في زمانهم ، فيستنبطوا حكم الله ، ويبينوا للناس ما نزل إليهم ، ويدخلوا بهذا الفقه كل مجال ، ويطرقوا به كل باب ، ويحملوا أمثهم وحكامهم ونوابهم عليه حملاً ، لا بالقوة ولا بالثورة ، ولكن بالاقناع والتوجيه وإبراز محاسنه ، والتخلص من الجود والتعصب ، والضيق والتبرم ، وحيثن صدق دعوى الصلاحية لجميع الأزمان والأمكنة علماً وواقعاً ، ويتجلى للناس فضل الفقه الإسلامى ، وسعة أثره وطواعيته ، وحسن تقبله لكل ما يفيد الأمة ، ولا يخرج عن الاصول المحكمة التى هى أساس الشريعة

وليس الذى يدعو إلى الاجتهاد هو حاجة الناس إليه لحسب ، وإنما هو أمر تقضى به طبيعة الشريعة نفسها ، ويؤذن به أن الله ختم بها النبوات ، وجعلها آخر الرسالات ، وأنه تعالى تكفل بحفظ كتابه الكريم إلى يوم الدين عزيزاً لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يكن الخلود والعصمة لمجرد أن يتعبد الناس بتلاوته ، وليست العزة لكتاب ما في مجرد تبرك الناس به ، وإنما كان هذا وذلك عن حكمة أسمى ، ورحمة أعم وأشمل ، ذلك أن يظل الناس أبد الدهر منتفعين بكتاب ربهم في جميع شئونهم وأحوالهم ، وأن تبقى الحجة به قائمة على صدق الرسول ، وحقية الشريعة ، فما دام في المسلمين عقول تفكر ، وقلوب تفقه ، فلا بد لهم من النظر في كتاب ربهم ، وإلا كانوا منتسبين إلى القرآن بالاسم والميراث دون أن يكون منهم فرقة متفقهة في الدين ، ينفرون إليه بعقولهم وقلوبهم وأجسامهم قائمين وراحين حفصا وعلماء ودرسا ونظرا وتبيننا وعرفانا واستنباطا ليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلمهم يحذرون .

ثم إن الله جلت حكمته قد أودع نبيه جميع أحكامه وأسراره وعرفها له

بالوحي والإلهام . فكانت سنته عليه الصلاة والسلام هي الركن الثاني بعد القرآن ، وهي البيان له والتفصيل والكشف .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يختلفون في فهم نصوص الكتاب والسنة حسب اختلاف مراتب أفهامهم وقرائنهم « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » .

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائن والفهم

وقد يسمع الصحابي من النبي في واقعة حكما ، ويسمع الآخر في مثلها خلافة وتكون هناك خصوصية في أحدهما اقتضت تغاير الحكيم ، وغفل أحدهما عن الخصوصية أو التفت إليها وغفل عن نقلها مع الحديث ، فيحصل التعارض في الأحاديث ظاهرا ، ولا تنافي واقعا ، ومن هذه الأسباب وأضعاف أمثالها احتاج الأصحاب أنفسهم ، وهم الذين فازوا بشرف الحضور ؛ احتاجوا في معرفة الأحكام إلى الاجتهاد والنظر في الحديث ، وضم بعضه إلى بعض ، والالتفات إلى القرائن الحالية ، فقد يكون للكلام ظاهر ، ومراد النبي خلافة اعتمادا على قرينة كانت في المقام ، والحديث نقل ، والقرينة لم تنقل ، وكل واحد من الصحابة ممن كان من أهل الرأي والرواية — إذ ليس كلهم كذلك بالضرورة — تارة يروى نفس ألفاظ الحديث للسامع من بعيد أو قريب ، فهو في هذه الحال راو ومحدث وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات حسب نظره واجتهاده ، فهو في هذه الحال مفت وصاحب رأي ، وأهل هذه الملكة يجتهدون ، وسائر المسلمين الذين لم يبلغوا تلك المرتبة إذا أخذوا برأيه فهم مقلدون ، وكل ذلك قد جرى في زمن صاحب الرسالة ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبرأى منه ومسمع .

ولإذا أنعمت النظر في هذا اتضح لك أن الاجتهاد كان مفتوح الباب في زمن النبوة وبين الأصحاب فضلا عن غيرهم وفضلا عن سائر الأزمنة التي بعد ذلك ، غاية الأمر أن الاجتهاد يومئذ كان خفيف المؤنة جدا ، لقرب العهد ، وتوافر

القرائن ، وإمكان السؤال المفيد للعلم القاطع ، ثم كلما بعد العهد من زمن الرسالة وتكثرت الآراء ، واختلطت الأعارب بالأعاجم ، وتغير اللحن ، وصعب الفهم للكلام العربي على حاق معناه ، وتكثرت الأحاديث والروايات ، وربما دخل فيها الدس والوضع ، وتوافرت دواعي الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعي يصعب ويحتاج الى مزيد مؤنة واستفراغ وسع ، وجمع بين الأحاديث ، وتمييز الصحيح من السقيم ، وترجيح بعضها على بعض ، وكلما بعد العهد وانتشر الاسلام وتكثرت العلماء والرواة ، ازداد الامر صعوبة ولكن مهما يكن من شيء فباب الاجتهاد كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مفتوحا ، بل كان أمراً ضرورياً عند من يتدبر .

ومن مفاخر الشيعة الإمامية : أن باب الاجتهاد ما يزال عندهم مفتوحا ، ولن يزال إن شاء الله حتى تقوم الساعة ، بخلاف المشهور عند جمهور المسلمين من أنه قد سد وأغلق على ذوى الألباب ، وما أدري في أى زمان وبأى دليل وبأى نحو كان ذلك الانسداد ؟ .

وقد بين كثير من حذاق العلماء في مذاهب أهل السنة أن هذا زعم باطل ، وتضييق لا دليل عليه ، وأن هذا إنما كان يتمال به في عصور الضعف الفقهي ، والتعصب المذهبي ، وبعض القائلين به إنما يريدون أنه لم يعد بين المسلمين من من يصلح لهذا المنصب ، لقصور الباع ، وقلة المتاع ، لا لأن باباً قد أقفل ، أو واسعاً قد حُجِّر ، والامر على هذه الصورة قريب ، ومدى الخلاف في شأنه ليس بعيداً ، فن المتفق عليه : أن المجتهد هو من زاول الأدلة ومارسها واستفرغ وسعه فيها ، حتى حصلت له ملكة وقوة يتمتد بها على استنباط الحكم الشرعي من تلك الأدلة ، وهذا أيضاً لا يكفي في جواز تقليده ، بل هناك شروط آخر ، أهمها : « العدالة » ، وهى ملكة يستطيع معها الكف عن المعاصي ، والقيام بالواجب كما يستطيع من له ملكة الشجاعة اقتحام الحرب بسهولة بخلاف الجبان ، وقصاراها أنها حالة من خوف الله ومراقبته تلازم الإنسان في جميع أحواله ، ولم تضق رحمة

الله ونعمته حتى تحجر على عصر دون عصر ، أو تفرض على قوم دون قوم ، أو توضع لها السدود والأقفال من الأزمان والحساب .

ولقد حملت إلى مجلة « رسالة الإسلام » في عددها الأول بشرى من أعز البشرى ، عن حضرة صاحب الفضيلة أخى في الله العالم الجليل الشيخ عبد المجيد سليم رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ، وكبير فقهاء أهل السنة في هذا العصر ، تلك هى قوله في بيانه للمسلمين : « ولقد أدركنا في الأزهر على أيام طلبنا العلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد ، وتطهر الأزهر من أوبائه وأوضاره ، فأصبحنا نرى الحنفى والشافعى والمالكي والحنبلى إخواناً متصافين وجهتهم الحق ، وشرعتهم الدليل ، بل أصبحنا نرى بين العلماء من يخالف مذهبه الذى درج عليه فى أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه ، وقد جريت طول مدة قيامى بالإفتاء فى الحكومة والأزهر — وهى أكثر من عشرين عاماً — على تلقى المذاهب الإسلامية — ولو من غير الأربعة المشهورة — بالقبول مادام دليلها عندى واضحاً ، وبرهانها لدى راجحاً مع أننى حنفى المذهب ، كما جريت وجرى غيرى من العلماء على مثل ذلك فيما اشتركنا فى وضعه أو الإفتاء فيه من قوانين الأحوال الشخصية فى مصر ، مع أن المذهب الرسمى فيها هو المذهب الحنفى وعلى هذه الطريقة نفسها تسيّر « لجنة الفتوى بالأزهر » التى اتشرف برياستها ، وهى تضم طائفة من علماء المذاهب الأربعة » .

ألا إن هذا هو الفتح المبين لما زعمه الزاعمون مغلقا ، والفسح والبسط لما حسبه ضيقا .

ولقد كنت أعرف ذلك فى فضيلة الأستاذ الجليل ، وفى فريق صالح من إخوانه العلماء الأزهريين ، ولكن نشوة من الفرح والأمل يجب أن تغمر كل مسلم لإعلان هذا بلسان هذا العالم الكبير المسئول ، ولذلك لا يسعنى إلا أن أعلنه فى الناس مرة أخرى ، وأن أوجه إلى الشيخ وأصحابه — مع شديد الإعجاب — أكرم التحيات ، والحمد لله رب العالمين ؟

# التسامح الديني في الإسلام

لصاحب العزة الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك

نعني بالتسامح الديني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقاً وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء ، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء . ولنتظار إلى الإسلام في ضوء هذا التعريف نراه من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية هو أرقى الأديان في تحقيق هذه المبادئ . والباحث في التسامح الديني في الإسلام مضطر أن ينظر إليه من ناحيتين : ناحية المذاهب المختلفة في الإسلام نفسه ، وناحية نظرة الإسلام لأهل الأديان الأخرى .

فأما الناحية الأولى فالمسلمون في عهد نزول القرآن أى عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إلا مذهباً واحداً ولذلك لا نتوقع أن يكون في القرآن نفسه نص على التعامل بين المذاهب الإسلامية المختلفة . قد يكون هناك بينهم اختلاف في الاجتهاد أو اختلاف في تطبيق المبادئ الإسلامية ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب . وهناك أقوال مأثورة تدعو إلى التسامح مثل ما شاع بين المسلمين . اختلاف أمتي رحمة ، وكان هذا سبباً في سعة الصدر بين أهل المذاهب المختلفة من حنفي وشافعي ومالكي الخ . . . . . ومثل ما روى عن الشافعي من قوله : « مذهبي صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب » وهو قول لطيف يدل أيضاً على قدر كبير من التسامح . ومن هذا القبيل أيضاً ما شاع بين المسلمين من قولهم : « لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب غير



مُسْتَحِيلٌ ، أى أنه لا يكفر مسلم بارتكابه ذنباً ما دام غير مستحل له ، وأولى من ذلك أنه مهما اختلف المسلمون فى المذاهب والآراء والاقوال فيما هو محل للاجتهاد والنظر ، فلا يصح ان يكفّر احد منهم .

أما نظر الإسلام إلى الأديان الأخرى فهو نظر سمح ، فقد سمي اليهود والنصارى أهل كتاب ، وسمّاهم أهل الذمة ، وهما تسميتان فى منتهى اللطف . والآيات التى وردت فى القرآن فى أهل الكتاب تدل على قدر كبير من التسامح خصوصاً فى العهد المكي فيظهر أن اليهود والنصارى قابلو الاسلام فى العهد المكي بشئ من حسن الاستقبال فكان القرآن فى ذلك العهد سمحاً كريماً وقد بنى فى أساسه على أن القرآن يؤيد الكتب السماوية الأخرى ويتفق معها فى أغراضها ، وأن الشريعة الإسلامية وارثة لما قبلها ومكملة لتعاليمها ، والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير ، ؛ ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . . والاسلام يعترف بنبوّة الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس . ويتمرر أن أساس تعاليمهم واحدة وكلها من عند الله فلا غرو بعد ذلك كله أن يكون الاسلام سمحاً مسالماً حتى لقد نصح أتباعه بأنهم إذا دخلوا فى جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين ، جادلوهم بالحسنى ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . . بل نرى فى العهد المدنى ، فى أول الأمر مثل قوله تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد أهدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد . . وقوله : « قل يا أهل الكتاب آمالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . . ولكن يظهر أن اليهود والنصارى فى العهد المدنى ، بعد ذلك وقفوا أمام الدعوة الاسلامية يهاجمونها

ويضعون الخطط لخنقها ويتحالفون مع الوثنيين في الكيد لها والويل منها فاضطر الاسلام أن يقابل الشدة بالشدة والكيد بالكيد، فعلت نعمة القرآن في التنديد بأهل الكتاب ووصف أساليبهم القديمة وخاصة اليهود وما فعلوه مع أنبيائهم .. فكان موقف المسلمين منهم موقف الدفاع لا الهجوم ومع ذلك فقد سمح لليهود والنصارى أن يؤدوا شعائهم في المدينة ، ونصح الرسول معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن ألا يكره يهودياً على الإسلام ، وفي كتابه إلى نصارى نجران سمح لهم أن يؤدوا شعائهم وأن يتبعوا دينهم وأن تحفظ لهم كنائسهم وألا يُتدخل في شئونهم ما وفوا بعهودهم .

وسار الفقهاء من المسلمين على هذه التعاليم في فقههم من حسن معاملة أهل الكتاب ، وأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، بل لما فتحت فارس عومل أتباع زرادشت معاملة أهل الكتاب ، ولئن قسا الإسلام بعض الشيء على الوثنيين دون أهل الكتاب ، فلأنه يرى أن الوثنية انحطاط في الانسانية يجب علاجها ، وانتقال الإنسانية من حضيضها ، وعلى هذا سار المسلمون في أكثر تاريخهم على حسن معاملة أهل الكتاب ، يحمونهم ما دفعوا الجزية ، ويسمحون لهم بالعبادة في بيعهم وكنائسهم ، وهذه الجزية إنما شرعت بدل تجنيدهم لأنهم لا يأمنون جانبهم إذا جندوا ، ولا يقون بغيرتهم الحرية ، فليدفعوا بدل القتال شيئاً من المال لحمايتهم . ولو قرنت معاملة المسلمين في دولهم لليهود والنصارى بمعاملة النصارى للمسلمين في دولهم ، لتبين إلى أي حد كان التسامح عند المسلمين ، وفقدانه عند النصارى ، حتى ليصح للمسلمين أن يفخروا بتشريع الفقهاء الاولين في معاملة أهل الازمة ، وتطبيق ذلك عليهم في مختلف العصور .

\*\*\*

نعم حدث في التاريخ أحداث كثيرة لا تتمق وهذا التسامح الكريم ، ولكن إذا دققنا النظر فيها وجدناها ترجع إلى أسباب أكثرها غير ديني ، سواء في ذلك الاضطهاد الذي حدث بين المذاهب الإسلامية بعضها وبعض ، أو بين المسلمين

وغيرهم من اليهود والنصارى . من أهم هذه الأسباب : السياسة ، فالنزاع بين الحكومة الاسلامية والخوارج فى العهد الاموى وصدر العباسيين سببه أن الخوارج بتعاليمهم يريدون أن يتولى الحكم أصلح الناس ولو كان عبداً حبشياً ، ولا يعترفون ببيت أموى ولا بيت عباسى ، ويريدون أن يصلوا إلى مبدئهم بالقوة ، فاضطرت الحكومة الاموية والحكومة العباسية أن تحفظ كيانهما ، وتحمى بيتها فى الخلافة بمحاربة الخوارج والقضاء عليهم ، وهذا سياسة لادين .

وانظر الى النزاع الحاد ، والدماء المسفوكة بين السنة والشيعة طول العهد الاموى والعباسى ، وبعد ذلك ، وما جرى بسببه من دماء تجرى أنهاراً ، تجد سببه أن أهل السنة من أمويين وعباسيين وغيرهم يرون الحق فى خلافتهم ، ويرى الشيعة أن لاحق لهؤلاء فى الخلافة ، وإنما الحق لأهل البيت ، وكلّ يعمل على أن يصل إلى حقه بقوة السلاح ، فالنزاع إذن نزاع على من يتولى الحكم ، وهذه سياسة لادين ، وأحياناً يقوم بالدعوة الدينية رجال يدعون إلى مذاهب هدامة ، ويتسترون باسم الدين ، وتخشى الحكومة إن سادت تعاليمهم أن تنهار قوتها ، فتضطر إلى محاربتهم ، وشكل الحرب شكل دينى ، وحقيقته حقيقة سياسية ، وكثير ممن خرجوا على الدولة العباسية كانت حقيقة أمرهم الرغبة فى إعادة الحكم للفرس ككثير ممن قتلوا تحت ستار الزندقة فى عهد المهدي العباسى ، وبتهمة المانوية ، وقد يستنى من ذلك الاضطهاد الذى حدث من المأمون والوائق لمن لم يقولوا بخلق القرآن ، فقد كانت هذه نظرة دينية خاطئة من المأمون ، إذ ظن أن من لم يقل بالاعتزال وبخلق القرآن فقد أفسد دينه ، فهو يريد إصلاح العقيدة قسراً وقهراً كما فعل المسلمون الأولون إزاء الوثنيين ، وهذا خطأ فى التفكير نتج عنه أضرار جسيمة للسليين .

ومن العداء السياسى ما كان بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية فالعداء بينهما عداء سياسى اتخذ شكلاً دينياً . يريد العثمانيون الأولون أن يمدوا سلطانهم على الفرس ويأبى الفرس إلا أن يحتفظوا باستقلالهم فيؤول ذلك إلى البغض الذى

بلغ مداه في عهد السلطان سليم الأول حتى كان من اضطهاده للشيعه في مملكته أن قتل وسجن ما يقرب من أربعين ألفاً . ولكن من الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة بدليل أن كثيراً من هذه الخصومات السياسية حدثت بين أمم إسلامية مختلفة تعتق عقيدة واحدة سنية أو شيعية ، وإنما كان الخلاف بينها على السلطان وسعة الحكم ونحو ذلك .

ولسنا ننكر أن كثيراً مما حدث في التاريخ من اضطهاد المسلمين للنصارى واليهود ، كان ناشئاً عن كراهية دينية وغيرة إسلامية ، ولكنها كانت غير عمياء من بعض من أصيبوا بضيق النظر ، وفهم الدين فهماً خاطئاً أو كان ردأ لما يبلغهم عن اضطهاد المسيحيين للمسلمين ، فيضطرون أن يعاملوهم معاملة المثل جزاء وفاقاً ، ولكن من الظلم أن نحمل الدين الإسلامى هذه الأخطاء أيضاً .

وأحياناً كان يكون السبب في اضطهاد المسلمين لليهود والنصارى سبباً اقتصادياً فكثيراً ما كان يحدث ، أن تولى الحكومات الإسلامية بعض اليهود والنصارى زمام الأمور المالية في الدولة فيسرفون في تعيين أقاربهم وأصهارهم في الوظائف المالية كما يسرفون في بذل المال لهم ، وبعد قليل ينظر المسلمون فيرون أن الغنى والترف ، وحياة الفخفة ، والآبهة والعظمة ، في جانب اليهود والنصارى ، وحياة البؤس والفقر في جانب المسلمين ، فيثور نائزهم ، ويحطمون هذا الوضع الاقتصادى الظالم ، كما حدث ذلك في العهد الفاطمى . وقد كانت الدولة العثمانية في أول أمرها من أكثر الدول تسامحاً لرعاياها من اليهود والنصارى ، ومنحتهم من الامتيازات ، ما لم يعده له نظير في الدول الأخرى ، ولكن انقلبت هذه الامتيازات ، معاول لهدم الدولة العثمانية ، واتخذت الدول الأجنبية من روسيا وإنجلترا وفرنسا وغيرها ، هذه الامتيازات التي لرعاياها وسيلة لنشر الدسائس وتدمير المؤامرات ، وخلق الفتن ، فاضطرت الدولة بعدئذ إلى استعمال كثير من العنف دفاعاً عن كيائها ، ومواجهة لنقض الدسائس التي تحاك حولها وكل هذا سياسة لا دين .

وأحياناً يكون سبب القتال والحصام ، تجارة رؤساء الدين ، فيرون أن قوة مركزهم ، وبسطة نفوذهم ، متوقفة على تعصب عوامهم ، فهم يستغلون ضيق نظر أتباعهم ، ويبيئون فيهم روح التعصب حفظاً لمركزهم ، ونفوذهم وسيطرتهم ، علماء منهم بأنه إذا ساد التسامح ، وكان الناس أخواناً ، فقدوا عزتهم الوهمية ، ومكاسبهم الفانية ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

\* \* \*

وبعدُ فإن أوروبا مع تقدمها فى فهم الحرية ، وجدها المتواصل فى بناء حياتها على العلم لا على العواطف ، ما زالت بعيدة عن تحقيق التسامح الدينى بالمعنى الذى شرحناه فى صدر المقال ، فبالأمس قرأنا كيف فعل هتلر بيهود ألمانيا وقرأنا كيف اضطهد الشيوعيون الدين وحاربوا شعائره ، وقرأنا فى الصفحات الاخيرة كيف حاربت أوروبا المسلمين العرب فى فلسطين ، ونصرت اليهود عليهم ، وعرفنا كيف تخلط أوروبا المنفعة السياسية بالعواطف الدينية فى معاملتها للمسلمين .

وأخيراً فهل للمسلمين أن يشتد وعيمهم القوى ، ويفهموا بعد طول هذه التجارب التى ذكرنا بعضها أنه لم يعد هناك وجه للخلاف بين سنى وشيى وزيدى وغير ذلك من المذاهب ، لأنهم لو رجعوا إلى أصل دينهم ما وجدوا لهذا الخلاف محلاً ولوجدوا أنه خلاف مصطنع لا خلاف أصيل ، وأن الأمم الاسلامية فى موقفها الحاضر أحوج ما تكون إلى لم شعنها وإصلاح ذات بينها ، وتوحيد كلمتها ، وهى ترى كيف مُتهاجم من كل جانب ، وكيف يتخذ إسلامها وسيلة من وسائل الكيد لها ، وإذا اتحد أهل الباطل على باطلهم ، فأولى أن يتحد أصحاب الحق على حقهم ؟

# رَمَضَان

رمز تقريب القلوب وتأليف الشعوب

لحضرة صاحب الساحة العلامة الجليل

السيد هبة الدين الحسيني الشهير بالشهرستاني

من كبار العلماء في العراق

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ،  
هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »  
قرآن كريم

كم لهذا الشهر الكريم من مزايا في الدين والتاريخ : فيه بدأ نزول القرآن ، وهو دستور الإسلام ، ومنبع علومه ، وحارس شريعته ، وفيه انتصر المسلمون في أول غزوة وهي غزوة بدر الكبرى ، فاستقرت دولتهم ، وقويت شوكتهم ، وأمر أمرهم ، وأصبحوا أمة ذات سلطان وهيبة ، بعد أن كانوا قوما مهاجرين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وفيه ليلة القدر التي هي بنص القرآن الكريم خير من ألف شهر .

يمتاز شهر رمضان في الدين والتاريخ بهذه الميزات الثلاث ، وكل واحدة منهن ذات معنى خاص ، وشأن خطير :

فأما القرآن الكريم فإنه أفضل كتب الله أنزله على أفضل رسله ، فكان آيته الكبرى الخالدة على الزمان ، ولم يكن خلود هذا الكتاب وإعجازه لقوى البشرية راجعاً فحسب الى البلاغة وقوة البيان مما أدى الى سجد العرب للبلاء له ،

وخفضهم للرموس إذعاناً واعترافاً ، وإنما كان أيضاً لما أودعه الله إياه من علم وإحسان وإرشادات ، ومن تهذيب للنفوس وتقويم للأخلاق ، وأنه لا ينافي علماً ثبتت صحته بالدليل والبرهان ، ولا يعارض صلاحاً يمكن للبشر أن يعتمدوا عليه في ترقية شئونهم ، وإقرار السلام والأمن بينهم ، وما تزال مبادئه ومثله وقواعد أحكامه ومناهجه هي النور الذي يهدي الحيران ، ويرد الشارد ، ويضيء آفاق الحياة ، ولن يزال كذلك في مستقبل الدهور والأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وليس القرآن وسيلة الهدى للعرب فقط — وإن بدى بهم — بل اهتدى بأنوار معارفه العالية عامة البشر ، كما أنه ليست الاستفادة من القرآن مقصورة على إصلاح العقائد والعادات فقط ، بل أفاد العالم في توجيههم إلى علوم الطب والطبيعة وأسرار كائنات الأرض وكامنات السماء ، وأفاد العرب خصوصاً في تقويم اللسان وتقوية البيان وتوسيع فنون اللغة والبلاغة والأدب .

فاذا أهلّ شهر رمضان فانه يذكر المسلمين بهذا ، وينبههم إليه تنبيهاً قوياً ، وكأنني بالقرآن الكريم يطل من علياء سمائه على المسلمين في كل بقعة من بقاع الأرض مع هلال رمضان فيناديهم : أنا الهدى فهل من مهتد ؟ أنا النور فهل من مستضيء ؟ أنا شعار مجدكم ، وعنوان عزكم ، ورمز عظمتكم ، أنا هدية الله إليكم ، أنا رحمة الله فيكم ، أنا المنهاج القويم ، أنا الصراط المستقيم ، بي تعززون ، وبمبادئ تسودون ، فاعتصموا بي فأنا جبل الله ، واستظلوا بلوائى فأنا ظل الله . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

فاذا أنصت المسلمون إلى هذا النداء ، وأجابوا داعي الله فأصلحوا أنفسهم ، ورجعوا إلى كتاب ربهم ، فأجدر بهم أن ينالوا مجد الدنيا ومجد الآخرة !

أما إذا استقبلوا القرآن على أنه كتاب يتلى لمجرد التعبد بتلاوته ، أو كان تكريمهم إياه مقصوراً على عدم مسه إلا على طهارة ، أو على حمله تفاؤلاً باستصحابه أو دفعاً لما يتوقع من أخطار ، أو كتابة بعض آياته في مصاحف منسقة بخط جميل ،

ورسم جميل ، وتعليقها على حوائط البيوت والمحلات ، أو كانت عنايتهم به في حدود التمرن البلاغي ، والتطبيق الأدبي ، كما تدرس النصوص الأدبية دراسة لفظية ، فأهون بهذا كله ، وما أبعد عما أنزل الله له كتابه العزيز .

وأما غزوة بدر الكبرى فما أعظمها في تاريخ الإسلام نفرا ، وما أجدرها بالبقاء والخلود ، وأن نخفل بذكرها كما نخفل بأعز شيء في هذا الوجود ، إن المسلمين قبل بدر كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، لم تكن لهم دولة يخشى بأسها ولا يحسب حسابها ، كانوا في « يثرب » ضيوفا على الأنصار يشاركونهم مساكنهم وأقواتهم ومتاعهم ، وكانت تأتيم الأبناء من مكة بأن القوم قد استبدوا بأموالهم وبيوتهم ، وآذوا كل من ينتسب إليهم ، فكانت قلوبهم تنزى ألماً ، وصدوهم تغلى حقداً على هؤلاء المبطلين الذين لم يرعوا جانب الحق ، ولم يُيقوا على الرحم ، ولم يحسبوا حساباً لأي معنى من المعاني الإنسانية الشريفة ؛ حتى إذا واتهم الفرصة في بدر انتهزوها فضربوا في صدر الكفر ، وفاتوا هام المشركين ، وأفهموا مكة أنهم قوة تُسَخَف ، وأن الله سيجعل من هذه الحفنة المشتتة المبعثرة أمة قوية تعلو كلمة الله ، وتشر عدل الله ، وتبث رحمة الله ، وتخدم شريعة الله .

فلنذكر رمضان هذه الذكرى بعد ذكرى نزول القرآن ، فهي ذكرى التوطيد والتشديد بعد اعتناق شرعة الحق ، واستقبال الدستور الإلهي الخالد !

وأما « ليلة القدر » التي أنزل الله فيها كتابه ، واختارها ظرفاً لأعظم حادث يعرفه الناس من صلة الأرض بالسماء ، فقد جعل الله ظرفها هو هذا الشهر أيضاً ، وجعل لها فضلاً على سائر الليالي حيث تضاعف فيها الحسنات ، وتفاض الرحمت ، فهي بما أنزل الله فيها من كتابه رمز لأعظم هبة رحمانية وهبها الله للعقول ، وهدى بها الإنسانية ، وأخرجها من الظلمات إلى النور ، وهي بما يفيض الله فيها رمز لأكرم معاملة بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب : وإلا فأى فيض أعظم من هذا الفيض ؟ يقوم العبد لله ليلة خاشعاً خاضعاً متبتلاً فيقبل الله عليه بإحسانه ، ويضاعف له في جزائه حتى يمنحه على ليلة واحدة ثواب ألف شهر ، وُحِقَّ لهذه الليلة أن تكرر ، فإنها ليلة القرآن وكفى .



تلك مزايا ثلاث من مزايا «رمضان»، ومن أهم مزاياه أيضا أنه ربيع اتحادنا ورمز تقريب القلوب، وتأليف الشعوب، وموسم اجتماعي تعمّر فيه المساجد والمعابد، وتكثر فيه أندية الخلطاء والخلصاء، ويتزاور الإخوان والجيران، وحدانا وزرافات مما يؤدي إلى تصفية القلوب، وتركبة النفوس، وغسل الصدور من حفاظ الأحقاد والإحزن، باعتذار هذا لذلك، وحنان ذلك على هذا، وحركات جاذبية الحب من كل إلى كل، وكثرة التردد والتودد، وبذلك صار سيد الشهور، كما في الحديث المأثور.

ومن مزايا هذا الشهر المبارك فرض الصيام في أيامه، والصيام خير وسيلة لإصلاح النفس، لإصلاح الجسم، لإصلاح المجتمع.

وفيه إشعار المسلمين بأنهم أمة واحدة، لا فرق بين قاصيمهم ودانيمهم، ولا بين غنيمهم وقصيرهم، يصومون معاً، ويفطرون معاً، ويشعر بعضهم بشعور بعض.

وقد أشار الإمام جعفر بن محمد عليه السلام إلى أهم الغايات في فلسفة الصوم قائلاً: «إنما فرض الله على عباده الصوم ليستوى الأغنياء والفقراء في هذا البلاء، وليدرك الأغنياء ما يجرى على هؤلاء، فيؤثروهم على أنفسهم رحمة وحنانا فتزول أخطار المجتمع.

فيأياها المسلمون :

ها هو ذا قد أظلمكم شهر رمضان، شهر الهدى والفرقان، وفي هدى القرآن كل الخير والبركة من صلاح وإصلاح، وتعاون وتضامن، فوحدوا صفوفكم، ووحدوا قلوبكم، ووحدوا شعوبكم « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ».

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم نصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ».

# الشخصية المحمدية تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

منزلة العلم في الاسلام

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

أثبتنا في المقال الذى تقدّم هذا ، ما شرح به النبى صلى الله عليه وسلم آية الفطرة الدينية ، وبيننا الآفاق العالية التى جال فيها فهمه القويم ، فى تحديد هذا المعنى الخطير الذى أصبح الأساس العلى الركين للدين فى الفلسفة الحديثة .

ولكن الأوهام المتغلبة كثيرا ما تشبه بالشعورات الفطرية ، وتجد لدى مروجيها ما تستند إليه من الأهواء الموروثة ، فما الذى يفرق بين ما هو هوى موروث ، وما هو ميل فطرى فى النفس كسائر ميولها الفطرية ؟ لاشئ غير العلم ، العلم المستند إلى الحقائق الطبيعية ، وهذا هو ما عمد إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فشرع يدعو إليه فى ألوان من التعبير ، وضروب من التحضيض ، لم تؤثر عن غيره إلى عهده فى العالم كله ، فأما بلاد العرب فإن هذه الدعوة لم تؤثر فيها عن أحد غيره ، وكانت غريبة لدى قوم ظلت الأمية صفة مميزة لهم قرونا كثيرة ، وأما فى أوروبا حيث نشأت الفلسفة اليونانية ، والمدنية الرومانية ، فإن التعصب للدين فى ذلك العهد كان آخذاً بمنخبطها إلى حد عادى معه أهلها العلم ، واعتبروا المشتغل به والداعى إليه زنديقا ؛ وبقيت هذه الحالة قائمة الى نحو القرن الخامس عشر الميلادى ، وما زالت تشد حتى كانوا يحرقون المشتغلين بالعلم ، ويمثلون بأجسادهم وقد أحصى متأخرو المؤرخين ضحاياه فبلغوا أكثر من ثلاثمائة ألف فى نحو ثلاثة قرون !

فهذه الصيحة بالعلم كانت لا تجد لها صدى إلا لدى أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ، التي كانت لا تمت الى مصادر العلم بسبب ، وقد أثمرت ثمرتها قال العلامة ( دربير ) المدرس بجامعة ( هارفارد ) بالولايات المتحدة الامريكية في كتابه : ( المنازعة بين العلم والدين ) :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ أى بعد وفاة محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح . الخ . » . وأنت خبير أن المسلمين انتهت إليهم بعد ذينك القرنين زعامة العلم في العالم كله ، وكانت مدنهم في آسيا وأوروبا مثابة للأم كافة يقصدها مريدو الاستفادة من سائر بلاد العالم ، فيشركونهم فيما حصلوا عليه من أنوار المعارف ، ليخرجوا بلادهم الأوروبية من ظلمات الجهل ، وقد شهد علماء أوروبا وفلاسفتها أن بلادهم مدينة للمسلمين بعلومها وفلسفاتها وصنائعها ، وهى شهادة تؤيدها الاسانيد التاريخية ، والكتب المترجمة عن العربية التى لا تزال ماثلة فى مكتباتهم ، والتى لا يزال بعضها يدرس فى جامعاتهم الى اليوم .

ليس غرضنا هنا أن نبين مدى تأثير العلوم التى أقام دولتها المسلمون فى مدينة أوروبا ، وإنما مقصدنا أن نجلى الفطرة العلية للشخصية المحمدية التى اصطفها قيم الوجود للقيام بخاتمة الأديان الإلهية .

لأنى أستطيع أن أوكد - وعهدة هذا التأكيد على - أن العلم لم يجد داعيا إليه ، وبحببا فيه ، فى جميع بلاد العالم من أول عهد الناس به إلى يومنا هذا مثل ما وجده فى محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك لأنه أدرك لسمو فطرته ، أن العاطفة الدينية المجردة عن العلم ، قد تستجيب لباطل موه ، وقد تضبو لهوى مزخرف ، وقد يدعوها حب البحث إلى الخوض فى الشئون العلية ، فتتردى فى مهاوى الضلالات وتحمد عليها ، وأنت خبير أن الأديان السابقة على الإسلام قد خرجت بتحريف الجاهلين عن صُـرُطها القيمة ، بل استحالت إلى وثنية بحتة ؛ ويريد الحق أن

يحفظ للإسلام طابعه الإلهي ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا أحيط بسياج من العلم ، وتجلى كل هذا على حقيقته لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان باعثاً قويا له على الدعوة إليه ، في ألوان شتى من البيان ، فكان مما أثر عنه أنه قال : « أطلبوا العلم ولو بالصين » ، فإن طلبه فريضة على كل مسلم ، وهذا أول تصريح لداعية ديني بأن يستنفد الإنسان وسعه لطلب العلم حتى لو كان لا سبيل إليه إلا بالانتقال إلى أبعد بلاد العالم .

وانظر إلى قول محمد صلى الله عليه وسلم : « ليس مني إلا عالم أو متعلم » ، وقوله : « كن عالما أو متعلما ولا تكن الثالثة فتهلك » تجده يجرد من الانتساب إلى الدين ، الجاهل الذي رضى بجهله فجمد عليه ، وينذر بالهلاك ، من اكتفى بالدخول في الإسلام وأهمل أن يزداد علما .

ومن أعجب ما يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قول يدل على غاية لا تدرك من سمو الإدراك ، وعلى بعد في النظر ليس بعده مرمى ، قوله : « من ظن أن للعلم غاية فقد بنحسه حقه ، ووضع في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فلعمري إذا كان هذا القول حقا ، وهو حق لا مرية فيه ، فهو ليس من مدارك أمة لقبت بالأمية ، ولا من حظ بلاد ليس بها أثارة من علم ، بل ليس من مألوفات الأمم كافة في عهد عرف قاداته بمحاربة العلم ، والخط من سمعته في سبيل ترويح مزاعمهم الدينية .

هذا ولم يُغفل محمد صلى الله عليه وسلم وجها من وجوه الحث على الاستزادة من العلم إلا أتى به . من ذلك قوله : « ليس الحسد والملق من خلق المؤمن إلا في طلب العلم » .

ولما خشى أن يطغى الميل إلى العبادة على الميل إلى العلم ، صرح بأن طلب العلم من أجل حروب العبادة ، وأكثرها ثوابا ، فقال : « مجالسة العلماء عبادة » وقال : « العلم أفضل من العبادة وملاك الدين الورع » . وقال في رفع أقدار العلماء ، والإشادة بكرامتهم : « بين العالم والعابد سبعون درجة » . ومن هنا أخذ ابن عباس رضي الله عنه تفسيره لقوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين

أوتوا العلم درجات ، ، قوله إنها سبعون درجة ، أى أن درجة العلماء أرفع من درجة المؤمنين غير العلماء سبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم - وهو قول لا يتذوقه إلا من عرف أثر العلم في بناء الأمم وفي تقويم أمورها - : « لموت عالم أيسر من موت قبيلة » ، أى أن المجتمع يُنسكب من موت عالم أكثر مما يُنسكب من موت قبيلة ، وهذه غاية لا تدرك في تعظيم شأن العلم .

فلا غرو بعد كل هذا أن يندفع المسلمون في طلب العلم اندفاعا لم يؤثر عن أمة قبلهم ، فخذقوا كل ما كان شائعا منه بعد أن ترجموه إلى لغتهم ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل نقبوا عن مصادره في المكتبات الأجنبية فأخذوا منها كل ما وجدوه لليونانيين والسريانيين وغيرهم وترجموه إلى لغتهم وتدارسوه بهمة لا تعرف الملل حتى أتقنوه وعملوا به وزادوا مادته ثروة ، واكتشفوا علوما جديدة سجلت لهم في صحائف الخلود . كان هذا كله ببركة العبقرية المحمدية التي تجلت في شخصيته الكريمة تجليا لم يحفظ مثله لرجل غيره من الناس أجمعين . ؟

### الى الطالب الكبير فريد بك ومهدى :

جاء في متالكم القيم « لا خلاف في الدين الحق ، الذى نشر بالعدد الاول من هذه المجلة : » أن الحدود الفاصلة بين الفرق الإسلامية ستزول لاشتغال العقول بالعلم الذى يجب أن تتألب جميع العقول البشرية لدفع خطره عن العقول الشرقية . وأن الله لو وفقنا لصيانة الإسلام منه نكون قد أدينا للإسلام خدمة ... الخ » . وقد كانت هذه الفقرات من المقال موضع نقاش طويل في بعض الأندية العلمية شأن جميع ما يكتبه البجائة المدقق فريد وجدى بك ، فهل يفضل أستاذنا الجليل بيان : ماهو العلم المقصود ؟ وما خطره على العقول الشرقية ؟ وعلى الإسلام دين العلم والعقل ؟ وكيف يمكن أن تتألب لدفع هذا الخطر « جميع العقول البشرية » ومن بينها العقول القوامة على إزاء هذا الخطر ؟

محمد فؤاد السبر

المدرس بالأزهر

# أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَتَقْنِيفَةٌ وَاحِدَةٌ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد تقي القمي

السكرتير العام لجماعة التقريب

جرى الحديث بيني وبين العلامة الشهير المغفور له الإمام الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر (١) ، وكأني أرى هذا الحديث أمامي كما لو كان بالأمس القريب ، والحال أنه قد مر عليه زمان لا يقل عن عشرة أعوام .

كان موضوع الحديث هو المشكل الخطير الذي على المسلمين أن يعالجوه إذا أرادوا نهضة موحدة تشمل جميع شعوبهم وبلادهم : وهو توحيد المسلمين ثقافياً .

كان الكلام بيننا في أن المسلمين لا يعرف بعضهم بعضاً ، وأن الصلة منقطعة بينهم . ولا بد من تقريبهم ثقافياً ، ليعرف كل ما عند الآخر ، وبذلك يحصل التوحيد المنشود ، وترتفع المنازعات والخلافات في كل المسائل أو في أكثرها ، أو تقف — على الأقل — عند حدودها الحقيقية .

---

(١) وكان ثالثاً في هذه الجلسة هو حضرة صاحب السعادة محمد خالد حسنين بك (باشا) كبير مفتشى الأزهر حينذاك .

ذكرني هذا الكلام يومئذ بقصة ذكرها في أحد كتبه عارف<sup>١</sup> إلهي عظيم (\*) ، في سياق أراد به استنتاج بعض المعاني العرفانية السامية ، فذكرت لفضيلته هذه القصة ، ولا أرى بأساً من أن أعيد ذكرها للقراء لأنها تعبر عما نحن فيه أصدق تعبير ، وتوحى بمعالجته من أقرب سبيل :

كان أربعة من الفقراء جالسين في طريق ، وكل منهم من بلد : أحدهم رومي ، والثاني فارسي ، والثالث عربي ، والرابع تركي ، ومر عليهم محسن فأعطاهم قطعة من النقد غير قابلة للتجزئة ، ومن هنا بدأ الخلاف بينهم ، يريد كل منهم أن يحمل الآخرين على اتباع رأيه في التصرف في هذا النقد ، أما الرومي فقال : نشترى به ( رستافيل ) وأما الفارسي فقال : أنا لا أرى من ( لانگور ) بديلاً ، وقال العربي : لا والله لا نشترى به إلا ( عنباً ) ، وقال التركي متشدداً في لهجة صارمة : إن الشيء الوحيد الذي أرضى به هو ( أوزوم ) ، أما ما سواه فلا يوافق عليه أبداً ، وجر الكلام بين الأربعة إلى الخصام ، وكاد يستفحل الأمر لولا أن مر عليهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً ، وتدخل للحكم بينهم ، فبعد أن سمع كلامهم جميعاً ، وشاهد ما أبداه كل منهم من تشدد في موقفه أخذ منهم النقد واشترى به شيئاً ، وما إن عرضه عليهم حتى رأى كل منهم فيه طلبته ، قال الرومي : هذا هو ( رستافيل ) الذي طلبته ، وقال الفارسي : هذا هو ( الانگور ) وقال العربي : الحمد لله الذي آتاني ما طلبت ! وقال التركي : هذا هو ( أوزوم ) الذي طلبته ، وقد ظهر أن كلا منهم كان يطلب « العنب » من غير أن يعرف كل واحد منهم أنه هو بعينه ما يطلبه أصحابه .

لسنا في هذا المقام بصدد بيان ما دار في هذه الجلسة أو في الجلسات الأخرى الممتعة التي كنت أجمع فيها بفضيلة الامام المراغي ، ولسنا أيضاً بصدد بيان ما وصلنا إليه في نفس تلك الجلسة من إقرار تدريس بعض اللغات الإسلامية كوسيلة للتفاهم بين البلاد الإسلامية المختلفة ، كما أننا لسنا بصدد أن نقول : هل واصلنا السير إلى الامام منذ ذلك الوقت أو رجعنا القهقري ؟ ومهما يكن من

(\*) هو مولانا جلال الدين البلخي الشهير بالرومي في كتابه العرفاني الجليل « الثنوي »

شيء فإن أماننا في اللجنة الثقافية لجماعة التقريب مشروعا يرمى الى توحيد المسلمين ثقافياً ، أو إن شئت فقل توحيد الثقافة الإسلامية بين المسلمين : فكرة ضخمة ، ومشروع جليل ، ينظر الى المسلمين كأمة واحدة ، لغاتها محترمة عند الجميع ، آدابها للجميع ، رجالها للمسلمين عامة .

ليس أحد ينكر على المسلم أن يعرف الأدب الغربي ، لكن عليه في الوقت نفسه أن يعرف شيئاً عن أدب رجال نشئوا في الإسلام ، ونبغوا في البلاد الإسلامية . لا مانع بمنع المسلم أن يعرف اللغة الغريبة ، ولكن مما ينكر عليه ألا يعطى قسطاً من اهتمامه للغات الإسلامية — ولعل منها ما يتكلم به أكثر من مائة مليون من المسلمين — فتكون لغة التخاطب بين كثير من المسلمين بعضهم وبعض إحدى اللغات الغريبة ، لأن كلا الطرفين المسلمين لا يعرف من لغة الآخر شيئاً .

ليس بمنكر على المسلم — بل من المستحسن — أن يعرف كثيراً عن القارة الأوروبية أو الأمريكية أو غيرها ، غير أنه بوصفه مسلماً عليه أن يعرف أكثر مما يعرفه الآن عن البلاد الإسلامية وأقطارها .

أن توحيد المسلمين ثقافياً لا ينافي أن تعمل كل طائفة من الطوائف الإسلامية ، بما ثبت عندها واعتقدته ، مادام هذا لا يمس العقائد الأساسية ، التي يجب الإيمان بها ، ولكن من الواجب أن تعرف كل طائفة من المسلمين حقيقة عقائد الآخرين ، لعلها تجد فيها ما تستفيد منه ، أو — على الأقل — إذا أراد أحد باحثها أن يكتب عنهم شيئاً ، أو ينقل بعض فتاواهم ، فلا يكتب « وأما ما سمعنا عنهم أنهم يقولون كذا وكذا أو أنه يقال عنهم كذا وكذا » ولعمري إن هذا لسبب في جبين العلم : أن لا يتعب رجاله أنفسهم بالبحث عن كتاب يجدون فيه كل ما يبحثون عنه ، من غير أن يسندوا أقوالهم إلى السماع ، وكثيراً ما يجيء هذا القول المسموع من ذوى الأغراض الخبيثة .

ومما هو واضح أنه ليس معنى توحيد الثقافة ، توحيد اللغة ، وليس هذا أمراً يمكننا ، ولعله لا يفكر في هذا ، ولا يتفوه به ، إلا من يريد أن يبعث



التعصب للغات أيضا ، أو يريد أن يستعمر الآخرين ، ولكن المهم هنا أن يفهم بعضنا بعضاً ، وهذا ممكن جداً إذا وجد في البلاد العربية مثلاً رجال يعرفون لغات الآخرين وعند الآخرين من يعرف العربية ويتحدث بها ، وهذا ما كان في العصر الذهبي للإسلام : شعوب لم يصطبغوا بالصبغة العربية ، واحتفظوا بلغتهم القومية إلا أن رجالاً منهم — وهم علماءهم عامة — كتبوا ودونوا العلوم بالعربية ، وخدموا اللغة العربية نفسها أية خدمة ، من دون أى تعصب ، أو أقل تحيز ، ألا وإن الترجمة مما لا بد أن يتم به ، وكثيراً ما تترجم آثاراً من الغربيين بأنواعها ، فتجد فيها ، ما يفيد ولا ننكره ونجد فيها ما يفسد الاخلاق وينشر الخلاعة حيناً ، والإلحاد والمادية حيناً آخر ، ولا يشك مسلم في خطر هذا النوع على الدين والآداب الإسلامية .

وما دام عندنا هذا الاستعداد للترجمة ، وليس لدينا مانع من أن نعطي لفكرة نشأت في بيئة مغايرة لبيئتنا وصيغت في جو تقاليد غير تقاليدنا الدينية والقومية ؛ صورة مناسبة أو أقل بعداً . — نقول — ما دام عندنا هذا الاستعداد أليس من الخير أن نوجهه الى الصحيح من الأدب الغربى ، وأه بكار أهله ، والى الآثار الإسلامية بما فى ذلك ترجمة الكتب والدواوين والحكم والقصص وأخبار التاريخ السائرة بين الشعوب الإسلامية ، وإن منها كتباً لو كان أحدها هو الكتاب الوحيد فى لغته ، ولم يكن سبيل لترجمته ، الا بتعلم اللغة ، لكان على الإنسان أن يتعلم تلك اللغة ليعرف ذاك الكتاب ويلتذ بما فيه !

ان فى البلاد الإسلامية معادن وكنوزاً ، وأن للمسلمين رجالاً نابغين ، وعلماء أكفاء عاملين ، وأدباء قديرين ، فهل يعرفهم العالم الإسلامى ، وهل يعرف عنهم عشر ما يعرف عن بعض علماء المادة وكتاب السوء ؟ وهل سمع عن آثارهم ؟ وهل عرف أن منهم مؤلفين خلفوا مجلدات من الكتب ، يعد كل واحد منها ، مرجعاً من المراجع ودليلاً قائماً بذاته ، لفكرة تاضجة عند المسلمين .

إن للمسلمين جامعات علمية كبرى فى مختلف البلدان ، وإن فيها لما يجتمع

به أكثر من ألفين من طلاب علوم الدين ، وإن النظام الدراسى فيها نظام حر ، فهل عرفت الأغلبية من المسلمين عنهم شيئاً ؟

لو أن التعارف بين المسلمين تم على أساس توحيد الثقافة ، بما فى ذلك التبادل الثقافى ، وتأليف كتب عن كل طائفة لإعطاء صورة صحيحة عنها ، وتعليم اللغات الإسلامية فى جامعاتهم وترجمة آثارهم ورجالهم ؛ لعرف المسلمون أنفسهم ، وعلومهم وقوتهم ومقدرتهم ، وأنهم مسلمون قبل كل شئ . مسلمون فى كتاباتهم وتأليفهم ، مسلمون فى قصصهم وأشعارهم ، وأنهم أمناء فيما يكتبون .

لا بد أن يلتقى المسلمون بعضهم ببعض ، وهل من منكر أن خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة — الثقافة الصالحة لأن تكون ثقافة إسلامية بعيدة عن كل تعصب أعمى ، ثقافة تحت ظل الدين . ثقافة يجتمع المسلمون فى ظلها مثلاً ، بالحافظ الشيرازى ، المتوفى فى القرن الثامن و « حافظ إبراهيم » المصرى ، المتوفى فى القرن الحاضر ، ومحمد إقبال المسلم الهندى المتوفى أخيراً ، مع اختلاف لغاتهم وتفاوت درجاتهم .

وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين ، فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين ، والعلماء كلهم من أى مذهب من المذاهب الإسلامية ، قد استمدوا علومهم من الكتاب والسنة ، واللغة العربية هى لغة الدين ، وبما أن المصدر واحد واللغة واحدة ، فإن أقل تبادل ثقافى ، يكفى لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى ولأن يجمع كثير من الخلاف الذى نحن فى غنى عنه .

هذا ما نبتغيه ، وهذا ما نسعى إليه ، وإن لنا فى توحيد الثقافة الإسلامية ، الذى يجعل كلاً منا يعرف ما عند الآخرين لاملأ كبيراً أن يرجع للمسلمين مجددهم ، ويجعل الأجانب والمستعمرين ، يحسبون لهم ألف حساب ، وترجع للعلم الإسلامى قدرته على إنتاج أطيب الثمار . وبالله التوفيق وهو ولينا ونعم النصير .

## الفقه السياسي عند المسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغي

الإمام الخاص للحضرة الملكية

كنت على أن أتابع البحث فيما بدأت من أحاديث حول ( الفقه والفقهاء في عهد المماليك ) ولكن مقالاً شائعاً تحت هذا العنوان الذي أعلمت به مقال اليوم كتبه صديق الفاضل العالم الأستاذ شافعي بك اللبان صرفني عن الكتابة - مؤقتاً - في التشريع في عهد المماليك لأقف مع الزميل الفاضل وقفة قد يكون فيها شيء من النصفة اتقوا كتبوا كثيراً ، ولكنهم ظلوا أكثر ، وجاهدوا كثيراً ولكن حقهم قد غمط أكثر ، ولست أريد في ذلك المقال أن أترّب على أحد ، ولكني أريد أن أقولها صريحة : إن هؤلاء الذين حلوا راية العلم الإسلامي في شتى نواحيه ، كانوا جديرين بشيء من التقدير أكثر من هذا الذي قوبلوا به ، وذلك لا يستدعي إلا عناء يسيراً في الرجوع إلى ما كتبوا ، وقد ظهر بعضه ، ولكن ما بقي مخطوطاً يعدو الآلاف ويحوى ذخائر دنيئة ، لو كان عند أمة عشر معشارها لأقامت لأصحابها الأعياد الفضية والذهبية والماسية ، وما إلى ذلك ، والأمم القديمة ، فقد قيل منذ سنين : ليس للعرب علم ، وقيل ليس لهم سياسة ، حتى الفقه قيل عنه : ليس لهم فقه ، وما هو إلا ثوب مهليل استعاروه من الرومان وما ذنبهم :

إذا كان المحب قليل حظ فما حسنة إلا ذنوب

ويخيل لي أن الموضوع — إن مسموح لنا باستعمال التعبير الأزهرى — لم يحمر فيه المراد ، أو بعبارة أدق لم يتلاق السلب والإيجاب على جهة واحدة ، فإن كان النافون يعنون أن العرب ليس لهم علوم سياسية أو فقه سياسي على معنى أنهم

لم يصوغوها في شكل مواد، ولم يبوبوها ولم يعطوها الشكل القانوني؛ فنحن نوافقهم . وإن كانوا يعنون أن موضوع السياسة - أو كما سماه صديقي شافعي بك : الفقه السياسي - لم يدرس عند المسلمين ، فذلك ما نقف معهم فيه كل وقفة ، ونقعد لمن يريد المناقشة فيه كل مرصد ، فما الذي يعنون بالفقه السياسي ؟ إن كان شكل الحكومة فقد أفاض فيها علماء المسلمين كل إفاضة ، وقرروها من الناحية النظرية ، بل ومن الناحية العملية ، فما كان النزاع بين المهاجرين والأنصار ، وما كانت الشورى ، وقد انتهت بانتخاب عثمان ، وما كانت حروب علي ومعاوية ، وما تلا ذلك في العصر الأموي من ولاية العهد الإفرادية والثنائية في عهد العباسيين ، ما كان كل ذلك إلا تقريراً لشكل الحكومة وأوضاعها ، ومن يكون الخليفة ، وكيف ينتخب ، وهل الخلافة انتخاب أو وراثية ، إلى غير ذلك ، حتى إذا جاء عهد الدويلات التي تفرعت من جذع الدولة العباسية بدأ العلماء يقررون مركز الخليفة ومركز السلطان ومركز الأمير وأمير الأمراء ، ولعل هذا هو السبب في أنك بدأت ترى كتباً في الفقه السياسي تظهر في ذلك الوقت ، أحدها عرض له صديقي الشافعي بك ، وهو الماوردي ، أما الآخر فهو صنوه القاضي أبو يعلى الخنبلي ، ولعل المصادفة المحضة هي التي دعت لتأليف الكتابين في ذلك الوقت ، وإن كان من الممكن تعليل ذلك تاريخياً ، فعصر الماوردي وعصر أبو يعلى هو العصر الذي بدأ فيه السلطان محمود الغزنوي تكوين امبراطورية ، وكان فيه البويهيون سادة الموقف ، والخليفة تحت سلطانهم ، وذلك بدوره دعا الخليفة القائم بأمر الله وابنه لمحاولة تأسيس الخلافة العباسية على أساس قانوني تدعمه أسانيد قانونية وتحدد مركز الخليفة والسلطان ، وتشرح إمارة الاغتصاب أو الاستيلاء كما سماها الماوردي وأبو يعلى ، ومن ذلك الوقت بدأت تظهر كتب لا عداد لها في الفقه السياسي سنعرض لشيء منها فيما بعد .

وكان الأمر من قبل ذلك نصوصاً مشورة في كتب الفقه والحديث ، وبعبارة أدق في كتب التوحيد ، فقد كان كثير من العلماء ولا يزالون حتى اليوم يدرسونها على أنها جزء من التوحيد ، فقد دخلت نظرية الخلافة بثورة الخوارج تحت نطاق

العقيدة ، أكثر منها تحت نطاق الفقه والسياسية ، ولم يكونوا فى الواقع قبل ذلك بحاجة لإفرادها كما أسلفنا من اعتبار ، ولأن العلوم فى الواقع حتى ذلك الوقت لم تكن متميزة الموضوعات ، والعرب — كانوا كما كان اليونان من قبلهم — لم يميزوا بين الأخلاق والسياسة ، فكانت المادتان مادة واحدة ، ويكفى الرجوع للعصر اليونانى وتراثه ليعلم صدق هذه النظرية ، والفقه الإسلامى كله لا يمكن أن نغزل فيه الفقه عن الأخلاق ، بل إن كل نظرية فقهية يشع عليها مبدأ أخلاقى ، والدارس للفقه الإسلامى دراسة حقة لا أظنه ينكر ذلك .

وقد عرض الأستاذ «جب» لدراسة نظرية الماوردى السياسية ، وعرض الأستاذ خدا بخش لدراسة ابن خلدون ، وعرض الأستاذ الشروانى لدراسة الفارابى ، وعرض غيره لدراسة نظام الملك الطوسى والغزالى ، وقارن بينهما ، وقد نشرت كل هذه الدراسات فى مجلة Islamic Culture Review التى تظهر فى حيدر أباد ، وذلك حوالى سنة ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ .

وقد عرض الذى درس نظام الملك والغزالى الموضوع عرضاً حقاً ، وقارن بين الفقه السياسى الإسلامى والنظريات السياسية الأوروبية بما لا يدع مجالا لاتهام العرب أنهم قصروا فى تلك الناحية ، بل إن بعضهم حاول إرجاع كل النظريات الأوروبية للنظم الإسلامية ، وقد وصلتهم عن طريق أسبانيا .

والأستاذ الصديق شافعى بك قد ذكر عرضاً بعض الكتب ، ولكن ثمت كتب أخرى منها المطبوع ومنها المخطوط ، فقد كتب ابن جماعة فى الأحكام السلطانية ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكتب ابن حبيب البغدادى المتوفى سنة ٢٣٥ كتاباً منه نسخة مخطوطة فى المتحف البريطانى ، تضمن مسائل عابرة مما يمس موضوعنا ، وكتب الغزالى والطرطوشى ، وكتبت كل كتب الفقه والتوحيد .

وهناك كتب أخرى بعضها عربى والآخر فارسى لا أريد أن أُملِّ القارىء بذكرها ، وقد علمت أن لإمام الحرمين كتاباً باسم (غياث الأمم) فى هذا الموضوع أو لا تكنى هذه الكتب لتقرير فكرة عن المسلمين ، وفهمهم لشكل الحكومة

ونظام الملك بلسه ما تعرضت له هذه الكتب وغيرها ، مما يدخل في نطاق تنظيم القانون الإداري ، وتحديد أعمال السلطة التنفيذية ، مما لا أظن أن من تعرض لهذا الموضوع لم يره ، وقد ظهر أخيرا كتاب طبع في كبردج تعرض فيه مؤلفه لوظائف المحتسب مما لا يمكن أن يكون في عصور النور — كما يسمون عصرنا — خيرا منه .

فإن انتقلت من شكل الحكومة إلى تحديد الحريات التي يكلفها الدستور ، وواجبات السلطات بعضها لإزاء بعض ، رأيت في كتب الفقه والحديث عجا من وإن لم تخفى الذاكرة فأظن أن أستاذنا العلامة السهوري باشا في كتابه عن الخلافة عرض لمقارنة حجة الوداع ، وما حوت من أحكام تحدد الحريات بنظام ماجنا كرتا الانكليزي Magna Carta وكذلك بالحقوق التي قررتها الثورة الفرنسية ، ومن قبله عرض جمهرة المحدثين لخطبة الوداع وأوفوها شرحا وتبيانا . وقد لا نعدو الصواب إذا قلنا أنه لم تظهر وثيقة قررت ماقرته ، خطبة حجة الوداع حتى اليوم ولا أخذت وثيقة من العناية والدرس ما أخذته الخطبة المذكورة ، لأنها دستور لا يزال المسلمون يذكرونه بالفخر والإعجاب فما الذي بقي من الفقه السياسي ؟ وهل ترك المسلمون تحديد السلطات والصلاات بينهما ؟ ومن شك في ذلك فليدرس بعناية ( سياست نامه ) التي كتبها نظام الملك الطوسي وآراء الغزالي ، وهما في الواقع متلاقيان متقاربان ، وليرجع للمجلة التي أسلفنا الإشارة إليها ، إن لم يتسع له الوقت والفكر لدراسة الموضوعات في مكانها من كتبها : سياست نامه ، وكتب الغزالي .

وإن أراد صديقي الشافعي بك زيادة في ذلك ، فليرجع لكتاب أنا أعتقد أنه خير كتاب ظهر في موضوعه حتى اليوم ذلك هو كتاب « التراتيب الإدارية والامهالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية » التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية ، جزءان طبعا في فاس تحت ذلك العنوان الطويل ، وقد حاول فيه مؤلفه الفاضل ، إرجاع كل ما نراه من نظم اليوم ، لا لوقت تأسيس الدولة في عهد الخلفاء ومن بعدهم ، بل للعصر النبوي

نفسه ، ولم ينقل الكلام من غير سند ، ولم يرتجله ارتجالاً ، وإنما دعم كل ما يذكره بالدليل ، وفى الحق أن الرجل أفلح أيما فلاح ، ومن قبله كتب العلامة الخزاعى كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ولو أن الكتاب مخطوط إلا أن صاحب التراتيب ، وهو السيد عبد الحى الكتانى ، محدث فاس قد نقله وزاد عليه ، وما أظن شيئاً مما يتكلم عنه الناس اليوم ويخوضون فيه إلا وللوضوع أساس فيه فى العصر الإسلامى وما أريد أن أثقل شيئاً من خطبته فقد يحلو لقائل أن يهتمنى بالتعصب والإفراط فى تقدير ذلك العصر ولكنى أحيله على ذلك الكتاب ، إن لم يكن على موضوعه فى ثناياه ، فعلى الأقل للفهرس ولثبت مراجعه الذى ذكره فى مقدمته ، والكتاب بحمد الله مطبوع ، ومن السهل الرجوع إليه ، فإن لم يصدق الخبر الخبر ، فليصح باللائمة على من شاء .

وبالأمس القريب ، نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاباً فى الدبلوماسية الإسلامية ، فوق عشرات من الروايات المنشورة هنا وهناك فى هذا الموضوع .

ولعل كثيراً من القراء الكرام ، اطلعوا على كتاب الوحي المحمدى ، للسيد رشيد رضا ، ورأوا فيه الموضوعات السياسية التى قررها القرآن والسنة ، مما يعد دستوراً كاملاً ، لا ينقصه إلا أن يقال المادة واحد إلى كذا من المثين كما تصاغ الدساتير والقوانين .

إذن فما الذى ينقصنا من ناحية النظام السياسى وتقديره من الوجهة النظرية ؟ الحق أنه ينقصنا شيء مهم ، وهو فى الواقع كل شيء ، وهو البحث وراء ما تركه العلماء الأجلاء من تراث فى هذا الموضوع ، ثم تقديمه للناس مهندماً مهندساً منمقاً تحيط به هالة من حسن الطبع وجودة التقييم ، وذلك كل ما تمتاز به كتابات العصر الحديث .

وأنا جاد واثق أن فى سعة علم صديق الشافعى بك ، ما يجلى غوامض الموضوع الذى وعد بالكتابة فيه ، وقد وضعت بين يديه شيئاً من المراجع ، ووراء ذلك — إن أحب — عشرات وعشرات ، فليزدنا من علمه وفضله ، نزده من استماعنا وعنايتنا بما يكتب لينصف قوماً ظلموا ، ولعل الله أراد لهم المعدلة على يديه ، بوافى التقرير ، وجيد التحير .

## تعليق

رأت هيئة التحرير بالجملة أن ترسل إلى سعادة الأستاذ الكبير  
محمد الشافعي البان بك بصورة من مقال فضيلة الأستاذ الجليل  
الشيخ عبد العزيز المراغي لعله يرى أن يكتب في الموضوع شيئاً .  
وقد جاءنا من سعادته هذا التعليق : [ المحرر ]

تفضلت رياسة التحرير مشكورة فأطلعني على البحث العلمي المدقق لصديق العالم  
المحقق الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغي ، وإني لأبادر فأشكر له اهتمامه بالموضوع  
الذي عرضت له في كلبتي الأولى عن « الفقه السياسي عند المسلمين » وأحمد له تقديره  
للرأى الذى انتهت إليه ، وإن فى تلاقيه معى فى الفكرة لخير حافز لى على موالاة  
الكتابة فى هذا الشأن ، وإلى الاستزادة من البحث ، وما عرضت إلا الفكرة  
العامة من أن الإسلام قد عرف نظرية كاملة عن الحكومة وأوضاعها ، وأن فقهاء  
المسلمين نظروا إليها نظرة قانونية لا اجتماعية عامة ، أو بعبارة أخرى ان شكل  
الحكم والخلافة وأوضاعها عند المسلمين هو من النظم القانونية المحددة ، وأنها قد  
استبقت اتجاه القوانين الوضعية التى اتجهت نظرياتها الحديثة نحو الأخذ بذلك النظر .  
وإذا لم يكن المجال بذلك مجال تفصيل لتلك النظريات ومقارنتها بالأوضاع  
الدستورية الوضعية ، فلم أفسح فى تلك الكلمة محلاً للمراجع التفصيلية ، واقتصرت  
على الإشارة تاركاً التفصيل إلى التفريعات التى وعدت بعرضها فى مقالات تالية ،  
وإني أكرر شكرى لأخى العالم الكبير أن فتح لنا مزيداً من هذه المراجع ، فإنه  
إذا كان قد أتيج لى الاطلاع على بعضها فإن صديقى قد أوضح لى غيرها مما تفيد  
الاستعانة به .

وإذا كنت أشعر بأن هذا الموضوع قد أخذ قسطه من هذا العدد ، فإني  
أستمع حضرات القراء العذر فى إرجاء مقالتي الى فرصة قادمة إن شاء الله ؟

محمد الشافعي البان



# إمالي المرتضى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ أبي محمد العرجاوى

من علماء المعهد الدينى بالاسكندرية

أيسمع لى السادة الأماثل القائلون على تحرير مجلة (( رسالة الإسلام )) أن أرواح عنهم وعن قرائهم قليلا بجديت ليس من أحاديث الفقه ، ولا من أحاديث التقريب ، ولكنه حديث يتصل بالادب والشعر ، فانهم ليعلمون أن السائر فى طريق إذا جعل يغذ السير ويلح فيه ، فلا يستجم ، ولا يعرج عنه يمينا ولا شمالا ، فهو حرى أن يمل ؟

ولن يكون حديثى أدباً صرفاً ، ولا شعراً صرفاً ، وإنما هو أدب وشعر مزوجان بالعلم ، فإنى رأيت خير الأدب ما أعان على العلم ، وأوفى بلذة العقل .

\* \* \*

بكرت على منذ علقت بالادب والشعر شادياً ، كتاب جيد لعالم أديب لم أزل أدرسه وأقلبه وأتأمل ما فيه وأصاحبه فى غدواتى وروحاتى ، وفى حلى وترحالى ، وأتخذته جليساً آنس إليه ، وأقبل عليه ، حتى ألفتى بعد حين أكاد أحفظه ، وأدرك جميع مراميه ، وقد أثر فى منهجه وأسلوبه ، فإنى لشديد الإلف لها ، عظيم الحرص عليهما .

ولقد يعلم كل مكابد لصناعة ، أو مزاول لبضاعة ، ما هى النقطة التى بدأ منها

عهده ، وكانت فاصلة في توجيه حياته ، وما من أديب أو عالم أو مفكر أو مخترع أو مصلح إلا كان لشيء ما قد اعترض سبيله ، تأثير في نفسه ، وتوجيه لقلبه ، علم أو لم يعلم ، وقد كان لهذا الكتاب في حياتي الأدبية — إن صح أنني من عشاق الأدب — هذا التأثير ، وكان لمؤلفه العظيم الفضل الأول في ذلك التوجيه .

أما الكتاب فهو دأمالى السيد المرتضى ، وأما صاحبه فهو الأديب العالم ذو المجددين أبو القاسم على بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ابن أمير المؤمنين زوج فاطمة البتول على بن أبي طالب ، رضى الله عنهم أجمعين . وإنما ذكرت نسبه ليعلم الناس أى عرق من البيان والعلم دس إليه ، وأى دم طاهر نقي جرى في أعراقه ، فيجبهه كما أحببته ، ويدرسوه كما درسته .

وللكتاب طريقته الفريدة الفذة في الجمع بين العلم والأدب فهو مجالس املى فيها السيد مسائل متفرقة في تأويل بعض الآيات أو الأخبار النبوية ، أو أحاديث الأدب أو طرف الشعر ، فتراه يبدأ بأحد هذه فيصور لك معناها في عبارة واضحة جلية ، أو يوقفك على عقدة فيها تستحق السؤال والنظر ، ثم يمضى بك بعد ذلك في رحلة فكرية شاققة كل خطوة من خطواتها متاع لنفسك وروحك ، وغذاء لعقلك وقلبك ، فلا تنتهى رحلة منها إلا وقد تزودت زادا قيما صافيا متنوعا ، تشعر معه بالغبطة والسعادة والرضى .

وهذه الرحلات الممتعة التى سماها المؤلف د مجالس ، لأنه أملاها على تلاميذه في بعض مجالسه ، تصل عدتها إلى الثمانين ، وتقع في أجزاء أربعة متوسطة هي ما يعرفه الناس باسم دأمالى المرتضى .

وبين يدي الآن الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهذا هو المجلس التاسع من مجالسه الممتعة :

بدأه المؤلف بقوله :

د إن سأل سائل : ما وجه التكرار في سورة د الكافرين ، وما الذى حسن

لمعادة النفي لكونه عابدا ما يعبدون ، وأكونهم عابدين ما يعبد وذكر ذلك مرة واحدة يغنى ؟ وما وجه التكرار فى سورة « الرحمن » لقوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

هذا هو السؤال الذى طرحه على المجلس ، السيد المرتضى ، فأثار به معنى يراود النفوس ويدخلها وكثيرا ما يسأل عنه السائلون ، لا ترددا فى بلاغة القرآن وسمو بيانه ، ولكن تطلعا إلى كبرك أسرارہ ، وتذوق معانيه ، ولم يزل ذلك لونا من ألوان التطبيق البلاغى والأدبى تمرّن به الملكات ، وتشجذ العقول وتطمأنّ القلوب .

ثم بدأ الشيخ يلقي الجواب ، فتلخص أولا ما ذكره ابن قتيبة فى معنى التكرار وهو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما كان نزوله شيئا بعد شيء ، فكان المشركين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : استلم بعض أصنامنا حتى نؤمن بك ونصدق بنبوتك ، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « لا أعبد ما تعبدون » ، ثم غيبروا مدة من الزمان وجاءوه فقالوا : اعبد بعض آلهتنا واستلم بعض أصنامنا لنفعل مثل ذلك بإلهك فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

ولكن السيد المرتضى لم يعجبه هذا التوجيه فردّه وأبطله ، وتالله إنه لحق ، فما كان الكتاب الكريم لينخضع لمثل هذا التمزيق الذى يريد أن يمزقه به هؤلاء وأمثالهم ، وما كان هذا وجها يرتضيه الذوق الأدبى والبلاغى فى أسمى كتاب جاء مطابقا للبيان الشريف ، والأدب الرفيع . ولذلك رده السيد ، وانتقل إلى غيره فذكر أوجها ثلاثة كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة ، ولا تطيل بذكر الأوجه الثلاثة وإنما نذكر أولها فحسب ، وهو ما حكى عن ثعلب من قوله : « إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام : قل يأياها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى هذه الحال أيضا ؟ وقال من بعد : ولا أنا عابد ما عبدتم

في المستقبل ، ولا أتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون ، فاختلفت المعاني ، وحسن التكرار في اختلافها .

ثم مضى المؤلف في تعداد الأوجه الأخرى ، حتى إذا انتهى منها ، تحدث عن التكرار في سورة الرحمن ، فبين أنه إنما حسن التقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ، ووجه على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره . ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت كذا وكذا ، فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به ، وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم .

قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كلياً :

وهمام بن مرة قد تركنا	عليه القشعمان من النسور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما ضم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا خرجت مخبأة الحدود
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما أعلنت نجوى الأمور

وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة بن الحمير :

لنعم الفتى يا توب كنت ولم تكن	لتسقى يوماً كنت فيه تحاول
ونعم الفتى يا توب كنت إذا التقت	صدور الأعالى واستشال الأسافل
ونعم الفتى يا توب جاراً وصاحباً	ونعم الفتى يا توب حين تناضل
لعمري لآنت المرء أبكى لفقدته	بجد ولو لامت عليه العواذل
لعمري لآنت المرء أبكى لفقدته	ولو لام فيه ناقص العقل جاهل
لعمري لآنت المرء أبكى لفقدته	إذا كثرت بالملحمين البلابل
فلا يبعدنك الله يا توب إنما	لقيت حام الموت والموت عاجل
ولا يبعدنك الله يا توب إنما	كذلك المنايا عاجلات وآجل
ولا يبعدنك الله يا توب ، والتقت	عليك الغواصي المدجنات الهواطل

نفرجت في هذه الآيات من تكرار الى تكرار لاختلاف المعاني التي عدتها على نحو ما ذكرناه .

وقال الحارث بن عباد وكان قاضي العرب :

قربا مربط النعامة منى لقت حرب وائل عن حبال

ثم كرر قوله : « قربا مربط النعامة منى » في أبيات كثيرة من القصيدة بالمعنى الذى ذكرناه .

وقالت ابنة عم للنعمان بن بشير ترى زوجها :

وحدثني أصحابه أن مالكا أقام ونادى صبحه برحيل

وحدثني أصحابه أن مالكا ضروب بنصل السيف غير ككول

وحدثني أصحابه أن مالكا خفيف على الحداث غير ثقل

وحدثني أصحابه أن مالكا جواد بما فى الرحل غير بخيل

وحدثني أصحابه أن مالكا صروم كاضى الشفرتين صقيل

وهذا المعنى أكثر من أن نحصيه .

ثم استطرد السيد المرتضى من ذلك إلى لون آخر فقال : « وكما أنه فى الجاهلية وقبل الإسلام وفى ابتدائه قوم يقولون بالدهر وينفون الصانع ، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم ، ويستنزلون الرزق من غير رازقهم ، أخبر الله عنهم فى كتابه ، وضرب لهم الأمثال ، وكرر عليهم البيّنات والأعلام ؛ فقد نشأ بعد هؤلاء جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ، ويحقن بإظهار شعائره والدخول فى جملة أهله ، دمه وماله زنادقة ملحدون وكفار مشركون ، فنعمهم عز الإسلام عن المظاهرة ، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة ، وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ ، لأنهم يدغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع ، فعل من قد أمن الوحشة ، ووثق بالأنسة ، بما يظهره من لباس الدين الذى هو منه على الحقيقة عار ، وبأثوابه غير متوار . كما حكى أن عبد الكريم بن أبى العوجا قال لما قبض عليه محمد بن سليمان ، وهو والى

الكوفة من قبل المنصور ، وأحضره للقتل ، وأيقن بمفارقة الحياة :  
 لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة .  
 والمشهورون من هؤلاء : الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، والحدادون : حماد الراوية ،  
 وحماد بن الزبرقان ، وحماد عجرد ، وعبد الله بن المقفع ، وعبد الكريم بن أبي العوجا  
 وبشار بن برد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وصالح بن عبد القدوس  
 الأزدي ، وعلى بن خليل الشيباني ، وغير هؤلاء ممن لم نذكره ، وهم وإن كان  
 عددهم كثيراً ، فقد أقلهم الله وأذلهم وأرذلهم بما شهدت به دلائله الواضحة وحججه  
 اللامحة على عتولهم من الضعف ، وآرائهم من السخف ، ونحن نذكر من أخبار  
 كل واحد ممن ذكرناه وتهمة في دينه ، نبذة نوميء فيها إلى جملة كافية ، والذي  
 دعانا إلى التشاغل بذلك وإن كانت عنايتنا بغيره أقوى ، مسألة من نرى إجابته  
 وتؤثر موافقته ، فتكلفناه له من أجله ، مع أنه غير خال من فائدة ينفع عليها ،  
 ويُتأدب بروايتها وحفظها .

ومضى بعد ذلك يقص أخباراً عن ذكر ، ويعدد هنات ، فكان منها ما يروى  
 عن الوليد بن يزيد من أنه نشر يوماً المصحف ، وكان خطه كأنه أصابع ، وجعل  
 يرميه بالسهم ويقول :

يذكرني الحساب ولست أدري      أحقاً ما يقول من الحساب ؟  
 فقل لله ينعني طعامي      وقل لله ينعني شرابي

قال الشريف المرتضى : ويله من هذه الجراءة على الله وبلا طويلا ، وما أقدر  
 الله أن ينعيه طعامه وشرابه وحياته ، وما أولاه اللعين باليم العذاب ، وشديد  
 العقاب لولا ما تتم به المحنة ، وينتظم به التكليف ، من تأخير المستحق من الثواب  
 والعقاب ، وتبعيدهما من أحوال الطاعات والمعاصي .

ثم قال :

« وأما حماد الراوية فكان منسلخاً من الدين ، وزارياً على أهله ، مدمناً لشرب  
 الخمر ، وارتكاب الفجور ، وقال أبو عمرو الجاحظ : كان منقذ بن زياد الهلالي ،

ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحفص بن أبي ودّعة وقاسم بن زنتمة ، وابن المقفّع ، ويونس بن أبي فروة ، وحماد بن عجرد ، وعلي بن الحليل ، وحماد بن أبي ليلى الراوية وحماد بن الزرقان ، ووالبة بن الحباب ، وعمارة بن حمزة بن ميمون ، ويزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ المهلبى ، وبشار بن برد المرّعث ، وأبان اللاحق ، يجتمعون على الشرب وقول الشعر ويهجو بعضهم بعضا وكل منهم منهم فى دينه . . وعمل يونس ابن أبي فروة كتابا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه وصار به إلى ملك الروم فأخذ منه مالا . . وقال أحمد بن يحيى النحوى قال رجل يهجو حمادا الراوية :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه      ويقيم وقت صلاته حماد  
بسّطت مشافره الشمولُ فأنفه      مثل القدوم يسنها الحداد  
وأبيضٌ من شرب المدّامة وجهه      فيياضه يوم الحساب سواد  
لا يعجبك بزّه ولسانه      إن المجوس يرى لها أسباد

وكان حماد مشهورا بالكذب فى الرواية ، وعمل الشعر ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ، ودسه فى أشعارهم ، حتى إن كثيرا من الرواة قالوا قد أفسد الشعر لأنه كان رجلا يقدر على صنعة فيدس فى شعر كل رجل ما يشاكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم ، وهذا الفعل منه وإن لم يكن دالا على الإلحاد ، فهو فسق وتهاون بالكذب فى الرواية . .

وهكذا مضى السيد المرتضى فى طرائف تتلوها طرائف ، مما لا يتسع المجال لبسطه ، حتى ختم هذا المجلس بقوله عن بشار بن برد :

« وكان بشار مقدما فى الشعر جدا حتى إن كثيرا من الرواة يلحقه بمن تقدم عصره عليه من المجوّدين . . وأخبرنا المرزبانى عن محمد بن يحيى الصولى قال حدثنا محمد بن الحسن اليشكرى قال . قيل لأبي حاتم من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

ولها مبسم كغر الأفايحى      وحديث كالوشى وشى البرود  
نزلت فى السواد من حبة القلب      ونالت زيادة المستزيد

عندها الصبر عن لقاءٍ وعندى زفرات يأكلن صبر الجليلد

يعنى بشارا ، قال : وكان يقدمه على جميع الناس . ولما قال بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود  
صاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

بلغ المهدي ذلك ، فوجد عليه وكان سبب قتله .

أما بعد :

فهذا لون من ألوان الأدب الرفيع : أدب يفتح الشهية للعلم ، ويزجى إلى قارئه كثيرا من الفوائد التي تخرجه وتنقفه ، وتزيد في علمه ، وتربى ذوقه ، وتثير مواهبه ، وتنشط ملكاته ، أدب دسم كالطعام الجيد الذي يفيد منه الجسم ، وليس كهذا الأدب الصحفي الذي بلبنا به في حياتنا الحاضرة ، فأفسد الأذواق ، وقتل المواهب ، وتحيف حق اللغة في ألفاظها الرصينة ، وأساليها القويمة ، وحق الشدادة والمتأدين في أن يحدوا بين أيديهم مُثْلا تطبيقية عالية ، تكون لهم أسوة ، وتصلح لهم قدوة .

لقد استطاع السيد المرتضى أن يمنح تلاميذه في مجلس واحد ، قسطا من دراسة القرآن ، وقسطا من التاريخ الأدبي لجماعة من الأدباء والشعراء ، وشيئا عن تاريخ الملوك والخلفاء ، وأمثلة من جيد الشعر ، واستطاع أن يفتح عيونهم على ما كان يتصف به بعض أهل الرواية من انحلال أو تحلل في النواحي الشخصية والعلمية والدينية ، حتى يفتح أمامهم باب الحيلة والنقد الصحيح ، ويعودهم أن يقيسوا كل شيء بحساب ، واستطاع مع هذا كله أن يظفر بإقبالهم وشغفهم .

أفليس هذا الكتاب جديرا بأن نجول في مغانيه ، وتندبر في معانيه ، فنمتع به العقول والقلوب ؟ بلى ورب البيت ؟



# لَا تُنَابِرُوا بِالْأَلْفَابِ

للعلامة الكبير الأستاذ

الشيخ عبد الكريم بن جهمان

من أفاضل العلماء في نجد (\*)

قبل أن أكتب في هذا الموضوع يسرنى أن أرحب بهذه المجلة المباركة (رسالة الإسلام) وأن أزجى إلى أولئك نفر الذين فكروا في إنشائها أطيب الثناء ، فقد جاءت في أوانها ، فإن كثيراً من المفكرين من جميع أرباب المذاهب والنحل قد شعروا بضرورة التفاهم والتقارب في الآراء ، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أم من الناحية السياسية .

وقد علمتهم التجارب أن الطريق التي كانوا يسرون عليها لا تؤدي بهم عاجلاً وآجلاً إلا إلى الضعف والانحلال والاضمحلال .

فما لهم إذا لا يرفعون إلى داعي الوئام ، ويصيخون إلى « رسالة الإسلام » وقد نهجت منهجاً حسناً ، وسارت إلى غرض سام ، ودعت إلى حق واضح يعترف به كل صاحب فكر مستنير ، ويؤمن به كل منصف نحرير ؟

فسيرى أيتها المجلة المباركة في طريقك موقفة راشدة إن شاء الله ، تلبين شعث المسلمين ، وتقربين بين فرقهم ، وتوحدن كلمتهم في أناة ورفق « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

(\*) فضيلته مدرس أنجال حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد الرحمن

آل سعود - بالرياض .

بعد هذا أعود إلى الألقاب الشنيعة وآثارها السيئة في عداة بعض فرق المسلمين لبعض ، وتباعد كثير من الناس عن دعاة الحق والهدى بسبب ما رموا به من الألقاب الشنيعة ، وما أشيع عنهم من الأعمال التي تخالف ما درج عليه جمهور الناس وألفوه .

فالناس — كما يقول المثل — أعداء ما جهلوا ، وهم لا يملكون الحواس التي يميزون بها بين الحق والباطل ، وليس لديهم إلا مقياس واحد هو ما ألفوه ودرج عليه الآباء والأجداد فما وافقه فهو حق ، وما خالفه فهو باطل « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وأغلبية الناس يرون أن الحق مع الكثرة وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » وقوله : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

ونبز دعاة الحق بالألقاب المنفرة طريق مسلك منذ قديم الزمان ، وهو طريق من طرق الدعاية السيئة التي يتبعها غالباً الرؤساء الدينيون والسياسيون الذين يرون في انتصار الحق وانتشاره نقصاً من سلطانهم أو هضمًا من مراتبهم أو تقليلاً من معاشهم فيرسلون تلك الألقاب بين العوام ، فتتطلى عليهم وتروج فيما بينهم ، وتكون سداً منيعاً بينهم وبين فهم الحقائق ، ولذلك ورد في الأثر : « صلاح أمتي بصلاح العلماء والأمراء » أو كما قال .

ولما أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى قومه ودعاهم إلى الدين الحق ، وكانوا من قبل يلتقيونه بالأمين ، فلما دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، نفروا منه ودعوه مذمماً ، ولقبوه بأنه ساحر ، وبأنه شاعر ، وبأنه مفتر ، وأن ما جاء به ما هو إلا أساطير الأولين وخرافات السالفين .

وهكذا يعنون في اختراع الألقاب وإلصاقها به صلى الله عليه وسلم ، حتى ينفروا عنه سواد الناس ، ويحولوا بينهم وبين فهم ما جاء به ، فلا يسمعوا دعوته وإن سمعوها ، لم يستجيبوا لها ، ولم يحاولوا فهمها على وجهها .

ومن هذا القبيل ما يُرمى به أهل السنة والجماعة ، الذين يثبتون لله ما أثبتته

لنفسه من صفات السكّال ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، من صفات النقص  
فإن منافسيهم يرمونهم بأنهم مجسمه وبأنهم مشبهة وبأنهم حشوية .

فإذا سمع أكثر الناس هذه الألقاب ، نفر من رُمى بها ولو كان من أصلح  
الناس وأتقاهم . وقد قال أحد العلماء : —

فإن كان تجسيمياً ثبوت استوائه على عرشه إني لإذاً لمجسم  
وإن كان تشبيهاً ثبوت صفاته فن ذلك التشبيه لا أتلعثم  
وما ينسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله :

يا راكبا قف بالمحصب من مى واهتف بقاعد خيفها والناهض  
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ومن هذا ما رمى به شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، فإنه لما دعا الناس  
إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وترك البدع والخرافات ، تبعه كثير من الناس  
ولقيت دعوته قبولا حسناً ، لم يرض منافسيه ، فراحوا يرمونه بالألقاب الشنيعة  
وينسبون إليه كثيراً من الحوادث المشوهة ، فيسمون مذهبه بالمذهب الوهابي ،  
ويصفونه بأنه مذهب خامس ، وينسبون إلى أتباعه كثيراً من الأمور التي هم منها  
برآء ، مثل عدم محبة الأولياء ، أو أنهم لا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ،  
أو أنهم يلزمون من يدخل في الدين أن يكفر آباءه وأجداده ، وكثيراً من أمثال  
هذه الخزعبلات ، التي لا نصيب لها من الصحة ، وإنما حملهم عليها الحسد  
والخوف على مراكزهم . وإلا فإن الوهابية ليس لهم مذهب خاص ، لا في  
الأصول ولا في الفروع ، فهم في المعتقدات يرجعون إلى مذهب السلف الصالح  
المستند على جاء في القرآن الكريم ، وعلى ما ثبت من سنة سيد المرسلين نبينا محمد  
صلى الله عليه وسلم .

وأما في الفروع ، فهم يرجعون إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وهم لا  
يتعصبون لهذا المذهب ذلك التعصب المذموم ، بل من طريقتهم ، إذا رأوا في

مسألة أن مخالفهم أرجح دليلاً ، أنهم لا يأنفون من الأخذ بقولهم ، والانصياع إلى الحق ، فإن الرجوع إلى الحق أولى من التماهى في الباطل . وهم في هذا يقتفون أثر الأئمة المجتهدين في تعاليمهم ، فقد ورد عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال : « إذا قلت قولاً يخالف قول رسول الله ، فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول رسول الله » ، أو كما قال ، وقد روى عن كل إمام من الأئمة ما يقارب هذا الكلام في أن قولهم إذا خالف شيئاً من كلام الرسول يجب رفضه ، واتباع ما ورد عن الرسول .

وإن تعجب فعجب من أمة واحدة هذا قول أممتها ، وهي تدين بدين واحد وتعبد رباً واحداً ، وتتبع نبياً واحداً ، وتهتدى بكتاب واحد ، ثم يكون بينها هذا التفاوت العظيم ، وتتسع الشقة بين فرقها هذا الاتساع الشاسع ، مع أن دينها دين الفطرة الذي لا تعقيد فيه ولا غموض ، وكتابتها واضح وقد تكفل الله بحفظه وصيانتها من التغيير والتبديل .

ولكن هذا مصداق ما ورد عن الرسول من أن هذه الأمة « ستتبع سنن من كان قبلها من الأمم حذو القذة بالقذة » ، إلا أن علينا أن نسعى جهدنا في تقليل الخلاف ، وأن يكون رائدنا الحق نتبعه أياً كان مصدره .

والطريق الوحيد الذي تصلح به هذه الأمة هو الرجوع إلى كتاب الله ، وإلى ما صح من سنة رسوله « فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » ، فهل لنا أن نرجع إلى أصل ديننا ، وأن نستقي أوامره من مناهله العذبة الصافية التي لم يشبها شيء من أهواء النفوس ونزغاتها ، وأن نرعى بجميع الألقاب الشنيعة وراءنا ظهرياً ، وأن ننظر إلى حقائق الأمور دون ظواهرها ، وأن نعرف الحق لأنه حق بالبرهان ، لا لأنه قول فلان أو فلان ، وأن نعرف الباطل لأنه باطل بالبرهان لا لأنه قول فلان أو فلان ١٩ .

نرجو ذلك ونسأل الله أن يجمع كلمة المسلمين ، وأن يوحد صفوفهم وأهدافهم إنه على ما يشاء قدير ٢٠ .

# اقْرَاحْ عَلَى الْإِسْرَهْ

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز محمد عيسى

المدرس في كلية الشريعة

كان المسلمون الأولون في شغل عن الخلاف وعن المسائل الكلامية ، بما هم فيه من جهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وتوطيد دعائم الدين ، وكانوا يميلون إلى التفويض فيما يربهم من المسائل التي يحتاج ظاهرها إلى تأويل أو تفسير ، ثقة منهم بأن هذا الدين قد أنزله الحكيم العليم ، وما داموا قد آمنوا به إيماناً راسخاً ، ولا بسوا رسوله الكريم منذ نشأته وفي كافة أحواله ، فعرفوا فيه الأمانة والبعد عن التكلف والتصنع ، فليسوا في حاجة إلى الخوض فيما قد يثير بينهم نزاعاً ، أو يفتح عليهم أو على من تبلغه أقرانهم أبواباً من الشك أو التحير .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون من بعده ينفون عن الخوض في أحاديث القدر أو المنسبات التي لا سبيل إلى تحديد معنى بذاته فيها ، وإذا رأوا من تكلم في شيء من ذلك أعرضوا عنه أو انتهروه ، وبلغ من شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يعاقب على ذلك ، ويضرب بدرته من يقدم عليه ، وجاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فسأله عن الحساب قائلاً : كيف يحاسب الله جميع الخلق في وقت واحد حتى يظن كل إنسان أنه هو المحاسب وحده ؟ فلم يزد على أن أجابه جوابه المسكت المعروف : « يحاسبهم كما يرزقهم » ، فافتنع الرجل بذلك ، ولم يخض مع أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، في بحث فلسفي ، أو استطلاع تحليلي ، يعرف به كنه ما هنالك .

وكذلك كان شأن أهل البصر من علماء التابعين رضي الله عنهم ، وقد

اتخذت قولة مالك بن أنس رضى الله عنه في الرد على من سأله : كيف استوى الله جل جلاله على العرش ؟ مبدأ من مبادئ الإيمان الصحيح في كل ما ورد به الكتاب والسنة من المتشابهات ، واقعد بها قوله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، واخرج أيها السائل ، فهذا المبدأ هو الصراط المستقيم في كل ما يعترضنا عما لاندرك حقيقته ، وما علينا إلا أن نؤمن بما جاء فيه عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، ونكف عن التزيد فيه أو محاولة إدراك كيفيته .

من هذا يتبين أن المذاهب الكلامية لم يكن لها وجود في العهد الأول للسليدين ، وأنها لم تنشأ — حين نشأت — كاملة في جميع أبوابها ومسائلها وأدلتها وتفصيل الكلام فيها ، وإنما نشأت في أول الأمر عن سؤال أو بحث كهذا الذى أشرنا إليه ، وقد وجد ذلك من يستمع إليه ، ويناقش فيه ، ويكون له رأيا عنه ، وتعدد ذلك في المجالس العلمية ، واستفاض بين العلماء ، فوجدت آراء انحاز إليها بعض الناس ، وخالفها آخرون ثم أخذوا يتبادلون الجدل ، فيفضى بهم إلى وجوه جديدة من الخلاف .

وهذه المذاهب كسائر الأفكار والآراء تتطور على الزمان ، ويصحبها التغيير أو التعديل بالزيادة أو النقص ، أو الشرح أو البيان على أيدي رجالها المتابعين جيلا بعد جيل ، فلو أننا وازنا بين مذهب من المذاهب في أول نشأته ، وبينه بعد مرور قرن أو قرنين عليه مثلا ، لوجدناه يتعد كثيرا عن أصله ، ويضاف إلى آراء الأولين فيه قيود أو تفسيرات ربما جعلته مذهبا جديدا ، وربما ضيقت نقط الخلاف بينه وبين غيره من المذاهب .

وكما يحدث التطور في المذاهب والآراء على هذه السنة ، يحدث أن ينقرض بعض المذاهب فلا يبقى له أتباع في أى بلد من البلاد الإسلامية ، أو أن يبقى له أتباع ينتسبون إليه لمتسابا اسميا جغرافيا لأنهم لا يدركون منه قليلا ولا كثيرا ولكنهم ورثوا الانتساب إليه عن آبائهم ، كما ورثوا أموالهم وديارهم وألقابهم وتقاليدهم ، ومع ذلك يبقى هذا المذهب في الكتب التى تحدثت عنه ، ووصفت

مبادئه وأصوله ، فإذا اطلع عليها أحد من الناس ، حكم على الحاضرين المعاصرين بأحكام هذه الكتب على آباءهم وشيوخهم ومفكرهم ، دون أن يلاحظ التطور الذي حدث أو أن يسائل نفسه : هل ظلت هذه البلاد أو هذه الطوائف على قديمها ، فلم تتحرر منه ولو بعض التحرر ، ولم تزد فيه أو تنقص أو تعدل ؟

ثم إننا نجد الطائفة الواحدة تتنوع إلى طوائف ، وتفترق إلى فرق ، فأهل السنة مثلاً أشاعرة وماتريدية ، وعلماؤهم في كل فرقة من هاتين قد يختلفون فيما بينهم ، وقد يشذ بعضهم عن رأي الآخرين في مسألة ما ، وقد يعتق في خصوص قضية من القضايا رأياً يماثل رأي الذين يخالفون هذا المذهب . وقل مثل ذلك عن الشيعة ، فإن لفظ « الشيعة » قد حُمِّل على مرور الزمان واختلاف المواطن والسياسات دلالات مختلفة ينطوى تحتها الإمامية والزيدية ، كما ينطوى تحتها القرامطة والباطنية والإسماعيلية وغيرها مما تكفلت بذكره كتب الفرق . فإذا أخذنا أى موضوع من الموضوعات الكلامية ، بالفكرة العامة عن الشيعيين أو السنين ، ولم نحدد أى فرقة من فرق هؤلاء أو أولئك نريد ، فإننا نقع في الخطأ ونسند إلى فريق مقالات الفريق الآخر ، ولعلنا نأتى إلى بعض الفرق الميتة التي انقرضت وذهب أربابها فنحكم بها على الفرق الحية الحاضرة التي لا تشارك الميتة إلا في الاسم العام ، بينما تخالفها في كثير من الأصول والتفاصيل ، وقد نأخذ بقول عالم من علمائها شط فيه أو انحرف أو ضل السبيل فنحكم به على الطائفة كلها ونقول : « إذا كان فيهم من يقول كذا كذا فإنهم ولا شك قوم ضالون ، دون أن نحقق هل القائل بهذا القول يمثل فكرة القوم أجمعين أو لا يمثلها ، وهل قبل قوله ، واعتق رأيه عند طائفته أو رد عليه ؟

ثم إننا نجد الطوائف تنقسم إلى خاصة مفكرة ، وعامة مقلدة أو متعصبة ، وقد يرى الخاصة من أرباب مذهب آراء معقولة ربما يوافق عليها الخاصة من أرباب المذاهب الأخرى ولا يخالفون فيها ، بينما ترى العامة من أهل هذا المذهب نفسه يؤمنون بفكرة معينة ، ولا يقبلون فيها نقاشاً ولا جدالاً ، ويتوارثها

أبناءؤهم وأحفادهم ولا يحيدون عنها ، وليس من الإنصاف أن نقول : إن أمثال هؤلاء العامة أرباب مذاهب بالمعنى العلى ، وإنما هم قوم حادوا عن الطريق في ناحية ما ، وهم بحاجة إلى من يبصرهم بالصواب ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

من هذا كله يتبين أن الأحكام الارتجالية أو الجلية ، التي تعود الناس أن يحكموا بها على أرباب المذاهب والطوائف الحاضرة اعتمادا على ما في بعض الكتب القديمة ، أو استنادا إلى بعض الآراء الخاصة أو ملاحظة للرأى العام المقلد المتعصب ، إنما هي أحكام جائرة ، يجب أن يتنزه عنها أولو العلم والنظر ، ذلك بأن هذه الأحكام لم تستوف خطواتها الصحيحة ، ومقدماتها التي يجب أن تسبقها ، وقد أغفلت فيها سنة التطور والتغير والتبديل ، والانتقال الفكرى الذى يكون بين عصر وعصر ، وبين جيل وجيل .

لو أننا أردنا أن نعرف الحال العلمية والفكرية للجامع الأزهر فى عصرنا هذا مثلا ، فاستمددنا معلوماتنا عنه من كتاب ألف فى القرن العاشر ، يذكر علومه وكتبه ونظمه وأفكار رجاله وطلابه ، وقطعنا النظر عن الحاضر المائل بيننا الآن من شئونة العلمية والفكرية ، ونظمه التعليمية والإدارية ، فلا شك أننا بهذا نحكم حكما فاسدا لا يمثل الواقع ولا يتحدث عنه ، ولعل أهل الأزهر لو سمعوا بباحث عنهم يسلك فى تاريخ الأزهر هذا المسلك ، وينشر ما ينشر على أنه صورة للأزهر الحاضر لعجبوا ودهشوا ، وربما رموا هذا الباحث بأنه عاجب أو جاهل أو مخبول .

من الواجب إذن أن ندرس قبل أن نحكم ، وأن ندرس الجديد ولا نكتفى بالقديم ، وأن نعلم عن يقين ما الذى تحول وما الذى بقى دون أن يتحول ، وأن نتابع الأفكار من مصادرها الأصلية ، ومن معينها الذى تنبع منه . وأن نفرق بين ما يراه الخاصة الذين لهم حق التحدث باسم العلم والفكر ، والرأى والمذهب ، وبين العامة الذين ليس لهم إلا التقليد والتعصب وورثة الآراء دون وقوف عند ما يعطيه الدليل أو يهذى إليه البحث .



وهذا متناول لا يسمو إليه الأفراد ، ولا تصل إليه الجهود المبثرة ، والقوى المتفرقة . ولإنما السبيل إلى بلوغه : هو أن يُنشأ معهد للدرس والبحث ، على نمط المعاهد التي تنشئها الأمم الراقية لتبحث في ناحية من نواحي الصحة أو الاجتماع ، وتكون مهمة هذا المعهد — الذي يقصر على الباحثين والعلماء دون طلاب يتعلمون — أن يبحث في شئون الطوائف والبلاد الإسلامية المعاصرة من حيث الفكرة الدينية عقيدة وشريعة ومعارف كلامية ، وأن ينظر في علاقة أهلها بالمذاهب السابقة ، ومدى هذه العلاقة ، وأن يفحص ما عسى أن يكون عندها من مؤلفات ورسائل ومقالات ، وأن يتابع في ذلك الخاصة من أهل العلم والفكر ويعرف لم يختلف هؤلاء مع العامة فيما يتعصبون له ، ويجعل لكل طائفة وبلد سجلا خاصا يحوى جميع البحوث والمعلومات التي تتعلق بهذه الطائفة أو بهذا البلد ، ويحوى مقارنات بين الماضي والحاضر إلى غير ذلك من الدراسات العلمية المنظمة التي تصور لكل من يريد العلم الصحيح والحكم الصادق صورة الحياة الدينية في كل ناحية من نواحي الأمة الإسلامية ، ولدى كل طائفة تنتسب إليها .

بذلك يمكننا في سهولة ويسر أن نعرف أوجه الوفاق والخلاف على صورة محدودة ، وأن نصلح ما أفسده الدهر ، ونحقق ما زوره التاريخ وننشر في ربوع كل دولة ما عند الأخرى ، فيتبادل المسلمون الثقافة الصحيحة ويعرف بعضهم بعضا على حق . وتزول من بينهم الجفوة والقطيعة ، ويأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التي لا يصلح أمرهم إلا عليها ، ولا يستقيم شأنهم إلا بها .

وإن هذا المعهد ليجتاح إلى قوة ثابتة متركزة لها إشراف ديني ومركز ثقافي ، ومال ضخم ، وصلات متوثقة بالعالم الإسلامي ، ومقام كريم بين أهله ؛ لأن ذلك كله مما يعين هذا المعهد على النجاح في فكرته ، والقيام بها على وجه مشر ، ويفتح الآفاق ويدلل الصعاب أمام رجاله ، في بحوثهم وفي رحلاتهم وفي مراسلاتهم .

وأعتقد أن الأزهر هو أولى الهيئات بإنشاء هذا المعهد العظيم ، وأنه خير من يعهد إليه بالقيام على هذه الفكرة الجليلة ، العظيمة الآثار ، فهل يكون ؟

# التَّارِيخُ وَالتَّقْرِيبُ

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

حملت إلينا «رسالة الإسلام» كثيرا من الآمال التى ينشدها — من زمن بعيد — كل مسلم غيور على دينه وعزته . ولإنا إذ نحيتها نرجو أن تكون عامل حياة وقوة للأمة الإسلامية ، ودعامة من دعائم وحدتها التى تعيد إليها عزتها ، وتهديها إلى الرشد فى شعاب الحياة وسبلها المختلفة .

وإنى لأشهد أن الأقلام الرفيعة التى دبحت صفحاتها ، قد أروت الظمأ ، ورسمت منهج الوحدة مستقيما غير ذى عوج . . . ولكن التاريخ . ! التاريخ صانع الشعوب ، وبانى الوحدات ، التاريخ الذى لجأت إليه الشعوب المتحضرة فى عمليات البناء والتوجيه والبعث فوصلت إلى ما وصلت إليه .

هذا التاريخ الإسلامى لا يمكن الإغضاء عنه فى التقريب ، إلا إذا كان هو المقصود الأول « بوحدة الثقافة » . فتاريخنا المدون ، خضع لكثير من عوامل الترغيب والترهيب ، فجاء مفرقا للجمع ، لا جامعا للشمل ، ولا أحسننى مغاليا إذا حملت التاريخ الإسلامى المدون ، وكتّاب التاريخ الأقدمين والمحدثين معظم التبعة فى الجفوة التى ظلت قائمة بين شعوب الإسلام ، هذه الجفوة التى تدفع المصلحين اليوم من أئمة المسلمين إلى محاولة التقريب بين المذاهب لتقرب الشعوب ، كذلك لا أحسننى مغاليا ، إذا قلت إن التاريخ الإسلامى ودراسته على أسس جديدة . بعيدة عن التعصب والزيغ كفيل بالتقريب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم . فإن كل من عانى دراسة التاريخ الإسلامى ، يجد أمورا جديرة بالنظر والتأمل ، سيما فى مواطن النزاع بين السلف الصالح — قد ألبست غير ثيابها أو

غطيت — عن قصد أو عن غير قصد — بغطاء كثيف يحجب الحقائق في كثير من الأحوال . وفي اعتقادي أن ذلك إن لم يكن مرد التناحر بين المسلمين ، فهو أهم عوامل الفرقة والخلاف . ولنضرب لذلك مثلا :

### رياسة المسلمين بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام .

اختلف آراء زعماء الصحابة فيمن يلي إمرة المسلمين بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فذهب أغلب الأنصار بآدى الرأي ، إلى أنهم أحق بالامرة ، ثم رجعوا إلى رأى زعماء قريش الذين قالوا بأولوية قريش ؛ وظل سعد بن عباد ، زعيم الأنصار من بنى الخزرج مقبلا على رأيه وأقسم ألا يبايع الصديق ، « حتى يناجزهم بأهل بيته » . « ولو أنه يجد القوة لحاربهم حتى ينتصر أو يموت فيعلم حسابه عند ربه » ، وذلك لأن سعدا رضى الله عنه لم يقتنع بما اقتنع به غيره من الأنصار وتبعه في ذلك أهل بيته مجاملة له أو عن رأى . وظل سعد هكذا أمة وحده . لم يبايع لأبي بكر ولا لعمر من بعده . حتى قتل في عهد عمر قتلة يحوطها شيء من الغموض — فمات وليس في عنقه بيعة لإمام على حد تعبير المحدث ابن كثير . ومع ذلك كله . لم يحكم — أبو بكر ولا عمر ولا غيرهما من الصحابة والتابعين حتى الساعة التي نحن فيها — على سعد بن عباد بكفر أو الحاد أو مروق من الدين ، واستقر عند الجميع أن سعدا من ذوى الآراء الذين لا يترجعون عن رأى لهم بغير حجة ظاهرة واقتناع بـين ، لا سيما والخلاف على أمر سياسى — هو إمرة المسلمين . وهو لا يتعلق بأصول الاسلام حتى يكون الخلاف فيه . خلافا في الدين ، وداعيا للتنازع بالردة أو الكفر — بين المسلمين .

سلم الأنصار إذن بإمرة المهاجرين واتحدت كلمة المسلمين . ولكن ككتاب التاريخ قالوا : إنه لم تكد تسلم إمرة المسلمين للمهاجرين حتى اختلفوا . فالكثرة قالوا : إنها في قريش عامة دون تخصيص . وقال الهاشميون انهم اهلها وأحق المسلمين بها . ثم رووا لنا في موقف شيخ بنى هاشم على بن أبى طالب رأيين . أحدهما : أنه امتنع عن بيعة أبى بكر زمنا ما ثم راجع نفسه وبايع لأبى بكر قائلا : « كنا نرى لنا في الأمر حتما ، وثانيهما : أنه لم يمتنع بل بادر إلى بيعه أبى بكر .

ومهما يكن من أمر نقد بايع على لآبي بكر. وسلمت وحدة المسلمين وذهب النزاع. وإذن فاختلاف الآراء على حكم المسلمين أو إمرتهم أو الخلافة كما سميت، كان خلافا عاديا في وجهات بين الانصار والمهاجرين، ثم تاب الانصار إلى رأى المهاجرين مختارين لا مكرهين فذهب الخلاف ولم يبق إلا سعد بن عباد مصرى على رأيه غير متم فى دينه وعقيدته، وخالف على أو لم يخالف وبايع للصديق راضيا، وبذلك سلمت وحدة الامة من خلاف عابر لا صلة له بأصل من أصول الاسلام. وهو خلاف يحدث بين زعماء الفكر والسياسة فى البلد الواحد فى مختلف العصور، ابتغاء الصالح العام للأمة. وهو شبيه باختلاف الاحزاب السياسية على الوسائل فى الوصول إلى هدف متفق عليه فى العصر الحديث. أو اختلاف العلماء فى الفروع الفقهية اختلاف رأى لا اختلاف دين، لا إثم فيه ولا تريب على أحد.

هذه المسألة بالذات «مسألة الخلافة» وهى من أمهات المسائل التى فرقت وحدة الامة. أو هى أم مسائل التفريق قد عولجت فيما بعد — فى عصر التدوين والتفرق والتعصب الجنسى وضعف وازع الدين فى قلوب المسلمين — علاجا يوحى إلى القراء بانقسام المسلمين انقساما دينيا خطيرا حول «الخلافة» ثم صبغوا هذا الانقسام بصبغة عقيدية ظللوا بها السابقين الأولين من المهاجرين والانصار، وولدوا الروايات لتبرير ما زعموه خلافا فى الدين، وقالوا: إن التشيع لآل البيت ظهر فى المدينة بمجرد موت الرسول وجعلوا للشيعة إذاك وجودا مذهبيا، وفاتهم أن المسلمين جميعا شيعة للرسول منذ بعث ولآل بيته؛ وتحذثوا عن إمرة المسلمين (الخلافة) وهل هى جزء من الدين وركن من أركانه. أو هى أمر يقره الدين ويقتضيه وجود جماعة للمسلمين متميزة بكيان خاص وتشريع خاص، أو هى شئ لا لزوم له إطلاقا فى الدين. ثم فرقوا فى المعنى بين حكومة المسلمين (الخلافة) وحكومة غيرهم تفرقة تعسفوا فيها، وربطوها بالدين، وهكذا جروا الآراء المتأخرة التى انتجها عصر الضعف وفرضوها وفسروا بها الحوادث فى عصر لم يعرفها ولم تعرفه، وفاتهم أن الشورى. ووجود جماعة من ذوى

الآراء والعلم والخبرة . وحرية الفرد وعظم مسؤوليته عن الجماعة : كل ذلك ينتج خلافا في الرأي . لا في الدين ، ولا يصدع وحدة . وأن كل أمة متمدنة لا بد لها من حكومة . والحكومة في كل مكان وزمان هي الحكومة . وإنما تختلف بالمبادئ والدساتير التي تحكم بها وترعى بمقتضاها المحكومين .

وفي العصر العباسي الأخير استشرى الداء وعظم البلاء بقيام عدة أمراء للمسلمين . في بغداد وفي القاهرة وشمال إفريقيا ، وفي الأندلس . بل وغير هؤلاء من الأمراء المتغلبين الذين استقلوا بالأطراف في شرق الدولة وغربها . فاستبيح الوضع في الحديث والتاريخ . بل زُور التاريخ في ماضيه وحاضره ليوافق الآهواء المختلفة لأمراء المؤمنين المختلفين .

ثم جاء كتاب التاريخ المحدثون . فزادوا النار ضراما ، ولونوا الخلاف الذي زعمه الأقدمون ، بلون جديد تبعا لأسانذتهم من غير المسلمين فصوروا الخلاف تصويرا عصريا : فقالوا مثلا : حزب الأحرار ( عن الانصار ) ويرون كذا وكذا وهم أمعن في الديمقراطية من غيرهم . وقالوا : الحزب الأرستقراطي ( عن قریش ) ويرون كيت وكيت . وقالوا : الحزب الهاشمي المتحد وهو أمعن في الأرستقراطية إذ يرى لزعمائه حقاً إلهياً مقدساً . . إلى آخر ما قالوا ، وبهذا يفهمون الناشئة أن ذلك الخلاف الأول كان خلافا على المبادئ الجوهرية ، مع أنه إن صح وجود خلاف فهو على الوسائل لا على المبادئ ، فالدين واحد وأحكامه ومقرراته واحدة عند الجميع لم يقع فيها خلاف حتى الآن .

وقد لاحظت أن المؤرخين الأقدمين من الفرق المختلفة كتبوا ما كتبوه تحت ضغط التعصب ، وسلطان التفرق ، فتنازروا ، وجرح بعضهم بعضا ، واندفعوا في مخالقات للواقع اصطنعوا لها الأدلة ، ونسب كل منهم إلى الآخر ما يحرمه الدين بل يكاد كل منهم يفرض على أشياعه كراهية المخالفين لهم كراهية دينية ، ولعل بعض هؤلاء وبعض أولئك كانوا يتقاضون أجر تجريح المخالفين لحكامهم ، وثن الوضع والتزييف ، ولعل بعضا آخر كان معذورا أمام تعالى المخالفين ، فقد يعذر

المؤرخ السنّي إذا كان قد عاصر مثلاً بعض الطوائف التي انتسبت إلى الشيعة ، من هذه التي ذكرها المؤرخ الشيعي الجليل أبو الحسن النوبختي في كتابه « فرق الشيعة » ، فقد ذكر عشرات من الفرق ونسب إليها مقالات غريبة عجّبة علق عليها هو ، ووصف أصحابها في كثير من الأحيان بالكفر ؛ قد يكون هذا — سيما والعصر العباسي الأخير عصرهم ، وتنازع بالباطل ، خفّت فيه صوت الدين ، وهبط الوازع الديني عند الحاكمين والمحكومين ومعظم العلماء السلطانيين — وقد يعذر الشيعي بتعصب أمثال الإمام الهيثمي السنّي .

أما المحدثون من كتاب التاريخ فما عذرهم ، وقد تحرر العلم من سطوة الحكم وانقشعت السحب ، وبادت معظم الفرق المغالية ، ولم يبق الآن تقريباً غير السنّين والشيعة ، إلا أنهم إذا أخذوا عن الأقدمين دون ضبط وتثبت ، فلست أفهم لهم عذراً إلا إذا رجعوا إلى مكاتب المخالفين ، واستجلوا آراء علمائهم في كل ما يتعلق بالسياسة أو أصول الدين .

ولا شك أن دراسته التاريخ الإسلامي - سيما تاريخ صدر الإسلام - على هذا المنهج التعصبي الذي لا يقوم على أسس صحيحة هنا وهناك ، يسمم أفكار النابتة ، ويربّي البغض في نفوس المتعلّمين لمخالفهم في الرأي . بغضاً يستند إلى الدين فيقتصر في النفس مآقر فيها الدين ، بينما هم يبغضون مستعمري بلادهم المخالفين لهم في أصل الدين وجرثومته . والجنس واللغة ، بغضاً توحى به اعتبارات وطنية ، وسرعان ما يزول بزوال الاستعمار ، وقد تنبه المستعمرون إلى هذا فأذكوا نيران الخلاف بين طوائف المسلمين ، وابعدوا فيما بينها بعداً قطع كل الصلات .

لست أدري كيف استقام هذا المنهج قديماً وحديثاً ، في الوقت الذي نجد فيه سلوك الأئمة الأخيار من رجالات الإسلام يرفضه ويأقضه ، ففقد ساد بينهم التعاون على البر والتقوى ، ونشر كلمة الله في ربوع الأرض دون تنازع أو اتهام ، فهل لدى إنسان أن مسلماً منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى الآن طعن في دين سعد بن عبادته لخلافه لإبي بكر وعمر ؟ أم لأن عتب سعد لم يكن في كثرة نسل

على بن أبي طالب ، ولأن سعداً لم يبارز الخلفاء على « الخلافة » ، ومات قبل الفتنة الكبرى طويت صفحته من الخلاف ، حتى لا تكاد جمهرة المسلمين يعلمون أنه خالف أباً بكر وعمر ، ومات وليس في عنقه بيعة لإمام .

ونظراً لأن على بن أبي طالب أعقب كثيرين من التابعين الطموحين إلى الرئاسة ، ولأن إمرته للمؤمنين بعد عثمان حُفَّت بها الفتن ، اصطنع خلافة للأئمة الأولين ، وألبس لباساً عقدياً أدى إلى ( إينداء ) الثلاثة الخلفاء الراشدين السابقين عليه ، ليشير ذلك قوماً من أنصارهم فيدفعوا عنهم ويتهموا غيرهم بمثل ما اتهموا به ، وغاب عن الجميع أن الخليفة الرشيد على بن أبي طالب كان خير معوان لأبي بكر وعمر وعثمان ، لم يعرف عنه اتهام لهم في دينهم أو سياستهم ، وأن علياً ليس أقل من سعد بن عباد فلو أنه رأى رأياً غير رأى الجماعة لأصر عليه كما أصر سعد على رأيه على الأقل ، ولكنه رأى مصلحة الاسلام والمسلمين في البيعة فبايع ، ثم في أى زمن ؟ في عصر بلغت العاطفة الدينية فيه أوجها ، والقوم جميعاً يعرفون مكانة على من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجهاده في سبيل الله مما يرجح لدينا أن علياً لو خالف لوجد الانصار كثيرين والأعوان كثرة في كل مكان ، وأن الأمر كما قال سيدنا زيد بن علي زين العابدين « إن الخلافة فوضت لأبي بكر لمصلحة وأوها ، وقاعدة دينية راعوها من تسكين نائر الفتنة وتطبيب قلوب العامة فإن عهد الحروب النبوية كان قريبا وسيف أمير المؤمنين ( على ) من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب التارك كما هي — إلى أن قال : فكانت المصلحة أن يتموم بهذا الشأن من عرفوا باللين والتودد والسبق في الاسلام والقرب من الرسول ، ولم يكن أحد أقوى على ذلك من أبي بكر ، وكما يقول الإمام ابن أبي الحديد في مؤاخذته للسابقين من السنيين والشيعة : « ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه واجترأه ، ولقد كان في فضائل على الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغنى عن تكلف العصية لهما ، فهل نستطيع القضاء على هذا التعصب في دراسة التاريخ والتفرغ الى اجتثاث أصل البلاء ؟

الحق أن مرد البلاء كله في اختلاف المسلمين ، يرجع إلى غير المسلمين أولاً ، وإلى غفلة المسلمين ثانياً ، ويفصح لنا عن ذلك قول الإمام ابن الجوزي في المنتظم : « لما جاء النبي وقهر الاملاك ، وقمع الإلحاد ، اجتمع جماعة من الثنوية والملحدون ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين ، لا شك أن جميع فرق المسلمين تبرأ منهم ، فأعملوا رأيهم وقالوا : ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومخرقوا على أمهم وأعظم الكل علينا بليته محمد فانه نبغ بين العرب العظام ، وخدمهم بناموسه ، فنصروه وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، وأخذوا بمالكنا وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه . ومنهم مقبل على كسب المال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاهي ... وقد ضعفت أبصارهم ، ونحن نطمع في إبطال دينهم إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم ، فليس إلا إنشاء دعوة والانتماء الى فرقة منهم لنستعين بهؤلاء على إبطال دينهم ، وإذن فهذا هو السر فيما أحيط به تاريخنا ، وهو السر في إظهار خلاقات الرأي العادية على أنها اختلاف في الدين .

وهكذا ترون الى أي حد ساهم التاريخ وكتابه القدماء في القطيعة بين المسلمين وسيظل هكذا عامل تفرق ما دامت دراسته قائمة على هذا المنهج التعصبي الذي يجافي الحقيقة والواقع ، وما سيطرت عليه أهواء أرباب الأهواء البائدة ، فأى خير تقدمه للمسلمين لو أننا درسنا التاريخ دراسة تتجنب الى الحق والتقريب بعيدة عن التعصب المذهبي ، وزيف الملقين من ذوى الأهواء الأقدمين والمحدثين ؟ فهل لنا أن نعيد كتابة تاريخنا بعد تخليصه من الشوائب ، وتنقيته من أكدار الوقيعة ولوثة العصبية وتحرى في كتابته الدقة وفق أصح أو أرجح ما يتفق والحقيقة التي أعتقد أنها ستجمعنا على كلمة سواء ؟ وهل آن لنا أن ندرس علوم الشيعة ، ويدرس الشيعة علومنا على منهج علمي صحيح لا تحيز فيه ولا محاباة ؟ أرجو أن يهتم المسؤولون بذلك فإنهم لو فعلوا ما يوعظون به لكان قاضياً على أسباب الكراهية والنفرة والجفوة بين المسلمين ، ولا استطعنا أن نوجد عند الأخوة المتعلمين روحاً من المحبة والآلفة ، وننظر كل الى الآخر نظرة إسلامية لاطائفية « والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، »



## مِنْ أَحَادِيثِ الْجَدِّ فِي بَارِيسِ

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر

وللطلاب العرب في باريس حياة غير حياتهم في الشرق والغرب من بلاد الإسلام ، حياة تقوم على تصوّر آخر لمفهوم « الإنسان » ، على غير ما نعرف من « مفهوم » ، هذه الكلمة في بلادنا .

وللطلاب هناك أيضاً أحاديث منها الجاد ومنها الهازل ؛ منها ما يدور حول العلم والحرية ؛ ومنها ما يدور حول اللهو واللعب ؛ ومنها ما يدور على المقارنة بين الحياة التي ألفناها في شرقنا المنكوب ، والحياة الصحيحة الأوضاع التي يجب أن نحياها ، الحياة التي ينال الفرد فيها حقه كاملاً في غير ماعنت ، ويؤدي واجبه على أحسن ما يكون في غير ضجة أو إعلان .

وهذه الأحاديث لا تدور كما يجب أن يكون ، في ناد يضم هؤلاء الطلاب . وكيف تريد أن يكون لبلد عربي دار تضم أبناءه في مدينة باريس الجامعية ، ومصر بميزانيتها الضخمة لم تفكر جدّاً حتى الآن في شيء من هذا ، وأبناءؤها الطلاب هناك يعدون بالمئات ؟ هذا ، بينما بلد صغير كجمهورية كوبا ، لها دار من أنعم الدور في هذا الحى ، وليس لها من الطلاب إلا طالب واحد يباريس ، وهذه الدار وسعتني ونفرا من الإخوان منذ حللنا باريس حتى عودتي منها ، ولا تزال تضم خمسة من المواطنين .

إن داراً لطلاب مصر في المدينة الجامعية ، حيث يعيش آلاف وآلاف من

الطلاب من كل جنس ودين ، يكون لها في باب الدعاية لمصر والعرب والإسلام أثر أكبر بلا شك ، وأفضل عائدة من كثير من دورها الرسمية في أوروبا . هذه حقيقة لا ريب فيها ، شغلنا الحديث طويلا فيها هناك ، حتى امتد كتبت أنا واثنان من إخواني بذلك رسميا للقاهرة مباشرة ، ثم للسفارة المصرية بباريس . ولكن من يسمع ؟

والطلاب المصريون في باريس ، وإن كان لكل منهم نهجه الخاص في فهم الحياة ، يسعى بعضهم للقاء بعض ، ويجتمعون جميعاً جماعات حين تنوب نائبة أو يحدث حدث في مصر أو في غير مصر من بلاد العروبة والإسلام : يجمعون ويتناقشون في الأمر ، حتى يخلص لهم الحق أو ما يرونه حقاً ؛ وحينئذ يُبحث كل منهم أنه سرى عن نفسه ، وأرضى عاطفته الوطنية والقومية .

كم كان لنا اجتماعات ، وجدل وقرارات ، بخصوص فلسطين ! وكم أتلج منا الصدور ، وأحل فيها السكينة والثقة ببلوغ الهدف ، إعلان مصر — ممثلة في رجالها وكبرائها المسؤولين — الجهاد في سبيل فلسطين ، متضامنة في هذا مع بلاد العروبة جميعاً ! حينئذ كان كل عربي يفخر بجنسه ، وكان المصري خاصة يرى أن أمته في طليعة الأمم جميعاً في الشرق والغرب . ولكن ما كان أسرع زوال هذه الأحلام !

والآن أنقل لقراء رسالة الإسلام ، حديثاً من تلك الأحاديث التي كانت تدور بيننا . والأمر في هذا الحديث يتصل بـ وبزميل كريم فحسب ، ومداره شيء آخر غير فلسطين ومشاكل العروبة المعروفة عامة :

ذات مساء حيث الليل هادئ ساكن ، وقد أوى القوم إلى مضاجعهم يستريحون من نصب النهار ، إلا طالب علم أو طالب لهُو ، يدخل إلى هذا الصديق فأفرح للقائه كعادتي ، ظناً أنه جاء يشاركني ما أنا فيه من مُتعة روحية ، بعد أن أجهده من العمل ما أجهدني . بيد أني لا ألبث أن أتبين أنه جاء لغير ما قدّرت ؛ جاء لينزعني من هذا الجوّ الحالم العُلوى السعيد الذي كنت أحياء آتئذ ، ولينقلني إلى جو آخر إن يكن جداً وحزماً ، فإن له للوعة وألماً .

يبدؤني بهذه الأسئلة : هل نحن حقا خير أمة أخرجت للناس ؟ وهل ما نحن عليه من دين هو خير الأديان كما اعتدنا ان نقول ؟ وإذا كان الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضى الله لنا ، وكانت الأمة الإسلامية هي خير الأمم ، فلم يرضى الله لنا أن نظل قرونا طويلة طويلة دون الغربيين ، بل مُستعبدين لهم ؟ ولم لا يغيّر الله من أنفسنا حتى نكون حريّين بلطفه وعونه ، وحتى لا يظن الأجانب بجنسنا وبديننا الظنون ؟

هذه الأسئلة ونحوها تتوالى من صديقي دون أن أستطيع وقفها ، حتى ينتهي بما يسأل عنه ، وحتى يُرضى نفسه بالتدليل على ما يَعتلجُ في صدره من آراء . وبهذا تنتهي ثورته ويجلس في هدوء منتظرا ما عساي أن أقول ، وهو يرجو أن تعود إلى روحه الطيبة السكينة والاطمئنان إلى ما اختار الله له من دين .

نعم يا صديقي — هكذا بدأت الحديث معه — ويا أخى في الله وحافظ حق الوطن على القرب منه والبعد ؛ نحن خير أمة أخرجت للناس ، ولكن مادما نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونؤمن بالله حقا كما جاء في القرآن ، وما دما نعرف الحق ونعمل بما نعرف . وهذا الشرط الثاني — وهو عرفان الحق وبيان للناس ، أرضاها هذا أو أخضهم ، والعمل بما نعرف منه — هو لب الإيمان وأساسه ، وما لا قوام له إلا به .

ومن ثم نعرف أنه لا تناقض بين عقيدة أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضى الله لنا ، وبين ما نحن عليه الآن من هوانٍ لم يرضه الله لنا ، بل نحن الذين رضينا لأنفسنا ، وإليك أمرا واحدا فيه مقنع لنا الآن ، وفيه تفصيل بعض ما أشير إليه .

روى عن ابن عمر عن الرسول الحكيم أنه قال : « السَّمْع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وأكره ما لم يُؤْمَرْ بمعصية ، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . هذا حديث يجمع المسلمون على صحته ، ونخضع له جميعا ؛ ولكن خضوع علم ومعرفة ، لا خضوع عمل وتطبيق .

أريد أن أقول إنا نعرف الدين : أركانه ومبادئه معرفة نعتقد أنها تصل إلى اليقين ؛ ولكن عند العمل في مختلف ظروف الحياة ومشاكلها نسير على غير هذه المبادئ التي جاء بها الإسلام ، ونرى مع هذا أننا مسلمون . أى أن معرفتنا بالإسلام وأصوله هي معرفة بالقلب . لا معرفة تنتهى بالعمل ، وذلك فيما أرى ليس الإسلام وليس الإيمان . من الحق أن ندرك المعنى الكريم الذى ينطوى عليه قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر .

أو أن ندرك ما يدركه هؤلاء الغربيون من قول سقراط : إن الفضيلة هي المعرفة ، وكل معرفة لا تؤدي للعمل فليست في شيء من المعرفة الحقة ، ولذا ، فكل من لا يعمل بأصول الإسلام ليس مسلما أو مؤمنا حقا ، ليس مؤمنا كامل الإيمان . الإيمان يقين وعمل ، لا يقين فقط ؛ ومن هنا كان الإيمان يزيد وينقص كما جاء بذلك القرآن ، وكان تفاضل المؤمنين في الإيمان .

إنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق - كما يقرر الرسول - وهذا مبدأ تؤمن به جميعا ونعتقد أنه من أصول الدين ، ولا يمكن أن يقوم مجتمع سليم إلا به ، ومع هذا ، فإن كثيرا من إخواننا في الدين يرون - وربما نرى أحيانا معهم - أنهم مؤمنون حقا وأن إسلامهم لا يرتقى إليه الظنون . إن الواحد منهم ليصلى على أحسن ما تكون الصلاة ؛ ويصوم راضيا ما يلقى من جهد ومشقة احتسابا لوجه الله ؛ ويؤدى الزكاة ويتطوع بالصدقات سعيدة بذلك نفسه ؛ ثم يذهب لحج بيت الله الحرام خاشعا ، قد تجردت روحه من المادة وظلماتها ، وسمت إلى الملكوت الأعلى ، ويعود إلى أهله وقد تجرد - كما يعتقد - من ذنوبه وصار كيوم ولدته أمه . لكن الواحد من هؤلاء لا يخطر بباله ، مع ذلك كله ، أنه ينال من إيمانه حين يشارك بحكم عمله الرسمي في منح رخصة لبغى أو خمار مثلا . أو يشارك في ظلم ، أو يفض الطرف عن لائم آثم في حق وطنه ، أو يستر على سارق من مال أمته . غافلا هذا المسلم الطيب عن أنه بعمله هذا قد عصى الله ورسوله وأثم

إنما كبيرا ، إن كان فعل ما فعل عن غفلة ؛ وإلا إن كان فعله مُستحلاً له فقد مرق من الدين ، وخرج عن الإيمان باستحلاله حراما بنص الكتاب : وليس لهذا المسلم أن يتعلل بأنه يطيع رئيسه في ديوانه ؛ فإنه كما قال الرسول لا سمع ولا طاعة حين يؤمر المسلم بمعصية ، وكما جاء في حديث آخر : لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق .

وهنا بدأ صديقي تفرج أسارير وجهه ، وتزول حدة ثورته ، كما أخذت رغبته في الحديث تزيد وتزيد . فقلت له : على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد من المشاركة في منح الإذن لبغى أو ختار أو غير ذلك مما ضربته لك مثلا ، ولكن الأمر أخطر من هذا بكثير .

إن أوربا وإن يكن لها أسرها وفتنتها وعلوها بما وصلت إليه من علم وصناعة ؛ فلا ينبغي أن يخذعنا ذلك عن مسمو ما نعتز به من دين وقوى روحية لا يسعد العالم إلا بها ، لكن قوما من المسلمين كفتهم أوربا في هذه النواحي من الحياة ، فظنوا أن الغرب له العلو في كل شيء حتى في باب الشرائع والقانون .

من هذا الاعتقاد أتى هؤلاء القوم . لقد راح بعضهم يقتبس لنا من شرائعهم ويحمل من هذه المِرْقِ المختلفة التي يأخذها من هنا ومن هناك شريعة تُفرض علينا فرضا ؛ كما لم ير بعض آخر أى بأس في أن يدافع بهذا القانون المجلوب إن كان إليه الدفاع ، أو يطبقه في أحكامه إن كان إليه القضاء .

إن هؤلاء الإخوان في الدين ، بصنيعهم في ناحية التشريع أو الدفاع أو القضاء ، قد جعلوا - بلا ريب - الشرائع الوضعية في مرتبة أعلى من الشريعة الإسلامية التي تستند إلى القرآن والحديث . وإنه لا يستطيع إنسان أن يظلم نفسه بأكثر من أن يرى هذا الرأي ، وإن هذا لا يمكن أن يتفق ووصف المرء نفسه بالاسلام . ثم يا أخى هناك مثل أخرى لا نستطيع أن نعددها ولكن نعد منها ، تقع ونحن شهود ، ونعرف منها كيف نبتعد عن الإسلام من يوم إلى يوم .

وهنا قال صديقي : على رسلك الآن ، وحسبى اليوم ما سمعت ، ولعل الله يجعل لنا من أمرنا رشداً ؟

# مَاذَا تَجِبُّهُ نَوَاةُ الذَّرَةِ لِلْإِنْسَانِ

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

لقد ألقىت فى موضوع نواة الذرة أكثر من عشر محاضرات ، أولاها بعنوان « عالم الذرة » ، ألقيتها فى قاعة فيصل فى بغداد سنة ١٩٤١ ، وثانيها عنوانها : « من أخبار العلماء المحدثين » ، ألقيتها فى القاعة ذاتها سنة ١٩٤٣ ، والثالثة عنوانها : « الذرة » ، ألقيتها فى الجمعية الرياضية والطبيعية فى كلية العلوم بـ بصرى ، والمحاضرة الرابعة فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى قاعة الكيمياء ، وكانت عن الذرة والقنبلة الذرية ، وقد ألقيتها فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ، ولم أنشرها لضيق الوقت ، وأما المحاضرتان الخامسة والسادسة فقد ألقىت إحداها فى ٣ مارس سنة ١٩٤٦ ، بدعوة من جمعية المهندسين الملكية ، وعنوانها : « القوى الذرية والقنابل النووية » ، ذكرت فيها بإسهاب المتساويات النووية ، وقد أصبح يهم الكثير معرفتها والاطلاع عليها ، وأرجو أن تتاح الفرصة لنشرها قريباً ، والآخرى ألقيتها بدعوة من زملائى المهندسين فى الزقازيق ، وفى العام الماضى ألقىت محاضرة سابعة حول هذا الموضوع بعنوان : « القوى الذرية فى السلم والحرب » ، بدعوة من جمعية المهندسين بالإسكندرية ، وألقيتها فى كلية الهندسة بجامعة فاروق الأول فى ١٨ مايو سنة ١٩٤٨ ، ومحاضرة ثامنة ألقيتها فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، وهذه المحاضرة نشرها المجمع فى كتابه للتوثيق السنوى الثامن عشر ، ثم ألقىت محاضرة تاسعة فى كلية الهندسة بجامعة فاروق ، وأخرى عشرة بالجامعة

ذاتها في كلية العلوم ، وألقيتها عن : « دنيا النواة » في ٢ مايو سنة ١٩٤٩ ، وأخيرا ألقيت في الاسكندرية وفي جماعة الصداقة الفرنسية في ٣١ مايو الماضي ، بدعوة من رئيسها الدكتور حسين فوزى بك ، محاضرة باللغة الفرنسية عنوانها : « الطاقة الذرية ومستقبل المدنية » تحدثت فيها عن هذا الموضوع ، وخصصت بالذكر : الدور العظيم الذى لعبه العالم الفرنسى « جوليو كورى » ، وقرينته « إيرين كورى » ، كريمة مدام كورى المعروفة .

ولقد نشرت في مجلة الكاتب المصرى عدة مقالات عن الذرة ، كذلك خصصت مجلة رسالة الإسلام في عديدها السابقين مكاناً فسيحاً لبحث هذا الموضوع ، واليوم أكتب في هذه المجلة مقالى الثالث عن نواة الذرة ، وماذا تخبئه للإنسان ، وبهذا العرض لا تنتهى بحوثى عن الذرة ونواتها ، فقد أصبح موضوع النواة من المواضيع الهامة لمستقبل البشر ، ويرتبط بسلام العالم ورفاهيته ، لذلك سأتابع بحثه واستعراضه أمام أكبر عدد من مواطنى الأعزاء ، ومن قراء العربية لارتباطه بسلامتنا وسلامة البشر .

ولقد وضفت الذرة بأنها عالم شمسى صغير يتكون من شمس وسطى يدور حولها جسيمات صغيرة يسمونها الكترونات ، وقلت إن هذا العالم الشمسى من الصغر بحيث أن المليمتر الطولى يتسع لحوالى عشرة مليون من هذه العوالم ، ولما يقرب من مليون المليون من هذه الشمسوس ، ولعل وصفاً للذرة بأنها عالم شمسى يتكون من شمس وسطى هى النواة يدور حولها جسيمات كالكواكب ، تدور هذه حول نفسها وتدور حول النواة هو أول وسائل التبسيط فى هذا العرض ، فهذه الجسيمات سواء الموجود منها داخل النواة أو الدائر منها فى أفلاكها ليست جسيمات خفسب ، وإنما هى جسيمات وموجات فى الوقت ذاته ، فهى على حد تعبير « دى بروى » ، صاحب الميكانيكا الموجية وأستاذ الفيزياء النظرية فى السوربون ، جسيمات تستصحب أمواجاً ، وإنى لا أشرح فى هذا المقال الفكرة عند دى بروى ، كما لا أشرح هنا مبدأ « بولى » الذى يقرر أن الألكترون الدائر الحائر لا يمكن

وجوده في حالة كمّ معين ووجود غيره في حالة الكمّ ذاته ( انقد اتيت في مقالى السابق بشرح وجيز عن فكرة الكمّ عند « بلانك » ) ، بل سوف لا أشرح ما يسمى عدم التعيين عند « هيزنبرج » ، الذى يقول إننا لا نستطيع كما اعتدنا في الميكانيكا أن نعين موضع هذا السيار الصغير وسرعته في آن واحد ، فإن نحن حدّدنا موضعه فإننا لا نحدد سرعته إلا باحتمال معين ، وإن نحن حددنا سرعته فإننا لا نحدد موضعه إلا باحتمال معين ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نتكلم عن الموضع والسرعة لهذا السيار الصغير داخل المادة بالدرجة ذاتها من التعيين .

إنما أذكر ذلك حتى لا ننظر لهذا الكوكب الصغير نظرنا للأجسام التى اعتدناها من حيث هى أجسام مادية ومن حيث التعرف على مواضعها وسرعتها ، وهكذا نبتعد عن بعض النقط العويصة مكتفين بالإشارة إليها .

\* \* \*

ونعود الآن لدراسة هذه النواة داخل عالم الذرة ، فقد ذكرنا أنها تتكون من نوعين اثنين من الجسيمات ، النوع الأول هو البروتون وهو نواة ذرة الهيدروجين وشحنة هذا الجسيم موجبه ، والنوع الثانى اسمه « النيترون » ، ولا شحنة له ، وكتلته تساوى كتلة البروتون تقريباً . ولأهمية هذا الجسيم « النيترون » الذى يلعب حالياً أكبر دور على مسرح العمليات النووية وطاقاتها الأتلية ، التى يسعى العلماء إلى فك عقالها ؛ أذكر عنه بعض المعلومات الهامة :

ظل العالم يعتقد خطأ أن الذرة مكونة من بروتونات وألكترونات دون معرفة لوجود هذه النيترونات ، فهى لم تُكتشف إلا سنة ١٩٣٠ ، ولا نذكر هنا لماذا طال الزمن على هذا الخطأ فى معرفة تركيب الذرة ، والواقع أن التأخير فى الكشف عن النيترون كان مبعثه أن هذا الجسيم عديم الشحنة ، ولقد كان « لبوت » و « بكر » ثم « لآيرين كورى » و « جوليو » وأخيراً « لشادويك » ، الفضل فى الكشف عن النيترون ، وإنه لما يوجب الأسف أن الكثير من الكتب والمراجع ، أهملت ذكر بعض هؤلاء العلماء الخمسة عند التحدث عن الكشف عن



النيترون ، أو ذكرت بعضهم وأغفلت البعض الآخر ، وإني ألخص حقيقة الأمر في فقرات ثلاث ، ويتفق معى مؤلف د جريمزيل ، في جزئه الخامس :

(١) كشف بوث وبكر وجود النيترون إلا أنهما اعتقدا أنه الأشعة المسماه أشعة جما .

(٢) أكدت إيرين كورى وزوجها جوليو بعد ذلك بقليل أن طبيعة هذه القذائف جسيمية وليست إشعاعية .

(٣) اعتبر شادويك عام ١٩٣٢ أنها نيترونات وأعطاهما هذا الاسم .

\* \* \*

وللنيترون أهمية خاصة كقذيفة موفقة في البحوث النووية ، ذلك أنه ينما تصلح القذائف الأخرى - كالبروتون (وهو شمس أو نواة ذرة عنصر الهيدروجين ، وللعلماء وسائل في فصل هذه الشمس عن عالمها الذرى واستخدامها كقذيفة ) ، وجسيم الفا ( وهو شمس ، أى نواة ذرة الهيليوم العنصر الثانى في جدول العناصر ) - لتحويل ١٥ عنصرا من عنصر إلى عنصر ، فإن النيترون يصلح لقذف جميع العناصر وعددها ٩٦ وتبدأ من الهيدروجين ، وتنتهى بعنصر الكوريوم - نسبة لكريمة مدام كورى التى كشفت - ما عدا تسعة عناصر لا تتأثر بهذه القذيفة ، ومن هذه العناصر التسعة الكربون والأكسجين ، وطالما فكرت أن هذه الحقيقة قد تكون فى صالح الخليقة ، إذ أن أولها مكون هام للبادة الحية ، وثانيهما عنصر هام لاستمرار الحياة فيها .

موظفرت الدراسات عن النيترون ، وأضحى له فى الجامعات متخصصون يكونون ما نستطيع تسميته مدارس أو حلقات النيترون ، ولعل أهم هذه الحلقات تلك التى كان يرأسها فى جامعة روما العالم الإيطالى الشهير د أنريكو فرمى ، المقيم الآن فى أمريكا ، ولقد سمعت هذا الرياضى سنة ١٩٣٤ يستعرض أمام علماء السوربون بحوثه العلمية ، وكنا نعد أهمها فى ذلك الوقت غريباً عن المنطق السليم ،

ذلك أنه كشف أن للنيوترون البطيء أثراً على النواة أكبر من أثر النيوترون السريع ، ومن الصعب أن نتصور في ذلك الوقت أن لسلسلة من الأحجار البطيئة أثراً أكبر في هدم حائط عن سلسلة متساوية في عددها ، وفي كتلة كل منها من الأحجار السريعة .

وقد لفت د فرمى ، بهذا نظر العلماء المعاصرين الفرنسيين أذكر من بين الحاضرين أستاذى الكبير د كوتون ، الذى كشف مع المرحوم د موتون ، الألترا ميكروسكوب ، والذى ضغط معه الذرة ، وأذكر من بين الحاضرين المرحوم د شارلز فابرى ، الذى له فى قياس سرعة طرفى قرص الشمس بحوث معروفة ، ذكرها حديثاً فى مصر العالم الفلكى جورجيو أبتى مدير مرصد فلورنسا بإيطاليا ، بل أذكر المرحوم د جييه ، كذلك د إيرين كورى ، و د يوليو ، و د جان بيران ، وكثيرا غيرهم ممن أجلهم ، ومن عاشوا لزمانهم ويعيشون أبداً لغير زمانهم .

\* \* \*

ونستطيع أن نلخص جوهر الدراسات الأولى لفرمى وغيره عن النيوترون فيما يلى : —

(١) يمكن الحصول على نيوترونات سريعة تقرب سرعتها من سرعة الضوء وتصل طاقتها إلى ١٥ مليون إلكترون فولت ، وتتفد فى ٣٠ س . م من الرصاص ، ويمكن جعل هذه النيوترونات تبطيء بوضع ستائر من البارافين أو الماء الثقيل أو غير ذلك من المواد فى طريقها .

(٢) تصل النيوترونات إلى مسافة قدرها ١٠٠ مرة قدر قطر النواة ، وهى مسافة كافية لإيقافها .

(٣) ثمة حالات تصادم فيها النيوترونات بعضها ببعض كما تصادم كرات البلياردو ، وتغير طريقها كما تغير طريق النواة (بحوث إيرين كورى) وثمة حالات تمتص فيها هذه النيوترونات .

(٤) تحدث النيوترونات البطيئة بنوع خاص أثراً شديداً فى النواة ، فهى

تحدث تهدماً ، وتحدث أحياناً انفلاقاً كما حدث في تجارب « أوتوهان ، الألماني وهي التجارب التي تكلمنا عليها في مقالنا المنشور بأول عدد لمجلة « رسالة الاسلام ، وهي التجارب التي أمكن بعد معرفة نتائجها صناعة القنابل الذرية التي أفضل تسميتها القنابل النووية .

وقد يعن لنا أن نسأل كيف السبيل للعلماء للحصول على النيترونات وهي أحد نوعين من الأحجار المكونة للنواة ، والجواب على ذلك أننا نجد في كثير من التحولات النووية التي لاحظها العلماء حيث تخرج من نواتها خلال عملية التحول هذه النيترونات ، وحيث يمكن استخدام هذه النيترونات المطرودة من النواة كقذائف لنوى تصاب بواسطتها .

مثال ذلك : إذا ضربنا عنصر البريليوم بجسيمات ألفا ، التي هي نواة عنصر الهيليوم تحول البريليوم إلى كربون ، وخرجت من نواته نيترونات . وقد لوحظ أننا لا نحصل في العملية المتقدمة إلا على حوالي بضع عشرات من النيترونات لكل عشرة مليون قذيفة من جسيمات ألفا ، بحيث إن هذا التفاعل النووي السابق لا يصلح وسيلة عملية للحصول على النيترونات بكمية كافية . وقد وجد أخيراً : أنه يضرب البريليوم ؛ ويسمونه الحليسنيوم ؛ بالديترونات التي هي نواة الماء الثقيل ، أو إذا خاطناه بالرادون المتخلف عن إشعاع الراديوم نحصل على كميات أكبر من النيترونات ، وأعتقد أن هذه الوسيلة كانت على قدر ما أعلم إلى عهد قريب خير الوسائل للحصول على النيترونات بكميات وفيرة لأغراض البحث العلمي .

\* \* \*

ومهما يكن من الأمر فقد مهد « فرمى » بدراسته للنيترون والنيترون البطيء على الخصوص لكشف هام لعالم ألماني هو « أوتوهان » عن انفلاق خطير في نواة الذرة ونوع من الانفجار في هذه الشمس الصغيرة ، ولملاحظات هامة لعالمين فرنسيين هما جوليو كوري وقرينته إيرين كوري عن وجود سلسلة من الانفلاقات

المتابعة وعدوى تسرى إلى غير النواة المنفلقة ، وهو ما تناولته بشيء من الشرح في مأتالي الذي كتبته في أول عدد لمجلة رسالة الإسلام ، وفي ظني أننا لو استطعنا فهم هذه السلسلة ومتابعة الكتابة فيها ، واستطعنا فهم هذا الكشف الجسيم ، أدركنا لماذا نستطيع الحصول على طاقة فوق الوصف من قليل من المادة ، وأدركنا ما يحدثه ذلك من تقدم في حياة البشر ومن أثر في المدنية القادمة ، وأكرر القول الذي ذكرته في مقالتي بأول عدد لهذه المجلة وعلى غلاف كتابي الذي يصدر هذا الأسبوع ، إما مدنية فوق التصور نصبح فيها كالملائكة نستطيع ما لا نستطيعه اليوم ، وإما مفاجأة محزنة قد ينمحي معها الكوكب الوديع الذي نعيش عليه .

\* \* \*

والآن نورد كلمة عن العمل العظيم لأوتوهان الألماني خاصاً بانفلاق أو انشطار نواة اليورانيوم : يحوى جدول العناصر ٩٦ عنصراً ، تبدأ من الهيدروجين أخفها ، وتنتهى بالكوريوم أثقلها ، وإذا اعتبر الوزن الذرى للهيديرجين ٠٠٧٨ ر ١ باعتبار الوزن الذرى للأكسجين ١٦ فإن الوزن الذرى للكوريوم أثقل العناصر يكون ٢٤١

وقد لوحظ في جميع عمليات تحول العناصر ، وبجميع الوسائل المختلفة ، سواء ضرب النواة بالبروتونات أو بحسيم ألفا أو بالديتروونات أو النيتروونات ، أن العناصر التي نحصل عليها هي عناصر قريبة في جدول العناصر من العنصر الذى أصبناه ، فقد استطاع دذر فوردر ، مثلاً عندما تمكن لأول مرة سنة ١٩١٩ من أن يحول ذرة العنصر الى ذرة عنصر آخر ؛ أن يحصل من عنصر النيتروجين ، ووزنه الذرى ١٤ على مما كن للأكسجين ، ووزنه الذرى ١٧ ، أى اكسجين يختلف عن الاكسجين العادى بوحدة واحدة في الوزن الذرى ، وفي أعمال د إيرين وجوليو كورى ، الشهيرة تحول الألومنيوم ووزنه الذرى ٢٧ الى عنصر قريب منه هو السليسيوم ووزنه الذرى ٣٠ ، وحصل لكل قذيفة واحدة من

قذائف ألفا على نيترون واحد ، وفي عملية تحضير النيترونات نحصل من البريليوم ووزنه الذرى ٩ على البور ووزنه الذرى ١٠ ، كذلك نحصل من كل قذيفة ديترونية على قذيفة واحدة نيترونية وهكذا .

ونرى فى النشرات العلمية آلاف التحولات المتشابهة التى يصادف الباحثون فيها دائماً أوزانا ذرية متقاربة ، بمعنى أننا ننقل عادة من عنصر الى عنصر آخر وزنه الذرى لا يفترق إلا بعدد قريب جداً من الوزن الذرى للقذيفة ذاتها التى أنقلها جسم ألفا حيث يبلغ وزنه الذرى ٤

ولم يحدث قط أن ضربنا عنصرا وزنه الذرى ٨٠ فحصلنا على عنصر آخر بعيد جدا عنه فى جدول العناصر يكون وزنه الذرى ٥٠ مثلا ، وعلى عنصر ثان يقرب وزنه الذرى من ٣٠ ، بمعنى أننا لم نحصل على قسمة عنصر الى عنصرين متباعدين عن العنصر الاصلى .

وكأننا أمام منزل خشبي من تلك اللعب التى يلعب بها الأطفال ، يمكن تكوينه من عدد من المكعبات الخشبية تبلغ ٢٣٩ مثلا ، وهو عدد مابنواة البليتونيوم من بروتونات ونيترونات ، واستطعنا حتى الآن أن نزيد هذا المنزل مكعبا أو اثنين أو نقصه مكعباً أو اثنين ، ولكننا لم نوفق قط إلى أن نجعل هذا المنزل ينهار أو ينقسم قسمين كبيرين بضربة من مكعب واحد ، أو بوضع مكعبين مثلا فوق سطحه يقومان بعمل هذه القسمة ، بل إننا لم نوفق إلى أن نجعل منازل أخرى تنهار ، منازل موجودة فى البلدة ذاتها ولدى أطفال آخرين وبعيدين جدا عنه .

\* \* \*

• هنا وقف العلم سنين طويلة من أيام « بكارل » سنة ١٨٩٦ ، و « رذرفورد » سنة ١٩١٩ ، ولم يقع الحادث الهام إلا سنة ١٩٣٩ ، إذ حدثت لفيزياء النواة مفاجأة كبرى ، وكان حدوثها دون قصد من العالم الألمانى « أوتوهان » فقد ضرب المكعب الذى جعل المنزل الكبير ينقسم الى منزلين كبيرين ومنازل أصغر منها ، بل قدف بالمكعب الذى جعل منازل أخرى بعيدة جدا من المنزل الأول ينقسم

الواحد منها بعد الآخر . ووصل إلى ذلك بضربة واحدة أصابت أول هذه المنازل فخرج منه مكعب يصيب من تلقاء ذاته المنزل المجاور وهكذا .

كان أمام «أتوهان» عنصر البلتيونيوم من - اسم الكوكب بلتيون آخر الكواكب التي تدور حول الشمس - باعتبار أن هذا آخر العناصر التي تيسر للإنسان الحصول عليها في ذلك الوقت ، والبلتيونيوم هو عنصر جديد وزنه الذرى ٢٣٩ يزيد بوحدة عن الوزن الذرى لليورانيوم ، وعدد الكتروناته ٩٤ مقابل ٩٢ لليورانيوم .

قذف «أتوهان» البلتيونيوم بنيترون بطيء ليحصل بهذه القذيفة على مما كن آخر لليورانيوم يزداد في وزنه الذرى بوحدة ، ولكنه عوضا عن أن يحصل على يورانيوم ٢٤٠ مثلا ، أو عوضا عن أن يعود إلى اليورانيوم ٢٣٨ الموجود في الطبيعة حصل على عنصرين لم يكن يتوقعهما بعيدين جدا في جدول العناصر ، وهذان العنصران هما الكريبتون ووزنه الذرى ٨٤ والباريوم ووزنه الذرى ١٣٨ كما حصل على هيليوم ، كذلك حدث من دخول هذا النيترون الواحد المقذوف خروج ثلاثة نيترونات أخرى من نواة البلتيونيوم ، نيترونات متطوعة تضرب كما ذكرنا آنفا وفي مقال سابق ثلاثة نويات أخرى ، وقد حدث من جراء عملية التقسيم الجديدة نقص واضح في كتلة النواة الأصلية ، نقص يساوى ١ على ٢٠ تقريبا من كتلة هذه النواة ، وهذا النقص المادى في نواة البلتيونيوم تحول كله إلى طاقة إشعاعية تبعا لعلاقة «أينشتاين» المعروفة .

ومعنى ذلك أن البلتيونيوم ووزنه الذرى ٢٣٩ وعدد ما يدور حول نواته من الالكترونات ٩٤ عندما يُقذف بنيترون بطيء وزنه الذرى واحد وليس له شحنة - أى عدد الكتروناته صفر - نحصل على عنصر الكريبتون ووزنه الذرى ٨٤ وعدد الكتروناته ٣٦ وعنصر الباريوم ووزنه الذرى ١٣٧ وعدد الكتروناته ٥٦ وعلى هيليوم وزنه الذرى ٤ وعدد الكتروناته ٢ ، ونحصل على ثلاثة نيترونات متطوعة ، الوزن الذرى لكل منها ١ ، ولا شحنة لها أى عدد الكتروناتها صفر ، ثم نحصل على طاقة نووية في شكل إشعاع تعادل مادة وزن نواة ذرتها ١٢ تحولت كلها إلى طاقة .

ونلاحظ إذن أننا إذا جمعنا الأوزان الذرية في الطرف الأول وجدنا أنها تساوى مجموع الأوزان الذرية في الطرف الثانى زائد النقص المادى وقدره ١٢ ، كما أننا إذا جمعنا عدد الإلكترونات في الطرف الأول وجدناه مساوياً لعددتها في الطرف الثانى .

--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--

وإذا تأملنا في المتساوية النووية السابقة نجد أن الوزن الذرى لمجموع المادة قد تغير من ٢٤٠ إلى ٢٢٨ بنقص ١٢ في الوزن الذرى ، أى أن نسبة ما فقدته المادة ١٢ على ٢٤٠ يساوى ١ على ٢٠ ، ولعل هذا النقص الذى أصاب المادة من أعظم ما حدث في العلوم ، وقد ظهرت أول نشرة في هذا الموضوع لآتوهان منذ عشر سنين ، ونظر العالم بشيء من الاهتمام لما حدث في هذه التجربة بالذات من دخول هذا النيترىون أو هذا الجاسوس في النواة وقسمتها وخروج طاقة عظيمة منها ، قدرت هذه المرة بحوالى ٢٠٠ مليون إلكترون فولت للنواة الواحدة .

وكان يساعد آتوهان عالمان هما «ستراسمان» والسيدة السويدية «ليزمايتنر» وقد أكدا هما أيضا وجود عنصرى الكريبتون والباريوم ، كما أكدت هذه الوقائع معامل عديدة من معامل البحث العلمى في أنحاء أوروبا .

• حدث كل هذا في سرعة ولعل الذى تابع مقالاتى السابقة يدرك الآن ما دلت عليه «إيرين كورى» وزوجها «جوليو» في السوربون من أحداث جسام خلال عملية الانفلاق المتقدمة وملاحظتهما لخروج ثلاث جواسيس متطوعين من النواة المصابة وضربهم نويات أخرى تخرج كل واحدة منها ثلاثة نوترونات جدد كل واحدة من هذه تخرج ثلاثة نوترونات أخرى وهكذا تعم عدوى الضرب ويتكاثر

بسرعة عدد المتطوعين وفي كل حالة فردية تخرج طاقة نووية وفي النهاية تصبح الطاقة من قطعة صغيرة من المادة فوق الوصف .

وظف العلماء في أوروبا في ذلك العهد من سنة ١٩٣٩ يعيدون التجارب ، وظهرت نشرات علمية كثيرة تؤكد صحة الملاحظة التي أبدتها إيرين كورى من وجود ثلاثة نيترونات مطرودة لكل نيترون يدخل النواة .

ولقد سافرت السيدة ليز مايتنر إلى الدنمرك ، وبعد مقابلة « نيلزبور » الذي ذكرنا في مقالنا الثاني طرفا من بحوثه في تفسير الانبعاث الضوئي بوثرات للألكترونات ، سافر هذا ليجتمع بعلماء الانجيز أولا وعلماء القارة الأمريكية ثانيا ، حيث بدأ هذا الجزء الأخير من العالم يكون مسرحا هاما لصناعة القنبلة النووية .

أى فارق بين هذه النتائج العظيمة وبعد حدوث هذه السلسلة النيترونية العظيمة وتلك النتائج الضئيلة التي حصل عليها العلماء باستخدام البروتونات ( البرتون نواة ذرة الهيدروجين ) كقذائف لضرب نواة العناصر المختلفة .

كان رذرفورد يضرب حوالى عشرة مليون قذيفة بروتونية في اتجاه النوى فتصيب قذيفة واحدة من هذا العدد الكبير نواة واحدة ، وهذه الإصابة النادرة لا تحدث عطلا يذكر ، والآن نضرب بالقذائف النيترونية فتحدث إحداها إصابة جسيمة في النواة يتبعها بلايين البلايين من الإصابات المماثلة ، دون أن نبعث من ناحيتنا بقذائف أخرى .

لقد ذكر « أينشتاين » أننا كنا كمن يريد أن يصيب طيوراً في ليال مظلمة في بلاد تندر فيها الطيور ، ولنا أن نذكر الآن أننا تعلمنا نوعاً جديداً من الصيد لم يخطر على بال إنسان ، وهو أننا إن أصبنا طائراً واحداً خرج هذا الطائر ليصيد هو نيابة عنا الكثير من الطيور ، بل خرج لتحريض طيور البلدة كلها ليصيدوا طيور البلاد المجاورة لبلدتهم وغيرها من البلاد ، حيث يعم الصيد المملوك بأسرها .



لقد وضع العلماء لأول مرة ، وبصورة جلية أيديهم على الطاقة النووية ، وعرفوا إحدى الطرق الفعالة لفك عقالها ، وعاش « أينشتاين » ، ليشهد بنفسه نتيجة نظريته الخطيرة ، وليشهد بنفسه كيف تمكن الإنسان أن يعيد المادة سيرتها الأولى - طاقة خطيرة في هذا الكون الفسيح .

\*\*\*

لقد شرحت النواة وما حدث في دنيا النواة ، ولعلنا قد أدركنا أن المادة قوة عظيمة مدخرة من الأزل ، لانعرف لها بداية ، ولا ندرك لها نهاية ، هي طاقة متبلورة من العصور الغابرة ، وكثر خطير لا يفنى على الزمن ، هذه المادة بدأنا نلهم بها ، وبدأنا نتعلم كيف نعيد لها سيرتها الأولى .

وها نحن أولاء لا ندرى ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان في المستقبل القريب أو البعيد ، أممنية نووية ؟ أعارف جديدة فوق تصورنا الحالي ؟ أدنيا غير التي عهدناها ؟ ، أم نهاية لحياة الجنس البشرى على هذا الكوكب مع بقائه دون أى نوع من الحياة عليه ؟ أم فناء لنا ولهذا السيار الوديع ؟ وكل ما أبتغيه من محاضراتي العديدة وكتاباتى المستمرة ، أن يؤمن القارىء مئى أن ثمة احتمالات للانقسام في نواة الذرة أو للانفلاق في هذه الشمس داخل الذرة كثيرة ، والواقع أن الرواية لم تتم فصولا ، وإذا استبعدنا حدوث سلسلة من نوع خطير في الأكسجين أو الماء وكلاهما لازم لاستمرار الحياة ، كما يستبعد ذلك غالبية العلماء المعاصرين فإننا نؤمن في الوقت ذاته أن هذه العلوم ما زالت في بدايتها ، وأن أحدا لا يحزم بما يخبئه القدر للعلماء ، ولناس عامة من مفاجآت .

وعلى آية حال فالعناصر الثقيلة الأخرى ومما كانتا قد تكون قابلة للانفلاق بوسائل لا نعرفها اليوم ، وقد نصادف انقساماً ثلاثياً أو رباعياً أو كثير الحدود .

ومع ذلك فإنه يجب أن لا نعتقد خطأ ، بأن حياتنا كجنس محتوم لها الدوام

على هذا الكوكب الأرضي ، فقد تكون زيارتنا له قصيرة قاربت الانتهاء ، وقد تدوم زيارتنا له أطول مما نظن .

\* \* \*

والآن نحن على مفترق الطرق : إما العقل والهناء ، وإما الجنون والفناء ، لقد حققت العلوم أحلام الرجال ، ووصل الإنسان إلى أعظم ما كان يحلم به كيميائيو القرون الوسطى عن حجر الفلاسفة .

وما هي الدنيا بخير : الشمس تشرق صباحا وتغرب مساء ، والنبات ينمو والشجر يزدهر ، والنساء تلد أطفالا ، والأطفال تضحى شيوخا ، وعجلة الحياة دائما في حركة وفي تجديد ، فلنحافظ عليها وعلى أنفسنا — لقد ذكرت لك أيها القارئ العزيز أنه يجب أن نحب السلام ، وأن نعمل للسلام ، ونحب الحياة ونعمل من أجل الحياة ، وتراني ما زلت عند رأيي وإلى لقاء معك في جولة أخرى من الفكر في وقت قريب ؟

## كتاب جديد

يسرنا أن نبشر قراءنا في أنحاء العالم الإسلامي ، وكل مهتم بالبحوث العلمية بأن حضرة العالم الكبير الدكتور محمد محمود غالى كاتب المقالات التي نشرت في أعدادنا الثلاثة عن الذرة ، سيصدر في وقت ظهور هذا العدد كتاباً نفيساً بعنوان

### ما ذا تخبئه نواة الذرة للإنسان

والكتاب بحث طريف في أسلوب مبسط يفهمه العامة والخاصة ، ويروق الأديب كما يروق العالم ، وهو يقع في ٦٠ صفحة ، ويحتوى على ١٣ صورة ، وقد قامت بنشره « مكتبة النهضة » ، ٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة وطبعته بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعاً أنيقاً ، وثمن النسخة منه ١٤ قرشاً عدا أجرة البريد ومجلة « رسالة الإسلام » ، تلفت قراءها الكرام ، إلى هذا المؤلف النفيس وترجو له الذبوع بين أكبر طائفة من العلماء وطلاب المعرفة .

# رحلة إلى إيران

لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور يحيى الخشاب

أوفد معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الأول حضرة الدكتور يحيى الخشاب رئيس فرع الدراسات الإسلامية بهذا المعهد إلى إيران للتعرف على ما فيها من آثار أدبية وعلمية وقد رأيت المجلة أن تتصل بحضرته لتفهر على الناس ما يصح أن يعرفوه عن حضارة هذه البلاد ، ومقال هذا العدد هو أول ما تفضل به . [ المحرر ]

دنت السيارة من حي المسجد ، وكانت الشمس ضاربة فوق مآذن المسجد وقبابه ، فإذا الذهب يلعب لمعاناً أخاذاً ، وإذا القيشاني الذي يغطيها قد بدت منه أزهى الألوان . كنت أقصد السوق القديم العامر ، وقد وقفت السيارة في نهاية شارع ناصر خسرو ، ثم نزلت السلام عند (جلو خان مسجد شاه) حيث الصحن الذي يشعرك بمقدمة سوق كبير ، واجتزته الى بوابة أدت بي إلى فناء « مسجد شاه » الفسيح ، وقد لفت هذا المسجد العظيم نظري ووددت لو أقضى بعض الوقت فيه ، ولكنني كنت على موعد مع الحاج حسين آقا ملك ، وهو من أثرياء إيران ومن أدبائها الممتازين وله مكتبة خاصة تحوى آلاف أعة من الكتب الإسلامية ، ومنها طائفة من المخطوطات النادرة التي لا توجد في غيرها ، ولم يكن بد من اجتياز ساحة المسجد ، والاكتفاء مؤقتاً بنظرة عابرة إلى هذا البناء الضخم ذي القباب الذهبية المغطاة بالقيشاني الجميل . ومررت إلى السوق القديم المسقوف . إلى الشرق في أبهج حلتته وأصدق صورته ، إلى هذه الحياة الإسلامية القديمة التي آخت بين المسلمين مهما تفاوتت درجاتهم ، والتي جعلت الصدق والأمانة والعفة والاستقامة والتعاون أساس المعاملة بين الناس ، هنا المقام الأسمى لرجل الدين ، هنا العمامة السوداء تشير إلى قرابة صاحبها من النبي عليه الصلاة والسلام ، هنا التقاليد المرعية والأصول الثابتة هنا الثروات الضخمة التي يطهرها أهلها بالزكاة ، هنا الدين والدنيا قد اجتمعا ، هنا المدنية الحققة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، خلت من الزيف والتقليد السقيم !

وانتهت زيارتي « لمكتبه الحاج حسين ، وخرجت مسرعا إلى المسجد ، فلم أكن  
أبلغ ساحته حتى كان المؤذن ( اردبيلي ) يؤذن لصلاة الظهر في صوته العذب الرخم .  
الله أكبر الله أكبر . وتطلعتُ إلى مصدر الصوت ، فإذا هو ينبعث من مثذنة طويلة  
غطتها النقوش الجميلة من القيشاني ، وقد علتها قبة من ذهب ، انعكست عليه  
أشعة الشمس فتوهجت إشعاعا .

إن هذه الساحة الحجرية العظيمة قد اكتظت بالناس . إنهم يردون الفسقية  
الكبيرة التي تفيض بالماء حيث يتوضئون ، إن صوت الاردبيلي يجلجل في الآذان  
فيملأ النفوس خشوعا ويملأ الجو جلالا ، إن المثنتين والقباب قد انعكست  
صورها فوق صفحة الماء في وسط الفناء . وقد أخذت صورها تتأرجح من تموج الماء ،  
كأنها تطرب لصوت الرجل يدعو إلى الصلاة ، وإنها لتطرب في وقار وقوت !  
الله أكبر الله أكبر ! كثر الوافدون ، وأحاط المتوضئون بالفسقية ، ومن  
خلفهم جماعة ينتظرون ، وهناك ، خلف شبائك الحديد ، في ردهات المسجد  
جماعة الركع السجود .

هنا الناس يجتمعون في أزياء متفاوتة ، هنا أهل المدينة الجديدة بقبعاتهم  
وأزيائهم الحديثة ، هنا أهل المدينة القديمة وقد علت رموسهم العائِم وَاكْتَسَوْا  
بالعباءات الفاخرة من صوف ناين . هنا الناس في أحلى زينة ، وعلى أنظف حال ، إنهم  
أتوا إلى حضرة ربهم الأعلى فلا عجب أن تراهم وقد علت وجوههم نضرة النعيم .  
إن الإسلام موزع بين أمم كثيرة تختلف في تقاليدها وأهدافها وسياساتها ،  
ولكنها تتفق في مثلها الأعلى المستمد من الدين ، وكفى بالإسلام أنه السلامة  
والسلام ! وقام الامام بقامته الفارعة ومحياه الجليل ، وعلى رأسه عمامته الكبيرة ،  
وأخذ يعظ الناس في صوت جهورى ، يعلو حيناً ويخفت حيناً ، والجميع من حوله  
في صمت الخاشعين . وأَمَّا وصلينا .

أتدري يا صاحبي من هو هذا السيد ؟ إنه « إمام الجمعة » (\*) . هو الرجل الذي

---

(\*) جماعة التقريب صالة بفضيلة السيد حسن « إمام الجمعة » وهو أحد الأعزاء  
المراسلين للجماعة بطهران .

يصلى بالناس في الصلاة الجامعة . نشأ في إيران رجلَ دين ، ثم انتقل إلى أوروبا حيث درس دراسته العالية في القانون . وعاد يحمل إجازة الدكتوراه من فرنسا ثم تنقل في وظائف الدولة حتى بلغ منصبا رفيعا في القضاء . ومات عمه ، وإمام الجمعة ، فاخترته الدولة مكان عمه . فهو حاضر في المسجد كل وقت ، وهو يعظ الناس ، ويؤمهم في هذا المسجد بطهران .

وسرت والشيخ وبعض المصلين من الهنود إلى جناح له بالمسجد ، وجلسنا على أرائك من الخشب في غرفة فرشت بالسجاد النفيس ، وأمر بتحية الضيف وقدم الشاي ، فإن الدين يسر لا عسر فيه . كنا من أمم مختلفة ، من مصر والباكستان وإيران ، وكنا جميعا مأخوذين بعظمة الله ونحن في بيته ، وأحسننا جميعا بأرواحنا صافية من الشوائب طاهرة راضية واعية . وأدركنا جميعا أن ما نحن عليه من صفاء روحى جدير بأن يحفزنا على أن نكون جميعا ! أن نكون جميعا ما دام الإسلام ديننا . ألسنا نقف إلى قبلة واحدة ، ونصلى صلاة واحدة ، وندعو إلهنا واحدا ، وندين برسالة نبي واحد ، ونقصد كعبة واحدة ! ألسنا نفرع إلى رب واحد إذا مسنا ضر أردنا كشفه ؟ ألسنا نحمد إلهنا واحدا إذا حمدنا ؟ وبين صحونا ونومنا ألسنا ننهج في الحياة هديا واحدا نستمد منه من قرآن واحد ؟ كنا شعوبا مختلفة ، ولكننا أمة مسلمة واحدة !

قال السيد ، إمام الجمعة ، إننا أمة واحدة ، وإن الدين كفيل بأن يصل ما انقطع من صلواتنا . وإننا نعمل على أن يتعلم التلاميذ والطلاب آداب دينهم ، نختار لهم من آيات القرآن ما يحفظون وما يهذب نفوسهم في المدارس الابتدائية ، ونعليهم قواعد الدين في التعليم الثانوى ، ولدينا مدارس خاصة تدرس فيها علوم الدين دراسة عقلية ونقلية ، ويتبع هذا كله أن يتعلم الطلاب لغة القرآن ، فنحن نعلم اللغة العربية في المدارس الثانوية ، وفي بعض المدارس العالية ، ولا تجد إيرانيا مثقفا لا يقرأ العربية ويفهمها . ونحب حرية الرأى ، والاجتهاد بابه مفتوح عندنا ، وقد ترجم القرآن للغة الإيرانية ليكون في متناول الإيرانيين جميعا . وأحب شئ

لدينا هو أن تزول هذه الخلافات من بيننا ، وإن اتفقا على الجوهر كفيل بأن يذهب بالخلاف في الفروع .

قال الباكستاني : إن الخلاف في الفروع لا يعتد به ، وإن الهدف الذي نتوجه إليه هو اتحاد هذه الأمة حول الأركان ، ولقد كنا أعز أمة في الأرض يوم كنا نتبع قواعد الدين ونعمل بهديه . وإن الأصالة التي في الشرق ، والقوى الروحية الكامنة فيه ، وما لقيناه من الزيف في المدينة الغربية ، كل هذا يؤدي إلى رفعة الأمة المسلمة ، إذا استغل استغلالا حسنا .

قلتُ هذا صحيح . وإن مصدر الألم واحد عندنا جميعا . وأملنا واحد أيضا . والطريق إلى بلوغ ما نصبو إليه جد يسير . ولقد كنا ، في الهند وفي إيران وفي تركيا ، وفي مصر ، رسل الحضارات القديمة قبل الإسلام ؛ فلما انتشرت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، كانت أمتنا تحفظه لحضارة الإسلام ، وبلغاتها دونت المدنية الإسلامية . ولا أشك في أن إذكاء الروح الديني في نفوس المتعلمين ، سيوجد جيلا من المسلمين يعمل على أن تتجدد الأمة ، وتكون للإسلام الكلمة العليا ، على الأقل بين أهله . وإذا كان الحلفاء في الحرب الأخيرة قد أعلنوا أن حربهم إنما هي حرب المسيحية ضد النازية ، فلتكن وحدتنا الإسلامية أيضا قوة ضد من يعتدى علينا ، ولتؤازرنا في النهوض بشعوبنا ، والدفاع عن مصالحها . وإن أمة تمتد من المحيط الأطلسي حتى الصين ، كفيلة لو اتحدت كلمتها ، أن ترفع صوتها في عالم يسعى اليوم إلى التكتل سعياً ، وليس لتكتله من أساس كالدين الذي ندين به جميعا .

وخرجنا من « هذا المسجد » ونحن تنفرس فيه ، ونجمل النظر في أهبائه ، ونرفعه إلى قبابه ومآذنه . وما خرجت منه مرة إلا وأنا أنظر إليه ثم أنظر كأنما هي المرة الأولى التي آراه فيها . في مثل هذا المكان تكمن قوى الروح ، لا تنظر إلى ما فيه من فن رائع ، ولكن انظر إليهم كيف يفدون إليه للصلاة ، وكيف يتركونه متأخين ، وفكر لو وجهتهم إلى الخير وهم أصفياء .

# صَوْتُ التَّقْرِيبِ

« دار التقريب » بمثابة جهاز لإرسال واستقبال بين المسلمين في مشارق الأرض ومناربها ، عنها يصدر « صوت التقريب » وإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من « رسالة الاسلام » في كل عدد تسجيل الصدى (\*) .

## بيان لادبر منه

لما تكونت « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » في القاهرة استبشر بها أهل العلم والدين ، واستقبلوها فرحين مسرورين ، وجعلوا يتحدثون عن أهدافها السامية ، وأغراضها الشريفة ، وما يجب على المسلمين في كل شعب من تأييدها ، والاستماع لدعوتها ، والدخول فيما تدعو إليه من السلام بين أبناء الإسلام ، والكف عما أفرق القوى ووزع الجهود من ألوان الخصومات والمنازعات والتعصب للآراء والمذاهب .

وتوالت على « دار التقريب » رسائل التأييد من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وتحديث عن فكرتها الجليلة كبريات الصحف والمجلات في شتى ربوعه ، وشعر الناس أن الأمل الذي كان يجول في خواطر المصلحين ، وأهل الغيرة على الإسلام والمسلمين منذ قرون ؛ قد بدأ يتحقق ، وأنه قد أصبح لتلك الفكرة السديدة مركز

---

(\*) « دار التقريب » هي المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيريتها ومكتبها الكبرى .

هام تلتقى عنده الجهود، وتتجاوب الأصوات، وتتركز الأعمال الصالحة التي ترمى إلى الأخذ بيد الأمة الإسلامية، وإنهاضها من كبوتها، والسير بها قدماً في سبيل العزة والرشاد التي رسمها الله لها.

ومضت الجماعة تؤدي واجبها في مثابرة وهدوء، لا تنجح إلى الإعلان عن نفسها، ولا تتعجل ثمرات الظفر فتقطفها قبل النضج، ولا تقحم نفسها في خلاف مع أحد، ولا تتحاز إلى جانب دون جانب، وإنما تدعو إلى مبدئها بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادل عنه بالتي هي أحسن، واثقة بأن كل لحظة تمر فهي كسب لها، ونصر لفكرتها، وأن وجودها نفسه هو تنبيه دائم، وقرع مستمر لأسماع المسلمين، يذكرهم بأنهم أمة واحدة فلا ينبغي أن يتفرقوا، وأن أهدافهم واحدة فلا ينبغي أن يختصموا، وأن أعدادهم متربصون بهم فلا ينبغي أن يغفلوا.

على ذلك مضت «جماعة التقريب»، وفي هذا الجو من التأييد والترحيب والآمال الطيبة قامت وعملت واستقرت، ولكن هل كل ما لقيته «جماعة التقريب» هو التأييد والترحيب؟ وهل استراح الناس جميعاً إلى صواب فكرتها وإمكان تحقيقها؟

لقد تسأل بعض الناس: ما هي أغراض تلك الجماعة، وما هي وسائلها، وكيف يمكنها التوفيق بين المختلفين، والتقريب بين المتباعدين، وهل لديها من القوة ما يمكنها من حمل الناس على ما ترى، وإذا عرضت بالبحث لبعض المسائل فهل من أسلوبها أن تطلب إلى المختلفين أن يتنازل كل منهم عن بعض رأيه فيتلاقى مع مخالفه في منتصف الطريق، أو هي ستقف من المختلفين موقفاً وسطاً وتدعو إليها كل طرف، ثم ماذا هي فاعلة مع الطوائف التي تزعم أنها على الإسلام وهي تعتقد ما يناقض الإسلام؟ وماذا هي فاعلة في الفقه والفروع؟ أتريد أن تحمل الناس على رأي واحد فتلغي المذاهب الإسلامية؟ وإن كان كذلك فما هو هذا الرأي؟ أهو رأي مذهب بعينه من المذاهب الفقهية المعروفة، فيرجع الجميع إلى مذهب



الحنفية أو الشافعية أو الإمامية مثلا ؟ ، أم يلفق مذهب من هذه المذاهب جميعا ؟  
ومن يلفقه ؟ وعلى أى أساس يكون هذا التلفيق ؟ وكيف يزعمون أن في هذا صلاحا  
للمسلمين وما هو إلا مذهب جديد ينضم إلى المذاهب القديمة فيكثر عددها ،  
ويحدث خلافا جديدا ربما كان أعنف وأقوى ؟

تساءل بعض الناس عن هذا كله ، والتساؤل أمانة الاهتمام والعناية ،  
كما تساءل آخرون : هل تغلبت في هذه الفكرة نزعة السنة على الشيعة ، أو نزعة  
الشيعة على السنة ؟ وأى المذهبين أقرب إلى أن يفيد منها ؟ وما هو اللون الفكري  
الذي عرف به هؤلاء الداعون إليها ؟

\* \* \*

وليس أحد من جماعة التقريب بالذى يضيق بهذه الأسئلة ذرعا ، ولا بالذى  
يعيا عن جوابها ، وإن هذه الأسئلة لدليل على أن المسلمين محتاجون حقا إلى من  
يعرف بعضهم ببعض ، محتاجون إلى من يطهر النفوس من الشكوك التي لا مبرر  
لها ، ومن التخوف الذى جعلهم ينظرون في كل عمل إصلاحى يراد به إنقاذهم  
والسمو بهم نظر الحذر المتظن الذى لا يثق حتى بأخيه .

إن جماعة التقريب قد جعلت بينها وبين الناس قانونا وبيانا مفصلا هما عهدا  
ومناهجا ، وقد عرضت فيهما إلى كل ما تساءل عنه هؤلاء المتسائلون ، فبينت  
أغراضها ، وحددت وسائلها ؛ وصرحت بأنها إنما تعمل على جمع كلمة المسلمين  
حول الأصول العامة لدينهم ، وأنها إنما تعنى بالمذاهب الإسلامية الطوائف الذين  
فرقت بينهم آراء لا تمس العقيدة الإسلامية التي يجب الإيمان بها ، وأنها ترحب  
بالخلاف الفقهي المبني على النظر في الأدلة ورعاية المصالح العامة للمسلمين التي  
اعترفت الشريعة بها ، ولا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها ، كما لا تبغى  
نصرة الشيعة على غيرهم ، ولا نصرة غيرهم عليهم ، وأنها تترك لكل إنسان حقه  
الطبيعى في أن يعتقد ما يراه من المعارف التي وراء العقائد الإسلامية . على ألا  
يكون ذلك سببا في ضغينة يحتفظ بها لمن يخالفه ، أو عصبية يرى بها أنه هو الحق

وحده ، وأن جميع من سواه من الناس مبطل ، فإن ذلك لا يصح إلا في شيء واحد فقط هو إيمان المؤمن بما كلفه الله الإيمان به .

وليس من أسلوب جماعة التقريب أن تطلب إلى أحد أن يتجرد من مذهبه ، أو يندمج في مذهب غيره ، أو أن تطلب من الناس أن يتلاقوا في منتصف الطريق فيتنازل كلٌّ عن بعض رأيه ، أو أن يأخذوا برأيها في المسائل التي تعرض للبحث ، وإنما أسلوبها الذي لا تحيد عنه هو أن تسئل من الصدور أحقادها ، وتنزع من الرؤوس أهواءها وتعصباتها ، وتوسع أمام الناس ما وسعه الله من الرأى والنظر فيما هو مجال للرأى والنظر ، وأن تردهم إلى الحدود التي رسمها الله للعقيدة والإيمان فلا يتعدوها ولا يختلفوا عليها ، فإذا آمن المسلم بأن الله واحد أحد متصف بكل كمال منزّه عن كل نقصان ، قد جرت سنته بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وأن وراء هذه الدار داراً أخرى للجزاء على الخير بالخير وعلى الشر بالشر ، وأن هناك جنة ونارا وحساباً ، إلى غير ذلك مما جاء به الصادق الأمين ، وأخبر به المعصوم ، فلا عليه بعد ذلك أن يعلم خلافاً المتكلمين ، وفلسفة المتفلسفين ، وإذا علم شيئاً من ذلك واستراح منه إلى ما لا ينافي عقيدة أمر الله بها فله ما رأى ، وبغيره ما رأى .

إن قواعد الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها هي موضع وفاق بين جميع المسلمين ، وإذا قلنا المسلمين فلا نقصد كل من يصف نفسه بهذه الصفة ، أو كل من ينسبهم الناس إلى الإسلام بغير حق ، فإننا نعرف أن قوماً من القدماء والمحدثين قد اعتقدوا عقائد منافية للإسلام ، ومنهم من أنكر الصلوات الخمس ، أو غيرَ فيها وبذل ، ومنهم من ادعى أن النبوة لم تختم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، فهو لاء ليسوا منا ولسنا منهم في شيء ، وإذا كان بعض الطوائف القديمة قد ترك فيما يؤثر عنه ما حوته الكتب آراء شاذة ، أو أفكاراً منافية للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، فإن هذا شيء قد عتق عليه الزمان ، ولم يعد أحد من الطوائف الحاضرة يؤمن به أو يعول عليه ، لأن التطور الفكري قد أدرك هذه

الناحية الفكرية من المسلمين كما أدرك غيرها من النواحي ، وإذا صح أن أحدا من عامة هذه الطوائف ما زال متمسكا بحبال الماضى ، فإن هؤلاء ليسوا هم الذين يمثلون فكرة الشعب أو الطائفة ، وإنما هم أفراد مقلدون فى حاجة الى من يصرهم بالحقيقة ، ويجلوها لهم ناصعة واضحة تدركها عقولهم ، وإذا كان على الخاصة من المسلمين أن يثبوا فكرة الدين الصحيحة ، والعقائد السليمة لمخالفتهم فى الدين والعقيدة ، وأن يكافؤوا عنها وينافؤوا بالبرهان والحجة والموعظة الحسنة ، فأولى بهم أن ينظروا إلى أبناء دينهم نظرة قوامها الرحمة والتسامح ، ليرشدوهم الى الطريق ويهدوهم للتي هي أقوم دون عنف ولا لجاج ، وإن أهدى السبل إلى ذلك لى سبيل النشر والتعليم وبث الأفكار الصالحة ، ونشرها فى كل بقعة من بقاع الأرض يوجد فيها مسلم يؤمن بالله وكتباته ، ويدين بالخضوع لرسوله الكريم ، فإن المواظبة على ذلك ، والمنابرة عليه كفيلة بهداية الضالين ، وطمأنة الحائرين ، وتقويم المعوجين ، على شريطة أن يتجرد القاءون بالدعوة عن كل تعصب ، وأن يسموا بدعوتهم وفكرتهم عن أية نزعة عصبية أو عنصرية ، وأن يؤمنوا إيمانا عميقا بأن غايتهم التى إليها يسعون ، هى أشرف الغايات ، لأنها هى تصفية الاسلام مما علق به ، وتبقيته المحيط الإسلامى من أوضار الجاهلية الأولى التى كادت تعصف فيه بكل معنى كريم .

إن العالم قد تغير ، وقد أصبحت تسيطر عليه مبادئ أخرى فى الحياة غير مبادئ الخلاف الذى لا طائل تحته فى ألوان المعارف والنظريات الكلامية ، ولا ينبغى أن يظل المسلمون وحدهم فى معزل عن الناس ، يشتغلون بالآراء التى ليست لها فوائد عملية ، وليست ثمر إلا المتاعب وكدة الأذهان والعقول ، وتوسيع شقة الخلاف وتعميق هتوته ، وحسبهم أن يكونوا كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقيدتهم الدينية ، وأن يتجنبوا ما كانوا يتجنبون من الخوض فى الشؤون الغيبية ، والمسائل الخلافية ، حسبهم أن يؤمنوا بالله ربا ، وبالقرآن كتابا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا ، وأن يؤدوا ما فرضه الله ورسوله عليهم من عتيدة وعمل ، وأن يعملوا فى ظل هذا البرنامج الموحد ، وفى ضوء

ما أمرنا الله به من لين وتسامح وأخوة، على استكمال أسباب عزتهم، وعلاج مشاكلهم، وتوطيد أخوتهم، والوقوف صفا واحدا أمام أعدائهم والطامعين فيهم ذلك هو منهاج التقريب وصراطه المستقيم، ولا بد لنا من أن نثبت هنا واضحا ليراه من لم يكن رآه، ويعلمه من لم يكن يعلمه، أما هؤلاء الذين يتساءلون عن القائمين بهذه الدعوة وعن سر انبعاثهم لها، فليطمئنوا، فإنهم رجال منهم، عزّ عليهم ما تلاقيه أمتهم من جراء التقاطع والتشاحن، وأقلقهم مصيرها الذي يبدو أنها متجهة إليه، وعلّوا أن عليهم أمانة لأمتهم ودينهم إن لم يؤدوها سألهم الله عنها، وحاسبهم عليها، فقاموا يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر وينادون إلى كلمة الله يجتمع حولها المتفرقون، ويتفق عليها المختلفون، وما هم بحاجة إلى مال ولا منصب ولا جاه، وإنما بغيتهم الله، وحسبهم الله !

### في العراق :

في كتاب ورد إلينا من النجف بالعراق يقول فضيلة العالم الجليل الحاج شيخ عبد الحسين رشتي ، ما نصه :

« تسلمت من ساعي البريد العدد الأول من مجلة عنوانها من أسمى العناوين وأشرفها ، ألا وهي — رسالة الإسلام — التي تبحث عما يمكن التقريب به بين طوائف المسلمين ، والتي تمثل آراء وأفكار جماعة التقريب الموقرة ، نسأله تعالى أن يسدّد خطواتها ، وينفع الأمة الإسلامية بها ، ويكمل مساعيها الشريفة بالنجاح إنه سميع الدعاء .

وتلوح « بفاكرتي ، أمور أحب أن أبدىها لهذه الجماعة المحترمة لكي أنورها بأجوبتهم ، وأزاد خبره وإطلاعا ، وهي أن هذا الهدف الشريف الذي ترمي إليه هذه الجماعة صعب جدا نبيله ، ووعر إلى الغاية تحصيله ، حيث إن الاختلاف الواقع بين طوائف المسلمين هو في الأصول أيضا لا في الفروع فقط ، يرشدكم

إلى ذلك أن الفرقة الإمامية الاثنا عشرية قائلون بأن الله ليس بجسم ولا جسماني ،  
ويبلغنا أن جما غفيرا من سائر طوائف المسلمين قائلون بالتجسيم ، ويثبتون لله  
لوازم الجسم ، والفرقة الامامية الاثنا عشرية قائلون بأن صفاته الكمالية عين ذاته  
وجودا ، وغير ذاته مفهوما ، ونسمع أن طائفة أخرى قائلون بتعدد القدماء التسعة  
الذات وصفاته الكمالية الثمانية ، وثامنها صفة البقاء ، والفرقة الامامية الاثنا عشرية  
قائلون بعدالة الواجب تعالى ، ويبلغنا أن طائفة أخرى من المسلمين قائلون بصدور  
الظلم منه تعالى شأنه ، فيا إخواني : هل يمكن مع هذا التقريب ؟ وكيف يمكن ؟ ،  
وجوابنا على ذلك أننا نشكر فضيلة الشيخ الموقر على ما قدم إلينا من ثناء  
وأمل ودعاء ، ثم نقول لفضيلته :

إن هذه المسائل الثلاث التي تَمَثَّلُ بها محتاجه الى بيان وتجليه ، وعند وضوحها  
وتبين الأمر فيها على حقيقته ، يظهر أن الخلاف فيها ليس خلافا أصليا يضر  
بالعقيدة الإسلامية أو يفسدها . بيان ذلك :

(١) أن المسألة الأولى وهي كون الله تعالى ليس جسما ولا جسمانيا أمر متفق  
عليه بين جميع الطوائف الإسلامية الحاضرة ، ولا يختلف فيه مذهب عن مذهب ،  
لا فرق في ذلك بين الإمامية وغيرهم ، وكتبهم مثبتة له :

فمن ذلك ما جاء في الجوهرة وشرحها ، وهي الكتاب الذي يدرس بالأزهر  
الشريف ، قال صاحب الجوهرة :

وأنه لما ينالُ العدمُ مخالف ، برهان هذا القدم

وقال شارحه الشيخ عبد السلام : « أي مخالفة ذاته وصفاته لكل ما يقوم  
به العدم ويجوز عليه من الحوادث ، سواء في ذلك الحوادث السابقة كالأعدام  
الآزلية واللاحقة كالنعم الأخروية ، والمخالفة لما ذكر عبارة عن سلب الجرمية  
والعرضية ، أو الكلية والجزئية ، ولوازمهما عنه تعالى ، وإنما وجب له ما ذكر  
لأن الحوادث إما أجسام ، وإما جواهر ، وإما أعراض ، والأعراض إما أزمنة ،

ولما أمكنة، ولما جهات، ولما حدود ونهايات، ولا شيء منها بواجب الوجود لما ثبت لها من الحدوث واستحالة القدم عليها .

وقال الشيخ الأمير في حاشيته عليه د قوله - ولا شيء منها بواجب الوجود - أشار إلى قياس من الضرب الأول من الشكل الثاني تقريره : البارئ تعالى واجب، ولا شيء من الجسم والجوهر والعرض بواجب - ينتج أن البارئ تعالى ليس جسما ولا جوهرًا ولا عرضا - أفاده العلامة الملتوى، (١) .  
وقال صاحب الجوهرة في موضع آخر :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

قال شارحه المذكور : (٢) « ولما قدم أنه سبحانه وتعالى وجبت مخالفته للحوادث عقلا وسمعا، وورد في القرآن والسنة ما يشعر بإثبات الجهة والجسمية له تعالى، وكان مذهب أهل الحق من السلف والخلف تأويل تلك الظواهر لوجوب تنزيهه تعالى عما يدل عليه ذلك الظاهر اتفاقا من أهل الحق وغيرهم ؛ أشار إلى ذلك مقدما طريق الخلف لأرجحيته، فقال ( وكل نص ) أى لفظ ناص ورد في كتاب أو سنة صحيحة ( أوهم التشبيها ) باعتبار ظاهر دلالاته أى أوقع في الوهم صحة القول به ، فنه في الجهة « يخافون ربهم من فوقهم » وفي الجسمية « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » « وجاء ربك » وحديث الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا » وفي الصورة « إن الله خلق آدم على صورته » وفي الجوارح « ويبقى وجه ربك » « يد الله فوق أيديهم » - ( أوله ) وجوبا بأن تحمله على خلاف ظاهره والمراد أوله تفصيلا معيّنًا فيه المعنى الخاص ، أخذ من المقابل الآتي كما هو مختار الخلف من المتأخرين ، فتوّل الفوقية بالتعالى في العظمة دون المكان، والإتيان بإتيان رسول عذابه أو رحمته وثوابه، وكذا النزول، وحديث إن الله خلق آدم على صورته ، ضميره يرجع إلى الأخ المصرح به في الطريق الأخرى

(١) ص ٦٥ من حاشية الأمير على شرح عبد السلام للجوهرة المطبوع بالمطبعة الأزهرية

سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) ص ٩٤ - ٩٥ من المرجع نفسه .

التي رواها مسلم بلفظ « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته ، والمراد بالصورة الصفة ، والوجه بالذات أو بالوجود ، واليد بالقدرة ، وأشار لتتويج الخلاف بقوله ( أو فوض ) علم المعنى المراد من ذلك النص تفصيلا إليه تعالى وأوله إجمالا كما هو طريق السلف ( ورم ) أى اقصد ، واعتقد مع تفويض علم ذلك المعنى ( تنزيها ) له تعالى عما لا يليق ، فالسلف ينزهونه سبحانه عما يوهمه ذلك الظاهر من المعنى المحال ، ويفوضون علم حقيقته على التفصيل إليه تعالى ، مع اعتقاد أن هذه النصوص من عنده سبحانه ، فظهر مما قررنا اتفاق السلف والخلف على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذى دل عليه ذلك الظاهر وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال وعلى الإيمان بأنه من عند الله ، جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكنهم اختلفوا فى تعيين محمل له معنى صحيح وعدم تعيينه بناء على أن الوقف على قوله تعالى « والراستخون فى العلم » أو على قوله « ما يعلم تأويله إلا الله » .

ومن ذلك ما كتبه سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فى عقيدته المشهورة (١) التى كتبها للسلطان الأشرف ، وقد جاء فيها قوله فى وصف الله عز وجل : « ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، ولا يشبه شيئا ، ولا يشبهه شيء ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتشفه الأرضون ولا السموات ، كان قبل أن كوّن المكان ، ودبر الزمان ، وهو الآن على ما عليه كان ... استوى على العرش المجيد على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزلها عن الماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، تعالى الله الكبير المتعال ، عما يقول أهل الغي والضلال ، بل لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، مقهورون فى قبضته » .

وهذا الذى قاله عز الدين رحمه الله عن استواء الله تعالى على عرشه هو ما يقول به ابن تيمية وابن القيم ، وعلماء نجد فى عصرنا الحاضر ، وقد زخرت به كتبهم .

(١) طبقات الشافعية الكبرى . ص ٨٦ ج ٥ المطبوع بالمطبعة الحسينية المصرية

ومما جاء من ذلك قول ابن القيم في الرد على الجهمية :

« هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على تعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصدوه من عند أنفسهم ؛ فقالوا : هذه الصفات هي صفات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً ، وهذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقهم ، ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ؛ فشبهوا أولاً وعطلوا ثانياً ، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم ، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته ، وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها ، فإنهم أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم لإثباتاً بلا تمثيل وتزويقاً بلا تعطيل ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه ، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، لا تشبه صفاته صفات خلقه ؛ فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك وتناقضوا ، فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل والله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين . »

وقد نقلنا هذا النص عن ابن القيم من كتاب « فتح المجيد » ص ٣٩٣ ، الذي ألفه العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ شرحاً لكتاب « التوحيد » للإمام محمد بن عبد الله ، وفي ذلك الكتاب يقول فضيلة الشيخ الشارح :

« ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والاشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين . فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي صلى الله



عليه وسلم أنها قالت في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، قالت « الاستواء مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر » ، رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح . قال : وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . وقال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله « الرحمن على العرش استوى » ، كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرِّحَضاء وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ولا يقال كيف و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه . رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية .

ومن هذا كله يتبين أن لا خلاف على الحقيقة ، لأن الجميع متوافقون على نفي الجسمية عنه تعالى وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ، كما أنهم متوافقون على الإيمان بما جاء في كتابه الكريم من مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » ، « إليه يصعد الكلم الطيب » ، « تعرج الملائكة والروح إليه » ، « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » ، « يخافون ربهم من فوقهم » ، وعلى الإيمان أيضاً بما جاء من قوله « ليس كمثل شيء » ، وكل ما في الأمر : أنهم اختلفوا في الفهم والوسيلة إلى التنزيه ، وإذن فالقول بأن هذا خلاف في الأصل يترتب عليه بذاته إيمان أو كفر ليس صحيحاً ، والله المستعان .

ونكتفي الآن بهذا القدر من البحث على أن نرجع إليه في العدد المقبل إن شاء الله تعالى .

## في تركيا :

تلقى دعوة التقريب في تركيا عناية كبرى ، وتُستقبل مجلتها ولسان حالها « رسالة الإسلام » ، استقبالا طيبا من أهل الرأي والفكر ، وفي مقدمة العاملين على بث الفكرة وتقديمها إلى الرأي العام التركي حضرة الأستاذ الكبير ، والكاتب الإسلامي الشهير عمر رضا دوغانول محرر جريدة الجمهورية ، وصاحب مجلة ( السلامة ) ، وكان آخر ما تلقيناه منه هذا الكتاب :

« أما بعد : فقد تلقيت العدد الأول من مجلة « رسالة الإسلام » ، بما يليق بها من الإجلال والاحترام ، ولم أتوان مطلقا في تقديمها للرأي العام التركي على لسان مجلتي « السلامة » ، التي بشرت ببزوغ رسالتكم وتقلت عنها كلمتين من أبداع ما نشرته . وسترون كلمتنا المبشرة بصدورها في العدد ( ٧٧ ) كما سترون ترجمة مقالة الأستاذ الفاضل تقي الدين القمي في نفس العدد . ثم ترون في العدد ( ٨٠ ) ترجمة بيان الأستاذ الجليل مولانا الشيخ عبد المجيد سليم حفظه الله . ونحن لا نشك أن الرأي العام التركي الإسلامي قد تلقى كل ذلك بانسراح وابتهاج يفيض بالدعاء لكم ، ولتحقيق غايتكم التي يؤيدكم في سبيل تحقيقها بكل ما أوتي من قوة . ولو اتسع لدينا المجال ، لنقلنا عنكم جميع ما نشرتموه ، لكن كلمتي الأستاذ القمي والأستاذ العلامة الشيخ عبد المجيد سليم ، فيهما الكفاية للترحيب بعملكم الجليل ، وبجهودكم النبيل ، الذي نرجو له كل نجاح وتوفيق .

رجاؤنا من المولى عز وجل ، أن يؤيدكم بحوله وطوله وأن يراكم بعنايته ورعايته ، إنه سميع مجيب .

حاشية : بعد كتابة ما تقدم ، وصل إلينا العدد الثاني من المجلة الموقرة وسنغني به عنايتنا بالعدد الأول إن شاء الله ، بارك الله في هتمكم ونفع الأمة بكم . .  
وبحسب تشكر الأستاذ الفاضل على جهوده الموقفة ، ونحيمه ونحيي لإخواننا المسلمين في تركيا ، ونسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه صلاح أمتنا الإسلامية العزيرة .

## تحية

تتوالى الأخبار السارة المبشرة باطراد الحركة الإصلاحية الإسلامية في الشقيقة الناشئة « الباكستان » ، وتحفل الصحف والمجلات بشار النشاط الدائب في محيطها الجديد ، ومن توفيق الله وتيسيره ، أن حضرة صاحب السعادة محمد علي علقوبه باشا رئيس جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، يعاصر هذه النهضة الإسلامية الكبرى في هذا الظرف التاريخي الهام ، ويشارك في كل ألوان النشاط بما له من علم واسع ، ومواهب متميزة ، وإخلاص جم : فهو يحاضر ، ويكتب ، ويتحدث ، ويوجه ، ومن حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وآمنوا بأمتهم وأمجادهم ، فهم تحت لوائه عاملون ، وفي سبيل عزة الإسلام دائبون .

ويسرنا أن نرسل إلى سعادة الرئيس وإخوانه أركى تحياتنا ، وأعظم تقديرنا وإعجابنا ؟

## وشكر

مجلة « رسالة الإسلام » ، تزجى خالص شكرها إلى حضرات السادة الكرام ، أصحاب الصحف والمجلات الإسلامية في سائر الشعوب والبلاد ، على ما استقبلوها به من الحفاوة والترحيب ، وتعتز بثقتهم ، فهم قادة الأمم وموجو الشعوب ، وثنى على جهودهم الموفقة في خدمة دعوة التقريب ، باقتباس كثير من المقالات التي تنشر فيها ، وترجمتها إلى اللغات المختلفة من فارسية ، وتركيبية ، وأوردية وغيرها ، وإن ذلك لجدير بأن يحفزنا إلى مضاعفة الجهود ، وبذل كل ما نستطيع في خدمة ديننا وثقافتنا الإسلامية ، وأمتنا الوفية ، وبالله التوفيق .

## فهرس

كلمة التحرير . . . . .	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير ٢١٩
تفسير القرآن الكريم . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ٢٢١
الإسلام - الأزهر - التقريب . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ٢٣٣
الاجتهاد في الشريعة بين السنة والشيعة	لفضيلة الأستاذ العلامة كاشف الغطاء ٢٣٩
التسامح الديني في الاسلام . . . . .	لصاحب العزة الأستاذ أحمد أمين بك ٢٤٤
رمضان . . . . .	لصاحب السباحة العلامة الشهرستاني ٢٥٠
الشخصية المحمدية . . . . .	لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد وجدى بك ٢٥٤
أمة واحدة وثقافة واحدة . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى ٢٥٨
الفقه السياسى عند المسلمين . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبدالعزيز المراغى ٢٦٣
أمالى المرتضى . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ أبى محمد العرجاوى ٢٦٩
لا تنازوا بالألقاب . . . . .	لفضيلة العلامة الشيخ عبد الكريم بن جهمان ٢٧٧
اقتراح على الأزهر . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبدالعزيز محمد عيسى ٢٨١
التاريخ والتقريب . . . . .	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض ٢٨٦
من أحاديث الجد فى باريس . . . . .	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى ٢٩٣
ماذا تحبّه نواة الذرة للإنسان . . . . .	لحضرة الدكتور محمد محمود غالى ٢٩٨
رحلة إلى إيران . . . . .	لحضرة الدكتور يحيى الخشاب ٣١١
صوت التقريب . . . . .	٣١٥
تحية . . . . . وشكر . . . . .	٣٢٧

## رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلد اسلامى عالميه  
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الاسلاميه بالقاهرة

رئيس التحرير: محمد محمد المدينى مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة: ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك - القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤  
قيمة الاشتراك عن سنة في البلاد العربية خمسون قرشاً ومضرباً  
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ذو الحجة ١٣٦٨ هـ  
أكتوبر ١٩٤٩ م

السنة الأولى  
العدد الرابع

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونُ  
”قرآن کریم“

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة التخرير

كان من أهم أسباب النزاع التي تفضى بالشعوب والدول إلى الخصومات والحروب ، تلك الرغبة الطبيعية التي تمتلئ بها جوارح الإنسان من حب الغلب والفهر والاستئثار بأكبر حظ من متع الحياة ولو على حساب غيره ، وقد سجل التاريخ كثيراً من أخبار الحروب التي كانت المطامع تشب نيرانها ، وكيف كانت دول تنشأ ، وأخرى تموت ، وملوك تمز ، وأخرى تذ ، وكيف كانت الدماء تسيل أنهاراً ، والأرواح تحصد حصداً لأن زعيماً مسلطاً ، أو قائداً مظفراً ، يريد أن يفرض سلطانه ، أو يبنى مجده ، أو يجعل له في التاريخ شأنًا وذكرًا .

وقد ظل هذا الروح الآثم يسيطر على العالم ويتحكم في مصائر الأمم إلى عصرنا هذا مع فرق يسير بين الماضي والحاضر ، هو أن جبايرة الأولين كانوا صرحاء يصفون الواقع ، ولا ينافقون فيه ، ويعانون ما يريدون أن يصلوا إليه من مجد الغلب والنصر والتوسع إعلاناً صريحاً واضحاً ، أما جبايرة العصر الحديث فيتظاهرون بالدفاع عن المبادئ والمثل ، والرغبة في رفع مستوى الإنسان ، ومنحه الحقوق الطبيعية للبشر ، وأمثال ذلك مما يتشدقون به ، ويختفون من ورائه ، ويجعلونه حجاباً يثرونه حول حباتهم ، وطعماً يفرزون به فرائسهم ، وكان من جراء ذلك أن اتخذت كل أمة من الأمم العظمى ، بل كل دولة متحكمة في أمة ، مبادئ دُعم رجالها أنهم يؤمنون بها ، ويعملون عليها ، وجعلوا يبشرون بها في الخافقين ،

ويدعون إليها أهل المشرقين وأهل المغربين ، ويحشدون لها العقول والعلوم والفنون والمواهب ، وسواعد الجند ، وخزائن المال ، ودهاء الساسة ، وتجارب القادة ، وقصارى ما يستطيعون دون ذلك أو فوق ذلك من جهود وقوى ، ومن ثم غزيت الأفكار ، قبل أن تغزى الديار ، بالنازية أحياناً ، والفاشية أحياناً ، والشيوعية أحياناً ، ووقف في الجانب الآخر قوم يتنادون بما يسمونه الديمقراطية أو الاشتراكية . ومُقرعت الأسماع بمبادئ ولسن ، وحريرات روزفلت ، وميثاق الإطلاطى ، وخلبت الأنظار بعصبة الأمم ، ومحكمة العدل ، ومجلس الأمن ، وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا : بشراكم اليوم فقد أظلمكم عصر حرية الشعوب وتقرير المصير ، والتخلص من الظلم والعوز والخوف ، وآدنت السماء الأرضَ بسلام وعدل دائمين تام في ظلالها الناعية إلى جانب الباغية فلا تخاف ظلماً ولا هضماً .

وبات العالم مشغولاً بهذه الأفكار التي تثار ، فألفت الأحزاب ، وكوّنت الجماعات ، ومُصنفت الكتب ، ونشرت الصحف ، وبثت الدعاوات ، ومُصور الأمر للناس في كل أمة على أن حروب القهر والغلب والتوسع قد دالت دولتها من الأرض ، فإن تكن اليوم حربٌ فهي بين الخير والشر ، والصالح والفساد ، والحق والباطل ، والعدل والبغي ، حربٌ أفكار ومبادئ ومُثل ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تضع هذه الحرب أوزارها ، ويفشى الأرض السلام .

ومن عجب أن الذين وقّعوا على أسماع العالم هذا النعم فاستنم إليه وسكن ، قد استطاعوا أن يخدعوا به الناس مرتين في حربين متعاقبتين كانت نوايا السوء بعدهما تسفر واضحة ليس من دونها حجاب ، وأكبر الظن أن العالم سيخضع بذلك مرات آخر ، لأن السلام والعدل والأمن هي أقصى آمال البشر ، ومن دأب النفوس أن تصدق حديث الآمال ، وتركن في شأنها إلى الوعود والمواعيد .

\*\*\*

إن العالم لم يعرف « الجهاد » بمعناه الصحيح ، وباعثه الشريف ؛ الجهاد من



أجل الفكرة والمبدأ وسيادة الحق والفضيلة والخير والسعادة والإصلاح  
والمساواة؛ إلا يوم بزغت شمس الرسالة المحمدية، حين وقف رجل واحد نشأ  
يتيماً فقيراً أمياً في بلاد جردّها البؤس، وأنهكتها حروب الترات والنزغات،  
وأضلّتها الأوثان والنُصُوب، ينادى في صوت جهر لا يخافت به من شك ولا من  
خوف: أيها الناس. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم  
من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى،  
« ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية »، « أمرت أن أقاتل الناس حتى  
يتولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم  
على الله »، « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم »، « من كانت  
عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها »، « إن لنسائكم عليكم حقاً »، « لا إكراه  
في الدين قد تبين الرشد من الغي »، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين  
ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ». إنما  
ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم  
أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »، « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم  
ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »، « وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين  
لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »، « وإن أحد من المشركين استجارك  
فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »، « ولو لا دفع الله الناس بعضهم  
ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً،  
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا  
الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ».

بهذه المبادئ وأمثالها جهر في العالم رسول الإسلام فتفتحت لها قلوب،  
وصدت عنها قلوب، ولكن الله أذن للحق أن يعلو، وللخير أن يغلب، فسرى  
الإسلام وغدا حيث يسرى الليل ويغدو النهار، وجرت ريحه رخاء حيث أصاب من  
مشارك الأرض ومنارها، واستوى في عدله السيد والمولى، وفاء إلى ظله  
الضعيف والقوى، واجتمع في أخوته القاصي والداني، فإذا العربي أخو الفارسي،

والهندي أخو الصيني ، والمغربي أخو المشرقي ، بناء متماسك يشد بعضه بعضا ،  
وجسد واحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذا لعمرى هو الرباط الذى يسعد الناس إذا ارتبطوا به ، وتلك هى المبادئ  
التي ينبغي أن يعتنقها العالم ، ويبشر بها دعاة الإصلاح والخير فيه .

إن العالم فى حاجة إلى دعوة صادقة مخلصة ترسم له سبل الحياة السعيدة ،  
وتضع له أسس الاستقرار والسكينة ، وتجمع فى تعاليمها بين المادية والروحية ،  
فلا تسمح لإحدهما بأن تطغى على الأخرى ، ويشعر فى ظلها كل فرد بأنه لبنة  
فى بناء المجتمع ، وتأخذ الفطرة الصائبة فيها حظها الطبيعي فى كل ناحية من نواحي  
الحياة ، فلا أثر ولا استئثار ، ولا معاندة لما طبع الله عليه العالم من التفاوت  
فى المال والمواهب والاختصاص ، ولا تحكم ولا تمرد ، ولا عصبية لجنس على  
جنس ، ولا امتياز للون على لون ، ولا غمط لحق ، ولا انتصار لباطل ،  
ولا ترويج لرذيلة ، ولا تنكر لفضيلة ، ولن يجد العالم هذه الدعوة الصادقة  
المنقذة إلا فى الإسلام ، ولو ظل قرونا من الدهر ينظر إلى « الكتلين » ، ويرجع  
البصر كرتين . فليت شعرى إلام يقبع المسلون فى ديارهم وأوطانهم منكشدين  
يطرقها عليهم الطارقون ، فإما فتحوها لهم كارهين ، وإما ظلوا من ورأها  
خائفين يترقبون .

ألا إنهم لأرباب دعوة ، وأصحاب فكرة ، ودعوتهم هى النور المبين الذى  
به تمحى ظلمات الجهل والشرك والفساد ، والعلاج الحاسم لأدواء هذا العالم التى  
احترق فيها المتطيفون ، فليخوضوا بدعوتهم كل مخاض ، وليعرضوها على العقول  
بيضاء نقية كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وليلقوا بها فى وجوه أهل الباطل  
وما اصطنعوا من دعوات الزيف والضلال ، فإن الحق سينهق الباطل ، وإن عصا  
موسى ستلقف ما يافكون .

رئيس التحرير

محمد محمد الدق

# نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

لَحْظَةُ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَسَاقِطِ الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَيْخُوت

## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بجمل ما سبق - الأحرف المقطعة في فواتح السور  
وأراء العلماء فيها - هل في كتاب الله ما لا يفهم -  
هل المتشابه في القرآن من هذا الباب - الرأي الذي نراه  
في ذلك كله .

— ٣ —

قدمنا لقراء رسالة الإسلام ، في العدد السابق ، التعريف بسورة البقرة ،  
وعرضنا فيه لسبب هذه التسمية ، ومناهج الناس في فهم القصص القرآني ،  
كما عرضنا لمقاصد السورة التي احتوتها ، ومنه تبين أن هذه السورة المدنية عنيت  
بشئون الجوار الجديد الذي صار المسلمون إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة ؛  
فذكرت كثيرا من أحوال اليهود وشبههم ، كما ذكرت كثيرا من أحوال النصارى  
ومزاعمهم ، وأن هذا القسم ختم بالحديث عن حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس  
إلى الكعبة ؛ ثم عنيت بعد ذلك بشئون المسلمين الخاصة من جهة التكليف ،  
فذكرت كثيرا منها ، يرجع بعضه إلى الدماء ، وبعضه إلى العبادات من صوم وحج

وصلاة ، وبعضه إلى الأسرة من زواج وطلاق وإيلاء وعدة إلى آخر ما اشتملت عليه مما يحتاج إليه المسلمون في تنظيم نواحي الحياة ، وأنها مع هذا وذاك غنيت في مبدئها ووسطها وخاتمها بتجلية العقيدة الحقة التي جاءت لتقريبها ودعوة الناس إليها رسالة الإسلام ، فجاء في أولها : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، وجاء في وسطها وبين مقصديها : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المقنون ، وجاء فى آخرها : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، .

وقد كان سياق الآيات الأولى بيان عظم القرآن ، وأنه هداية للنفوس الخيرة التى لم تطمس إشراقها القلبي ظلمة المادة ، ولا عصية الجنسية ، ولا غلظة الأكباد أمام حاجة المحتاج من بنى الإنسان ، وأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بهداية الكتاب ، لا غيرهم ممن غشيتهم ظلمة المادة فقصروا إدراكهم على ما يحسون ، وقصروا اتجاهاتهم على ما تركه الآباء والأجداد فلم يعرفوا إلا ما عرفوا ، وتحجرت قلوبهم فلم تتأثر أمام حاجة المحتاجين ، ولم تقم فيهم بحق الشكر على ما رزقهم الله ، وكان سياق الآية الوسطى قرع أسماع المختلفين فيما لا يعود عليهم بخير ولا يفضى بهم إلى نفع ؛ بحقيقة البر التى يجب أن يلتزموها ، ويسلكوا سبيلها ، ويطهروا أنفسهم عما سواها ، لا فرق فى ذلك بين يهودى أو نصرانى أو مسلم ، تلك الحقيقة التى لا ترتبط بشئ من المظاهر والصور والأشكال ، وإنما ترتبط بالواقع الصحيح ،

واللباب الخالص في شأن العقيدة ، وما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وكان سياق الآية الأخيرة بيان أن هذه العقيدة التي دعا إليها الإسلام هي عقيدة المصطفين الأخيار من عباد الله الذين صفت نفوسهم ، واستضاءت بنور المعرفة قلوبهم ، وأدركوا أن دعوة الله في كل جيل وأمة هي دعوة الله ، لا تعدد فيها ، ولا اختلاف : « إن الدين عند الله الإسلام » « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

\*\*\*

بدئت « سورة البقرة » بحروف ثلاثة تقرأ مقطعة هكذا : ألف . لام . ميم ، وشاركها في البدء بالحروف على هذا النحو كثير من سور القرآن ، ليس فيها من المدني سوى السورة التي تليها ، وهي سورة « آل عمران » « ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » أما باقى السور فمكى .

وقد جاءت الحروف المقطعة التي بدئت بها هذه السور كلها ، على أنواع : منها ما هو ذو حرف واحد ، مثل « ص والقرآن ذى الذكر » « ق والقرآن المجيد » « ن والقلم وما يسطرون » ومنها ما هو ذو حرفين ، مثل « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » « يس والقرآن الحكيم » « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ومنها ما هو ذو ثلاثة أو أكثر ، مثل « الم » و « المص » و « المر » و « كهيعص » و « حم عسق » ... الخ .

افتتحت هذه السور بالحروف على هذا النحو ، ولم يكن هذا الأسلوب معروفا عند العرب من قبل ، ولم يكن لهذه الحروف معان في اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها كحروف هجائية يلتزم منها الكلام ، ولم يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيان للبراد منها ، وقد كان الناس — لذلك — أمامها فريقين : فريق يرى أنها مما استأثر الله بعلمه ، فلا يصل أحد إلى معرفة المراد منها ، ويرى فى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه « فى كل كتاب سر ، وسره فى القرآن

أوائل السور ، وعن على رضى الله عنه « أن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » ، وقد سئل الشعبي عن هذه الحروف فقال : « سر الله فلا تطلبوه » ، وهكذا ورد عن كثير من الصحابة والتابعين ، والفريق الآخر ينكر أن يكون في كتاب الله ما ليس مفهوما للخلق ، ويرى أن هذا المبدأ يتنافى مع الأوصاف التي وصف الله بها القرآن من أنه « بلسان عربي مبين » ، وأنه نزل « تبياناً لكل شيء » ، وأنه « هدى للناس » ، ونحو ذلك من الأوصاف ، ويقولون : لو أن فيه ما لا يفهم لما صح فيه وصف من هذه الأوصاف ، إلى أدلة أخرى من هذا الوادى ، وقد نسب هذا القول إلى المتكلمين ، وأثر عنهم في بيان المراد بهذه الأحرف أقوال كثيرة منها : أنها أسماء للسور التي بدئت بها ، ومنها أنها رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، فالألف مثلاً إشارة إلى أنه تعالى « أحد » ، أول ، آخر ، أبدى ، أزلى ، واللام مثلاً إشارة إلى أنه « لطيف » ، والميم إلى أنه « ملك » ، مجيد ، منان ، والعين إلى أنه « عزيز » ، عدل ، وروى عن ابن عباس أنه قال في « ألم » : أنا الله أعلم ، وفي « الر » : أنا الله أرى .. إلى غير ذلك مما يروون ، ومنها وهو أشهرها ومختار المحققين منهم كما يقولون : أنها حروف أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف التي عرفوها ، وألفوا كلامهم منها ، وهم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين فصاحتها وبلاغتها ، فلم يكن القرآن بمادته التي يتألف منها غريباً عليهم ، وقد تحداهم الرسول بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا ، فلو كان من عند غير الله ومادته معروفة لهم لاستطاعوا أن ينفوا عن أنفسهم العجز والخزي ، ولما جوهوا بالعجز الدائم المستمر في مستقبل لا يعلم مداه إلا الله « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

وردت هذه الأقوال وغيرها عن المتكلمين الذين يرون أن القرآن لا يمكن أن يحتوي على ما لا يفهم الناس ، ونحن نرى بادية ذى بدء أن القول بأنها رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله سبحانه ، قول لا يكاد قلب يطمئن إليه ،

إذ لا مستند له يعتمد عليه ، ولا قانون يرجع إليه ، فلكل ناظر أن يختار ما يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا ، ويجعل الحروف رمزاً له ، ونرى أيضاً أن القول بأنها أسماء السور يردده اشتهار السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف ، كسورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة الأعراف ، وسورة مريم ، وما إليها فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألسنة المؤمنين جيلاً بعد جيل ؛ ونرى أن القول الذي نسبوه إلى المحققين من أصحاب هذا الرأي ، وهو التنبيه على أن هذا القرآن من مادة الكلام الذي ألفوه وقد عجزوا مع ذلك عنه ؛ قول يعتمد قضيتين تصيدهما القائلون به من الواقع التاريخي لموقف العرب من القرآن ، ومن طبيعة هذه الحروف : إحداهما أن هذه من حروف التهجى المعروفة عند العرب التي يتركب منها كلامهم ، وأن القرآن مؤلف منها ، والآخرى أنهم مع ذلك قد عجزوا عن الإتيان بمثله . وما كان للعرب أن يجهلوا ، أو يغفلوا ، عن أن القرآن الذي يتلوه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم هو من هذه الحروف ، أما عجزهم عن الإتيان بمثله فهو أمر يعرفونه من أنفسهم ، ويعرفه التاريخ عنهم ، وقد سجله القرآن عليهم بالعبارات الواضحة البينة ، فليس الأمر في القضيتين بمحتاج إلى استخدام رمز كهذا الرمز البعيد الذي لا يستند إلى نقل صحيح ، ولا فهم واضح .

هذا وقد نوقش المتكلمون فيما استدلوا به على المبدأ الذي بنوا عليه أقوالهم في معاني أوائل السور ، وهو أنه لا يمكن أن يكون في القرآن ما لا يفهم ، فقل لهم : إن وصف القرآن بما وصف به من أنه هدى وتبيان ونحو ذلك لا يبطله أن تجيء في أوائل بعض سورته مثل هذه الحروف التي لم يتعلق بها تكليف أو إرشاد وأنه ما دام واضحاً في جملته وفيما قصده به ، فلا بأس أن يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه ، تنبيهاً على القدرة التامة في جانب الربوبية ، والقصور في جانب العبودية ، وتلك سنة الله في خلقه وتكاليفه ، فكم له في المكون من أسرار تنقضى الدنيا ولا تدرك ، وكم له في التكليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمتثل ، وما هذه المكتشفات التي تتجدد للبشر يوماً بعد يوم ، وتتكشف للعلماء جيلاً بعد

جيل ، إلا قطرة أو قطرات من بحر خلق الله الذى لا يعرف مداه سواء  
 « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا  
 بمثله مدداً ، . « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة  
 أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ، .

وإن فى قوله تعالى وهو بصدد الحديث عن الإسراء بعده من المسجد الحرام  
 إلى المسجد الأقصى « لزيه من آياتنا ، وقوله وهو بصدد الحديث عن الإيحاء إليه  
 « لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، ، لتنبها لتلوب المؤمنين إلى أن فى مكنون هذا  
 الكون ، وفى باطن خلق الله ما لا تدركه العقول ، ولا تصل إليه الأفهام ،  
 « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، وإذا كانت هذه لمحة ترشدنا إلى أن فى الخلق  
 أسراراً لا تدرك للعباد ، فإن فى الصلاة من جهة أعداد ركعاتها وأوقاتها وكثير  
 من وسائلها وكيفياتها ، وفى الزكاة والكفارات وسائر المقادير المشروعة المطلوبة ؛  
 للبحث أخرى واضحة جلية فى أن الله أيضاً فى تكاليفه ما يعجز البشر عن إدراك  
 أسرارها ، وما عليهم إلا أن يؤمنوا ويمثلوا ، فتصدق فيهم العبودية ، ويخلص منهم  
 الإيمان ، وما كان القرآن إلا شأناً من شئون الله جرت فيه سنته فى الخلق  
 والتكليف ، فلم يخل من حروف استأثر بها علم الله ، وثبت بها قصور البشر دون  
 أن يمس ذلك مقاصد القرآن ، أو ينقص من وضوح القرآن ويبيان القرآن .

وعلى هذا فيجوز أن يؤمن بأن فى القرآن سرا لا يدركه البشر هو معانى هذه  
 الأحرف التى جاءت فى فوائده السور ، ولكن لا ينبغي أن تتوسع فنطرد هذا  
 المبدأ فيما وضحت دلالاته العربية ، وثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ،  
 فنزعم كما زعم أناس من قبل أن القرآن ظاهراً يدل عليه ويفهمه العامة ،  
 ويكلفون به ، وباطناً لا يفهمه إلا الخواص من عباد الله وهم مكلفون به ، فتلك  
 نزعة فرقت المسلمين ، وضرب بعضهم بها رقاب بعض .

ولعل قائل يقول : كيف لا يكون فى القرآن سر غير مدرك للبشر سوى  
 معانى هذه الأحرف التى تحدث عنها ، وقد استفاض الحديث ، وامتلات الكتب



في الأولين والآخرين بأن في القرآن محكما ومتشابهها ، وأن المحكم ما فهمه الناس ، وعرفوا دلالاته ومعناه ، وأن المتشابه ما لم يفهمه الناس ولم يعرفوا دلالاته ومعناه ، وأن العلماء كانوا أمام هذا المتشابه فريقين : فريق السلف يرى التفويض وعدم الخوض في معناه ، وفريق الخلف يرى التأويل وصرف اللفظ عن دلالاته المعروفة إلى معنى يتفق مع ما دل عليه المحكم ، ويعتبرون من ذلك أمثال قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » . « يد الله فوق أيديهم » . « بل يده مبسوطتان » . « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » . فهل كل ذلك لا يكفي في أن في القرآن ما لا يعرف معناه وراء فواتح السور ؟

ونقول أولا : نعم كان كل ذلك ، وقرأناه عن السلف والخلف ، ولكن يفوت هذا القائل أن العلماء اختلفوا فيما بينهم في معنى المتشابه الذي قبول بالمحكم في قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » ، وكان لهم في ذلك أقوال كثيرة ينسب بعضها للتكلمين ، وبعضها للأصوليين ، وبعضها لغير هؤلاء وهؤلاء ، وقد اشتهر من بين هذه الأقوال قولان : أحدهما ما يلج القائل إليه ، وخلاصته أن المتشابه هو ما يوهم ظاهره معنى لا يليق بجلال الله ، ولا يتفق مع دلالة المحكم في تنزيه الله عن صفات الحوادث ، فإما أن يؤمن به المسلم على وجه لا يتنافى مع التنزيه ، ولا ينجح إلى تعيين المراد منه بالتأويل ، فيبقى له سره محفوظا في الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله ، ولما أن يصرفه عن ظاهره ، ويعين له معنى يدل عليه ويؤمن به على هذا الوجه ، وذلك كأن يقال كما قالوا : الاستواء بمعنى الاستيلاء ، واليد بمعنى القدرة ، واليمين بمعنى القوة ، وبسط اليدين بمعنى كثرة المنح والعطاء ، إلى غير ذلك ، وعلى هذا الوجه لا يكون من المتشابه بمعنى ما استأثر الله بعلبه ، وإنما هو من المتشابه الذي يحتاج في معرفة معناه إلى الرجوع للحكم فيعلبه أرباب القدرة على هذا وهم الراسخون في العلم ، والأمر على هذا الرأي الأخير واضح في أن القرآن ليس فيه متشابه بمعنى ما استأثر الله بعلبه .

وبينما يرى بعض العلماء هذا الرأى فى معنى المتشابه ؛ يرى غيرهم أن المتشابه المقابل للمحكم هو ما تعددت جهات دلالاته ، وكان موضعاً لخلاف العلماء ، ومجلاً لاجتهادهم ، وذلك يرجع إما إلى الاختلاف فى معنى مفرد ورد فى الآية كالقرء فى الحيض أو الطهر ، أو فى معنى تركيب كما نرى فى قوله تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » ، وإما إلى تحكيم حديث صح عند الفقيه فى معنى الآية بينما أن غيره لم يُحكمه فى معناها لسبب من الأسباب التى يراها ، وأمثلة ذلك كثيرة مبسطة فى كتب الخلاف يعرفها أهل العلم بالفقه ، وهى المقصودة « بالأمور المشتبهات » فى قوله صلى الله عليه وسلم « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمن كثير من الناس » ، وعلى هذا يكون المتشابه بعيداً عن دائرة ما استأثر الله بعلبه وليس مما نتكلم فيه .

وكما وجدنا المتشابه بهذا المعنى فى القضايا الفقهية ؛ نجده أيضاً فى قضايا أخرى لا تتعلق بصفات الله وتنزيهه ، ولا بعقيدة ما ، وذلك كما فى المسائل العلمية التى عرض لها المتكلمون ، واختلفت فيها فرقهم ، مثل خلق الأفعال ، ورؤية البارى ، وحقيقة الميزان والصراط ، وزيادة الصفات على الذات وما إلى ذلك من المسائل التى أثر فيها الخلاف بين فريق المعتزلة وأهل السنة ، وكان لكل فريق - من القرآن - على ما رأى حجة ومستنده ، ولا ريب أن خلاف المتكلمين فى مثل هذه القضايا هو كخلاف الفقهاء فى مذاهبهم وآرائهم ، وفى النوعين لم يُرد الله أن يكلف عباده بقضية معينة ، بل فتح باب الاجتهاد للعقل البشرى ليسلكه الإنسان ، ويحقق به نعمة الله عليه فى الإدراك والفهم ، والكل فى ذلك مؤمن ناج مرضى عند الله أخطأ أم أصاب ، وهذا جانب تكفيناً منه فى هذا المقام تلك الإشارة ، وأرجو أن يكون فيها بلاغ لقوم اتخذوا اختلاف العلماء فى المسائل الكلامية التى هى وراء العقائد سبيلاً للطعن والتجريح فى الإيمان

والعقيدة ، وما كان الله ليرضى عن الطعن والتجريح لرأى رآه الناظر فى موضوع وضعه الله موضع النظر والاجتهاد .

وبعد فلما أن نختار فى معنى المتشابه ذلك الرأى الذى يرجع الى اختلاف الدلالة واحتمال المعانى المختلفة فى آيات الأحكام ، أو آيات المعارف على النحو الذى أشرنا إليه ، ولما أن نختار رأى الخلف من المتكلمين الذين يصرفون اللفظ عن ظاهره إلى معنى يلقى بجلال الله وتنزيهه ، وعلى هذا وذاك يبقى لنا ما قلناه من أنه ليس فى القرآن ما استأثر الله بعله سوى فواتح السور .

على أن بين المتشابه فى رأى المفوضين ، وبين فواتح السور فرقا كبيرا ، ذلك أن المتشابه ورد فى قضايا ذات محمول وموضوع وإثبات ونفى ، ومفردات تلك القضايا لها دلالات حقيقية معروفة لأرباب اللغة ، وقد تستعمل فى معان مجازية تصرف إليها بالقرائن ، ولا كذلك فواتح السور التى هى أحرف مقطعة ، ليست قضايا ذات موضوع ومحمول ، وليست مفردات ذات معان مفيدة على نحو « استوى » فى قوله : « الرحمن على العرش استوى » مثلا ، وقد جاءت هذه القضايا أوصافا لله ، واعتقد الجميع ثبوت محمولها لموضوعها ، على وجه يقضى به الإيمان ، ولا كذلك أيضا فواتح السور التى تتحدث عنها .

ولعل القارىء بعد هذا كله يستطيع أن يتلس ما يزيل الشبهة التى أشرنا إليها فى صدر هذا الاستطراد .

ونعود بعد هذا إلى موضوعنا فنقول :

وكما أن هذه الحروف من حيث معانيها المرادة لله سر استأثر الله بعله ، فإن فى الإتيان بها على هذا الترتيب الذى جاءت به ، وتنوعت به فواتح السور ، وفى اختيار بعض الحروف دون بعض ، وهو صنع الحكيم الخبير الذى لا يضع أمرا على محض المصادفة ، لسرا آخر تقصر دون إدراكه العقول .

ولعل من الخير للناس بعد الذى قررناه فى هذا المقام أن يوفروا على أنفسهم

عناء البحث في معاني هذه الحروف ، وأسرار ترتيبها واختيارها على هذا النحو ، وأن يكفوا عن الخوض فيما لا سبيل إلى علمه ، ولم يكلفهم الله به ، ولم يربط به شيئاً من أحكامه أو تكاليفه ، وحسبهم أن يعرفوا أن الإتيان بهذه الفواتح على هذا الأسلوب الذي لم يكن مألوفاً في الكلام ، ولا معروفاً عند العرب ، كان قرعاً لاسماع أولئك الجاحدين الذين تواصوا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ، وأن يلفوا فيه لعلهم يغلبون ؛ كان هذا لقلوبهم ، ودفعاً بهم إلى إلقاء السمع ، وتدبر ما يلقى ، وقد جاء بعد هذه الحروف في الأعم الأغلب نبأ ذلك الشأن العظيم ، وهو كتاب الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وختم به رسالته إلى خلقه ، وبين فيه شريعته وسننه في كونه ، وكان لديه معجزة خالدة ، تنطق بأنه رسول الله رب العالمين ، اقرأ إن شئت ، ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ، ألمص كتاب أنزل إليك ، ألم تلك آيات الكتاب الحكيم ، ألم الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألم تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، ألم تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ، ألم الكتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ألم تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ، ألم ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، ألم طسم تلك آيات الكتاب المبين ، ألم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ، ألم طسم تلك آيات آيات الكتاب المبين تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ألم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للحسنين ، ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، ألميس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ، ألمص والقرآن ذى الذكر ، ألمحم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، ألمحم تنزيل من الرحمن الرحيم ، ألمحم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ، ألمحم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، ألمحم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، ألمحم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ألمق والقرآن المجيد .

اقرأ ذلك إن شئت تجد هذه السور كلها تتحدث عن القرآن أو تنزيل القرآن أو إنزاله ، وهو الكتاب الذى كان موضع الأخذ والرد فيما بينهم وبين الرسول ، وهو الكتاب الذى جاء ليصرفهم عما هم فيه من ضلال وبغى ، وهو الكتاب الذى وقفوا منه موقف المكابرة والعناد ، وهو الكتاب الذى رموه بأنه أساطير الأولين ، وبأنه حديث مفترى ، وبأنهم لو شاموا لقالوا مثله إلى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه ، فبدت هذه السور بهذا الأسلوب تأثيرا فى قلوبهم ، ولفتا لأنظارهم ، ولا يخفى أن المفاجأة بالغريب الذى لم يؤلف ، لها فى إرهاف الأسماع ، وتنبيه الأذهان ما لا يحتاج إلى بيان ، وفى هذا ما يكشف عن السر فى أن جميع هذه السور - ما عدا سورتين اثنتين - كان مما نزل بمكة حيث المعارضة فى أوج شدتها وعنفها ، حتى السورتان المدينتان كانتا فى إبان اشتداد المجادلة والمناقشة بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى ، ومن شاء فليقرأ النصف الأول فى كل من السورتين ليرى كيف انصرفت كل منهما فيه إلى الحجاج عن الحق ، والمجادلة عن دعوة القرآن على نحو شبيه بما كان من شأن القرآن مع المشركين .

ولا ينبغي أن يقال إن كثيرا من السور بدىء بالتحدث عن إنزال القرآن الكريم ، ومع ذلك لم تبدأ بهذه القوافى ، وذلك كسورة الكهف « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » وسورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » وسورة الزمر : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وسورة القدر : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ؛ وإنما جاء ذلك على سياق آخر قضى بذكر الحمد على إنزال الكتاب ، أو التمجيد لمنزل الكتاب أو التثويه بشأن الكتاب نفسه ، ولم تسق هذه السور مساق التنبيه وقرع الأسماع على النحو الذى جاءت به السور التى ذكرنا ، ولكل مقام مقال .

بقى أن يقال إن أربعا من السور التى بدت بهذه الحروف لم يحىء بعد الحروف فيها ذكر القرآن وتنزيله كما جاء فى غيرها ، وهى : سورة مريم « كهيعص

ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، وسورة العنكبوت : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، وسورة الروم : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » ، وسورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون » . فنقول : نعم لم يأت بعد الحروف في أوائل هذه السور الأربع ذكر القرآن ولا تنزيله ، ولكن جاء بعدها ما يشارك القرآن في أنه كان على غير السنن المألوفة للناس ، فقصة زكريا ونداؤه لربه أن يهب له على الكبر ولها ، واستجابة الله لهذا النداء وتبشيريه إياه ببيحي ، أمر جدير بأن تفرع له الأسماع ، وتنبه له القلوب ، وكذلك شأن سورة الروم التي أخبرت بغيب يحدث في المستقبل لا يشهد له الواقع الحاضر ، فكان مما يحسن في هذا المقام أن يوجه الناس إلى نبأ هذا الغيب بمثل هذا الأسلوب ، وسورة العنكبوت جاءت فاتحتها لتخلع الناس من شأن جرت عاداتهم بالاستئمان إليه ، والانصراف به عن الحق ، ذلك هو الاكتفاء بظاهر الإيمان دون تحمل أعباء الجهاد في سبيله ، والقيام بالتكاليف الإلهية التي يقتضيها ، ولا ريب أن هذا أمر ألقت النفوس أن تتركن إليه ، وأنه يؤدي بالناس إلى فساد في حياتهم ودينهم ويجعل الرسالات الإلهية قليلة الجدوى في الإصلاح والإسعاد ، فكان من الحكمة أن يلفت الناس لفتا قويا يغرس في قلوبهم أن سنة الله جرت بالاختبار والابتلاء تمحيصا للقلوب ، وتمييزا للخبيث من الطيب « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتمم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » ، ولقد فتننا الذين من قبلهم فليعلنن الله الذين صدقوا وليعلنن الكاذبين . أما سورة القلم فمهمتها لفت الأنظار إلى ما يوحى به القلم من العلم والحكمة اللذين هما أساس هذا الدين وهدف ذلك الكتاب العظيم .

أما بعد فهذا هو الأثر الذي يقتدرن بسماع هذه الحروف في فواتح السور ، أما معناها فلا أستطيع أن أقول فيه سوى هذه الكلمة الماثورة التي تعبر عن إيمان سلف صالح يؤمن حق الإيمان بعظمة الله وكتاب الله : الله أعلم بمراده ؟

## الاجتهاد في الشريعة

أثر مقال « الاجتهاد في المريعة » - فضل يذكر -  
 بحث في الموضوع للإمام المراغي : شروط المجتهد المطلق  
 متحققة الآن - الاجتهاد الخاص وآراء العلماء فيه -  
 التقليد - إجماع المحققين وتمسك ابن الصلاح به -  
 ليس في الأدلة المرعية شيء يسمى « إجماع المحققين » -  
 عدم العلم بالمخالف لا يسمى إجماعاً - جواز تقليد غير الأئمة  
 الأربعة متى صح النقل عنهم .

قرأ أهل العلم والفقهاء ذلك البحث القيم الذي جاد به قلم العلامة الأكبر  
 والشيخ الموقر محمد الحسين آل كاشف الغطاء عن « الاجتهاد في الشريعة ، بين السنة  
 والشيعة ، فرأوا كيف جلت فضيلته العلم ، وأنصف الحق ، وكرم وجه الوفاء ،  
 وعرف الفضل لأصحاب الفضل .

ولما كان هذا الموضوع الذي عرض له فضيلة الشيخ - حفظه الله -  
 من أهم الموضوعات الحية التي تتصل بالفقهاء الإسلاميين اتصالاً عملياً كما قال ؛  
 وكان قد أشار في ثناياه إلى أن الخذاق من علماء أهل السنة لا يرون فيه غير ما يرى  
 لإخوانهم من الشيعة ؛ فقد أشار علينا بعض حضرات أصحاب الفضيلة كبار العلماء  
 في الأزهر ، بأن نسجل على صفحات مجلة « رسالة الإسلام » هذا البحث الجيد  
 لإمام من أئمة أهل السنة في العصر الحديث هو المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ  
 محمد مصطفى المراغي ، شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، وهو بحث كتبه بروح العالم

المتمكن الغيور على الشريعة ، الحريص على أن تدبوا مكاتبتها اللاتقة بها في إصلاح المجتمع ، وإسعاد البشر ، وعلى أن يكون أهلها بحق مصاييح الظلام ، وهداة الأنام .

والاستاذ الأكبر الشيخ المراغى - رحمه الله - أشهر وأجل ذكرنا من أن تقدمه لقراءتنا في شتى أنحاء العالم ، ولكننا نذكر من آثاره الطيبة أنه أول من تنبه الى وجوب دراسة « الفقه المقارن » في الأزهر ، ولم يزل يدعو الى ذلك ، ويعمل عليه ، منذ رياسته للحكمة الشرعية العليا ، على صدور من العلماء ، ونفوذ من كثير ممن ييدهم مقاليد الأزهر حتى يسر الله فأصبح هذا الفقه مادة مقررة في منهاج أعلى فرقة في كلية الشريعة ، وكان عميدها يومئذ هو حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر الحالى - أطال الله بقاءه - وهو الآن يُدرس دراسة حرة خالية من التعصب المذهبي ، وليست المقارنة فيه مقصورة على آراء أصحاب المذاهب الأربعة أو متبعيهم ، وإنما هي أوسع من ذلك دائرة ، وأكبر نطاقا .

وهذا البحث الذى تقدمه اليوم لقراءتنا هو أثر من آثار الإمام الراحل ، كتبه إبان مساجلته لفريق من العلماء بشأن مشروع قانون الزواج والطلاق الذى كان من بين مواده أحكام عن الطلاق المعلق ، والطلاق الثلاث ، لم يؤخذ فيها برأى الأربعة ، وإنما أخذ فيها برأى يتفق وما يراه الشيعة الإمامية .

ولالى القراء الكرام نسوق هذا البحث :

\*\*\*

### المجتهد المطلق :

بعد أن قدم فضيلة الاستاذ الأكبر كلة عن سبب تعرضه لهذا البحث ، قال : ينبغى الإشارة إلى أن المجتهد قد يكون أهلا لاستنباط الأحكام الشرعية جميعها لتوافر الشروط فيه ، ويسمى « المجتهد المطلق » ، وقد يكون أهلا لاستنباط



أحكام وقائع خاصة لإحاطته بما يلزم لتلك الوقائع ، ويسمى « المجتهد الخاص » ، أو « المجتهد الجزئي » ، والمجتهد والفقيه والمفتي ألفاظ مترادفة في اصطلاح علماء الأصول .

ثم نقل فضيلته نصا طويلا عن الامام الغزالي في كتابه « المستصفي » ، وعلق عليه بقوله :

هذه هي شروط المجتهد المطلق الذي كلفه الشارع البحث عن الأحكام جميعها من أدلتها التفصيلية ، وحرم عليه التقليد وتوسيط أحد من خلق الله بينه وبين الأدلة ، وتلخص فيما يأتي :

(١) يشترط في المجتهد أن يكون عالما بموضع الآية التي يريد الاستدلال بها وتطبيقها عند الحاجة ، ولا يشترط فيه حفظ الكتاب كله ولا حفظ آيات الأحكام .

(٢) يشترط أن يكون عارفا بموقع كل باب من أبواب الحديث بحيث يستطيع المراجعة وقت الفتوى ، ولا يشترط أن يكون حافظا للأحاديث كلها ، ولا أن يكون حافظا لأحاديث الأحكام ، ويكفي أن يكون عنده أصل كسني أبي داود ومعرفة السنن لأحمد البيهقي .

(٣) يلزم أن يعرف أن الآية التي يستدل بها ليست منسوخة والحديث الذي يستدل به ليس منسوخا .

(٤) يلزم أن يعرف أن المسألة التي يبحث فيها ليست مجمعا فيها على رأي يخالف رأيه ، ولا يلزمه حفظ مواقع الاجماع والخلاف .

(٥) يلزم أن يكون عارفا باللغة والنحو على الوجه الذي يتيسر به فهم خطاب العرب ، وأن يكون عارفا بالأدلة وشروطها .

(٦) الأحاديث التي اشتهر رواتها بالعدالة وقبلتها الأمة لا يلزمه أن يبحث

عن أسانيدھا ، أما الأحادیث التي ليست كذلك فيكفيھ فيها تعديل الأئمة العدول لرواتها بعد أن يعرف مذاهبھم في الجرح والتعديل ، وأنها مذاهب صحيحة .

ومعظم هذه الشروط يشتمل عليه ثلاثة فنون : الحديث ، واللغة ، وأصول الفقه ، ولقد جمع العلماء آيات الأحكام في غير ما كتاب ، وجمعوا أحاديث الأحكام في غير ما كتاب ، وجمعوا الناسخ والمنسوخ في غير ما كتاب ، وجمعوا مواقع الإجماع في غير ما كتاب ، وأصبحت الأحكام مدونة في كتب الفقه وفي شروح الحديث وكتب التفسير .

وقد انتهى زمن الرواية للحديث وأصبحت الأمة تعتمد على الكتب المدونة كما تعتمد على آراء أئمة الجرح والتعديل في الرواة ، ومع هذا فكتب الرجال موفورة تضم سيرهم وأحوالهم ولا يعسر على طلاب العلم البحث عن رواة أى حديث من الأحاديث .

واللغة العربية وفنونها من نحو وصرف وأدب وبلاغة تدرس في معاهد مصر الدينية وغيرها دراسة دقيقة تكفي لفهم خطاب العرب ، كما يدرس أصول الفقه على أدق الوجوه وأكملها ، وتدرس الأدلة وشروطها ، وغير ذلك مما نص عليه الغزالي وما لم ينص عليه .

وليس مما يلائم سمعة المعاهد الدينية في مصر أن يقال عنها إن ما يدرس فيها من علوم اللغة والمنطق والكلام والأصول لا يكفي لفهم خطاب العرب ولا لمعرفة الأدلة وشروطها ، وإذا صح هذا ، فيالضيعة الأعمار والأموال التي تنفق في سبيلها .

ليس الاجتهاد ممكنا عقلا فقط ، بل هو ممكن عادة ، وطرقه أيسر مما كانت في الأزمنة الماضية أيام كان يرحل المحدث إلى قطر آخر لرواية حديث ، وأيام كان يرحل الرواة لرواية بيت من الشعر ، أو كلمة من كلم اللغة ، وقد توافرت مواد البحث في كل فرع من فروع العلوم : في التفسير ، والحديث ، والفقه ،

واللغة ، والنحو ، والمنطق ، ومُجمع الحديث كله ، وميز صحيحه من فاسده ، وفرغ الناس من تدوين سير الرواة ، وأصبحت كتب هذه الفنون تضمها مكتبات للأفراد والحكومات في كل قطر من الأقطار الإسلامية ، وهذا لم يكن ميسورا لأحد في العصور الأولى ، ومذاهب الفقهاء جميعهم مدونة ، وأدلتها معروفة .

والواقع أنه في أكثر المسائل التي عرضت للبحث ، وأفتى الفقهاء فيها ، لم يبق للجهتد إلا اختيار رأى من آرائهم فيها ، أما الحوادث التي تجدد فهي التي تحتاج إلى آراء محدثة ، وأن حفظ آيات الأحكام جميعها وأحاديث الأحكام جميعها وفهمها فهما صحيحا ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وحفظ مواقع الإجماع ، لا يحتاج إلى المجهود الذي يبذل لفهم مراعى كتاب من كتب الأزهر المعقدة .

إن الزمن لم يغير خلقة الإنسان ، والعقول لم تضمر ، والطبيعة باقية في الإنسان كما كانت في العصور الماضية ، وهام أولاء علماء الأمم يحدوهم الأمل إلى بلوغ أقصى ما يتصوره العقل البشرى ويصلون إليه بجهدهم واجتهادهم ، وقد كان أسلافهم في عماية وجهل ، وكان أسلافنا في نور العلم وضياء المدنية ، لم يقل أحد منهم بقصور العزائم ، ولا بترأخي الهمم عن البحث والتنقيب ، بل كلما مر عليهم الزمن جدوا في البحث والتنقيب ، وكثرت وسائط البحث والتنقيب .

وإني مع احترامى لرأى القائلين باستحالة الاجتهاد ، أخالفهم في رأيهم ، وأقول إن في علماء المعاهد الدينية في مصر من توافرت فيهم شروط الاجتهاد ويحرم عليهم التقليد .

### الاجتهاد الخاص :

ندع الاجتهاد المطلق وما يقال فيه من غير تبصر ، وتحدث عما يسمى الاجتهاد الخاص ، أو الاجتهاد الجزقى وهو الاجتهاد في واقعة خاصة للوصول إلى معرفة حكمها الشرعى بالدليل ، والقادر على هذا النوع يحرم عليه التقليد في المسألة التي يقدر على الاجتهاد فيها .

وقد اختلف العلماء في تجزؤ الاجتهاد وعدمه ، والأكثرون منهم على تجزئه ، ومنهم حجة الاسلام الغزالي والشيخ ابن الهمام ، وقد استدلوا لذلك بأن التقليد في حال القدرة على الدليل فيه ترك للعلم واتباع للريب وهذا منهي عنه بقوله عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وقوله : « استفت قلبك وإن أفنك المفتون » قال في مسلم الثبوت : ومن له حسن أدب بأحكام الله تعالى لا يتعدى هذا الأصل .

وفي المستصفي للغزالي : اجتماع هذه العلوم الثمانية إنما يشترط في حق المجتهد المطلق الذي يفتي في جميع الشرع ، وليس الاجتهاد عندى منصبا لا يتجزأ بل يجوز أن يقال للعالم إنه مجتهد في بعض الأحكام دون بعض ، فن عرف النظر القياسي فله أن يفتي في مسألة قياسية وإن لم يكن ماهرا في علم الحديث ، ومن عرف أحاديث قتل المسلم بالذمى ، وطريق التصرف فيها فلا يضره قصوره عن علم النحو الذي يعرف به قوله تعالى : ( وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ) وقس عليه ما في معناه .

وفي كتاب الإحكام للامدى بعد أن نص على شروط المجتهد قال : وذلك كله إنما يشترط في المجتهد المطلق المتصدى للحكم والفتوى في جميع المسائل ، وأما الاجتهاد في بعض المسائل فيمكن في فيه أن يكون عارفا بما يتعلق بتلك المسألة وما لا بد منه فيها ، ولا يضره في ذلك جهله بما لا تعلق له بها مما يتعلق بباقي المسائل الفقهية .

المكلف إذا حصلت له أهلية الاجتهاد بتمامها في مسألة من المسائل ، فإن اجتهد فيها وأداه اجتهاده إلى حكم فيها فقد اتفق الكل على أنه لا يجوز له تقليد غيره من المجتهدين في خلاف ما أوجبه ظنه ، وإن لم يكن قد اجتهد فقد اختلفوا فيه ، والمعتمد أن يقال إن القول بجواز التقليد حكم شرعى لا بد له من دليل والأصل عدم ذلك الدليل ، فن ادعاه فعليه البيان .

هذه آراء علماء الأصول في الاجتهاد الجزئى ، وهي صريحة في حرمة التقليد

على من يقدر على الاجتهاد في وقائع خاصة ، سواء أكان المقلد صحابيا أم تابعيا أم إماما من الأئمة الأربعة أو غيرهم .

وشروط الاجتهاد الجزئي كما يرى سهلة المنال ، فليس على مريد الاجتهاد في مسألة من مسائل البيع أو الطلاق إلا أن يعرف آيات البيع أو آيات الطلاق ، وأحاديث البيع أو أحاديث الطلاق ، ويعرف ما نسخ منها وما بقي ، ويعرف مواقع الاجماع ليتجنب المخالفة بعد أن يكون على بصيرة في فهم اللغة ، ونصب الأدلة ، وليس عليه أن يحيط بجميع الأدلة وجميع علوم اللغة وفنون المنطق والكلام وآراء الفقهاء . فهل يجوز لمسلم بعد هذا أن يقول إن على المسلمين في جميع بقاع الأرض تقليد واحد من الأئمة الأربعة دون سواهم وإلا كانوا آثمين جاهلين خارقين للاجماع ؟!

وسأعرض لهذا الشيء المبتدع الذي سموه إجماع المحققين لأبين منزلته ومكانه بين الأدلة الشرعية ، ولأكشف عن بصائر الناس هذا الغطاء الذي حجب عنهم نور الحق .

### التقليد :

العامي ومن ليس له أهلية الاجتهاد ، وإن كان محصلا لبعض العلوم المعتبرة في الاجتهاد يجب عليه اتباع قول المجتهد والأخذ بفتواه ، واتفقوا على جواز استفتاءه لكل من عرف بالعلم وأهلية الاجتهاد والعدالة .

قال الآمدي : وإذا حدثت للعامي حادثة ، وأراد الاستفتاء عن حكمها فإن كان في البلد مفت واحد وجب عليه الرجوع إليه والأخذ بقوله ، وإن تعدد المفتون ، فمن الأصوليين من ذهب إلى أنه يجب عليه البحث عن أعيان المفتين واتباع الأورع والأعلم والأدين ، ومنهم من ذهب إلى أنه مخير بينهم يأخذ برأى من شاء منهم سواء أتساووا أم تفاضلوا وهو المختار .

وإذا اتبع العامي بعض المجتهدين في حكم حادثة وعمل بقوله فيها فليس له الرجوع عن ذلك القول في هذه المسألة ، وهل له اتباع غيره في غير ذلك الحكم ؟ اختلفوا

فيه ، فمنهم من منعه ، ، ومنهم من أجازه ، وهو الحق نظرا إلى ما وقع عليه إجماع الصحابة من تسويغ استفتاء العاِمى لكل عالم في مسألة ، ولم ينقل عن أحد من السلف الحِجْر في ذلك ، ولو كان ممتنعا لما جاز من الصحابة إهماله .

وإذا عين العاِمى مذهبا معينا كذهب الشافعى أو أبى حنيفة أو غيره ، وقال أنا على مذهبه وملزم له ، فهل له الرجوع إلى قول غيره في مسألة من المسائل ؟ اختلفوا فيه فجوزه قوم ومنعه آخرون ، والمختار التفصيل ، وهو أن كل مسألة من مذهب الأول اتصل بها عمله فليس له تقليد الغير فيها ، وما لم يتصل عمله بها فلا مانع من اتباع غيره فيها .

وفى التحرير وشرحه : لا يرجع المقلد فيما قلده فيه ، أى عمل به ، اتفاقا . ذكره الآمدى ، قال الزركشى : وليس الأمر كما قال ، ففي كلام غيره ما يقتضى وجود الخلاف بعد الفعل ، وكيف يتمتع ذلك عليه إذا اعتقد صحته ، وعلى هذا فإذا تعارض قولان مجتهدين يجب التحرى فيهما ، والعمل بما يقع فى قلبه أنه الصواب وليس له الرجوع عما عمل به إلا إذا ظهر له خطؤه .

ولو التزم مذهبا معينا فقليل يلزم وقيل لا ، وهو الأصح ، لأن التزامه غير ملزم ، إذ لا واجب إلا ما أوجه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده فى دينه فى كل ما يأتى . ويذر دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة على عدم القول بذلك ، وصرح العلائى بأن المشهور فى كتب المذهب جواز الانتقال فى آحاد المسائل والعمل فيها بخلاف مذهب إمامه الذى يقلده إذا لم يكن ذلك على وجه التبع للرخص .

وفى التحرير وشرحه نقل الإمام فى البرهان إجماع المحققين على منع تقليد العوام أعيان الصحابة ، وأن عليهم أن يقلدوا الأئمة الذين جاءوا بعد الصحابة ، لأنهم دونوا وهذبوا وفصلوا وبوبوا وأوضحوا طرق النظر ، وعلى هذا بنى ابن الصلاح وجوب تقليد الأئمة الأربعة لانضباط مذاهبهم وتحرير شروطها ، وغير ذلك مما لم يعلم مثله فى غيرهم ، وحاصل هذا أنه امتنع تقليد غيرهم لتعذر

نقل حقيقة مذهبهم ، وعدم ثبوته حق الثبوت ، لا لأنه لا يقلد ، ولذلك قال ابن عبد السلام إن تحقق ثبوت مذهب عن واحد منهم جاز تقليده وفاقا وإلا فلا ، وإذا صح عن بعض الصحابة حكم لم يجز مخالفته إلا بدليل أوضح من دليله ، ومعلوم أنه لا يشترط أن يكون للمجتهد مذهب مدون ، وأنه لا يلزم أحدا أن يتمذهب بمذهب أحد الأئمة بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره . انتهى بتصرف .

وفي مسلم الثبوت وشرحه بعد أن نقل ما في التحرير وشرحه من إجماع المحققين ورأى ابن الصلاح :

قال القرافي : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر ، وأجمع الصحابة رضى الله عنهم على أن من استفتى أبا بكر وعمر أميرى المؤمنين فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما ، فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه البيان ، وقد بطل بهذين الإجماعين قول الإمام ( يريد بذلك قوله إن المحققين أجمعوا على منع تقليد أعيان الصحابة ) .

وقوله أجمع المحققون ليس معناه الإجماع الذى هو حجة حتى يقال أن إجماعهم عارض الإجماعين السابقين . وفي كلام الإمام خلل آخر : لأن التبويب والتنذيب والتفصيل ، لا دخل له في التقليد ، فإن المقلد إن فهم مراد الصحابي عمل به وإلا سأل مجتهداً آخر ، وبهذا بطل قول ابن الصلاح أيضاً . وفي كلامه خلل آخر : إذ المجتهدون الآخرون أيضاً بذلوا جهدهم مثل بذل الأئمة الأربعة ، وإنكار هذا مكابرة وسوء أدب ، والحق أنه إنما منع من تقليد غيرهم لأنه لم يبق رواية مذهبهم محفوظة حتى لو وجدت رواية صحيحة من مجتهد آخر يجوز العمل بها ، ألا ترى أن المتأخرين أفتوا بالتحليف للشهود إقامة له مقام التزكية على مذهب ابن أبي ليلى ؟ .

أطلنا في بيان النصوص في هذه المسألة لتجلى الحق فيها ، ولنبرهن على صحة ما قلناه في مذكرة المشروع من خطأ القول بعدم جواز تقليد غير الأئمة الأربعة .

ومن أن هذا رأى حادث في الأمة الإسلامية لم يقله أحد قبل ابن الصلاح ، وهو رأى خاطيء مبنى على خطأ .

كان المسلمون مجمعين على جواز تقليد أى عالم من علماء المسلمين ، فجاء الإمام ونقل إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة ، لأنه ليس فى وسع العامى أن يعرف غرضهم ، وأن يفهم مقصودهم ، ثم رتب ابن الصلاح على هذا وجوب تقليد الأئمة الأربعة دون سواهم ، وبذلك نسخ حكم الإباحة الذى كان مستفادا من إجماع المسلمين برأى ابن الصلاح المبني على إجماع المحققين .

ابن الصلاح هذا فقيه مقلد فكيف يؤخذ برأى فقيه مقلد ليس واحدا من من الأئمة الأربعة ، وكيف ينسخ الاجماع برأى واحد لا يصح تقليده ولا الأخذ بقوله .

ليس لاجماع المحققين قيمة بين الأدلة الشرعية ، فهى محصورة : كتاب الله وسنة رسوله ، وإجماع المجتهدين ، والقياس على المنصوص ، ولم يعد أحد من الأدلة الشرعية لإجماع المحققين ، فكيف يبرز هذا الاجماع ، وأخذ مكانته بين الأدلة ، وأصبح يقوى على نسخ إجماع المسلمين ؟

لم نعرف أحدا من العلماء ، تكلم عن إجماع المحققين ، وشروطه ، وطريقته نقله ، وهل هو ممكن أو مستحيل ، وهل يمكن نقله ، وهل يكفر مخالفه ، وغير ذلك من القواعد التى وضعها العلماء لاجماع المجتهدين ، فكيف مع هذا نأخذ من إجماع المحققين أحكاما شرعية تحصر الدين الاسلامى جميعه فى أشخاص أربعة بعد أن كان الفقهاء لا يمكن عدّهم فى جميع العصور الماضية ؟

الاجماع الذى هو حجة معروف فى كتب الاصول أنه اتفاق جميع مجتهدى عصر من العصور على حكم شرعى ظنى ، وليس يعيننا الآن أن نبين إمكانه واستحالته ، وإمكان نقله وعدم إمكانه ، فهذا لا يدخل فى بحثنا الآن ، ولكن نذكر شيئا واحدا وهو أن محققى العلماء يرون استحالة الاجماع ونقله بعد القرون الثلاثة الأولى نظرا لتفرق العلماء فى مشارق الأرض ومغاربها ، واستحالة الإحاطة بهم وآرائهم عادة ، وهذا رأى واضح كل الوضوح لا يصح لعاقل أن ينازع فيه .



وإذا كان هذا واضحاً بالنسبة لاجتماع المجتهدين - وهم أقل عدداً بلا ريب من المحققين - فكيف عرف إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة؟ وكيف أمكن نقل هذا الاجماع؟

ولندل على رأى الأئمة في الاجماع، نثبت هنا ما قاله الإمامان الجليلان الشافعي وأحمد رضى الله عنهما : قال الشافعي في الرسالة : ما لا يعلم فيه خلاف فليس بإجماع . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبي يقول ما يدعى فيه الرجل الاجماع فهو كذب ، من ادعى الاجماع فهو كاذب ، لعل الناس يختلفوا ، ما يدرى به ولم يته إليه ؟ فليقل : لا نعلم الناس يختلفوا .

هذا ونصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل عند العلماء من أن يقدموا عليها توهم إجماع مضمونه عدم العلم بالمخالف ، ولو ساغ ذلك لتعطلت النصوص ، وساغ لكل من لم يعلم خلافاً في حكم مسألة أن يقدم جهله بالمخالف على النصوص . ولكن ضعفاء الأحلام ، ومن لم ينضج عليهم صاروا يدعون الاجماع عند عدم العلم بالمخالف قبل البحث عنه ، ولم يكف الناس ما هم فيه من شر ادعاء الإجماع كذبا حتى زادوا لهم شيئا سموه إجماع المحققين .

والخلاصة أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم . وستثبت في فصل آخر إمكان صحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ، وما ينبغي الإشارة إلى فساد ما قاله صاحب الأشباه ، وهو : الخامس مما لا ينفذ القضاء به ما إذا قضى بشيء مخالف للإجماع وهو ظاهر ، وما خالف الأئمة الأربعة مخالف للإجماع ، وإن كان فيه خلاف لغيره ، فقد صرح في التحرير أن الاجماع انعقد على عدم العمل بمذهب مخالف للأربعة لانضباط مذاهم ، وانتشارها ، وكثرة أتباعهم ، فإن هذا مبنى على اعتبار حصول الاجماع ، وهو غير صحيح . لأن الذى حصل هو قول ابن الصلاح بالمنع بناء على إجماع المحققين ، وقد عرف ما في هذا كله من الفساد ؟

## إلى جماعة النقيب

لمحاضرة صاحب السعادة الأستاذ الكبير السيد محمد صادق الصدر

رئيس مجلس التمييز الشرعي الجعفري ببغداد

مرحباً برسالة الاسلام - فرقنا السياسة وستجمعنا السياسة -  
مصر تلم الثعث والعراق ترحب - أثر فتح باب الاجتهاد  
في فقه الشيعة - عتاب على الأستاذ «خلاف» -  
ليس جعفر الصادق بالمجهول - حساب للأستاذ «أبي زهرة» -  
ليس الشيعة كما تظن - اجثوا بانصاف واكتبوا بتجرد .

أخذتُ رسالتكم ﴿رسالة الإسلام﴾ وكلم بالمسلمين من حاجة إلى «رسالة»  
تبعث فيهم روح الإسلام من جديد فينشطوا لاسترجاع مجدهم الخالد .  
قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : «بدى الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ» .  
أجل : عاد اليوم كما بدأ ، وليس عجيباً أن يكون الإسلام في فجر الدعوة غريباً  
فإن كل دعوة تبدو في أول الأمر غريبة لدى النفوس التي لا تألفها ، ولا تتعرف  
على أهدافها السامية ، وإنما الغرابة في أن يعود الإسلام غريباً في نفوس أبنائه  
ومعتقيه والناشئين في أحضانه .

إن كثيراً من شبابنا الناشئ اليوم لا يعرف من الإسلام إلا أنه ولد من  
أبوين مسلمين ، فلا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج ، ولا أى فرض من  
فرائض الإسلام ، له حرمة في نفسه أو خفقة حب في قلبه ، وإنما هي في رأيه  
خرافات لا تليق بالرجل المتمدن المتحفز للنهوض والرقى .

وبلاؤنا في شبابنا الخارج على تعاليمه بلاء يطول حديثه ، وهو أشد على الإسلام  
من خصم أعلن عدااه وخصومته .

و ﴿رسالة الإسلام﴾ مجلتكم الراقية ، أرجو أن تكون منارةً يهتدى بها الضالون إلى دينهم القويم ، وتعاليم الإسلام الرفيعة التي تكفل لهم السعادة والخير ترجع بهؤلاء إلى حضيرة الإسلام ، وترشد أولئك الجاهلين الذين قد خفي عليهم كثير من أحكام الدين .

كما أنى آمل أن تكون همزة وصل بين المذاهب الإسلامية تؤلف بين قلوبهم وتجمع شتاتهم ، وتوحد صفوفهم ، وتجعلهم جميعاً يداً واحدة على من سواهم .

فقد آن للامة الإسلامية أن تتكاتف وتتعاون ، وتكون كالبنيان المرصوص في ظرف عالمي دقيق لا تهض فيه أمة إلا إذا كانت متكاتفه يقظة .

لقد آن للشيعية والسنة اللتين فرقتهما السياسة أن تجمعهما السياسة (١) ، فإن السياسة التي فرقّت صفوفهما بالأمس قادرة على أن تؤلف بين قلوبهما اليوم ، وليس بين الطائفتين اختلاف جوهرى في الدين يوجب اتساع الشقة وبقاء الخلاف طوال السنين ، فالله واحد ، والقرآن واحد ، والنبي واحد ، وليست الاختلافات في الفقه إلا اختلافات اجتهادية ، وهى موجودة في كل مذهب من المذاهب الأربعة كما يعرفها المتبعون الواقفون على نقه هؤلاء جميعاً .

واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية

نعم هناك موضوع واحد مهم جداً كان — ولا يزال — ماثراً للخلاف والشقاق هو موضوع « الخلافة » ولكن الذى يهون الخطب أن أمس قد ذهب بكل ما فيه فلسنا نستطيع تغيير شىء مما وقع من حوادثه ولكن الذى نستطيعه الآن هو أن ننقضى الماضى وأن نعرب صفحاً عن المنازعات الطائفية التي أدت إلى هذا الانحطاط والتأخر في المسلمين ، والتي لا نجنى اليوم فائدة من ترديدها .

(١) إشارة إلى الكلمة القيمة : « فرقنا السياسة وستجمعنا السياسة » التي نشرتها مجلة المنار المصرية في حينها ، وهى من كلمات علامة جبل عامل الأكبر سماحة الحجة السيد عبد الحسين شرف الدين ، وهو من أعلام الأمة الذين خدموا الاسلام خدمات خالدة بالقلم واللسان والتأليف ، وكتابه الجليل (الفصول المهمة في تأليف الأمة) يعبر خير تعبير عن آرائه الإصلاحية في الاتفاق وجمع الكلمة ، بآرك الله في حياته ووفقه للخير والنفع العام .

إننا لا نريد من الاتفاق أن يترك كل منا مذهبه ويتبع مذهب الآخر إذ ليس من السهل على المسلم أن يترك مذهبه وقد نشأ وترعرع على حبه والاعتقاد به .

فالاتفاق بين هؤلاء وهؤلاء لا نريده على هذا النحو المستحيل وإنما نريده كما أرادت جمعيته الموقرة من التقارب ، بين المذاهب الإسلامية ، هذا التقارب هو أساس الوحدة اليوم ، وقد شئت جمعيته المحترمة أن تبذر هذه البذرة في مصر العزيزة على يد جماعة من افذاذها عرفوا بالعلم والأدب وحب الخير .

وليس من الغريب أن نرى مصر تجمع امرها على لم الشعث وجمع الكلمة ، ورتق الفتق ، والسعى وراء الوحدة والتقارب والتفاهم بين المسلمين خاصتهم وعامتهم ، وإن علماء الشيعة في العراق ليرحبون بهذه الدعوة المباركة ويمدون أيديهم إليكم — أيها السادة — يشاركونكم في كل هدف يرى إلى صلاح هذه الأمة وإصلاحها ، فسيروا على بركة الله د وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وجاهدوا فان النصر حليفكم ما دامت النية صافية ، والهدف سامياً ، والغرض صحيحاً يهدف إلى غاية مثلى .

واجهوا المسلمين في كل صفحة من صفحات مجلتكم الراقية ببحوث إسلامية تعرّف مذاهب المسلمين ويعرف كل مسلم مذهب الآخر ، ولتضح له ما خفي عليه من آراء ونظريات تقرب له ما بعد عن ذهنه من هذه البحوث والآراء .

وإنى أرى أن التناوب بالآراء في الفقه مقدمة للتقارب في السياسة وقد خطت مصر خطوات موفقة في هذا السبيل . بدت واضحة في لائحته القانونية للأحوال الشخصية فقد أخذت برأى الامام جعفر الصادق عليه السلام في كثير من موادها بما انفرد به الفقه الجعفرى كاعتبار الطلاق الثلاث في اللفظ من غير رجوع طلاقاً واحداً . وقضاء نفقة الزوجة ، والوصية لوارث وغير ذلك مما عرف اختصاصه بالمذهب الجعفرى ، وقد شاء المشرع العراقى أن يحذو هذا الحذو في لائحة الأحوال الشخصية غير أن ظروف القاهرة أخرت عرضه على المجلس النيابى إلى أجل غير معلوم .

أقد كان لفتح باب الاجتهاد عند الشيعة أثره الملبوس في صقل آراء فقهاءهم وجعلها متمشية مع العصر الحاضر في الرقي الفكرى ، والتقدم العقلى أضف إلى ذلك أن هذه الآراء مستقاة من اصح المصادر وأوثقها الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام الذين أخذوا عليهم عن جدهم الأعظم صلى الله عليه وسلم . ولا شك أن التطور في الفكر يسير بسرعة فيصل إلى هذه الآراء المصفاة القريبة من ذوق العصر كل القرب .

والغريب أن نجد فضيلة الأستاذ عبد الوهاب خلاف في مقاله المنشور في العدد الثانى من مجلتكم المعنون « كيف يسير الفقه الاسلامى تطور المسلمين » ، يذكر عند استعراضه للحركة الاجتهادية أسماء الأئمة الأربعة ويفغل ذكر الامام الصادق عليه السلام الذى تلمذ بعض هؤلاء عليه ، ثم يرى الكاتب الفاضل « أن الضعف الذى انتاب المسلمين سياسيا وخلقيا وعمليا قضى على هذه الجهود الجزئية أيضا وسد باب الاجتهاد المطلق وأصبح المسلمون وليس لهم أن يستنبطوا من الكتاب والسنة الخ » فهل من التقريب بين المذاهب أن نسدل الستار عما نعلم من فتح باب الاجتهاد عند الشيعة فى كل عصر وهى ميزة يذكرها المنصفون باعجاب بالذهب الجعفرى ؟!

وإذا كنا نحمل هذه الحقيقة الراهنة فهل نحمل شخصية الصادق اللامعة التى عبقث العصور بنشرها الفواح ، تلك الشخصية العظيمة التى كان يقول الامام مالك فى وصفها « ما رأيت عين ، ولا سمعت إذن ، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد فضلا وعلمًا وعبادة وورعا ، وكان كثير الحديث ، طيب المجالسة ، كثير الفوائد » وكان الحسن بن زياد يقول « سمعت أبا حنيفة : وقد سئل عن افقه من رأى قال : جعفر بن محمد ، وكان ابن أبى ليلى يقول : « ما كنت تاركا قولاً قلته أو قضاء قضيته لقول أحد إلا رجلا واحدا هو جعفر بن محمد » .

ليس من التقريب فى شيء — أيها السادة — أن تتغاضى عن مثل هذه

البدهيات عندما نخوض في بحث من البحوث الإسلامية النافعة فما التقريب اللفظي بين المذاهب بجامع للأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر، وإنما الذي يجمع كتبها، ويوحد أهدافها هذا التقارب الروحي المتبنى على الاحترام والإنصاف وإعطاء كل ذي حق حقه .

وإذا ساد الجو العلى مثل هذه الروح كنا على خير عظيم ، وكانت الأمة مقدمة على مستقبل زاهر ، وكانت جمعيتكم أول من وضع الحجر الأساسى لبناء الكيان الذى نحلم به ، ونتمنى له الشموخ والرفعة .

إننا لا نريد من جمعيتكم أن تسيطر على ما ينشر فى صفحات مجلتها أو يذاع على منبرها فحسب لأن هذا هو الهدف الأول من تأسيسها ، وإنما كل ما تتمناه أن يكون للجمعية نفوذ على سيطر على الأعلام والمؤلفات والمطابع يوجهها جميعا لمثل هذا الهدف السامى الذى نوهتم به فى أحاديثكم . واذعتموه على صفحات رسالتكم ، والعبء الثقيل لا يقوم به إلا أهله .

انظروا - أيها السادة - إلى ما كتبه الأستاذ الباحثة « أبو زهرة » فى كتابه القيم : « أبو حنيفة ، عن الشيعة ، واحكموا لحكمكم العدل ، وقولكم الفصل ، قال فى ص ٩٨ مانصه : « ومن ذلك نرى أن الشيعة مزيج من الآراء ، ومضطرب لكثير من الأفكار ، ونحلة قد ضلت بها أوهام كثيرة ، ودخلت عليها خواطر باطلة ، ومبادئ من ملل قديمة قد أرادوا أن يلبسوها بلباس الإسلام فضافت عن أن تسع بعضهم عقيدة الإسلام السامية النقية وهى عقيدة التوحيد . »

أهذه الصورة المشوهة صورة واقعية للشيعة تمثلها التمثيل الصحيح ؟ أكانت ضالة باعترافها بالشهادتين وقيامها بالصلاة والصوم والحج وأدائها للخمس والزكاة ، واهتمامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ؟ أكانت مبادئها باطلة لتفانيها فى حب أهل البيت الذين طهرهم الله فى محكم كتابه ، وفرض علينا مودتهم والاعتصام بحبلهم ، والذين جعلهم الرسول الأعظم سفينة النجاة لأمتة من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى .

ولم يكتف الأستاذ الجليل بهذا القدر من التصوير حتى أضاف إلى ذلك قوله في ص ١١١ : « وبعض الشيعة خلطوا بهذه الآراء آراء اجتماعية خطيرة مفسدة للنسل هادمة للأديان ، فاستحلوا الخمر والميتة ونكاح المحارم ، وتأولوا قوله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » وزعموا أن ما في القرآن من تحريم الميتة ولحم الخنزير كناية عن قوم يلزم بغضهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وكل ما في القرآن من الفرائض التي أمر الله بها كناية عن يلزم موالاتهم مثل علي والحسن والحسين وأولادهم .

فن هذه الفرقة - يا أستاذ - التي ترى مثل هذا القول المنكر المخالف للقرآن الكريم ، والمنافي للعالم الأديان كافة ؟

إن الشيعة لا تجيز الاجتهاد في مقابل النص ، فالآية الصريحة لا يجوز صرفها عن ظاهرها ، ولا تحريفها عن موضعها ، وقد أجمعت كلماتها على تحريم ما حرم الله تعالى ، وتحليل ما حلل في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل ، وأما نكاح المحارم فإنه أمر لا يقول به من له عرق ينبض بالشهامة والمروءة من بني الإنسان ، والشيعة التي لا تأخذ بالقياس - لأنها ترى أن دين الله لا يقاس بالعقول - لا تذهب إلى هذا الرأي الفاسد الذي لا ينطبق على قواعدها الفقهية وأصولها العملية ، وكان الأحرى بالأستاذ أن يتجنب هذه الأقوال التي لا تليق بباحث له علمه وأدبه وإطلاعه .

إن خصوم الشيعة قد أضافوا إليها فرقا لا وجود لها ، ونسبوا إليها أقوالا لا صحة لنسبتها ، على أن تلك الفرق الضالة التي ليست من الشيعة في شيء قد بادت واضمحلت ، فلا معنى لبعثها من جديد .

نفقيهم عنا ولسنا منهم ولا هم منا ولا نرضاهم

وقد عرضت مفصلا إلى هذه الفرق في كتابي « الشيعة » عند مناقشتي لأقوال الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك وكنت أظن أن تلك الضجة التي حدثت حول

تلك الأقوال يومئذ تبث لإخواننا الأعزاء رعاكم الله على البحث الصحيح في كتب الشيعة للاطلاع على آرائها في العلم والاعتقاد .

إن الشيعة اليوم — الإمامية الاثني عشرية — وهم المنشئون في إيران والعراق ولبنان وسائر البلاد الإسلامية — والزيدية — وهم في اليمن ، هؤلاء جميعا قد عرفت مبادئهم وآراءهم في كتبهم الفقهية والكلامية والتاريخية ، فليس من الانصاف في شيء أن نصور الشيعة كما يريد خصومها ، وكما تشاء الأهواء السياسية في ذلك العصر الغابر يوم كانت الحقائق مكتومة قد أسدل عليها ستار كثيف من التعصب للرأى والمذهب .

أما وقد شاعت الحرية اليوم وأسفرت الحقائق في كثير مما يكتب من المباحث العلمية بفضل المطابع وانتشار الكتب والمؤلفات القديمة والحديثة فلنكتب بتجرد وأمانة معتمدين على كتب كل طائفة نريد معرفتها ، وتحليل مبادئها ضاربين صفحا عن كل بحث يضر بالمصلحة ، أو لا يحقق المودة والألفة وفق الله الجميع للخير والعمل النافع .

\* \* \*

« رسالة الإسلام » نؤيد الكاتب فيما توجه به إلى الأستاذ الكبير « أبي زهرة » .

فإن كان له وهو العالم البجائي أن يعبر التفاتا لما يشاع عن بعض من يحسبون على الشيعة أو من انقضوا فلم يعد لهم وجود بينهم . فإن في كل طائفة سنة كانوا أم شيعة خواص علمائها الذين لا يعمل إلا على آرائهم ، وفيها شذاذ لا يؤبه لهم ، فإذا جرى العلماء منا على تصيد الهنات دون تحقق ولا تثبت كان مثلهم كمثل بعض المستغرقين الذين يحملون المسدلين عامة تبعات ما يقوله ضعفهم ومنكروهم ، وتلك خطة يأبأها الحق والانصاف .

أما ما ذكره الكاتب موجها إلى الأستاذ الكبير الميخ خلاف ، ففي رأينا أن الأستاذ « خلاف » لم يقصد بذكر الأربعة الأئمة أن يجعلهم غيرهم ، وأن حديثه عن سد باب الاجتهاد كان في سياق يعبر بأنه غير راض عنه ، وإذن فلا بأس عليه ، على أن هذا العتب في الجانبين محمود عواقبه إن شاء الله .



## حُكْمُ الشَّرِيعَةِ فِي اسْتِبْدَالِ النِّقْدِ بِالْهَدْيِ

هل يجوز استبدال النقد بالهدى في الحج ؟ سؤال يتردد على ألسنة الناس كلما أظلمهم موسم الحج ؛ وقد تجد الحديث عنه هذا الشهر في الصحف والأندية العلمية ، ووجه فيه استفتاء إلى العلماء ، فأجاب عنه فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر ، ومفسر القرآن الكريم بهذه المجلة ، وقد رأينا أن ننشر فتواه على العالم تسجيلاً لها وتعميماً للنفع بها .

قال الله تعالى : وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أَحْضَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ، أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ، فَإِذَا أَتِمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ .  
وقال تعالى : « وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، وَقَالَ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ، يُحْكَمُ بِهِ ذَوْأٌ عَدْلٌ مِنْكُمْ ، هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ، وَقَالَ تَعَالَى : « وَالْبَدْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ نَحْنُ نَحْنُهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ، وَقَالَ تَعَالَى : « ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » ، وَقَالَ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ، وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ، وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ . »

بهذه الآيات الكريمة ، وبما صح من أحاديث الاضحية ، تقرر في الإسلام أن إراقة الدم نوع من أنواع القربى إلى الله ، وأن هذه القربة لا تقوم إلا بذبح الحيوان وإراقة دمه ، وأن التصدق بشمنه لا يغنى ولا يقع عند الله موقع القبول في القيام بهذا المطلوب .

وقد تضمنت الآيات الكريمة النص على الهدى تارة على سبيل التعيين دون أن يكون له بدل ، وتارة على سبيل التعيين مع الالتجاء إلى البدل عند العجز عن الهدى ، وثالثة على سبيل التخيير بينه وبين غيره .

كما تضمنت أن مكان الذبح فيما وجب ذبحه هو الحرم « حتى يبلغ الهدى محله » ثم محلها إلى البيت العتيق « هديا بالغ الكعبة » ، وكذلك تضمنت اعتبار البدن والذبايح في هذه الأماكن من شعائر الله التي تجب المحافظة عليها ، ولا يصح التهاون فيها أو إغفالها ، وحسبنا « لاتحلوا شعائر الله ، والشعائر هي العلامات الواضحة الظاهرة التي اعتبرها الدين مظهرا من المظاهر العامة ، وهذا لا يتحقق إلا بعمل ظاهر يراه الناس في مناسبات خاصة ، وإذا أردت زيادة في الإيضاح ، فانظر إلى موقف الشريعة من الأذان ، إذ اعتبرته شعيرة من شعائر الدين ، يقاتل أهل القرية أو المدينة على تركها وإن لم تكن من الفرائض .

ألا وإن للشعائر في نظر الإسلام مكانة الفروض المقدسة ، وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء في ذبايح الحج ، ولم نر لواحد منهم خلافا في ذلك ، نزولا على حكم هذه الآيات الصريحة الواضحة ، وتحقيقاً للغرض المقصود ، وهو التقرب إلى الله بإراقة الدم ، والله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء : بما يدركون حكمته ، وبما لا يدركون ، وما كان اختلاف الفرائض في عدد الركعات والكيفيات وتحديد الأوقات ، واختلاف مقادير الزكاة ، والكفارات ، وسائر ما دخله العد ، أو اعتبرت فيه الكيفية إلا نوعا من هذا التعبد الذي يتجلى فيه بوضوح مقتضى العبودية الحقة ، وهو الامثال لأمر الرب الحكيم ، عقل معناه أو لم يعقل . والعلماء يذكرون في هذا المقام أن هذه القربة تذكر بجاذبة الفداء الذي حصل لأبراهيم

الخليل وولده عليهما السلام ، وتنبه النفوس المؤمنة إلى مبدأ التضحية في سبيل الله وطاعته بأعز شيء لديها « وفديناه بذبح عظيم » .

على أن في العمل بهذه القرية سرّاً اقتصادياً يرجع الى سكان البادية ، ولعله من مصداق دعوة أبيهم إبراهيم حين قال : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ، ذلك أن الماشية رأس مال أهل البادية ، وموسم الحج هو السوق التي تنفق فيه هذه السلعة ، عن رغبة لا مشقة فيها ، وبذا يحصلون على أرزاقهم من أعمالهم ومن ثمن أموالهم دون أن يتعرضوا لذل السؤال أو يترقبوا المن والعطاء .

من هذا يتضح جلياً أنه لا يجوز للمسلمين أن يفكروا في استبدال النقود بالهدى أو الأضاحي التي طلبها الشارع بذاتها ، إقامة للتصدق بثمنها مقامها إذ ليس القصد هو التصديق وإنما القصد - كما قلنا - التقرب بها نفسها ، وإنا لو أبحنا لأنفسنا هذا النحو من التفكير - بناء على ما نظن من حكم التشريع - لانفتح علينا باب التفكير في التخلي عن الأعداد والكيفيات التي طلبت في كثير من العبادات ، ولأمكن لقائل أن يقول : إن الغرض من الصلاة هو الخضوع ومراقبة الله ، وهما معنيان يحصلان بالقلب ، وبأى مظهر من مظاهر الخضوع والمراقبة ، فليست هناك حاجة إلى ركوع أو سجود أو غيرهما من كيفيات الصلاة الخاصة ! وبذلك ينفتح باب الشرع على مصراعيه ، ولا يقف ضرره عند حد الأضاحي وفدية الحج .

أما ما يبررون به مثل هذا التفكير من أن لحوم الذبائح تتكسد في منى ، وترك للتغنى بالمفسد للجو ، أو للنار المذهبة للأموال ، فهذه الحالة - إن صحت - ليست ناشئة عن أصل التشريع الذي هو خير كله ، وإنما نشأت عن عدم التنظيم وعدم الإمام بأحكام الشرع ، فإن الشرع لم يطلب من كل حاج أن يذبح ، ولم يوجب أن يكون الذبح - فيما يطلب فيه الذبح - في خصوص منى ولا مجزرتها ، ولا في اليوم الأول من أيام النحر ، فأيام النحر كلها زمن للذبح ، والحرم كله مكان للذبح ، والذبح لا يطلب عينا إلا في حالات مخصوصة ، وما عداها فالحاج مخير بينه وبين غيره من صدقة أو صيام .

فلو عرف الحجاج أحكام الله على هذا الوجه فيما يختص بالدماء فتصدق من لم يطلب منه الذبيح ، وذبح من طلب منه الذبيح ، وفرقوا الذبيح على الأماكن والأيام ، ثم تخيروا الذبيحة من غير العجاف والمرضى ، وهشوها بالسُلخ والتقطيع لما كان لهذه الشكوى موضع ، ولكن جرت سنتنا في التفكير أن نعد الوضع الذي جرت إليه العادات - وإن كانت فاسدة - صورة للتشريع فنحكم عليه بالقبح ، ثم نحاول التخلي عنه بالتمضاء على أصله ، وبذلك ندخل في باب من التغيير والتبديل في أحكام الله ، ولا نلبث بعد ذلك أن نترك الشريعة كلها جانباً ، باستحساننا الفاسد المبني على واقع جر إليه الجهل وعدم التنظيم .

وبعد : فإن الكلام في هذا الموضوع ليس وليد اليوم ، بل سبق أن تحدث فيه المرحوم الملباوى بك مع فضيلة المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ المراغى ، فأحال فضيلته على بحثه من الوجهة الفقهية الشرعية ، فعدت إلى فضيلته بعد البحث الطويل بأن الفقهاء جميعاً يعتبرون التعبد في هذه المسألة بإراقة الدماء ، دون أن أرى في كلام واحد منهم ما يشير - ولو من بعيد - إلى جواز استبدال النقود بها ، فاطمأن فضيلته إلى هذا وأقره ، وقد عرضتُ على فضيلته اقتراحاً هو :

أنه على فرض تكديس اللحوم — كما يقولون بعد مراعاة الأحكام الشرعية في زمان الذبيح ومكانه ، وطلبه وعدم طلبه — يجب على المسلمين — وفيهم والحمد لله موسرون كثير — أن يعملوا على استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظ هذه اللحوم وإدخالها طيبة ، ثم توزيعها على الفقراء المحتاجين في جميع الأقطار الإسلامية إن ضاق عنها القطر الحجازي ، أو يبيعها بأثمان تصرف فيما ينفع الفقراء والمساكين ، أو في سبيل الله العامة ، وإني أعتقد أن هذا المشروع متى كفله العاهلان العظيمان المؤمنان : عاهل مصر ، وعاهل الحجاز ، رأيتا آثاره وانتفع الناس بشمراته في الموسم المقبل إن شاء الله .

هذا ما يجب أن ينزل عليه المسلمون في فهم أحكام دينهم ، وفي تنظيم العمل بها والمحافظة عليها ، والسلام على من اتبع الهدى ؟

## كلمات في العلم والدين

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

ظهر العدد الثالث من هذه المجلة المباركة ، فقرأت عقب مقال فيه كلمات وجهها إلى فضيلة الأستاذ المحترم الشيخ محمد فؤاد السيد المدرس بالأزهر ، يلاحظ فيها على ما ذكرته من خطر العلم على كثير من العقول ، وقد جاء في آخر كلمة فضيلته قوله : « فهل يتفضل أستاذنا الجليل ببيان ما هو العلم المقصود ، وما خطره على العقول الشرقية ؟ وعلى الإسلام دين العلم والعقل ؟ وكيف يمكن أن تتألب لدفع هذا الخطر » جميع العقول البشرية ، ومن بينها العقول القوامسة على إزجاء هذا الخطر ؟ » .

ونحن نجعل مقالنا في هذا العدد خاصاً بشرح ما أجملناه في العدد الأول فنقول :

اتفق أهل العلم في القرون الأخيرة بعد كفاح أسلافهم لرجال الدين زهاء عشرة قرون متوالية في سبيل حرية النظر ، على إطلاق كلمة ( العلم ) على المحصول العقلي والعمل لجميع مجالات البحث من أول ما اشتغل به الفلاسفة الأولون ، وجميع من جاء بعدهم من أهل التفكير الحر ، وصبروا على ما عوملوا به من العسف ، وما سيموا به من الاضطهاد ، حتى استشهد منهم في القيام بحقه أكثر من ثلاثمائة ألف في ثلاثة قرون متوالية ، إحراقاً بالنار ، وإغراقاً في اليم ، وذبحاً بالمدي ، وما لا يبر بخيال أحد من صنوف التعذيب التي تقشعر منها الأبدان ،

وكان الذين يتولون هذه الحركة العدائية للعلم رجال الدين ، فلما نشأت البروتستانتية في النصف الأول من القرن السادس عشر ، واشتغل رجال الدين بالخلافات المذهبية ، وأظهر قادة هذا المذهب الأخير تسامحاً مشكوراً حيال العلم والمشتغلين به ؛ تحرر العلم من رقابة خصومه ، فنهض رجاله ، وقد تملأوا حمداً على الدين وأهله ، يشهرون بهم وبالعقائد معهم ، ويبالغون في تقديمهم ، وتقديراً مذهبهم ، وكلما أمعن هؤلاء في تناحرهم ، وأغرقوا في جهودهم ضد أنفسهم ، عمل أهل العلم على جمع صفوفهم ، وتقوية جهات ضعفهم ، وعلى قدر ما كان يثمره العلم من الاكتشافات ومن اختراع الآلات ، وتدارك الحاجات ، كان يزداد تأثير فلسفته في العقول ، ويتضاعف الشعور باحترامه في النفوس ، حتى نفوس من ليس له أدنى نصيب منه من العامة ومن هم قرييون منهم من المتعلمين . فأصبح للعلم بعد هذا التطور العظيم منزلة في القلوب تفوق منزلته في العهود الماضية ، ولما توالى مكتشفاته البخارية والكهربائية والمغناطيسية في القرن الماضي وما سبقه ، اكتسب العلم سلطاناً على النفوس لم يكن لغير الدين ، وتناسى الناس العقائد ، بل أغفل ذكرها أكثرهم .

كان شعور أهل العلم في هذا الدور ، وقد استغرق نحواً من قرنين ، شعور من أسقطوا الدين ، وقضوا على دوفنه أبداً الأبد ! وقد صرحوا بذلك في مؤلفاتهم .

اكتسب ( العلم ) بالاجماع الذي انعقد حوله مكاناً ممتازاً ، فلو كان هذا الإجماع على العلم المطلق البالغ أقصى مداه بحيث يستحيل نقض أى حرف منه ، لكان تقديسه من أوجب الواجبات على كل عاقل ، ولكن العلم الإنساني كان لا يزال بحاجة إلى التحييص ، وكان كثير مما يعتبرونه بدايات علمية لا يزال يعوزها التحقيق ، وكانت المذاهب التي عللوا بها قيام الوجود بنفسه لا تزال ظنية ، وكان كثير منهم يعرف هذا ولا يجاهر به حتى لا يحط من مكانة العلم الذي أصبحت له بفضل هذا التقديس المحيط به ، شخصية أدبية تخر العقول أمامها ساجدة ، وقد بالغ بعضهم في هذا الغلو حتى وصفوه بالعصمة المطلقة ، واعتبروا أنفسهم

أهله الأقربين الذين من حقهم أن يحتكروا شرف التكلم باسمه ، فقررروا أن كل قول ينافي أصلاً من أصوله المقررة ، أو اكتشافاً سبق له أن حكم باستحالة ، أو رأياً جديداً يوهن بعض ما أيده ، كل هذا لا يجوز أن يلتفت إليه ، فضلاً عن دراسته والعناية به مهما كانت الغاية التي يرمى إليها ، أما محاولة إثبات بعض العقائد الدينية ، أو لفت النظر إلى ما يؤيدها من حوادث ، أو الأخذ في تمحيص ظواهر جديدة تمت إلى عالم الروح بسبب ، فقد كان هذا في رأى الكهنوت العلى من الاسفاف الذى يجب أن يترفع عنه المنتسبون إلى العلم بعد أن بلغ الغاية القصوى من حصر العوامل الوجودية والعلل الاولى .

في هذا الدور - وقد بلغ أوجه في القرن التاسع عشر - انتشر الإلحاد بين العلماء وذاع بين الطلاب والمتصلين بهم ذيوعا ينذر بانتهاء عصر الدين ، كما كان يذيعه مروجو هذا العهد في كتبهم ومجلاتهم ، وشعر رجال الأديان بالخطر فقبعوا في معابدهم يقرأون الطعن فيهم ، والتشهير بهم ، ولا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم .

هذا هو الذى عنيته في مقالى بقولى ( خطر العلم على العقول الشرقية ) وبقولى ( أن تتأب لدفع هذا الخطر جميع العقول البشرية ) ، ومرادى بهذه العقول هنا التى أفاق من غشية هذا الخطر ، لا العقول التى لا تزال غارقة فى حماة أو خابطة فى دُجته . وسيتبين القارىء مما يلى استقامة معنى هذا التعبير .

لم يسكد يهل القرن العشرون ، ويهتدى بعض العلماء إلى تفتيت الذرة فى سنة ١٩٠٧ (١) ويثبت أنها قوة وكهرباء ، وكان قد سبق ذلك اكتشافات أخرى فى المادة ونواميسها ؛ حتى هب رجال العلم من سباتهم ، وأعادوا النظر فيما لديهم من صروح نظرياتهم ، وإليك ما قاله فى هذا الموضوع العلامة (جوستاف لوبون) فى كتابه ( تحول المادة ) :

(١) الذى اكتشف أخيراً وتكرر ذكره كثيراً هو صنع قنبلة متى أُلقيت انفجرت . فيها الذرة .

« كان العالم يختال بالعلم الذى هو ثمرة جهود بذلت فى عدة قرون . وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضلها فى كل مجال من مجالاته . . . . » .

« دامت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها إلى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبداً الدهر . فإن الصرح العلمى الذى كان لا يرى صدوره إلا عدد قليل من العقول العالية ، تزعر فجأة بشدة عظيمة وصارت التناقضات والمحالات التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون . . . . » .

« تلك المكتشفات التى توهت بها أنفاً قد كشفت اللثام عن الظنيات التى بدأت تفضحها الكتب الحديثة ، وبذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كان العلماء يظنون أنه سلم منه أبداً الأبدى . . . . » .

« وقد كتب المسير لوسيان بوانكاريه ( العلامة الرياضى الكبير ) من جهته يقول : إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً ، ويجمع عليها المحربون إجماعاً عاماً ، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى ، واتسع المجال للاجترارات الممكنة ، ولم يظهر أن ناموساً من الواميس ضرورى ضرورة مطلقة ، فنحن نشهد فى هذه الآونة أعمالاً هى أشبه بالهدم منها بإقامة بناء نهائى . فالآراء التى كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسيساً ثابتاً ؛ صارت اليوم لدينا موضوعاً للنقاش . » .

ثم ختم العلامة (جوستاف لوبون) هذا الفصل بقوله :

« من حسن الحظ لا شئ أحسن ملاءمة للترقى العلمى من هذه الفوضى . فالوجود مغمى بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمى . فلا يمكن عمل خطوة للإمام إلا بعد تفكك عرى الآراء السابقة ؛ والأشد خطراً على تقدم العقل الإنسانى هو تقديم الظنيات للقراء لابساً حلل الحقائق المقررة ، على نحو ما تفعله



كتب التعليم ، والتداول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لما يمكن معرفته ، كما كان يود ذلك اجوست كونت ، انتهى .

وقال العلامة الرياضى الكبير ( هنرى بوانكاريه ) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتابه ( العلم والافتراض ) بعد ما وصف استسلام العلماء لكل ما اطلقوا عليه اسم العلم :

« لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الفروض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك ، حينذاك سأل بعضهم بعضا هل كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . »

هذا وإنى أستطيع أن آتى على عدد كبير من هذه الاعترافات ، وكلها تدل على إفاقة العقلية العلمية من غشيتها ، وعلى أنها استردت اتزانها ، ولست فى حاجة لأن أقول بعد هذا : إنه بزوال هذا السد الفولادى الذى كان قائما أمام العقول ، انفتح أمامها مجال النظر الصحيح ، والاستدلال القويم ، وخلصت من كابوس الانخداع الذى كانت تحت تأثيره عشرات السنين . ولكن هل بلغ هذا التطور العظيم انصاف العلماء ومريدهم من كل قبيل فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ لا ، فلا يزال السواد الأعظم فى غفلة من هذا ، ولا يزالون ينشرون الإلحاد حيث يوجدون ، ولم يفت هذا الأمر أئمة العلم الأعلين . قال العلامة (جوستاف لوبون) فى كتابه المتقدم ذكره :

« لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالا لم تزُل كل الزوال ، فستبقى أمدا طويلا - فى نظر الدهماء - كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من القيمة فى نظر العلماء الحقيقيين . »

وبعد فهذا هو خطر العلم الذى أشرت إليه فى مقالى السابق هنا ، على كثير من العقول ، وليس بخاف اليوم على أحد ما عليه هذه العقول من الإصرار على

مخافة الدين ، والحكم عليه بالزوال ، تمسكا منهم بالنظريات العلمية القديمة التي سقطت وأثبتنا لك رأى العلماء في سقوطها وسقوط منزلتها .

لذلك أهبطنا بالعقول التي استنارت بالعلم الحق أن تتألب على دفع هذا الخطر عن الدين ، فإنه رأس المقومات الأدبية للنوع الانسانى ، تلك المقومات التي إن سقطت سقط معها صرح الاجتماع كله ، ولا يغنى عنها العلم المادى كما لم يغنى عن الأمم البائدة . وها هي ذى الأمم التي اتلمست من شكيمة الدين تغافى بوسائلها العلمية ، ولا يغنى عنها عليها الزاخر شيئا ؟

## الدين والعلم

الدين والعلم فى نظر الماديين العصريين نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يتفقان ، ذلك بأنهم قصروا الكون على المحسوسات ، وأنكروا ما وراءها جملة وتفصيلا ، فلا روح ولا خلود ولا ملائكة . ولا غير هذا من العوالم الغيبية ، وتصوروا الدين على الشكل الذى يرون عليه المتدينين ، ولكنهم لو أنصفوا كما أنصف فى هذا العصر أكابرهم ، ووقفوا على ما فتح الله به على العالم العصرى من الحجج العيانة فى إثبات عالم ما وراء المادة ، ثم نظروا للدين فى أصله وينبوعه وعلاقته بالروح الانسانية نظر الحكيم المتبصر ، لعلبوا أنهم كانوا فى أحكامهم الأولى غلاة مفرطين ولأصبحوا من أعز أبناء الدين كما أصبح اليوم كذلك أكبر علماء الماديين ، ولسنا نياس من رجوعهم ، فقد رجع أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين .

[ محمد فريد وجدى بك ]

# فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَفِيما وَدَاءِ الطَّبِيعَةِ

لحضرة الدكتور عبد الحلیم محمود

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية اللغة العربية

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث في المغيبات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب إذا قلنا إنها نشأت منذ نشأة الانسان على ظهر البسيطة . وقد لا نعدو الصواب أيضا إذا قلنا إنها منذ النشأة الأولى ، قد اختلفت فيما يتعلق بمنهاج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة . وقد كان الاختلاف شاملا لكل المساتير ؛ فمن إنكار مطلق للألوهية والروح ، إلى إيمان مطلق عام يفرق في الوهم ويبعد في الضلال حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه ، وبين هذا وذاك مذاهب لا يحصيها العدّ : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار في الرأس ، وتبعث براهينها الشك في جميعها ، إلا من عصم ربى فوقه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربى ؛ ذلك أن اتباع الطريق السوى توفيق من الله ، وليس ذلك من اكتساب العبد ، فالحلول - مثلا - عقيدة راسخة استساغتها البيئات المسيحية - وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى - منذ ألفين من السنين ، وقد تسابقت العقول في البرهنة عليها ، حتى أقامتها على دعائم فلسفية منطقية خلبت عقول الملايين من بنى البشر ، فآمنوا بها ، وضحوا في سبيلها .

والتشبيه قد برهن عليه ذووه براهين عقلية ، وأخرى عقلية ، ووحدة الوجود لها أنصارها المتحمسون لها الذين يرون أن ما عداها لغو أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت في فترة من الزمن ، أو سادت في بيئة من البيئات . وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير ما أخرج للناس . ولو سرنا في المنطق إلى غايته لوصلنا إلى الحيرة والشك في كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك فاليقين موجود . ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس إذا كانت مشرقة ، فسوف لا يستجيب إليك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت إلى نفسك . وهكذا الأمر في جميع المحسوسات . بيد أن ذلك ميدان . والمغيبات ميدان آخر .

لقد كان من الطبيعي : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ، وأن يكون لعقل طريق المعرفة العقلية . وما دامت المغيبات من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها إنما هو العقل ، وما دمننا قد وثقنا بالحس في معرفة الماديات فلنلتزم بالوثوق بالعقل في معرفة المغيبات .

هذا النمط من التفكير يبدو موقفاً ، ولكنه محض سفسطة : فالتصور - وهو أساس المعقولات - لا يقوم إلا على الحس ، وإذا جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر . وما دام الأمر كذلك فالتفكير المجرد عن المحسوسات معدوم ، وما دامت المساتير لا شأن لها بالحس فكل تفكير فيها لا يؤدي إلى نتيجة .

لقد أطال العلماء في بحث الآراء الموضوعية ، والآراء الذاتية ، ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلاً : ذلك لأنها تعتمد الاعتماد كله على الحس . أما الآراء الذاتية ، وهي قائمة على أسس أخرى ، فإنها مجال للأخذ والرد ، ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق هي الميدان الخصب للآراء الذاتية ، فإن الإلهيات ، وهي حجب ومساتير ، ميدان أخصب ؛ لذلك لا يمدو البحث فيها أن يكون د علماء كلامياً ، أو د علماء جدلياً . ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه ، فمن البهيمى : أن الميدان الذي يتخبط فيه العقل تخبطاً لا نهاية له إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة على ما فيه من روعة، ودقة، وجمال، وعلى ما أداه من خدمات جليلة فى ميدان المنطق الجدلى، لا يقوم على أساس «معقول».

العقل قاصر إذاً فيما يتعلق بالأخلاق، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات، ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان، ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات. وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع، فإن التشريع داخل فى نطاق الأخلاق.

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فيما يتعلق بتحديد الخير والشر، فإنها فى المغيبات لم ترهق الإنسان من أمره عسراً، فتوضح له ما ليس فى مقدوره إدراكه، أو تبين له ما يسمو عن التبيان.

أما هذا الذى يسمو عن التبيان، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذى لا يدخل فى نطاق المحسوسات، وبالتالي لا يدخل فى نطاق العقليات: أعنى المساتير.

لذلك رسمت الأديان فى هذا المحيط إطاراً عاماً فقط، وهذا الإطار العام نفسه مبنى بعضه على الحس، وهو داخل فى نطاق الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب: «لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا»، أما بعضه الآخر فهو المتشابهات «فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة».

هناك إذاً إطار عام لا يرضى الفوسَ الطَّلَعَة، التى أبت - خطأ - أن تعترف بحدود للعقل، أو بقصور فيه، فبحث داخل هذا الإطار فكان ما كان من تشعب، وفرقة، واختلاف. بماذا نفسر هذا الافتراق؟

إننا لا نشك فى أن رؤساء الفرق الإسلامية، معتزلة كانوا أم أشاعرة، وشيعة كانوا أم سلفيين، قد تشبعوا بإيمان راسخ، وحرارة دينية فائقة، وعقيدة لا تزغ عنها الأعاصير، وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة: كتاب الله، وحديث رسوله.

فلم كان الاختلاف؟، ولم هذا التشعب الذى لا ينتهى؟.

لسنا - فى تعليل ذلك - أمام مشكلة لا تحل؛ إذ الشأن فى ذلك إنما هو الشأن

في كل الآراء الذاتية التي لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصي وحده . ولو استقامت أمور المسلمين الدينية لما حادوا عن موقف الامام مالك : التسليم المطلق « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » .

آراء ذاتية داخل الإطار العام ، آراء هي من صنع البشر ، آراء تتحد في نسبتها - من حيث القرب والبعد - إلى النصوص المقدسة . إنها آراء . بيد أنها آراء غير مفهومة ، وكل من عاجل ، في إخلاص ، تصور صفات خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هي الذات ، فإنه يقر معنا أن ذلك إنما علمه عند ربى .

الطريق الأقوم إذاً هو التسليم المطلق . وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح . ولكن ذلك ليس معرفة . تلك هي النتيجة التي نريد من كل ماسبق الوصول إليها ، وإذا أردنا أن نلخص ما نريد أن ننتهى إليه قلنا :

(١) الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغيبات فإننا لانحسها .

(٢) العقل : وهو مبنى على الحس - قاصر كذلك .

(٣) النصوص الدينية لا تؤدى بنا إلا إلى نوع من المعرفة غير المباشرة ، أو إلى التسليم ، أو التفويض ، وليس ذلك من المعرفة المباشرة في شيء . وإذا فُعل الكلام ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة وهو عبث وهو انحراف عن السبيل السواء .

قد تبدو هذه الآراء جديدة أو خارجة عن الطريق السوى ، ولكنها مع ذلك تتفق تمام الاتفاق مع ما يراه حجة الإسلام الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » ومع ما يراه الإمام المحاسبى في مقدمة كتابه « الوصايا » ، ومع ما يراه غيرهما من أئمة العارفين بالله ، ولنا فيهم أسوة حسنة .

هل معنى ذلك أن المعرفة فيما يتعلق بالإلهيات غير ممكنة ؟ هل معنى ذلك أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية المباشرة ؟ ذلك ما لا نقول به . ما السبيل إذاً إلى المعرفة ؟ ذلك ما سيحدثنا عنه العالم الجليل الأستاذ المستهدى في العدد القادم إن شاء الله .

# فَرِيضَةُ الْحَجِّ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني  
المفتش بالأزهر

قبل أن أدخل في موضوع هذا المقال ، أرجو أن يسمح لي القراء بكلمة  
يسيرة ... فأقول :

لما ظهر العدد الأول من مجلتنا هذه في ربيع الأول تفاءلنا خيرا ، وقلنا :  
توفيق من الله وبشرى وطالع حسن ، ، فقد أشرقت ﴿ رسالة الإسلام ﴾ في شهر  
« رسول الإسلام » .

واليوم نقدم إلى قرائنا الكرام هذا العدد الرابع الذي تتم به سنتنا الأولى ،  
ومن حقنا أن نتفأل أيضا بهذا الختام الذي صادف موسم الحج الأكبر ، وصادف  
منه على الأخص عشر ذى الحجة التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« ما من أيام أحب إلى الله فيها العمل من عشر ذى الحجة » ، فالحمد لله الذي جعل  
ختام عامنا الأول سعيداً ، كما جعل بدأه سعيداً ، ونسأله جل شأنه أن يهب لنا من  
لذته في سائر أحوالنا رحمة تضيء لنا الظلمات ، وتعضمنا من الشبهات والنزعات  
وتهدينا إلى صراطه المستقيم ، كما نسأله جل قدرته أن ينشر رحمته ، ويتم نعمته ،  
على وفده الأبرار الذين تجردوا من كل شيء في هذه الدنيا ليفدوا إليه في بيته ،  
يدفعهم الإيمان ، ويحدوهم الشوق ، ويلوهم اليقين ، وترتفع أصواتهم عند كل

كشرف من الأرض أو منحدر بندا صادر من الأعماق تخشع له القلوب ، وتدمع منه العيون : لييك اللهم لييك ، لييك لا شريك لك لييك ، فاللهم أكرم وفادتهم ، وأحسن مشاومهم ، وأغدق عليهم من سخائب فضلك ورضوانك ما تشرح به صدورهم ، وتغفر به ذنوبهم ، وأرددهم إلى أوطانهم وأهلهم سالمين . ربنا لإنهم زوارك ، وعتمار بيتك ، وإنك لأنك الكريم الرحيم .

بعد هذا الدعاء الذى أتوجه به إلى الله ، والذى أعم به جميع إخواننا المسلمين فى البلاد المقدسة أو على أبوابها : أقول :

\* \* \*

لا نعرف عبادة من العبادات غنى بها القرآن الكريم على وجه التفصيل ، وبينها بنصوصه أكل بيان ، وعرض لكل ما يلابسها أو يتصل بها من أحكام وشعائر ، وأبرزها فى صورة رائعة تملأ النفوس ، وتمز القلوب ، وتشعر المؤمنين بعظمة الله ، ونعمة الله : كعبادة الحج :

أنبأنا الله تعالى : أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، وأنبأنا أنه اختار لبناء هذا البيت نبيا كريما هو خليله ابراهيم الذى جاهد الشرك وحطم الأوثان ، وهاجر إلى ربه فى واد غير ذى زرع ، وأنبأنا بأنه هو الذى يؤا لأبرهيم مكان هذا البيت ، أى هيا له موضعه بإرشاد منه ووحى ، وعين له سمته ، وهده إلهه ، ثم عهد فى بنائه ورفع قواعده إلى هذا النبي الكريم وابنه اسماعيل وصور لنا موقفهما الرائع ، موقف شيخ كبير ، وابن له فقى صغير ، يرفعان القواعد ، ويتهلان إلى الله فى حرارة الايمان ، وقوة اليقين ، راجين القبول ، مفكرين فى أمر الأمة حاضرها ومستقبلها ، حريصين على هداها وتوفيقيها . ولذا يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وأنبأنا جل شأنه أنه جعل



هذا البيت مثابة للناس وأمنا ، لا يجوز فيه قتال ، ولا يجوز من حوله قتال ، فمكن لهم بذلك حرما آمنا في بلاد مضطربة لا ضابط لشئونها ، والناس من حوله يتخطفون كما يتخطف الطير ، وأنبأنا أنه أكرم جيرانه ، فجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، ورزقهم من الطيبات ، وجب إليهم ثمرات كل شيء ، وأنبأنا أنه أكرم رسوله حين استجاب له وهو يقلب وجهه في السماء ، فولاه قبله يرضاها هي هذا المسجد الحرام ، ثم جعل شعائره شعائر الله ، ففرض على الناس تعظيمها وحرم عليهم انتهاكها ، وإرادة الإلحاد أو الظلم فيها ، وأوجب حجة على كل مستطيع ، وجعل ذلك حقا لله ، على الناس من استطاع إليه سبيلا ، وأشعر بأن رفضه أو التكاسل عنه لغير عذر كفر وجحود ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ، وجعل هذا الحج في أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وعرض لتفاصيل أحكامه ، فذكر الطواف والسعي ، وأمر من أحصر بما استيسر من الهدى ، ونهى عن حلق الرأس قبل أن يبلغ الهدى محله ، وجعل لمن كان مريضا أو به أذى من رأسه فدية من صيام أو صدقة أو نسك ، وأوجب على من آمن وكان متمتعا بالعمرة إلى الحج أن يقدم هديا ، فإن لم يستطع فصيام أيام بعضها في الحج وبعضها إذا رجع إن كان من غير حاضري المسجد الحرام ، وأمر الحجيج إذا أفاضوا من عرفات أن يذكروا اسم الله عند المشعر الحرام ، وأن يذكروه كما هداهم ، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وأن يذكروا الله في أيام معدودات ، وجعل البدن التي تذبح فيه من شعائر الله ، وولفت إلى ما فيها للناس من خير ومنافع ، وأمر بإطعام القانع منها والمعتر ، وأمر بعد تمام النسك بقضاء النفث ، ووفاء النذر ، والطواف بالبيت العتيق ، إلى غير ذلك من أفعاله وتفاصيل أحكامه .

\* \* \*

ما هو السر في عناية القرآن الكريم بتلك الفريضة على هذا النحو ؟ وهل الحج إلا ركن من أركان الاسلام كسائر أركانه الخمسة التي ذكرت في الحديث

المعروف ، بل كان آخر هذه الأركان ذكرا ؟ فلم خص عن بعضها بهذه العناية التفصيلية ؟ ولم لم يكن كالصلاة وهي عماد الدين ، أو كالزكاة وهي نظام التأمين الاجتماعي في الاسلام كما يسميها بعض العلماء ، لم لم يكن كالصلاة أو الزكاة حيث فرضهما الله على المؤمنين إجمالا ، ولم يعرض في كتابه لسائر تفاصيلهما ؟

أجل إنه لسر عظيم . لقد ذكر الحج بين أركان الإسلام الخمسة التي جاء ذكرها في الحديث الشريف ، وجاء ذكره في آخرها ، ولكن ليس ذلك لأنه آخر هذه الأركان منزلة ، وأقلها شأنًا ، بل لأنه أعلاها في مراتب الترقى والوصول إلى الكمال ، فان أركان الإسلام الأربعة التي تقدمته كلها تمهيد له وإعداد بالتطهير والتزكية ، حتى إذا أقبل المرء إليه كان صافي النفس ، مطمئن القلب ، راسخ الإيمان ، ولذلك كان الحج المقبول عند الله بمثابة خلق الله لصاحبه من جديد ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ، فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، هي الخطوة الأولى التي يتقدم بها الإنسان فيعترف بأصل العلاقة بينه وبين ربه ورسول ربه ، ومع ما لهذا الاعتراف من قيمة في ذاته ، فهو لا يكلف صاحبه بذلا ولا تضحية ، ولا يستغرق منه جهدا ولا وقتا ، بل إن فيه لذوى البصائر وأولى الأبواب لذة هي لذة العرفان ، وجمالا هو جمال الإدراك للحق ، فاذا آمن قلبه كانت الخطوة التالية لهذا الإيمان أن يتوجه إلى هذا الإله الذي آمن به ، واعترف بوحدانيته ، خاشعا مناجيا ، في صلاة رسمها له ، وحدد له أركانها ووسائلها وشرع له قبلتها ، وهذه عبادة مع سموها وجلالة شأنها ، لا تكلف صاحبها جهدا كبيرا ، ولا تأخذ منه وقتا طويلا ، فإن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز بضع دقائق ، وما زاد على ذلك فهو كمال ، ثم تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة ، وفيها شيء من التضحية والبذل ؛ ذلك أن يؤدي زكاة ماله ، فيقطع جزءا معينًا طيبة به نفسه ليعطيه الفقراء والمساكين ؛ وبهذا الركن الثالث تكون أول تربية إيجابية ، وتزكية نفسية من الشح والاستئثار يطهر الله بها القلوب ، فإنه ما من شيء يتميز به الإيمان الصادق من التظاهر الزائف ، كالتضحية المالية ، ولقد نرى كثيرا

من الناس يصلون ويقومون ويصومون ، حتى إذا وقفوا أمام عقبة الشح والضم بالمال على البذل لم يقتحموها ، وفي ذلك يقول الله عز وجل مصورا طبيعة الإنسان : فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقة أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيا ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ولكن الزكاة على ذلك ليست إلا تضحية مالية بنسبة ضئيلة تقل عن أصغر ضريبة مرن أهل الأموال على أدائها في أى بلد من بلاد الله وهم لا يشعرون ، ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الرابعة ، وهى صوم شهر كامل متابعة أيامه ، يتخلى فيه المؤمن عن طعامه وشرابه وشهوته إيمانا بالله ، واحتسابا لثوابه ، ويصبر فيه على كثير مما يقاسى ، وتلك منزلة من التضحية أعلى من التضحية فى الزكاة ، لأن التضحية بشئ من النفس أعز وأعلى من التضحية بشئ من المال .

أما الفريضة الخامسة وهى الحج ، ففيها ذلك كله على أبلغ وجه ، وأكمل صورة : فيها الاعتراف بالله ، والإيمان برسوله إلى حد الترك لكل ما سواهما من المال والأهل والولد ، فيها التوجه إلى الله ، لا بواسطة قبله بينه وبينها آلاف الأميال ، ولكن بالرحيل إلى هذه القبلة نفسها ؛ فيها بذل الكثير من المال عن رضى وسخاء ، فيها التضحية بالنفس ، واحتمال مشاق السفر والاعتراب ، والتجمل من سلطان العادة فى متع العيش ولذاته ؛ فيها خلع ثياب الدأب والعمل والكدح وارتياء ثياب التطهر والإحرام والتسليم ؛ وفيها إلى ذلك كله زيارة الله فى بيته ، والمثول بين يديه فى المكان الذى قدسه ، والزمان الذى قدسه .

هكذا شأن فريضة الحج : كل ما قبلها بمثابة التمهيد لها ، مثل العبد فيها كمثل امرئ أحب ملكا عظيما ، ودان له وهو فى طرف من أطراف ملكه بالخضوع والولاء ، ينفذ أوامره ، ويخلص فى خدمته ، ويقوم بكل ما عليه من واجبات فى سبيله ، ثم يدعو هذا الملك العظيم ، فيهرول إليه مسرعا ، ويخلع نفسه من كل ما هو فيه ، ويأخذ لهذه الزيارة التى ستم فى بيت الملك أهبتها ، فيتزين ويتطيب ، ويقطع المراحل الطوال حتى يصل إلى غايته ، ويحظى بأمنيته ! والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ، ؟

## القومية الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

نحن اليوم فى عصر القوميات النائرة ، هذه القوميات التى عمدت إلى المبادئ والنظريات تؤيد بها نضالها الدامى ، وكفاحها الدائم فى سبيل السيطرة على العالم ، وتبجح فتبرر وحشية النضال والقمضاء على المثل الإنسانية الرفيعة ، بحجة تحقيق الرخاء والسلام لبنى الإنسان .

وقد رأينا كيف ذاق العالم الأمرين من هذه القوميات النائرة المتعصبة فى الحرب الماضية والتى قبلها ، وكيف فشلت كل المنظمات العالمية ذات القوانين الوضعية فى كبح جماحها ، وتحرير العالم من سيطرتها ، كما فشلت فى تنظيم تعاملها وإشعارها بالأخوة الإنسانية ، لأن الذين نظموها ووضعوا دستورها ، هم أنفسهم قواد القوميات المتنازعة ، وطلاب السيادة على العالم .

\* \* \*

وكذلك كان الوضع قديماً قبل الإسلام : تعصب قومى فى كل مكان . وحروب مستمرة بين القوميات .

فقدماء اليونان كانوا يرون أن السيادة الإنسانية مقصورة على العنصر اليونانى والدلم اليونانى وحده ، وكل غير يونانى - جميع العالم - ( برابرة ) من حق اليونانى أن يستعبدهم ؛ حتى أننا لنجد شيخ الفلاسفة - أرسطو - يُعرف الرقيق بأنه عنصر غير يونانى لأن اليونانى لا يمكن أن يستعبد ! .

وخلفهم الرومان على السيطرة والفلسفة ، فاعتنقوا هذه النظرية أيضاً ، واعتقدوا أن غيرهم عبيد لهم ، وإن كانوا قد أعطوا هؤلاء ( البرابرة ) شيئاً تافهاً من الحقوق الإنسانية .

وفي الشرق اعتز الفرس بقوميتهم وعنصرهم إلى حد بعيد ، ورأوا غيرهم هماً ليس لهم من الشرف الإلهي مثل ما لهم ! .

ولم يكن الجانب هؤلاء كان العرب ، أمة شعبتها العصبية ، وفرقتها الأهواء والنزوات فلا رابط يربط بين قبائلها ، ولا جامع يجمع شتاتها ، حتى احترب بنو الأب الواحد في سبيل الهوى والشيطان ، وسيطر التعصب على كل شيء عربي وتحكمت العصبية القبلية حتى كانت الموجه الأولى للحياة العربية ، والحروب الطاحنة التي دارت بين الفرس والإغريق ، ثم بين الفرس والرومان ، وبين الرومان والقرطاجيين ، وبين الفرس والعرب في ذي قار ، خير دليل على مدى الكفاح بين القوميات في العصور التي سبقت الإسلام ، ولم تستطع جميع الرسالات وجميع الفلسفات قبل الإسلام وقف تيار العداء والحرب بين القوميات ، بل لم تستطع التقليل من ويلات الحروب أو التخفيف من هوس العصبية وجنونها .

فلما جاء الإسلام ، والعالم المتمدن - الفرس والروم - في نضال دموي رهيب والعرب في تطاحن قبل مرير ، أعلن فساد هذا الوضع الاجتماعي العالمي ، كما أعلن فساد الوضع الديني سواء بسواء .

جاء الإسلام فقرر العلاج الناجع لداء الإنسانية الذي استعصى على جميع الديانات والفلسفات ، فرأى أن يجمع هذه القوميات المتحاربة تحت لواء واحد . ليس لواء السيطرة والسيادة لإحداها على الأخرى ، وليس لواء التحالف بين قوميتين على ابتلاع غيرهما ، ولكن لواء الأخوة الإنسانية ؛ التي تقتضي المساواة والعدل والحب والسلام ، يوجه هذا اللواء روح ديني يتغلغل في نفس الإنسان حتى يختلط بدمه ، ويضمن هذا التوجيه دستور قويم ، ليس من وضع طامع ولا متعصب ؛ دستور عالمي من وضع خالق العالم ، العليم بذات الصدور .

فذكر الناس بأنهم جميعا خلق أله واحد، وبنو أب واحد، فهم عباد الله وإخوة، ومن واجبه، أن يكونوا متحابين، متفاهمين لا متقاطعين، متعارفين لا متنازعين، وجعل مقياس الصلاحية عند الله - للأفراد والشعوب - مدى القرب أو البعد من الشرور، ومدى النفع الذى يحققه - الفرد أو الشعب - للصالح الإنسانى العام؛ وجعل الدين عالميا، والرسول للناس كافة، أبيضهم وأسودهم، أحرهم وأصفرهم، «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله اتقاكم»، «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا»، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وزاد النبي عليه السلام هذا المعنى إيضاحا وتأكيذا بقوله: «أيها الناس. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»، «ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية؛ ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية»، وقال فى شأن فارس عربى قاتل المشركين تحت لوائه عليه الصلاة والسلام عصبية لقومه، قال عند ما ذكر له ذلك: إنه فى النار.

وبهذه الأخوة التى قررها الإسلام بين بنى الإنسان جميعا فى النصوص السالفة، وبالأخوة الخاصة التى أقامها بين المؤمنين الموحدين والتى تظهر جلية فى قول الله تعالى: «إنما المؤمنون أخوة»، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم. لا يظله ولا يخذله»، المؤمن للؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». بهذا كان الإسلام - منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا - أول مقرر لفكرة «العالمية» التى تهدف إلى جمع البشر فى نطاق الأخوة الإنسانية، و«الزمانة» العالمية، لخدمة الإنسانية كلها، ولصالح السلام العام بصرف النظر عن الأجناس والألوان، والأحساب والأنساب؛ وقضى بذلك على عوامل التعصب وأسباب الحروب القومية، وضمن للبشرية - إذا اتبعته - حياة أمن وحرية ورخاء وسلام.

وقد طبق رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ الجديد عمليا فى المحيط العربى، فحول شتات العرب جمعا ووحدة، والعداوة القبلية ألفة ومحبة؛ وربط

بالإسلام بين قلوب الناس ، ووحيد أهدافهم ، كما حول العصبية القبلية ، الداعية إلى التفرق والضعف ، إلى « قومية دينية » هي « القومية الإسلامية » ، وأذكي هذا الروح القومي ليتعاون مع مبادئ الإسلام في بناء الوحدة الإنسانية ، على أسس من العدل والانصاف لا على الظلم والعدوان ؛ ثم وجه عليه الصلاة والسلام طاقة هذه القومية لخدمة الإسلام ورعاياه بلا تمييز ولا تفرق ، وحملها أمانة تبليغ الإسلام إلى جميع شعوب الأرض ، وأفهم العرب أن دين الله عام خالد لجميع عباده ، وأن خلق الله أمام الله سواء كأسنان المشط ، ثم رأيناه عليه الصلاة والسلام : يقرب إليه بلال بن رباح الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيبا الرومي ، ويعلمهم في صف خلصائه ، كأبي بكر وعمر وعلي ، بعد أن رأينا مبلغ اعتزازه وتقديره لزيد ابن حارثة وابنه أسامة ، وفي ذلك يروى قول الرسول : « سلمان منا أهل البيت » ، ويقول عمر : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » ، يعني بلالا الحبشي .

ثم يحتاط الإيمان بدم المسلمين ، ويتغلغل في قلوبهم روح القومية الإسلامية تغلغلا أنسى سلمان فارسيته يوم جلوا له . فقاتل قومه وهو يصيح : أنا ابن الإسلام ! ويعبر عن هذا المعنى بوضوح تام ، إبان فتوة الإسلام . خبيب بن عدي الأنصاري يوم قتله المكيون بعد أسره في حادثة الرجيع بقوله من قصيدة له قبل مصرعه :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً      على أي جنب كان في الله مصرعي  
وقول بعضهم :

فنحن بنو الإسلام والله واحد      وأولى عباد الله بالله من شكر  
وقول آخر :

أبي الإسلام لا أب لي سواه      إذا افتخروا بقيس أو تميم  
ولقد اقتدى الراشدون برسول الله عليه الصلاة والسلام في محاربة العصبية والقوميات المفرقة ، وفي إذكاء روح القومية الإسلامية ، فهذا أبو بكر . يقرأ إمرة أسامة بن زيد على المهاجرين والأنصار ، رغم احتجاج بعضهم ، وهذا عمر ابن الخطاب يقول في بعض خطبه : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا

بغير عمل ، لكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة ؛ أيها الناس : إن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه . . . ، وها هو ذا يستخلف صهيب بن سنان الرومي على الصلاة بالمسلمين ، ويقدمه على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

ولما اتسعت ارض الإسلام بنشر لوائه على بلاد الشام وبلاد فارس ومصر ، ودخلت فيه قوميات جديدة ، رأينا عمر رضى الله عنه لا يتعرض لكثير من التقاليد القومية في تلك البلاد ما دامت لا تتنافى مع قواعد الإسلام ، واكتفى بالاشراف على الإدارة والحرب والتوزيع المالى والقضاء ، وترك لها كل شئونها الأخرى ، - وهو ما يعبر عنه اليوم بالاستقلال الذاتى - وطبقت مبادئ الإسلام في تلك البلاد كما طبقت على العرب ، وصرفت زكاتها وخراجها في مصالحها العامة ، حتى ان سعد بن عُمير عامل حمص ، ليقول لعمر : ( وهو يحاسبه ) والله لو بقي لك درهم واحد لأنتيك به ، بعد صالح المسلمين ، ١ .

أما أبناء هذه القوميات الجديدة فقد امتزج الاسلام بقلوبهم ، ونسوا - إلى حد بعيد - قومياتهم ، وتعاونوا مع العرب في نشر الإسلام خارج أقطارهم ، على قدم المساواة مع العرب . لهم ما لهم من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات . ثم تولى أبناء هذه القوميات بعد ذلك حماية الاسلام بالسيف والقلم .

ولإذا كان العرب قد سمو المسلمين من غيرهم ( الموالى ) فإنهم في جميع عصور القوة الروحية كانوا يقدرونهم ، ويحترمونها ، ولم ينكروا فضلهم ، ولما قلنا : إن العرب قد جردوا سيوفهم ، لحماية الاسلام والدفاع عن حرية العقيدة ، فواجبنا أن نقول : إن الموالى قد جردوا سيوفهم ، وشرعوا أفعالهم ، وشحذوا أفكارهم لنشر الاسلام وحمايته ، والدفاع عنه ضد الإلحاد والفلسفات الإباحية ؛ وعن هذا يحدثننا ابن عبد ربه عن ابن أبي ليلى بأن فقهاء الأمصار الإسلامية كلها في أوائل القرن الخامس الهجرى كانوا جميعا من الموالى ، غير عربى أو عرييين في الكوفة ويقول لنا ياقوت الحموى : إن الفقه بعد العبادة في جميع البلدان صار الى الموالى



في أوائل القرن السابع الهجري ، سوى عربي في المدينة هو سعيد بن المسيب (١) . وفي جميع عصور القوة الروحية ، التي كان الإسلام وحده هو الموجة للحاكمين والمحكومين فيها على السواء ، كانت القومية الإسلامية متميزة ، وارقة الظلال فأظلمت بتساعها وعدالتها وإنسانيتها جميع البلاد الإسلامية ، وكان الرجل عند ما يسأله سائل في بلد أجنبي ( غير إسلامي ) عن هويته يقول أنا مسلم من بلدة كذا ! وكان الأوروبيون يلقبون جميع الشرقيين بالمسلمين . دون نظر إلى قطر أو قومية محلية ؛ وفي جميع فتوحات الإسلام كانت الجيوش « قومية إسلامية » لا « قومية محلية » ! وكانت الوظائف الكبرى لذوى الكفاية من المسلمين كيفما كانت قوميتهم المحلية ، وشغل منصب الوزارة عرب وغير عرب ، وكان أئمة الإسلام كذلك .

حقيقة نجد في العصور الأولى ما يشعرا بالاعتداد بالقومية المحلية ، والتعصب الإقليمي بين العرب وغير العرب ، ولكن هذا بالضبط كالذي نجده بين العرب أنفسهم من تفاخر وتعصب قبل كما يبدو بين عرب الجنوب وعرب الشمال . بل بين بني القبيلة الواحدة ؛ وليس هذا على أي حال ممثلا لروح الإسلام ، بل لا يتأرب الإسلام في شيء ، ولم يكن طابعا عاما للجمتمع الاسلامي - كما يدعى المفرضون - وكثيرا ما كان صدوره عن نفوس عابثة مريضة لم تخالطها بشاشة الإيمان .

ولسنا نقصد بذلك الذي أسلفنا أن نقرر أنه لم تكن هناك قوميات محلية ؛ وإنما قصدنا أن هذه القوميات المحلية تأخت . كما تأخى الأفراد بالإسلام ، وتفاعلت مع مبادئ الإسلام ، وتنتج من تأخيا وتفاعلها « القومية الإسلامية » ، وأصبح الإسلام هو الوجه الأول لها متفرقة ومجتمعة ، كما أصبح هدفها هو الصالح الاسلامي العام ، وكانت الخلافة هي رمز القومية الاسلامية ؛ وإلى حد ما . يمكننا أن نشبه حال هذه القوميات المحلية مع القومية الاسلامية التي تمثلها الخلافة بالاتحادات الفدرائية الحديثة - أي أن كل قومية كانت تحتفظ بطابعها الخاص

(١) راجع العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ ، ومجمع البلدان كلمة خراسان .

في ظل الأخوة والوحدة التي فرضها الإسلام على أتباعه ، وطالهم على اختلاف ألوانهم أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحنى والسهر ، ولأمر ما اعتبر معظم الفقهاء العرف في كثير من الأحكام الفقهية ، حتى قال الاخفاف : المعروف عرفاً ، كالمشروط شرطاً .

\* \* \*

يستين لنا مما تقدم أن « القومية الجاهلية ، القديمة والحديثة : التي تعنى التمايز الجنسي ، والتفاضل العنصرى ، وتقضى بالصراع الدامى فى سبيل السيادة على غيرها ، وتفرض على بنينا احتقار أبناء القوميات الأخرى ، وتقيم الحواجز والفواصل فى سبيل التعارف الإنسانى ، وسلام العالم — هذه القومية الجاهلية تنكرها » رسالة الإسلام ، ، ولا تعطى حق الوجود ، لأن رسالة الإسلام ، هى دعائم السلام العام :

وبذلك آمن المسلمون ، وساروا على هذا النهج القويم ما تمسكوا بدينهم ، فلما ضعفت سيطرة الروح الإسلامى على النفوس ، وخلصت الدنيا بزخرفها إلى القلوب ، وأصبحت الأثرة والشهوة هما الموجه القوى : أطلت القومية الجاهلية ، والعصبية الجنسية من فوهة الجحيم على المسلمين ، ياغراء من الملحدون وأرباب الأغراض الخبيثة ، ووجدت لذلك قلوباً فارغة فاحتلتها ، فانقسم المسلمون واحتربوا فى سبيل الهوى والسلطان ، ثم ازدادت عوامل التفرق ، بامتداد الزمن ، وازداد بعدهم عن روح الإسلام ، وبعدهم عن تحكيمه فيما شجر بينهم ، ثم امتد الزمن وازداد المسلمون ضعفاً ، وازداد الأوربيون قوة ، ونظروا إلى المستقبل وخافوا إن هم تركوا المسلمين وشأنهم ، أن يتحدوا فيذيموا أوربا طعم أندلس جديدة فاحتلوا بلادهم ، واستنزفوا مواردهم ، وأغروا العداوة القومية بينهم ، حتى قطعوا أرحامهم وتنازروا بما لم يأذن به الإسلام ، وأصبحوا يدورون فى أفلاك شتى ليس من بينها — على أى حال — فلك الإسلام .

وبعد . فهل لنا — : وقد استيقظ المسلمون وتحركت الغيرة الإسلامية فى

قلوب كثير من قادة الرأي والفكر فيهم — أن ندعو المسلمين إلى العودة مرة أخرى إلى القومية الإسلامية ، وهي كفيلة بتحقيق المساواة والعدل بين الجميع ، ووقايتهم من الفلسفات الحديثة التي لا تصلح لهم ولا يصلحون لها ؟

إنى أعتقد أننا نستطيع العودة إلى رحاب القومية الإسلامية ، عن طريق : وحدة الثقافة ، والتقريب بين المذاهب الفقهية ، والقضاء على الخلافات الطائفية ، وحسن التوجيه السياسى ، وعلى « رسالة الإسلام » أن تفهم المسلمين أن مذاهبهم الفقهية ، تشبه تماماً المذاهب الفلسفية في الدول الأخرى التي لا تلتقي عند هدف ، ولا يجمع بينها إلا الشيطان ، ومع ذلك لم تفرق جمعاً ، ولم تقض على قومية ؛ بينما تلتقى المذاهب الإسلامية كلها تحت راية القرآن ؛ عليها أن تفهمهم ذلك في شأن الفقه ، وأن تفهمهم في شأن العقائد أن الله كلفهم الإيمان بأصول بينها لهم بياناً شافياً قاطعاً ، ولم يدعها لاختلافاتهم واجتهاداتهم ، ثم أطلق لهم غنان البحث والنظر فيما وراء ذلك على ألا ينكروا نصاً ، ولا يخرجوا عن أصل قاطع ، ولا يعارضوا حكماً علم من الدين بالضرورة ، فإذا كان هذا شأنهم ، وكان الأمر فيه متفقاً عليه بين ذوى العلم والبصيرة فيهم ، فإن أمر الخلاف لا يضر ، وإن اعتناق كل طائفة ما تعتق من رأى ، لا ينبغي أن يحول بينهم وبين التعارف والتآلف والتعاون على البر والتقوى ، واتخاذ القومية الإسلامية ، شعارهم الأول ، وغرضهم الأسمى ، فإن الزمان لا ينظرهم ، والأعداء لا يحكمون في خلافاتهم ليصلوا إلى حق ينصرونه أو باطل يقمعونونه ، ولكنهم يحكمون عليهم جميعاً بعدم الصلاحية للتقدم ، وتسئم منازل الشرف ، فيضربونهم جميعاً ، ويهلكونهم جميعاً .

ثم هل لنا أن ندعو قادة العالم إلى الإسلام ليصحح لهم أوضاعهم الخاطئة ، ويقيم لهم السلام على دعائم الأخوة الإنسانية والعدل والرحمة ، ويحقق لهم ما يريدونه من تعاون عالمى ، وزمالة لخدمة البشرية كلها ؟ .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » ، والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ٩

في الأدب العربي

## إمالي المرتضى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ أبي محمد العرجاوى

من علماء المعهد الدينى بالاسكندرية

كان السيد المرتضى راوية للشعر وما أثر عن العرب من جيد الكلام ، وكان من كثرة ما قلّب في ذلك وروى فيه ، نقادة بصيرا ينفذ بنور قلبه إلى دخيلة المعنى وحقيقته ، فلا يصرفه مظهر عن مخبر ، ولا يغره قشر عن لباب ، وكان مما يعينه أيضا على الغوص على المعاني ، أنه كان ذا علم بعادات العرب وأساليبهم في الحياة ، فإننا نرى حياة قوم من الناس وشئونهم وما يلبسون من عمل ، وما يكابدون من خير أو شر ، وما يسكنون من أرض وديار ، وما يطعمون من نبت وثمار ؛ كل ذلك ذا أثر فيما يقولون ، وفيما إليه يرمون ، وهؤلاء هم أساتذة الأدب ، وصيارفة الكلام ، يستطيعون في يسر وسهولة - اطول ما مرنوا - أن يميزوا كلام شاعر من كلام شاعر ، وأن يحكموا على قول بأنه من أى منبت نبت ، وفي أى عصر صدر .

وقد رنخت هذه الملكة القوية في نفس السيد الشريف المرتضى ، وظهرت آثارها في كتابه ، وانضم الى هذه البصيرة النافذة في الرجل ، علم غزير بكتاب الله وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعقائد الإيمان ، ومعارف المتقدمين

والتأخرين عن خاضوا في الكلام ، وجادلوا فيه ، وطوّفوا به في كل واد ، لهذا كان الشريف رضى الله عنه أديباً كاتباً عالماً متكلماً فقيهاً ، ولهذا كله كان « نقاداً » ...

وإنا لموردون في مقالنا اليوم عن كتابه بعض الأمثلة على ذلك ، متحرون أن تكون من الطراز الذى يشترك فيه أهل العلم والأدب جميعاً :

(١) فمن ذلك أنه ساق في مجلسه الأول خبراً يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم هو قوله : « من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجزم » ، وساق آراء أهل العلم فيه ، فروى عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه فسر « الأجزم » بالمقطوع اليد واستشهد بقول المتلس :

وما كنت إلا مثل قاطع كفّه بكف له أخرى فأصبح أجزماً

وروى عن عبد الله بن مسلم بن قتيبة نقداً لهذا التأويل خطأً فيه أبا عبيد ، ذلك أنه قال : الأجزم وإن كان مقطوع اليد فإن هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع ، لأن العقوبات من الله لا تكون إلا وفقاً للذنوب وبحسبها ، واليد لا مدخل لها في نسيان القرآن ، فكيف يعاقب فيها ؟ واستشهد ابن قتيبة على ذلك بقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فان الربا إذا أكلوه ثقل في بطونهم ، وربا في أجوافهم ، فجعل قيامهم مثل قيام من يتخبطه الشيطان تعثراً وتخبلاً ، واستشهد أيضاً بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله : « رأيت ليلة أسرى بنى قوماً تقرض شفاههم ، وكلما قرضت وُفِّيت ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك تقرض شفاههم لأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

هذا ما تقدم به ابن قتيبة أبا عبيد ، فأما ما اختاره هو في معنى الحديث فإن الأجزم إنما هو المجذوم ، وإنما جاز أن يسمى المجذوم أجزم ، لأن الجذام يقطع أعضائه ويشدّ بها ، والجذم القطع .

فقد نظر هذان العالمان إلى لفظ « أجزم » الوارد في الحديث ، فحاما حول

معناه الحقيقى الذى يجرى التعبير به فى وضع اللغة ، والذى تذكره القواميس ، وكان حومهما حول هذا المعنى فى ظل ما تأثرا به من ظنّ أن العذاب يوم القيامة إنما هو جسمانى كله ، كعذاب النار وما فيها من الأهوال ، أعاذنا الله تعالى وإياكم منها ، ولكن الشريف رضى الله عنه لا يعجبه ذلك النقد ، ولا يراه فى تأويل الحديث رأيا ، فيخطئه الرجلين جميعا ، ويتول لإنهما ذهبا عن الصواب ذهبا بعيدا ، وإن كان غلط ابن قتيبة أخش وأقبح ، لأنه علل غلطه فأخرجه إلى أغاليط كثيرة .

ثم مضى السيد فذكر لنا أولا رأيه فى معنى « الأجزم » فى الحديث ، وخلاصته أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما أراد بقوله « يحشر أجزم » ، المبالغة فى وصفه بالنقصان عن الكمال ، وفقد ما كان عليه بالقرآن من الزينة والجمال ، والتشبيه له بالأجزم من حسن التشبيه وعجيبه لأن اليد من الأعضاء الشريفة التى لا يتم كثير من التصرف إلا بها ، فن فقدناها ؛ يفقد ما كان عليه من الكمال ، وتفوته المنافع والمرافق التى كان يجعلها ذريعة إلى تناولها ، وهذه حال ناسى القرآن ومضيعه بعد حفظه ، لأنه يفقد ما كان لا بسا من الجمال ، ومستحقا له من الثواب ، قال الشريف : « وذلك ظاهر لمن كان له أدنى معرفة بمذاهب العرب فى كلامها . فإنهم يقولون فيمن فقد ناصره ومعينه : فلان بعد فلان أجدع ، وقد بقى بعده أجزم ، وقال الفرزدق يرثى مالك بن مسمع :

تضعضع طودا وائلٍ بعد مالك وأصبح منها معطس العز أجدعا

ولإنما أراد المعنى الذى ذكرناه ، وللعرب ملاحن فى كلامها ، وإشارات إلى الأغراض ، وتلويحات بالمعاني ، متى لم يفهمها ويتسرع إلى الفطنة لها من تعاطى تفسير كلامهم ، وتأويل خطابهم ، كان ظالما نفسه ، متعديا طوره .

ثم بين الشريف وجه الخطأ فيما ذهب إليه أبو عبيد وابن قتيبة ، فذكر أن الأجزم هو الأقطع لا محالة ، ولكن معناه الحقيقى غير لائق بهذا الموضع ، لأن الجزم لو كان عقوبة لكان ناسى القرآن يستحق عقوبة على نسيانه ، وكان حفظه

بأسره فرضا واجبا ، إذ العقوبة لا تستحق إلا بترك واجب ، وليس حفظ جميع القرآن كذلك ، ثم ذكر أن ابن قتيبة أخطأ من حيث ظن أن العقوبة لا تكون إلا في محل الذنب ، وهذا القول يوجب عليه ألا يجلد ظهر الزاني ، وتختص العقوبة بفرجه ، وكذلك القاذف كان يجب أن يعاقب في لسانه دون سائر أعضائه . قال د والخبر الذى استشهد به حجة عليه ، لأننا نعلم أن اللسان أقوى حظا في باب الكلام من الشفة ، فلم لم يخص بالعقوبة وحلت بالشفاه دونه ؟ ثم غلطه في تأويل الآية التى أوردها أقبح من كل ما تقدم ، لأنه توهم أن ما تضمنته الآية من تخطيط آكل الربا ، وتعره في القيام ، إنما هو في الدنيا من حيث يثقل ما أكله في معدته فيمنعه من النهوض ، ونحن نعلم ضرورة خلاف ذلك ، ونجد كثيرا من آكلى الربا أخف نهوضا ، وأسرع قياما وتصرفا ، من غيرهم ممن لم يأكل الربا قط ، والمعنى في الآية هو ما ذكره المفسرون من أن ما وصفهم الله به يكون عند قيامهم من قبورهم ، فيلحقهم العثار والزلل والتخطيط على سبيل العقوبة لهم ، وليكون ذلك أيضا أمارا لمن يعاقبهم من الملائكة والخزنة على الفرق بين الولي والعدو ، ومستحق الجنة ومستحق النار .

(٢) ومن ذلك ما ذكره في المجلس الثانى من تفسير قوله تعالى د والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون ، فقد أورد ما ذكره أبو مسلم بن محمد بن بحر الأصهباني إذ يقول : د إنما خص الموزون دون المكييل بالذكر لوجهين : أحدهما أن غاية المكييل تنتهى إلى الوزن ، لأن سائر المكييلات إذا صارت طعاما دخلت في باب الوزن ، وخرجت عن باب الكيل ، فكان الوزن أعم من الكيل ، والوجه الآخر : أن في الوزن معنى الكيل ، لأن الوزن هو طلب مساواة الشئ بالشئ ، ومقايسته إليه وتعديله به ، وهذا المعنى ثابت في الكيل ، وخص الوزن بالذكر لاشتماله على معنى الكيل .

وهكذا نرى أن الرجل يذهب إلى معنى الوزن والكيل في الموزونات والمكييلات ، كأن الله يمين على عباده بأنه أنبت لهم ما يوزن أو يكال ، ولذلك

يرفض الشريف هذا المعنى ويقول : « ووجه الآية وما شهد له ظاهر لفظها غير ما سلكه أبو مسلم ، وإنما أراد الله تعالى بالموزون المقدر الواقع بحسب الحاجة ، فلا يكون ناقصا عنها ولا زائدا عليها زيادة مضرّة أو داخلّة في باب العبث ، ونظير ذلك من كلامهم قولهم : كلام فلان موزون ، وأفعاله موزونة مقدرة ، وإنما يراد ما أشرنا إليه ، وعلى هذا المعنى تأول المفسرون ذكر الموازين في القرآن على أحد التأويلين ، وأنها التعديل والمواساة بين الثواب والعقاب ، قال الشاعر - وهو ذو الرمة : -

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هُراء ولا نزر  
الهراء : الكثير ، والنزر : القليل ، وكأنه قال : إن حديثها لا يقل عن الحاجة ، ولا يزيد عليها ، وهذا يجري مجرى أن يقول هو موزون ، وقال مالك بن أسماء ابن خازجة الفزاري :

وحديثُ الذّئهِ هو بما ينعت الناعتون يوزن وزنا  
منطق صائب وتلحن أحيانا واخير الحديث ما كان لحنا  
وهذا الوجه الذي ذكرناه أشبه بمراد الله تعالى في الآية ، وأليق بفصاحة القرآن وبلاغته الموفيتين على فصاحة سائر الفصحاء وبلاغتهم .

وقد استطرد السيد الشريف بعد ذلك ، ففسر اللحن الذي في شعر مالك ، وبين أنه ليس اللحن في الإعراب الذي هو ضد الصواب ، وساق شواهد من الشعر والحديث والأخبار قنيد في معرفة المراد منه ، فطوّف من ذلك في واد خصيب ، وأتى بما لا يزال يؤثر عنه ، ويؤخذ منه .

(٣) ومن طرائف ما أورده الشريف رضي الله عنه أنه روى عن ذي الرمة الشاعر ، وهو غيلان بن عتبة المكنى بأبي الحارث أنه كان على مذهب أهل العدل وهو لقب المعتزلة ، وإنما لقبوا به أنفسهم لقولهم بوجوب الصلاح والأصلاح على الله تعالى ، وأنه يعاقب المسمى حتما على إساءته ، كما يثيب المحسن حتما على إحسانه . قال الشريف : ويشهد بمذهبه في العدل ما جاء عن أبي عبيدة من أنه اختصم هو ورؤبة عند بلال بن أبي بردة ، فقال رؤبة : والله ما خص طائر أخوصا ،



ولا تقرر ص سبع قرموصا إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال له ذو الرمة : والله ما قدّر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيائل ضرائك ، قال روبة : أفقدته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على رب الذئب ، وهذا الخبر صريح في قوله بالعدل ، واحتجاجة عليه ، وبصيرته فيه — يريد أن فعل الذئب شر ، والله لا يريد الشر كما يقول المعتزلة — فأما العيائل فجمع عيّل ، وهو ذو العيال ، والضرائك جمع ضريك وهو الفقير . ثم روى عن لييد بن ربيعة العامري ما استدل به على أنه جبرى ، وذلك قوله :

إنّ تقوى ربنا خير تفّل      وبإذن الله ربيّى والعجل  
من هداه سبل الخير اهتدى      ناعم البال ، ومن شاء أضل

ودفع هذا عنه بقوله : « وإن كان لا طريق إلى نسبة الجبر إلى مذهب لييد إلا هذان البيتان فليس فيهما دلالة على ذلك ، أما قوله : « وبإذن الله ربيّى والعجل » فيحتمل أن يكون « بعلبه » كما يتأول عليه قوله تعالى : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » أى بعلبه ، وإن قيل في هذه الآية أنه أراد : بتخليته وتمكينه ، وإن كان لا شاهد لذلك في اللغة أمكن مثله في قول لييد ، وأما قوله : « من هداه اهتدى ومن شاء أضل » فيحتمل أن يكون مصروفا إلى بعض الوجوه التى يتأول عليها الضلال والهدى المذكوران في القرآن مما يليق بالعدل ولا يقتضى الإيجاب ، اللهم إلا أن يكون مذهب لييد في الإيجاب معروفا بعبر هذه الآيات ، فلا يتأول له هذا التأويل ، بل يحمل مراده على موافقة المعروف من مذهبه .

وهذا باب من القول خبّ فيه الشريف ووضع ، ولعله ماساق كتابه إلا له ، ولا بناء إلا عليه ، فلا نكاد نجد آية أو خبرا يحتمل ظاهره خلافا ، وأن يكون له دلالة على الجبر ، ومناقضة لما يراه « المعتزلة » ؛ إلا تكلم في ذلك وخرّجه وحمله على معنى يصرف عن التمسك به ، والاحتجاج بظاهره .

وقد اتّخذ كتابه في هذا الشأن مرجعاً وفيصلاً وثبتا لآراء أصحابه ، وما لهم من قول واحتجاج ، ولعلنا نرجع إلى ذلك يوماً بالبسط والتفصيل إن شاء الله ؟

## هَلْ مِنْ جَامِعَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ؟

لحضرة صاحب السعادة القاضي محمد بن عبد الله العمري

وكيل وزارة خارجية المملكة المتوكلية البنية (\*)

تحقق ، والحمد لله ، ذلك الحلم الجميل الذي كان يداعب أفكار العرب منذ زمن بعيد ، وأنشئت « الجامعة العربية » ، التي كان لها الفضل الأكبر في تنبيه الشعوب العربية إلى ضرورة التآلف والتآزر في هذا العصر ، حتى أصبح العرب بنعمة الله إخواناً متحابين متعاونين ، شعورهم واحد ، وأهدافهم واحدة ، وأصبحت قضايا أى قطر من الأقطار قضايا للجميع ، يشغلون بها ، ويفكرون فيها ، ويتعاونون على حلها ، ويشعر أقصاهم وأدناهم فى شأنها بشعور واحد .

ولإذا كانت « الجامعة العربية » ، حتى الآن لم تنجح النجاح الذى كان متوقفاً لها ، والذى كان يرجوه كل عربى مخلص لعروبه ، ولإذا كانت قد ران على صفحاتها الناصعة شيء من غيش الحوادث الأخيرة ؛ فإنما مرد ذلك إلى ما يحاك لها من الدسائس ، وما يبك فى طريقها من العقبات .

إن خصوم العرب يقلقهم دائماً ، ويقض مضاجعهم أن يروا جميع شعوبهم متماسكة متآزرة ، تصدر عن رأى واحد ، وترمى إلى هدف واحد ، ولذلك نراهم يتخذون كل الوسائل الظاهرة والخفية ، ليفرّوا بين صفوفهم ، ويخيلوا إليهم أن مصالحهم متعارضة ، وأن لبعضهم مطامع وأغراضاً لا يرضى عنها الآخرون ،

(\*) سعادة القاضي محمد بن عبد الله العمري أحد الأعضاء المؤسسين لجامعة التريب .

وقد تساعدهم ظروف السياسة وتقلبات الأحوال في ظاهر الأمر ، فيلتبس الحق بالباطل ، وتبيلب الأفكار ، وتتهبأ النفوس لقبول الدعاوة السيئة ، دعاوة التفريق والتمزيق وتقطيع الصلات بين ذوى الأرحام ، وأبناء الأعمام .

وتلك شنة يعرفها التاريخ من أخزم ، فما كان أعداء العرب بذى خلق يردعهم ، ولا فضيلة تحول بينهم وبين ما يرتكبون من الإفساد ، وما كانت لهم في الحقيقة قوى مادية ، ولا قوى نفسية وأدبية ، ترسم لهم في الخصومة دائرة شريفة لا يتعدونها ، ولكنهم ألفوا أن يستبيحوا في سبيل مطاعمهم وأغراضهم كل شيء ، وأن يتوسلوا لقضاء مآربهم بكل وسيلة ، والعالم اليوم عالم مادي ليس للثقل فيه قيمة ، ولا لأخلاق الشرف وزن ، فإذا لم يصحُ العرب ويتبهوا إلى هذه الحقائق وينظموا شئونهم على أساسها ، فسيكونون — والعياذ بالله — طعما سائغا لثيران حامية يوقدها عليهم أعداؤهم ، ولن تنفعهم يومئذ أرحامهم .

ولأنى على هذا لست يئأس ، ولا أحب أن يتطرق اليأس إلى قلب من القلوب فان المعهود أن الأحداث والاهوال تجتمع ، ولن تلبث « الجامعة العربية » بعد هذه المحنة التي منيت بها ، وهذه العثرة التي دبرت لها ، أن تنهض من كبوتها ، وتخرج من محتها ، وتسير في طريقها أشد مضاء ، وأقوى عزيمة ، لأن هذا هو رأى الجميع ، وإرادة الجميع ، وما دامت هناك إرادة وإخلاص ، فلن يكون هناك إلا الخير والصلاح والتعاون إن شاء الله .

هذا ولا يغيب عن البال أن الرسالة المحمدية التي طلع فجرها من قلب البلاد العربية ، قد دعت إلى ما هو أبعد مدى ، وأوسع أفقا ، فتخطت حدود البلاد العربية ، وألفت القلوب على رابطة أخرى هي أسى شأننا ، وأجل قدرا ، وأصبر على محن الدهر ، وتيارت العداوة والحرب ، من كل رابطة سواها ، تلك هي رابطة « الإيمان » التي تجمع بين العربى وغير العربى ، وتجعل من الجميع أمة واحدة متماسكة ، حيث يشعر كل مسلم بأنه أخ لكافة المسلمين ، وأن الناس جميعا متساوون كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالقوى .

هذه الرابطة هي الرابطة المقدسة التي أوجدت من جميع العناصر أمة موحدة كبيرة العدد، مؤلفة القلوب، متحدة المتناصد، قوية الإرادة، أدهشت العالم بقوتها وعبقريتها، وكانت خير أمة أخرجت للناس، وإذا كانت الجامعة العربية، حين صفا جوها، وتوجهت القلوب إليها، قد نهت العالم إلى قيمة العرب، وإلى وجوب التقام معهم، واحترام حقوقهم، مع أنها لا تعتمد إلا على روابط من اللغة أو الجوار أو العمومة أو الخؤولة، فإلى أخرى الجامعة الإسلامية، أن تلت العالم إلى أمة متمسكة قوية لا ترضى بأن تهتضم، ولا تستنم إلى عسف يراد بها، بل تؤدي في العالم رسالتها السامية على بصيرة من أمرها، وقوة في شكيمة، ونفاذ في عزيمة، ويومئذ تشرق على العالم شمس الرسالة المحمدية من جديد، فتطهر عفونات الفساد، وتقضي على أسباب الشقاء، وعوامل الحرب والفناء.

وأول واجب على المسلمين في سبيل تحقيق هذا المقصد الشريف، أن تصفو منهم القلوب، وتستل من بينهم العداوت، وأن يتخففوا من الخلافات المضنية التي فرقت بينهم، ومكنت الخصوم والأعداء من أعناقهم، فإنه لا قوة مع خلاف، ولا هبة مع نزاع وشقاق، ولا تجدى دعوة من الدعوات يوجهها إلى العالم قوم هم أنفسهم عنها معرضون، وإعاريقها السوى متكبون، ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما سيصيب هذه الأمة من تفكك نتيجة للخلاف والجهل الطاغى، في غير حديث من أحاديثه الشريفة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الآكلة إلى قصعتها، قالوا: ومن قلة نحن يومئذ يارسول الله، قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وقد حققت الحوادث، وأثبت التاريخ هذا الخبر النبوى الصادق، فرأينا كيف احترب المسلمون، وتقطعت بينهم الأواصر، وأرخوا العنان لعوامل الخلاف، وأسباب النزاع، حتى تحكمت في عامتهم وخاصتهم قرونا من الزمان، وكيف غذاها أعداؤهم ودعاة السوء بينهم حتى أثمرت ثمرها المر البشع، فذاقوا منها لباس الجوع والخوف

بما كانوا يصنعون ، وتحالفت عليهم المطامع ، واجترأت عليهم الذنات ، وطمع فيهم  
الآفاقون وشذاذ البشر ، ونفايات الأمم .

لقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته ، وأدأها كما يجب ، ونصح  
بالاعتصام بالوحدة ، كما أشار إلى المشاق التي تعترض المتمسك بدين الإسلام ،  
وفضائل الإسلام ، فجاء فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان  
يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الحجر ، وما هو ذا قد جاء ذلك الزمان ،  
فأصبحنا نرى المتمسك بدينه يعاني كثيرا من المشاق ، ويجاهد كثيرا من الأهوال ،  
وأصبحنا نرى الدعاة إلى الفضيلة كأنهم غرباء في قومهم وأهلهم ، يُستنقل نصيحهم ،  
ويجابهون بصيحات الاستنكار ، ويحاكون إلى الواقع وإن كان فاسدا ،  
والمألوف وإن كان باطلا ، بل يحاكون - وهم يقولون : قال الله ، وقال رسول الله -  
إلى قول فلان وفلان من فلاسفة الغرب ، ودعاة مبادئه ، ألم تر إلى الذين يزعمون  
أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت  
وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، وإذا قيل لهم  
تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

ألا إنه ليجب على قادة المسلمين أن يكونوا مستعدين للتضحية ، قابلين لأن  
يقبضوا بأيديهم على الحجر في سبيل نجاحهم ، واستعادة مجدهم ، وألا يأسوا من  
روح الله ، ولا يذهلوا من هول ما أصاب أمته وأوطانهم ، فإن اليأس لا يكون  
مع الإيمان ، وأن الذهول والبُهر لا يردان حقا ، ولا يدفعان باطلا .

وإذا كان الله جل علاه أوصى المؤمنين في عهد النبوة الأولى بقوله :  
« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم  
أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من  
النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » - إذا كان الله قد  
أوصى المؤمنين الأولين بهذه الوصية الجامعة الحكيمة التي تجمع عناصر النجاح  
والقوة والسياسة والحكمة ، فإن المسلمين اليوم في حاجة أمس ، وضرورة أشد ،

للاعتصام بمجل الله ، واطراح التفرق وعوامل الضعف في أية صورة ، لأن أعداءهم اليوم أكثر وأقدر وأصبر من أعداء آبائهم الأولين ، ولأن العالم اليوم يمتضى قدما ، فلا يعذر المتخلفين ، ولا يستمع إلى خلاف المختلفين ، وجدال المتجادلين .

فهل يصيخ المسلمون إلى هذا النداء الذي ينبعث من قلب يؤمن بالله وكتباته ، وينطوى على أعظم الحب لدينه وأمه ؟ هل يتوسعون في تألفهم وتقاربهم وتعاونهم بإيجاد جامعة إسلامية ، تلم الشعث ، وتحيي الأمل ، وتخيف العدو ، وتسرم الصديق ؟ هل يقيمون أمة إسلامية عاملة ناصبة كما أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكما كانت في أيام سلفنا الصالح ؟ لعمري إن في تحقيق هذا الأمر العظيم ، لخدمة كبرى للأمة الإسلامية ومن يعيش بين شعوبها وفي ذمة أهلها من غير المسلمين ، إذ هو خير قهوة لها ، وزيادة في هيبتها ، ورفع لمكاتها بين الأمم ، وهو بعد ذلك أمر ضروري لا بد منه في زمن أصبح فيه التكتل والتعاون بين الأمم التي تربطها وحدة المصلحة من ألزم الأمور ، على أن الوسائل لتحقيق هذا يجب أن تكون متوافرة ، والموانع يجب أن تكون مستبعدة ، ومن أهم ذلك أن ينبذ الجميع أسباب الخلاف الطائفي ، والنزاع المذهبي ، وتلك العصيات التي كانت من أهم العوامل في إنهاك قوة المسلمين .

ولمى أهيب بجماعة التقريب ومجلتها الغراء ﴿ رسالة الإسلام ﴾ ومؤازريهم في سائر البقاع والأصقاع ، أن يثبتوا في هذا الميدان المقدس الذي وضعهم الله فيه ، وأن يجاهدوا في الله حق جهاده ، لتكون الأمة واحدة ، ذات هدف واحد كما خلقها الله ربها الواحد ، وكما أرادها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين ؟

# افضل الدين الكاشاني

فيلسوف مغمور

لماضرة الدكتور محمود محمد الخضيرى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

من أوهام المؤرخين فى القرن الماضى - أفضل الدين وصلته  
بالنصر الطوسى - درجته فى الشعر - مؤلفاته بالفارسية  
والعربية - تحليل المطالب الإلهية - رأيه فى قياس الخلف -  
تأثير « العرفان » على فلسفته وتصفوه .

فى النصف الأول من القرن الماضى لم يكن علماء أوروبا يعرفون من أسماء  
الفلاسفة الإسلاميين إلا قليلا ممن نقلت آثارهم إلى اللغة اللاتينية فى العصور  
الوسطى ، وكان عدد هؤلاء الفلاسفة لا يزيد على العشرة ، أولهم الكندى ،  
وآخرهم فى الزمن ابن رشد الأندلسى ، وذهب بعض هؤلاء العلماء الى أن تاريخ  
الفلسفة فى الإسلام انتهت آخر صفحة من صفحاته بوفاة ابن رشد ، على أن علماء  
أوروبا عدلوا بعد ذلك عن هذا الرأى الفاسد ، وهداهم بحثم واجتهادهم الى أن  
الفلسفة ظهرت فى الإسلام قبل زمن الكندى ، وأن تاريخها أعمق وأغنى مما كانوا  
يتصورون ، وأن المسلمين ظلوا يشتغلون بالفلسفة فى مختلف البلاد ، يفكرون  
فى مسائلها الكبرى ، ويدرسونها ، ويؤلفون فيها الكتب ، سالكن شتى المناهج ،  
ومتجهين بالفكر الفلسفى مختلف الاتجاهات والمذاهب ، وكانت بعض البلاد  
أكثر أحيانا فى هذا المجال رجالا من البعض الآخر ، فينتقل بعضهم من بلد إلى  
بلد حيث تلقى تعاليمه بيئة مختلفة فيكون لها مع القبول والاجتهاد نتائج مغايرة ،

وكثيرا ما كان طالب الفلسفة يهاجر قاصدا الأخذ عن فيلسوف ذاع صيته يقيم في بعض المدائن أو القرى يستقبل الراغبين في الأخذ عنه لا يردّ عن منله أحدا منهم .

وفي الحقيقة ان الحضارة الإسلامية أنتجت من الفلاسفة عددا كبيرا لم يحط به الإحصاء بعد ، ومن عُرف من هؤلاء ، فإن مؤلفاته لم يوقف عليها جميعا ، بل لم تُحصر أسماؤها جميعا ، ولذلك ينبغي ألا يأخذنا العجب إذا فاجأنا يوماً أحد الباحثين الموقنين باستكشافه لآثار فكرية قيعة تركها فيلسوف إسلامي مغموّر لا يعرف أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم الإسلامية عنه شيئا قبل إعلان هذا الكشف .

ولإني مخصص هذا المقال لفيلسوف إسلامي إيراني فذ . جمع إلى درايته بالفلسفة وإحاطته بالكثير من فنونها ، النبوغ والتفوق في الشعر . ومع ذلك فهو مجهول في مصر لا أعرف فيها أحدا عني بدرس أفكاره ، أو تتبع سيرته . هذا الفيلسوف الشاعر هو أفضل الدين محمد الكاشي أو الكاشاني ، وقد يذكر بلقبه فقط ، وهو بابا أفضل الدين ، وينسب إلى كاشان كما ينسب أيضا إلى مرق من قرى كاشان ، حيث دفن هناك ، ويلقب بالإمام وبالصدر ، وهو من أعلام المائتين السادسة والسابعة .

ولست بمتعرض لدرس شعره ، فهذا ليس غرضي ، ولا هو من اختصاصي ، ولكنني أكتفي للتدليل على علو درجته ، بإيراد شهادة لمستشرق كبير هو الأستاذ هرمن إتيه Hermann Ethé إذ قرنه بالشيخ أبي سعيد بن أبي الخير ، وعمر الخيام وجعله معهما أكبر ثلاثة ألفوا الرباعيات في الشعر الفارسي (١) . وتوجد مجموعة من رباعياته الفارسية محفوظة في خزانة المخطوطات الفارسية ، بالمتحف البريطاني (٢) .

(١) راجع Hermann Ethé Catalogue of the Persian Manuscripts in the Library of the India Office . فهرست المخطوطات الفارسية في خزانة ديوان الهند لواضعه هرمن إتيه نهر ٩٩٤ .

(٢) راجع Ch. Rieu, Catalogue of the Persian Manuscripts in the British Museum . فهرست المخطوطات الفارسية في خزانة المتحف البريطاني من تأليف شارل ريو ج ٢ ص ٧٣٩ رقم ٤



أما مكانه في الفلسفة الإسلامية ، فهذا هو الغرض الذي نرى إليه ، وليس هذا من الأمور الهيئية ، كما أنه ليس من الهين معرفة ما يشئ الغليل عن سيرته وحياته ، وأقدم ما عثرت عليه من أخباره هو ما وجدته في مخطوط صغير الحجم كبير الفائدة ، عنوانه : « مختصر في ذكر الحكماء اليونانيين والمليين ، وليس في المخطوط ذكر لاسم مؤلفه ، على أني أعتقد أنه لا يمكن أن يكون متأخرا عن المائة الثامنة ، وهذا المخطوط ضمن مجموعة في خزانة الاسكوريال بأسبانيا رقها ٦٣٥ من الخزنة العربية ، ذكر أفضل الدين فيه مرتين ، الأولى باسم : أفضل الدين محمد بن المرقى القاشي ، ووصفه صاحب المختصر بالزهد والتصوف ومداومة الرياضة ، ثم قال إنه مات في حدود سنة ٦١٠ هجرية ، وفي المرة الثانية في ظهر الورقة نفسها ذكره عند ترجمة نثر المحققين نصير الدين الطوسي إذ قال عن الأخير : « نشأ بمشهد طوس واشتغل بها بالحصيل على خاله » .

أما أن أفضل الدين هو خال نصير الدين الطوسي ، فهذا ما تشهد به أيضاً بعض الكتب المتأخرة مثل كتاب : « رياض الشعراء » لمؤلفه علي قلي الداغستاني الملقب بالواله ، فرغ من تأليفه سنة ١١٦١ هجرية ، حيث ورد أن نصير الدين ابن أخت لأفضل الدين الكاشاني (١) ، وكذلك قال العالم الجليل المعاصر محمد محسن المعروف بالشيخ آغا بزرك الرازي أو الطهراني - عند كلامه عن كتاب منسوب إلى أفضل الدين - : « إنه معروف بـ « بابا أفضل المرقى » ، لأنه دفن بمرق من قرى كاشان ، وإنه كان معاصرا لخواجه نصير الدين ، بل قيل إنه خال المحقق الطوسي » (٢) .

ولأفضل الدين عدا الرباعيات مؤلفات كثيرة العدد ، وكان يكتب بالعربية

(١) راجع فهرست المخطوطات الفارسية في المتحف البريطاني تأليف ريو ج ٢ ص ٨٢٩

و ج ١ ص ٣٧١

(٢) راجع الذريعة إلى تصانيف الشيعة تأليف محمد محسن نزيل سامراء ج ٢ رقم ١٤٧٩

مكرر ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

والفارسية ، كما أنه ترجم كتباً في الفلسفة إلى اللغة الفارسية ، ونذكر من أسماء كتبه ما وقفنا عليه مع إشارة موجزة إلى موضوع كل منها :

- (١) جاودان نامه : أى كتاب البقاء ، وموضوعه معرفة النفس والمبدأ والمعاد ، وهو مرتب على أربعة أبواب في أحوال السلوك وحقائق أمور الصوفية (١) .
  - (٢) مدارج السالكين إلى معارج الوصال ، كتبه أولاً بالعربية ، ثم نقله إلى الفارسية ، وهو وصية جامعة لخير الدارين ، رتبته على ثمانية أبواب (٢) .
  - (٣) أنجم نامه : مختصر . ويقال له : دآغاز وأنجم ، أى في المبدأ والمعاد (٣) .
  - (٤) عرض نامه : في التفرقة بين الجواهر والأعراض (٤) .
  - (٥) سازو پیرایه شاهان : في حقوق الملوك وواجباتهم (٥) .
  - (٦) چهار عنوان : أى العناوين الأربعة (٦) ، وهو مستمد من كتاب : كيمياء سعادته ، لأبي حامد الغزالي ، اختصر فيه كتابه إحياء علوم الدين .
  - (٧) انتخاب كيمياء سعادته (٧) : لا يبعد أن يكون هو نفس الكتاب السابق .
  - (٨) رسالة ينبوع الحياة . أو ترجمه سيزده فصل إدریس (٨) : وهو ترجمة فارسية لكتاب عربي منسوب إلى هرمس المثلث بالحكمة ، وعنوانه بالعربية :
- 
- (١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، طبع ليزج ٢ ص ٥٨١ ، ٥٨٢ رقم ٣٩٩٥ وراجع أيضاً فهرست ريو للمخطوطات الفارسية بالمتحف البريطاني ص ١٨٣١ .
  - (٢) حاجي خليفة ، الكتاب السابق ذكره ، ج ٥ ص ٤٦٩ رقم ١١٦٦٢ ، وفهرست ريو المذكور من قبل ص ٨٣٠ ب .
  - (٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ج ٣ ص ٥١٥ رقم ٦٧٠٤ ، ومحمد محسن كتاب الذريعة ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
  - (٤) فهرست Ethé إتيه لخزانة ديوان الهند رقم ١٨١٢ [٢] نهر ٩٩٤ .
  - (٥) المرجع السابق رقم ١٩٢١ [٤] .
  - (٦) فهرست ريو للمخطوطات المتحف البريطاني الفارسية ج ٢ ص ٨٢٩ ب .
  - (٧) فهرست إتيه للمخطوطات ديوان الهند الفارسية رقم ١٧٩١ .
  - (٨) المرجع السابق الذكر رقم ١٩٢٢ (١٦) ورقم ١٩٢١ (١٤) .

كتاب زجر النفس (١) ، وهو في الأصل في أربعة عشر فصلا ، ولكنه في ترجمة أفضل الدين واقع في ثلاثة عشر فصلا .

(٩) مجموعة نكات أرسطو در علم حكمت : ترجمة مقالة أرسطاطاليس (٢) ، وهو ترجمة لما جرى بين أرسطو قبيل موته وبين تلاميذه من أحاديث ، وموضوع الكتاب : بيان فضل الحكمة ، وعندى أن هذا الكتاب هو ترجمة لما يعرف في العربية بكتاب التفاحة ، وقد نشر الأستاذ مرغليوث نص الترجمة الفارسية منذ أكثر من خمسين عاما (٣) ، وبحث عن شخصية مترجمي هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، ولكنه لم يعن بالبحث عن شخصية صاحب الأثر الفارسي الذي نشره . ومنذ ثلاثين سنة وبدون علم بما قدمه مرغليوث نشر أديب شوقي النص العربي لهذا الكتاب (٤) .

والإسلاميون يضيفون كتاب التفاحة إلى أرسطو ، وقد ينسبون إليه ما ورد

فيه من آراء ، كما فعل إخوان الصفاء في رسالتهم الرابعة والأربعين (٥) . والحقيقة أن هذا الكتاب ليس من تأليف أرسطو ، وإنما هو من وضع فلاسفة « العرفان » Gnose المتأثرين بالمذهب الأفلاطوني الحديث . ويُذكر هرمس في كتاب التفاحة موصوفا بأنه أول من علم الحكمة التي استفادها بالوحي من السماء ، ثم نشرها في الأرض بين مختلف الأجناس والملل .

(١) نشر عدة مرات آخرها بتصحيح الخوري فيليمون الكاتب ، بيروت سنة ١٩٠٣ ويلاحظ في الترجمة الفارسية إطلاق اسم إدريس على هرمس .

(٢) فهرست إتييه لمخطوطات ديوان الهند الفارسية رقم ١٨١٢ (١) وأيضا رقم ١٩٢١ (١) نهر ١٠٦٥ — ١٠٦٦ .

(٣) راجع D. S. Margoliouth, The Book of the Apple, ascribed to Aristotle. في صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية سنة ١٨٩٢ ص ١٨٧ — ٢٥٢ .

(٤) الشيخ أمين ظاهر خير الله ، في مجلة المقتطف أعداد ديسمبر سنة ١٩١٩ ويناير وفبراير ومارس سنة ١٩٢٠ .

(٥) رسائل لإخوان الصفاء ، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ ج ٤ ص ١٠٠ .

(١٠) كتاب نفس — وهو ترجمة فارسية لكتاب أرسطو في النفس ، في ثلاث مقالات (١) . وترجمة أفضل الدين لا بد أن تكون عن العربية . وقد عثر أخيراً على مخطوط في استانبول للترجمة العربية الكاملة ، ونرجو أن تنشر عن قريب (٢) .

(١١) مطالب إلهية سبعة (٣) وهي رسالة صغيرة الحجم باللغة العربية ، نشرت في مصر مشوهة ، كثيرة التحريف ، أصاب التحريف فيها لقب المؤلف ، فحذف « الموقى » بدل « المرقى » وسماها الناسخ ، باسم « آيات الإبداع في الصنعة » ثم غير الناشر في هذا العنوان وزاد فيه فجعله « آيات الصنعة في الكشف عن مطالب إلهية سبعة » .

ونحن نعتد الآن على هذه الرسالة الصغيرة الحجم للتعرف بمذهب أفضل الدين وأدعو من وقف على شيء آخر من آثاره أن يفضل بالكتابة عنه ، فإن هذا الرجل يستحق المزيد من الدرس والعناية .

يتضح في هذه الرسالة ، تأثير المذهب الأفلاطوني المحدث على نحو ما تمثله بعض المتصوفين من الإسلاميين ، لا سيما في المائتين السادسة والسابعة ، وبالرغم من صغر حجمها فإن فيها من الفوائد اللطيفة ما يكفي مادة لبحث جليل .

وأهم ما في الرسالة ، الإشارة إلى تنزيه « الهوية » عن الصفات تنزيهاً مطلقاً ، وظاهر أنه يستعمل لفظ الهوية استعمال القدماء إياه ، والشائع عند أكثر الفلاسفة

(١) توجد منه نسخة بين مخطوطات ديوان الهند الفارسية راجع فهرست إتيه Ethé نهر ١٠٦٦ رقم ١٩٢١ (٤) .

(٢) يوجد بين مخطوطات الاسكوريال العربية تلخيص جيد لكتاب أرسطو في النفس وهو الثالث من المجموع رقم ٦٤٩ وليس هو ترجمة للكتاب كما قال ديرنبورغ Derenbourg في فهرسته لمخطوطات هذه الخزانة العربية .

(٣) نفرت ضمن مجموع الرسائل المسمى « جامع البدائع » لناشره محي الدين صبرى الكردى ، القاهرة سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٩ م ص ٢٠١ — ٢٠٤ .

الإسلاميين هو لفظ الموجود ، وإنما عدل البعض عن استعمال هذا اللفظ الأخير كما قال أبو نصر الفارابي ، لأنه بشكل المشتق ، والمشتق يدل على عرض بينما يتسم الفلاسفة هذا المعنى إلى الجوهر والعرض ، وإلى ما بالفعل ، وما بالقوة (١) . ويستعمل البعض الآخر لفظ « الإنية » وهو تعريب للكلمة اليونانية الدالة على « الموجود » .

ويتبين من سياق عبارته في هذه الرسالة ، أنه يقصد الهوية ؛ ولذلك نرجح أنه يعنى بها ما يعنى « العارفون » من الإسلاميين باسم « المرتبة الأحادية » التي هي أعلى مراتب الوجود الكلية ، وهي حقيقة الوجود بشرط ألا يكون معها شيء (٢) والهوية عند أفضل الدين الكاشاني سامية جدا ، ولا يمكن أن تتصور بينها وبين العالم أى نوع من الاتصال ، إلا إذا أخذناها موصوفة بالصفات . ومع أن الصفات تكون ذاتية إلا أن اعتبار الهوية موصوفة بها ، فيه تقليل من تزهها وإذا أخذت الهوية موصوفة بالعلم ، تكون مبدعة للعقل ؛ وإذا أخذت من حيث تقتضى أوصافا ، كانت فاعلة ، أو خالقة لها .

ثم إن مما يستحق أن يشار إليه ، هو أن أفضل الدين ، يرى في هذه الرسالة أن العقل ، وهو الذى تبدعه الهوية العالمة بذاتها ، ليس إلا فعل التعقل ، وليس جوهرًا ولا عرضًا ، وإذن فهو ليس بمن يذهبون إلى اعتبار العقل شخصا يسميه بعضهم ملكا ، ويسميه الآخر ربًا .

أما النفس فهي عنده جامعة بين الوحدة والكثرة ، وهي البرزخ بين الوجود والإمكان ، والفعل والانفعال . وهذا رأى أصحاب القول بالصدور على اختلاف مذاهبهم .

(١) راجع كتاب ابن رشد « تهافت التهافت » ، تحرير بويج ، طبع بيروت ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

(٢) انظر تعريفات السيد الشريف الجرجاني عند مادة « المرتبة الأحادية » وكذلك بحث الأستاذ هرتن M. Horten الذى عنوانه Der Allah - Begriff im Islam فى مجلة Archiv f. Philos u. Soziol. برلين سنة ١٩٢٢ « المجلد المهدى إلى اشتين » ص ١٢٢ وما بعدها .

ثم إنه يُعرف الجسم بالتعريف الذي يختاره الإشرافيون ، ولا يقبله المشاءون  
أى إن الجسم عنده هو القابل لفرض الأبعاد الثلاثة ، المتقاطعة على زوايا  
قائمة فيه بالفعل (١) .

هذا تفسير مختصر لما في هذه الرسالة الصغيرة من المعاني الخطيرة ، وإن  
واتق أن الكشف عن غيرها من مؤلفات أفضل الدين كفيل بتوضيح مذهبه في  
الفلسفة والتصوف على نحو لا يختلف عن الاتجاه الذى سلكته في تقدير هذا الفيلسوف

وأضيف إلى ما سبق أنى وقفت على رأى له في قياس الخلف أورده صدر الدين  
الشيرازى حيث قال : ذهب الشيخ أفضل الدين المرقى القاشانى قدس سره إلى  
أن الخلف قياس استثنائى من متصلة مقدمها تقيض المطلوب ، ويحتاج في بيان  
تاليها إلى حمية مسلبة ، ثم قال صدر الدين : وهذا الطريق هو الذى ذكره  
الشارح ، (٢) ، يعنى محمود بن مسعود المشهور بقطب الدين الشيرازى وظاهر أنه  
لا يذهب هذا المذهب في مثل هذه المسألة الدقيقة إلا عالم له مشاركة عظيمة في  
علم المنطق .

ونستطيع بعد ما قدمناه في التعرف بأفضل الدين الكاشانى أن تصور تصورا  
واضحاً شخصية أستاذ نصير الدين الطوسى له تأثير كبير في توجيهه الروحى والعقلى ،  
وليس يقتصر ما بين المعلم وتلميذه على ما بينهما من صلوات الرحم فحسب ، بل لهما  
يشاركان في العناية بعلوم الأوائل ، والميل إلى التصوف الممزوج بذهب العرفان ،  
وقد ذكر أكثر من واحد أن نصير الدين مدح أفضل الدين برباعيات أو لعله  
رثاه بها ، ولم نقف عليها لسوء الحظ ، ولكننا نحسب أنه أشار فيها إلى ما بينهما  
من صلة ، وقال فيها أيضاً ما معناه :

نسب أقرب في شرع الهوى      بيننا من نسب أبوى

(١) راجع السهروردى المقتول — كتاب حكمة الإشراف ، طبع طهران ص ٢٠٦  
وما بعدها .

(٢) حاشية صدر الدين الشيرازى على حكمة الإشراف للسهروردى المقتول ، طبع  
طهران ، هامش ص ١١٧ .

## نشأة الرواية ونظورها

في تاريخ الأدب العربي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمد فؤاد السيد

المدرس بالأزهر

أسلفنا في مقالنا السابق الكلام على «نشأة الرواية وتطورها في تاريخ الأدب العربي»، وقد بدا لنا أن نستمر في متابعة ما يتصل بهذا البحث، ونعرض بعد الحياة الأعلام من علماء هذه الرواية وشيوخها كالأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء، والخليل، وأبي زيد، وأبي عبيدة، في ترجمات مستفيضة، وبحوث تحليلية، في حياتهم وأدبهم وعلمهم، مع عرض مصنفاتهم؛ وفاء لبعض ما يجب علينا من حق هؤلاء الأعلام الذين أخذت عنهم فنون الأدب العربي، وفي عهدهم دونت.

### الأصمعي:

ولما كان الأصمعي هو فارس هذه الحلبة، وأتقن تلك الطبعة، وأبعدهم صيتاً وأوفرهم حظاً وشهرة، فإننا نبدأ بسلسلة الحديث عنه في حلقات متتابعة والله المستعان.

#### نسبه:

هو أبو سعيد عبد الملك بن مُقَرَّب بن عبد الملك بن علي بن أُمِّصَع بن مُظَهَّر بن رياح بن عمرو بن عبد شمس بن أَعْيَا بن سعد بن عبد بن غُثَم بن قُتَيْبَة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان (١) بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان - المعروف بالأصمعي الباهلي البصري.

(١) إلى عيلان انتهت رواية الخطيب البغدادي التي أسندها إلى أبي حاتم السجستاني تلميذ الأصمعي، والزيادة ذكرها ابن خلكان والسيوطي.

فهو قيسى من أبناء عدنان ؛ وقد اشتهر بالأصمى نسبة إلى جده أَصَمَّع .

قال ابن خلكان « وإنما قيل له الباهلى وليس فى نسبه اسم باهلة ؛ لأن باهلة اسم امرأة مالك بن أعصر ، وقيل أن باهلة بن أعصر ، . اهـ وقيل : بنو معن هم بنو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان تزوجت معنًا فنسب ولده إليها ، . وقيل : « معن أبو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان ، .

ولعل الصحيح هو القول الأول الذى ذكره ابن خلكان ، وهو الثابت فى العقد الفريد حيث يقول ابن عبد ربه : ( باهلة ) هم بنو مالك بن أعصر نسبوا إلى أمهم باهلة ، وهم معن وحارثة وسعد مناة ، أمهم باهلة وبها يعرفون . وهذا لا ينافى أنها كانت من همدان .

وقد كانت العرب تستكف من الانتساب إلى قبيلة باهلة ، وتعدّه سبّة ، لاشتهارهم بالحق والجلل وخمول الشأن . قال بشار بن برد فى مهاجاته الشاعر البصرى أبا هشام الباهلى من قصيدة له :

وهجاني معشر كلهم مُحمق ! دام لهم ذاك الحمق

ليس من جرم ! ولكن غاظم شرفى العارض قد سد الأفق

فلما سمع الأصمى ذلك اغتاط وقال : « ويلى على هذا العبد القنّ ابن القن ، ! وقد كان بشار شديد الافتخار بفارسيته عظيم التعصب لها ، وكان الأصمى متعصبا للعرب . . ويظهر أن نسبة بنى باهلة إلى أمهم دون أبيهم كانت لكرم أصلها بخلافه هو . وكان ذلك أصل الطعن عليهم ، فضلا عما عرف عنهم بعد من الحماقة .

يدلنا على هذا ما ذكره أبو العباس المبرّد حيث يقول : « وإذا كانت الأم كريمة والاب خسيسا قيل له ( يعنى لولدهما ) المذرّع قال الفرزدق :

إذا باهلىّ تحته حظيّة له ولد منها فذاك المذرّع

وقال الآخر :

إن المذرّع لا تغنى خؤولته كالغل يعجز عن شوط المحاضر



(جمع محضير وهو الفرس السريع) وإنما سمي مُدَرَّعاً للرقتين في ذراع البغل وإنما صارتا فيه من ناحية الحمار، اهـ.

هذا وقد اشتهر بنو باهلة بذلك حتى كانوا مضرب المثل في المذمة عند العرب تنطق بهذا أشعارهم ونواديرهم، وما يروى من الشعر ما يقوله فيهم الممزق الحضرمي:

إذا ولدت حليلة باهلي      غلاما زيد في عدد اللثام  
وعرض الباهلي وإن توق      عليه مثل منديل الطعام  
ولو كان الخليفة باهليا      لقصر عن مسامة الكرام

ومن طريف النوادر في هذا أن قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي - وكان من عظماء الدولة مروانية، ومن أكبر أمرائها، ولم يكن يعاب إلا بأنه باهلي - مازح أعرابياً من الحفاة فقال: «أيسرك أن تكون مثلي باهلياً أميراً؟» فقال: لا والله! قال: فتكون باهلياً خليفة؟ فقال: لا والله! ولو أن لي ما طلعت عليه الشمس! قال: فيسرك أن تكون باهلياً وتكون في الجنة؟ فأطرق ثم قال: بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي! فضحك قتيبة من قوله:

ولقد هُجِيَ الأصمعي بأنه باهلي من اليزيدي الشاعر في قوله:

وما أنت؟ هل أنت إلا امرؤ      إذا صحَّ أصلك، من باهلة!  
وللباهلي على خبزه      كتاب «لآكله الآكله»

وكذلك هجاء إسحق في شعر سيأتي ذكره إن شاء الله.

ولكن هذا لا يقدح في الأصمعي، كما لا يقدح فيمن سودتهم أعمالهم ونفوسهم من الباهليين، أمثال أبي أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولسان بن ربيعة أحد الولاة في خلافة أبي بكر، وزيد بن الحباب، وقتيبة ابن مسلم الذي قدمنا ذكره وغيرهم كثير.

وصفه:

وفي ظننا أن الأصمعي في شكله كان أقرب إلى أهل البادية منه إلى أهل الحضر، يرجح ذلك ما نعلمه عنه من أنه كان يكثر الخروج إليها، ويطيل الإقامة فيها، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها، ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى اشتهر بذلك اشتهارا زاد فيه على لداته ومعاصريه من أهل صناعته، مما يجعلنا - من غير حرج - نقسم حياته إلى شطرين، إن لم يكن أوفاهما حظا، وأكثرهما أثرا في حياته هو ذلك الشطر الصحراوي، فهو بلا شك ذو أثر عظيم في جسمه وعقله وخلقه؛ ولا شك أن طبيعة الصحراء تسبغ على ابنها والعائش فيها والمكثر من التردد عليها لونا خاصا، ومزاجا خاصا، وطبيعة في جعلها تشاكل طبيعة الصحراء في بساطتها؛ ولما كنا الآن بصدد وصفه الظاهر، فنحن نكتب في الآن هنا بذكر ما يؤدي إلى تقريب ذلك القدر مرجئين غيره إلى موضع آخر فنقول:

نشأ الأصمعي بالبصرة التي يعد موقعها الإقليمي من أعدل المواقع، فكان له بالطبع نصيب أبناؤها من خواص طبائهم وسماتهم، وشبَّ على ذلك حتى ولدت الميلُ العلمي في نفسه حب هذه الرحلات، ورغب إليه الأسفار، فنهض بحاجات نفسه، وصار يشد رحاله في جدد ونشاط، يركب متون الصحارى، ويضرب في بطون الأودية، متكبدا وعثاء السفر فيها، متقلبا في حرارها وكشبانها، وسهولها وحزونها، منسلكا بين هضابها وشعابها، يعايش وحشها وأهلها، ويصادف جنبا وإنساها، ينزل في منتجعاتهم ويجاورهم في أخبيتهم وخيامهم، ويشاركهم في إقلاهم وقهرهم، ويسمع حدامهم وغاهم وشعرهم ورجزهم، ويشاهد مراعيهم، ولابلهم وشاهم، يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، وينشق أرجح خزامهم وشيحمهم كما ينشقون.

وما زال على حاله تلك يعاودها وتعاوده حتى كان لها معه في النهاية ما كان من آثار مختلفة، فراح مشبها لأبناء الصحراء في سمة ألوانهم وضوئ أجسامهم وعادهم وسماتهم، وإن شاب ذلك شيء من آثار الحضر.

ومع هذا لم يكن الأصمعي وسيما ، ولعله كان أقرب إلى الدمامة إن لم يكن دميما فلقد روى البغدادي في كتابه « تاريخ بغداد » عن الأصمعي قال : « دخلت على جعفر بن يحيى بن خالد يوما فقال لي : يا أصمعي هل لك من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : جارية ؟ قلت : جارية للبهنة ، قال : فهل لك أن أهب لك جارية لطيفة ؟ قال : إنني لمحتاج إلى ذلك ، فأمر بإخراج جارية إلى مجلسه ، فخرجت جارية في غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف والمقال ، فقال لها : قد وهبتك لهذا ، وقال : يا أصمعي خذها ، فشكرته ، وبكت الجارية وقالت : يا سيدي تدفعني إلى هذا الشيخ مع ما أرى من سماجته ، وقبح منظره ، وجزعت جزعا شديدا . فقال : يا أصمعي هل لك أن أعوضك منها ألف دينار ؟ قلت : ما أكره ذلك ، فأمر لي بألف دينار ودخلت الجارية ؛ فقال لي : يا أصمعي إنني أنكرت من هذه الجارية أمرا ، فأردت عقوبتها بك ثم رحمتها منك ، قلت : أيها الأمير فهلا أعلمتني قبل ذلك ؟ فإني لم آتتك حتى سرحت لحيتي ، وأصلحت عمتي ، ولو عرفت الخبر لصرت على هيئة خلقتي فوالله لو رأيته كذلك لما عاودت شيئا تنكره منها أبدا ما بقيت . »

ويؤكد هذا أيضاً مارواه أبو الفرج والشريشي لمناسبة سند كرها إن شاء الله في مكانها من هجو اسحاق الموصلي له بأبيات يقول في أولها :

أليس من العجائب أن قردا أصميع باهليا يستطيل ؟ !

ويهجوه في بيتين آخرين يخاطب فيهما الفضل بن الربيع :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن العلم عند أبي عبيدة  
وقدمه ، وآثره عليه ودع عنك القريرد ابن القريردة

فقشيبه اسحق له بالقرد مرة وبالقريرد أخرى ، وأنه أصميع ربما يزيد على دمامة ووصفه بالضالة والقصر أيضا ؛ وبذلك لا نستطيع أن نقول كان الأصمعي مفرط الطول ، كما لا نستطيع أن نقول إنه كان بائن القصر وإن احتملته مبالغة اسحق ، ولا كان مثلاً في الدمامة والقبح ، لأن شيئا من ذلك لم يرو عنه ، ولو صح لعلمناه كما علمنا من جحوظة عيني الجاحظ ودمامته ، وقبح عني بشار وضخامته .

وقد اشتهر — إلى جانب ما ذكرنا — بالتقشف والبخل مما يجعلنا نميل في وصف لباسه إلى ما تقتضيه تلك الطبيعة من غلّ اليد عما ينبغي لمثله من بحالسون الخلفاء والأمراء والوزراء وأصحاب النفوذ في شئون الدولة .

فإذا قلنا — بما نعلمه من بعض قصصه عن نفسه ، وبما نرجحه من المتعارف عن علماء ذلك العصر — : إن الأصمعي كان في الغالب يلبس التميص والجبّة ، جنبحت بنا القرائن إلى أنهما كانا غالبا من نوع خاص تستلزمه طبيعته الخاصة ، فسا في ظننا أنه كان يعنى بلباس الموشيات والمقطعات والمشهورات كما كان يفعل غالب الشعراء والعلماء في ذلك العصر ، كما يروى الجاحظ ، إلا إذا استثنينا ما كان يهيه لإياه الخليفة والأمراء والعظام أحيانا ؛ ولعل ملابسه في جملتها كانت تلتئم مع مثل نعله المذكورة في قصة الخطيب البغدادي قال : « قال الجاحظ كان الأصمعي مانيا (١) فقال له العباس بن رستم : « لا والله ولكن تذكر حين جلست إليه تسأله ، فجعل يأخذ نعله بيده وهي مخضوفة بحديد ، ويقول : نعم قناع القدرى نعم قناع القدرى ، فعلت أنه يعينك فقمعت » . فها هو ذا يرى أن نعله المخضوفة بحديد ، بحال تغنيه في رده على الجاحظ هذا الرد المقذع الذي أخزاه وأقامه من مجلسه ، وذكر السيوطي : أنه لم تبيض لحيته إلا لما بلغ الستين من عمره .

والخلاصة : أن الأصمعي كان أسمر اللون ، دميما ، أدنى إلى الضآلة والقصر إن لم يكن ضئيلا قصيرا ، ولكنه كان ظريفا ، خفيف الروح ، يحب الملحة والنادرة ويرويهما لمحدثه فيعجبه ويضحكه ، وكان يلبس القميص والجبّة ، مخشوشنا في لباسه ومظهره ، ولم تبيض لحيته إلا لما بلغ الستين من عمره ؟  
( يتبع )

(٢) نسبته إلى ( ماني الثنوي ) الذي تنسب إليه ( المانوية ) كان مجوسيا يقول إن صانع العالم اثنان : فاعل الخير نور ، وفاعل الشر ظلمة ، ويقول : هما قديمان لم يزلوا ولن يزالا سميعين بصيرين ، وأن النور لا يقدر على الشر ولا يجوز منه ، والظلمة لا تقدر على الخير ولا يجوز منها ، ورد عليهم في ذلك بأنه لو هرب مخلوق فاستتر بالظلمة فهذا خير وقع في شر ، ومن هنا أخذ المتنبي معنى بيته :

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب

## الإسلام دين الوحدة

محاضرة صاحب السعادة الاستاذ العلامة الشيخ مسلم الحسيني الحلي

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون » .  
آية كريمة ، في كتاب كريم ، أرسلها مرسل كريم ، على مرسل كريم ،  
وما هي إلا رمز وإشعار ، وإعلام وإعلان ، بالفكرة الأولية التي هي  
حجر الأساس لبناء هذا المبدأ ، وقاعدة البناء للإشادة بتركيز ذلك الركن القويم ،  
وهي بعينها وبعين ما هي حجر الأساس ، أو قاعدة البناء ، أو نقول كما هي فكرة  
وإيجاه ، هي في الحال نفسه خطة وتخطيط لمنهج العمل وموازين الاتجاه .

منذ أن بذرت بذرة الإسلام ، وأظهر رسول الإسلام صوت الدعاية والدعاء  
يتردد بين الأنحاء والأرجاء ، وردده الكون كله من أقصاه إلى أقصاه ، بذرت  
بذرة الإسلام ، وما بذرت إلا على الوحدة والتوحيد ، وظهرت دعوته ودعايته ،  
وليس بين شفتيه إلا كلمة التوحيد ، لا إله إلا الله ، يحمل على يديه كتاب الله ،  
وكل ما فيه الدعوة إلى الوحدة والتوحيد ( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ  
إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ) شاء لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن  
يكون خاتم الأنبياء ، كما شاء الله لنبوته أن تكون خاتمة النبوات ، فيكون دينه  
مسك الختام للأديان ، وشريعته بقية السلف لتلك الشرائع المقدسة السالفة ،  
وما سرّ هذا وذاك إلا أن دين محمد صلى الله عليه وسلم يتفق مع كل عصر ، ويتلاءم  
مع كل حياة ، فهو باقٍ بقاء العصور ، خالدٌ ما خلدت الحياة ، ذلك أنه دين بلغ  
في كل فضيلة حداً بعيداً ، وضرباً كبير رقم قياسي في المدنية والمعارف والأخلاق

والنظم والقوانين ، فكان المثل الأعلى لكل أولئك ، والمثل السائر لكل مكرمة وكرامة بين الناس أجمعين .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بدين هو دين الوحدة في العقيدة والاتجاه ، دين الوحدة في الفكر والعمل ، دين الوحدة في العقيدة ، لأنه ما جاء إلا بدعوة الاعتقاد بأن خالق الكون ومدبره ، والمهيمن على الكائنات ، والمسيطر على الموجودات إله واحد ، هو الفاعل الكامل ، والغنى المطلق ، والمتصرف القدير ، يرقب النيات ، ويحكم الضمائر ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ليس مع أمره أمر ولا دون حكمه حكم لأى كائن كان من كائنات هذه الحياة ، ولا ضد له ولا ندم ، ولا كفو ولا شبيه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، وأنت تعلم - وكل من له لحة من ثقافة يعلم - ما لهذه العقيدة من بليغ الأثر في النفس ، وبجمع الحياة وحياة الاجتماع ، فاعقيدة التوحيد - ولا يعرف الكثير منها إلا أنها عقيدة خسب - إلا رأس كل ملاكة فاضلة ، وروح كل فضيلة نفسية سامية ، وأساس كل عمل فاضل من فضائل الملكات .

إن عقيدة التوحيد أساس الصدق - سواء أكان في القول أم في العمل - أساس كل فضيلة ، ذلك أن الإنسان - وقد عرف أن من يبدع أمر هذه الكائنات في كل أحوالها واحد - لا يرى حينذاك أى كائن غير الله سبحانه ، شيئاً يستحق المجازاة والمدارة - إلا من حيث أمر الله - فتزهق حينذاك نفس الكذب والخداع وتزهق روح الدجل والرياء ، وما للبشر والرياء للبشر ، ولا نفع ولا ضرر للبشر بيد أو لسان ، فهناك - وقد غلب الصدق وتغلب - يعود القول صادقاً ، والفعل صادقاً ، لا من أجل حب سمعة أو طلب ظهور ، ويكون الناس حينذاك مثال الأثر الصحيح بكل وضوح ( صانع وجهاً واحداً يكفك الوجوه ) .

إن عقيدة التوحيد تبعث في الإنسان قوة البطولة والبسالة ، وتنفع فيه روح الجرأة والشجاعة ، ذلك أن الموحد يؤمن كل الإيمان بأن الآخذ بزمام الآجال ، والمسيطر على الأعمار ، هو ذاك الواحد الحى الذى لا يموت ، فالموحد

- وقد خامرته هذه العقيدة - لا يخشى بأس أى بشر ولا ضرره ، مهما بلغ من شدة البأس ومضاء العزيمة ، هذه هى الشجاعة ، وبالشجاعة يحفظ كثير من نوااميس الاجتماع ، بالشجاعة تحفظ الأموال والنفوس ، وتحمى الأعراض والحرمات ، وتسان النوااميس والديانات .

إن عقيدة التوحيد تطبع معتقدها على حب الحرية والاستقلال ، فإن الموحد - وقد علم علماً لا يقبل الجدل ، أن كل تسيير أو تدبير ، هو لتلك الذات ، ومن تلك الذات ، وبذلك الذات ، الذات الأحادية الواحدة - يتيقن حينذاك يقيناً لا يقبل الشك ، إنه هو السلطان المطلق ، والحاكم الوحيد ، وليس من سعى نفسه باسم السلطان الحاكم ، فما هو إلا مقهور بسلطان ذى السلطان والحاكم الحقيقى العظيم ، وهو - وإن عد فى زمرة المعدمين والفقراء - يرى أنه شريكهم فى التمتع بالحرية الكاملة ، ونيل نصيبه من الحقوق الطبيعية فى هذه الحياة ، فهو وهم ، فى هذه الحقوق سواء بسواء ، وإن تيقظ الإحساس وتعززت المشاعر للمطالبة بكل ذلك ، نشأت حينذاك العدالة الصادقة والمساواة بمعناها الصحيح ، ومات روح الأثرة ، وذهب الاستغلال ضحية بسيف العدل الصميم ، وبهذا تخمد نار الحروب ، وتقطع السنة التنازع والخصومات ، ويعيش البشر هادئين مطمئنين فى مختلف الأحوال والشئون ، فكان الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس ، ولكن - ونحن كما نحن الآن - هل يحلم بتحقيق ذلك إنسان ؟

أجل : الإسلام دين الوحدة والتوحيد ، سار الإسلام سيره وسيرته هذه فى الفكرة والعقيدة ، وسار مع هذه الفكرة والعقيدة جنباً لجنب فى ناحيتى التطبيق والعمل ، فأراد الإسلام وما أراد ، إلا الوحدة فى كل شئ : الوحدة فى التضامن والتعاون ، الوحدة فى الواجبات والحقوق ، فالمسلمون جميعاً فى نظر الإسلام سواء . لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، نص نبوى لا يقبل الجدل والتأويل ، وهو قبة من نور كتاب الله الكريم ، إذ صرح بكل قوة : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، هذا كله بعد أمرهما الأكيد بتسوية

الصفوف وتوحيد الكلمة ، فهذا كتاب الله الكريم ، إنما المؤمنون إخوة ،  
وتلك السنة النبوية تقول « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ،  
وبعد ذلك ، إنذارهما الشديد وتحذيرهما من اختلاف الكلمة ، وكلمة الاختلاف .  
فهذا الكتاب الكريم يقول « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتلك السنة  
النبوية تقول « لا ألفينكم بعدى مرتدين على أعقابكم يضرب بعضكم رقاب بعض ،  
وما للأمة الإسلامية والخلاف والاختلاف ، ودينها واحد ونبيها واحد ،  
وكتابتها واحد ، وقبلتها واحدة ، وهى واحدة متحدة فى جميع الطقوس والنواميس ،  
وما هذه الفرق والفروق إلا بقايا عهود الجاهلية البائدة ، فقد كان — ولا يزال  
اليوم — للعنصريات والقبليات ، والقوميات ، أثرها البالغ على تلك النفوس ،  
وهنا لك قصتان هما قليل من كثير ، وهما أوضح مثال لمبلغ ما بلغت إليه تلك  
العنعنات : روى أن أحد العرب من بنى ربيعة لما ادعى مسيلة الكذاب النبوة  
آمن به ولم يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ف قيل له فى ذلك ، فقال إنا نعلم  
أن نبي ربيعة كاذب ، ونبي مصر صادق ، ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق  
مضر . وروى أيضاً ، أنه روى رجل فى البيت الحرام يدعو لأبيه ، ف قيل له :  
هلا دعوت لأملك ؟ فقال لا . إنها تميمية ! فمن هذا وذاك ، تعرف كيف كان  
لهذه العنعنات الفارغة أثرها البالغ ، وقد حاربها النبي صلى الله عليه وسلم بكل  
قواه فذهبت ذهاب أمس الدابر وأصبحت فى حديث كان ، وقد جهر صلى الله  
عليه وسلم بقوله « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا ، فكان  
لأما علينا الإيمان بهذه التعاليم إن كنا مؤمنين بالمعنى الصحيح ؟



## الدين والفلسفة والعلم

الحضرة البحاثة الفاضل الاستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء

منذ آلاف السنين بهر الإنسان هذا الوجودُ بتنوعه وغموضه وجماله ونظامه ، ونظرا لما امتاز به الإنسان من مزايأ جسمية ومواهب عقلية ، بدأ تارة يحاول أن يتفهم أسرار الظواهر الطبيعية والأشياء ومنافعها ، كلَّ ظاهرة وكلَّ شيء منفصلا عن غيره ، وتارة يحاول أن يعطى تفسيرات عامة تربط بين الأشياء والظواهر المختلفة ، وبعد مرور ألوف من السنين فى البحث تمكن فى الوقت الحاضر أن يتعرف على بعض الحقائق الجزئية التى استعان بها لمنفعته ، ولكنه لم يستطع التعمق والوصول إلى الأسرار البعيدة إلا قليلا ، والأسئلة العامة التى عرضها فلاسفة اليونان الأقدمون لا تزال محل البحث والجدل ، وأهم تلك الأسئلة العويصة هى عن سر الوجود بأجمعه أرضه وسماؤه ، وعن الجوهر الذى انبثق منه الوجود ، وعن نظم هذا الكون . وأعطاه الجمال ، وعن سر الحياة ، وعن نهاية الكون والحياة ، وعن سر الزمان والمكان والمادة .

يمكن أن نحصر تراث الإنسان الفكرى ، وجميع أنواع المعارف التى أنتجتها حضارة الإنسان فى أربعة أقسام : الدين والفلسفة والعلم والفن ، العالم يدرس جزءا محدودا من الكون ، يأخذ ظاهرة معينة أو شيئا معيناً ، ويبحث عن العوامل التى تؤثر فيها ، ويوضح لنا كيفية حدوث الأشياء والظواهر ، ويقتصر على الأسباب ، ولا يعنى بالعلل البعيدة ، ولا يخبرنا عن الأشياء بذاتها بل يرمز عنها ، ولا يطلب من العالم أن يبين الروابط بين أجزاء الكون ، فهو يجرد الموجودات ، ويفصل بعضها عن البعض الآخر ليسهل عليه درسها وملاحظتها ، ويعتمد العالم فى الدرجة الأولى للوصول إلى المعرفة ، على الحواس والآلات والمقاييس مع

إعمال الفكر للاستقراء والمقارنة، وينتقل من الجزئيات الى الكليات، ويصنف المعلومات التي يحصل عليها بالطريقة المذكورة.

هناك حاجة للربط بين جميع الحقائق التي توصل إليها العلماء، هناك ضرورة للنظر إلى جميع الأشياء الملاحظة ككل واحد، فن المعلوم أن الأجزاء في كثير من الأحوال عند ما تجتمع تعطى معنى يختلف عن معاني الأجزاء منفردة، مثلاً السيارة تختلف في معناها عن معنى الأجزاء المكونة لها، وعند ما يتحد عنصر الكلود مع عنصر الصوديوم يركبان ملح الطعام الذي يختلف في خواصه وصفاته عن عنصريه، فعلى الفيلسوف أن يربط اكتشافات العالم مع إلهام الفنان، وانفعالات المحب، وحاسة المصلح الاجتماعي، والوازع الأخلاقي للرجل العادى، ليعطى لهذه الأجزاء معنى جديدا يفسر فيه الوجود والحياة، العالم يعتمد في الدرجة الأولى على الحواس، والفيلسوف يعتمد على التفكير مع إعطاء الحرية التامة للفكر فى فرضياته ونظرياته.

منذ أيام اليونان، انقسم الفلاسفة إلى طائفتين مع اختلاف فى مذاهب كل طائفة. فطائفة ذهبت إلى أن المادة هى أصل الكون، والحياة والعقل ناتج عن تفاعلات المادة وتغيراتها. قالوا: وبما أن المادة نستطيع أن ندركها بحواسنا فإنها تعود حقيقة الوجود. أما الطائفة الثانية فلا ترضى بهذا التعليل الناقص غير الدقيق. وتعتبر الفلاسفة غير الماديين كمن يفسر الماء بعد الجهد بالماء. وتقول بما أن وجود كل ما نتأمله يستلزم العقل، فالعقل هو أصل المحسوسات. وحقيقة الأشياء هى عقلية أو روحية. وما الظواهر المادية إلا نتيجة للطريقة التى تتخذها الحقيقة الروحية للظهور. وما هذه الظواهر التى نحس بها إلا مظاهر كاذبة، وظلال لحقيقة أخرى. أو كما يقول العالم الفيزيائى ادينجتون: «إن الظواهر المادية نتيجة للتجريد والعزل الذى يلجأ إليه عقلنا فى التعرف على الروحية، التى تتضمن تلك الظواهر». أى إن الأشياء واحدة فى طبيعتها ولكن عقلنا يظهرها بمظاهر مختلفة تبعاً للطريقة التى نحس بها السمع والبصر، والشم والذوق، وغيرها.

أما الدين فلا ينكر على العلم أهمية حقائقه الجزئية ، ولا يمنع الفلاسفة عن الجدل والمناظرة للاستنتاج . ولكنه يرى أن الوصول للحقيقة النهائية عن طريق الحس والعقل وحدهما ، يؤدي إلى الالتباس . بالإضافة إلى هذين الطريقتين ، ينبغي أن نستعين بطرق أخرى ، ذات صلة باعماق النفس الإنسانية وباطن الفرد مثل التنبؤ والنظر الغيبي ، والإلهام والوحي الإلهي والتجلى ، والبداهة والقناعة الذاتية . إن الدين يؤمن إيماناً تاماً عن هذا الطريق ، بأن الله ، هو أصل الوجود ، وسواء أجاءت أبحاث العلماء والفلاسفة مؤيدة له أم لا ؟ فهو لا يكثر لها ، لأن آراءهم عرضة للتغير والتبدل . يقول الدين : إن العالم بموجوداته المتنوعة من بحار وأنهار ، وأشجار وجبال ، وحيوانات ومواد مختلفة ، توحى إلينا بالبداهة ولأول وهلة أنها ليست إلا صور الحقيقة واحدة هي الله . وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ، كما أنك تتنبأ عن أخلاق شخص عندما تجتمع به لأول مرة من تفرسك في بريق عينيه ، وملامح وجهه ، وتصيب في أكثر الأحيان ؛ كذلك من نظرة عاجلة لهذا الوجود ، نعرف ماهيته وحقيقته . أما إذا أردنا أن نوسوس فإننا نفقد الصواب . عندما يتأمل الفرد في نفسه ، في تفكيره وانفعالاته ، وآماله وآلامه ، وحيويته وغرائزه ، يجد أنه لا يعبر عن إرادته ، بل عن الإرادة العامة للوجود التي تسيره كما شاءت . هناك نواح لا نستطيع أن ندركها عن طريق العلم . مثل معرفتنا بنفوسنا ، ومعرفة العدل والجمال ، ومعرفة الفسكاهة والمزاح ، ومعرفة أخلاق شخص آخر . وإنما نعرفها باللقانة intuition . كذلك نعرف الحقيقة النهائية عن هذا الطريق .

والفن ذو صلة بالحقيقة الكلية ، فالفنان لا يصور الوجود كما هو ويعبر عنه فقط ، بل يظهره بشكله الأكمل ، ويحاول أن يسمو بالحياة ، ويسعى لتحسين الحياة ، ويوجهها نحو التقدم والكمال ، ويعترف أفلاطون الفن بأنه الكلي ممثلاً في الجزئي . ونحن تذوق الفن كالموسيقا والغناء والتصوير والشعر والأدب عن طريق اللقانة أيضاً .

في القرن التاسع عشر ، انخدع الناس وأصابهم الغرور للتقدم والتوسع الذي حصل في مختلف العلوم ، كالكيمياء والفيزياء ، والاحياء والفلك ، وطبقات

الأرض . ونشطت لذلك الفلسفة المادية ، وآمن بعض الفلاسفة والعلماء - مثل  
ارنست هيكل ، وبجز وهكسلي وسبنسر - بالتطور الذى حدث فى الأحياء ،  
والجمادات كأحسن تفسير للعالم ، مع أن التطور لا يخرج عن مجال العلم ، ويبين  
لنا فقط الأدوار التى مرت على الأرض والأحياء ، وخلاصة نظرية التطور ،  
أن أصل الأحياء كائنات حية بسيطة ، تطورت خلال ملايين السنين إلى أحياء  
راقية معقدة ، وأن السيارات كانت أجواما غازية ملتتهبة ، مكونة من عناصر بسيطة  
ثم بددت وتعدت تركيبها . ولكن التطور نفسه يحتاج إلى تفسير ، فما سره ، وما  
غايتة ونهايته ، وهو لا يوضح أصل الوجود .

فى أوائل القرن العشرين بدأت الفلسفة المادية بالتدهور . فقد اكتشفت حقائق  
علمية كثيرة ، زعزعت أسس الفلسفة المادية . وأهمها ما جاءت به النظرية النسبية  
لأينشتاين عن الزمان والمكان والحركة والطاقة . ونظرية الكم لبلاك فى النور .  
ان الفلسفة المادية كانت تؤكد على التركيب الذرى للمادة ، وعلى تفاعلات المادة  
ولكن النظرية النسبية ، ونظرية الكم ترفعان الحواجز ، بين المادة والطاقة .

من صفات المادة المذكورة فى الكتب العلمية ، أنها تشغل حيزا من الفراغ  
وفها كتلة ولها وزن ، ولها استمرارية . وكل مادة تتكون من ذرات صغيرة  
جدا ، وتختلف كتل الذرات فيما بينها تبعاً لنوع العنصر الذى تنسب إليه الذرة ،  
وعدد العناصر ٩٢١ أخفها الهيدروجين ، وأثقلها اليورانيوم . وتكونت العناصر  
من اتحاد عدد من ذرات الهيدروجين مع بعضها ، فتكون ذرة عنصر جديد .  
وذرة الهيدروجين تتألف من بروتون واحد والكيترون واحد ، يدور حول نواة  
البروتون وسائر العناصر تتألف من بروتونات ونوترونات فى النواة والكيترونات  
حولها . إن النظرية النسبية تعطى صفات واحدة للمادة والطاقة ، فكما أن للمادة  
كتلة وضغطاً واستمرارية ، فإن للطاقة صفات مماثلة ، تتحول المادة إلى طاقة وبالعكس  
فالطاقة تتحول إلى طاقة ، والشمس تشع ٢٥٠ مليون طن من مادتها فى  
الدقيقة الواحدة ، وكل جسم تزداد كتلته (مادته) عند زيادة سرعته ، والنظرية النسبية  
تذهب إلى أن الذرة لا تتحلل إلى اجزائها المعروفة فحسب ، بل تتحلل إلى أبعد من ذلك .

إن نظرية الكم ترى أن النور يتألف من جسيمات صغيرة منفصلة عن بعضها وتدعى بالفوتونات ، ولها كتلة كالمادة وضغط ، وبما أنها في حالة حركة فلها ذخم كما للمادة المتحركة ، ولكن الفوتون يسير بسرعة ثابتة ، وكتلة الفوتون تتناسب طرديا مع عدد ذبذبات الموجة في الثانية ، وعكسيا مع طول الموجة ، فكلما ازداد عدد الذبذبات ، كانت كتلة الفوتون أكثر ، وفي نفس الوقت كانت طاقته أكثر ، فكتلة الفوتون في النور المرئي ( الألوان ) تساوى أجزاء قليلة من مليون جزء من كتلة الاكترون الواحد ، وفوتون الأشعة السينية يساوى نحو جزء من عشرة آلاف جزء من كتلة الاكترون ، ويبلغ في نوع من الأشعة كتلة الألكترون ، وفي أشد نوع من الأشعة الكونية يصل إلى كتلة ذرة الهليوم ، وفي نوع أضعف من الأشعة الكونية يصل الى نحو كتلة ذرة الهيدروجين .

النظرة القديمة للمادة أن لها وجودا مستمرا في الزمان ، ولكن النظرية النسبية تمثل هذا الوجود المستمر بخط مستمر في الزمان والمكان Space - time وهذا الخط ينحرف باستمرار مكونا خطا منحنيا تمثل كل نقطة من نقاطه (حادثة) وجود المادة في لحظة معينة من الزمن ، وبذلك تدخل عامل التغير المستمر في الزمان والمكان والتغير المستمر الطارىء على المادة ، وحسب هذه النظرية أن الوحدات النهائية للكون ليست المادة ولا الأثير الذي كان قد افترضه الماديون ، بل الحوادث الفضائية الزمانية التي يتداخل بعضها في بعض وتناسب وتتعاقب ، وخلاصة الأمر أن النظرية النسبية تتفق مع الفلسفة المثالية في أن الأشياء غير ثابتة وليست كاملة مستقلة بذاتها ، وكذلك ليس للزمان والمكان وجود مطلق ، وهما يتأثران بذواتنا ، والزمان والمكان متحدان ونحن لا ندرك هذا الاتحاد ، كما أننا لانستطيع أن ندرك أشياء كثيرة ، ولا يحق لنا أن نزعم أن الخواص الهندسية للكون الذي يمتد إلى شاسع الابعاد تشبه الخواص الهندسية للجزء من الفضاء الذي نحل فيه ، وكذلك الزمان الذي نشعر به لا يصح أن نفترض أنه يشمل العالم بأسره وأن له نفس التأثيرات ، والسرعة والحركة والسكون ظواهر نسبية .

# بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ

الدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

عرضنا مقال حضرة الأستاذ البجاعة الشيخ عبد الحليم  
آل كاشف الغطاء « الدين والفلسفة والعلم » على  
حضرة العالم الفاضل الدكتور محمد محمود غالى ، باعتباره  
من أصدقاء « رسالة الإسلام » الاخصائيين فى  
البحوث الطبيعية ، وصاحب الجولات الموفقة على  
صفحاتها فى موضوع الذرة ، فكتب لنا هذه الكلمة  
واعدا أن يرجع إلى هذا البحث فى فرصة أخرى  
إن شاء الله .

[ المحرر ]

لقد طالعت المقال القيم للأستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء من النجف ، ولأنى  
لا أعلق عليه اليوم ، وقد تاح لى الفرصة إلى العود إلى هذا المقال ، ولإلى أمثال  
هذه البحوث فى فرصة أخرى .

إنما الذى يلفت نظرى هى هذه المحاولة من فريق من الذين درسوا الآداب  
فى عدم إهمالهم الناحية العلمية والاطلاع عليها عند ما يكتبون مقالاتهم وبحوثهم  
الفلسفية .

والذى يطالع مقال اليوم يشعر كيف يحاول كاتب المقال أن يشرح للقارىء  
- بالرجوع إلى النسبية عند أينشتاين ، والكم عند بلانك - كيف تطورت نظرة

العلماء المحدثين للمادة والطاقة والحيز والزمان ، وكيف تطورت بهذا أسس الفلسفة المادية .

لعل السيد عبد الحليم كاشف الغطاء هو الذى عرفته فى دار المعلمين العالية ببغداد طالبا للآداب من طلبة اللسانس عندما كنت أستاذًا للفيزياء فى قسم العلوم بهذه الدار فى سنة ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ ، وهو ابن العالم الكبير فضيلة الأستاذ الشيخ حسين كاشف الغطاء ، الذى تشرفت بمقابلته فى النجف ، ولا شك أن كاتب المقال قد ترك فى نفسى لا من اليوم بل من سنين خلت أحسن الأثر ، فهو من الباحثين المجددين .

ولعله وأمثاله يوالون قراء العربية بمثل هذه البحوث القيمة .

لقد أرجعنى مقالك إلى نحو من الشعور الذى يبلغه الانسان فى الليل عند النظر إلى النجوم المنتشرة فى الفراغ ، أرجعنى الى شئ من التأمل فى هذا الكون وأنت تتحدث عن النظرية القديمة للمادة أن لها وجودا مستمرا فى الزمان والمكان ، وعمّا تسميه النظرية الحديثة بتمثيل هذا الوجود المستمر بخط مستمر فى الزمان والمكان ؛ خط ينحرف بحالة مستمرة مكوناً انحناء تمثل كل نقطة منه حادثة وجود المادة فى لحظة معينة .

لقد رجعت وأنا أطلع سطورك إلى الكون العظيم الذى نعيش فيه ، هذا الكون الذى تزداد معارفنا عنه من أيام كوبرنيك ونيوتن وجاليليه إلى أيامنا هذه التى يصح أن نسميها أيام بلانك وأينشتاين ودى بروى ، وهم من العلماء النظريين المحدثين بل نسميها أيام مدام كورى وبكارل .

وأتوهان من العلماء المحدثين المشتغلين بالعلم التجريبي ، وجلست فى ليلة مظلمة لا أقر فيها ، أتأمل أن هذا النجم الذى أراه من مجموعة الدب الأكبر ، ماثلا أمام عيني ، كما يمثل أمام أعين جميع الناس ، قد خرجت فوتوناته هذه التى تقع على رتيبة العين ، وتحدث هذا الأثر ، الذى نسميه الإبصار قبل وجود الجنس البشرى ، ترى هل هو موجود الآن ؟ أم أننا نرى أحداثه السابقة ؟ ومع ذلك فأنتا نعه

من النجوم القريبة لنا بالنسبة للكون ، فالضوء يقطع المسافة بينه وبيننا في ٦٨ مليون سنة ضوئية ، مع العلم أن نصف المسير في هذا الكون ، يبلغ عشرة آلاف مليون سنة ضوئية ، باعتبار أن السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كامله بسرعه التي تبلغ ٣٠٠ ألف كيلومترا في الثانية الواحدة .

ليس لي إذن تعليق اليوم على المقال ، بأكثر من أنه يرد النفس إلى شيء من التأمل الذي فيه لذة للنفس ، وإلى شيء من التفكير العميق الذي لا يخلو من هذه اللذة .

ثم إنني بعد الذي ذكرت ، أرجو أن يسمح لي الأستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء بذكر بعض الملاحظات العابرة التي لا تغير من جوهر المقال في شيء ، مثل أن يكتب « نيوتونات » بدل « نوترونات » ، لقرب هذه الكتابة من نطقها في اللغتين الانجليزية والفرنسية معا ، كما أرجو أن يعتبر أن الشمس تشع أكثر بكثير من ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة من مادتها ، كذلك أفضل كتابة اسم العالم الانجليزي « إدنجتون » بالجم لا بالكاف ، وهي طريقة كتابتنا في مصر ، لاتفاق هذه الكتابة مع النطق الأصلي — كذلك ليسمح لي الأستاذ أن تكون العناصر ٩٦ عنصرا آخرها الكيريوم من اسم مدام كوري مكتشفة الراديوم لا ٩٢ عنصرا آخرها اليورانيوم ، ولقد ذكرت ذلك في كتابي « ماذا نخبئه نواة الذرة للإنسان » .

هذه ملاحظات عابرة ، لم أقصد منها غير الرجوع إلى الحقائق العلمية الثابتة ، اللهم إلا إذا كان للأستاذ اعتراضات على ما ذكرت ، أود أن أعلمها منه على صفحات رسالة الاسلام .



# صَوْتُ التَّقْرِيبِ

« دار التقريب » بمثابة جهاز لإرسال واستقبال  
بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، عنها  
يصدر « صوت التقريب » وإليها يرجع ، وعلى هذه  
الصفحات من « رسالة الاسلام » في كل عدد تسجيل  
الصدى (\*) .

تحدثنا في العدد الماضي عن واحدة من المسائل الثلاث التي أوردتها فضيلة  
العالم الجليل الحاج شيخ عبد الحسين رشقي على « جماعة التقريب بين المذاهب  
الإسلامية » ، في سياق الاستدلال على صعوبة التقريب أو استحالة ، وكانت هذه  
المسألة هي مسألة « التجسيم » ، التي يقرر الأستاذ أن بعض الفرق الإسلامية تعتقد  
فيها ما يناق تنزيه الله ومخالفته للحوادث جل وعلا ، وقد بينا بإيضاح وتفصيل  
أن جميع الطوائف الإسلامية الحاضرة متفقون على أنه تعالى ليس جسما ولا  
جسمانيا ، لا يختلف في ذلك مذهب عن مذهب ، ولا فرق فيه بين الإمامية وغيرهم  
وأن الأصل في هذا ما يدل عليه العقل والنقل من وجوب اعتقاد تنزيهه تعالى  
عن مشابهة الحوادث ، وكل ما في الأمر أنهم اختلفوا في الفهم والوسيلة لهذا  
التنزيه ، والاختلاف في الوسيلة لا يترتب عليه بذاته إيمان أو كفر ، ولا يحول  
بين تفاهم المتفقين على أصل قاطع .

أما المسألتان الباقيتان فهما ما ذكره الأستاذ بقوله :

(\*) « دار التقريب » هي المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيرتها ومكتبتها الكبرى .

(١) « والفرقة الإمامية الاثنا عشرية قائلون بأن صفاته الكمالية عين ذاته وجودا ، وغير ذاته مفهوما ، ونسمع أن طائفة أخرى قائلون بتعدد القدماء التسعة : الذات وصفاته الكمالية الثمانية ، وثامنها صفة البقاء . »

(٢) « والفرقة الإمامية الاثنا عشرية قائلون بعدالة الوجب تعالى ، وبياغنا أن طائفة أخرى من المسلمين قائلون بصدور الظلم منه تعالى شأنه . »

\* \* \*

وعجيب جدا أن يهتم الأستاذ الجليل بهذه المباحث الكلامية ، ويوليها هذا الشأن من العناية ، وينظر إليها على أنها عقبة كؤود في سبيل اجتماع المسلمين واتلاف قلوبهم ، وهو يعلم كما يعلم الناس جميعا ، أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا عنها معرضين ، وبغيرها من العلم والعمل مشغولين ، ولم يطعن أحد في كمال إيمانهم ، ولا زعم زاعم بأنهم لقوا ربهم ، وقد فرطوا فيما أمرهم أن يعتقدوه ويدينوا به ، وأعجب من ذلك أنه يصف هذه المسائل بأنها « من الأصول لا من الفروع » .

إن الأصل القاطع في مسألة الصفات ، الذي يتحقق به الإيمان ، ولا يكلف الله أحدا من عباده بما وراءه ؛ هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفيا وإثباتا ، فثبت له ما أثبتته لنفسه ، وتنفي عنه ما نفاه عن نفسه ، من غير تكيف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وقد جاء بذلك كتاب الله جل شأنه واضحا غير معقد : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ، قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وهو العليم الحكيم ، وهو العزيز الحكيم ، وهو على كل شيء قدير ، يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ، هو الأول

والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، « وكلم الله موسى تكليما ، « ونادىناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا ، « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، « ، « ورحمتى وسعت كل شيء ، « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، « إلى غير ذلك من الآيات التى جاءت بإثبات صفات الله تعالى ، وإسناد أفعال إليه ، وآمن بها السلف الصالح كما جاءت دون إلحاد فى أسمائه وصفاته ، أو تلاعب وعبث بالخوض فى كيفية ثبوتها ، أو محاولة إدراك كنهها ، وهل هى زائدة على ذاته تعالى ، أو هى عين ذاته ، لأن صفات الله كذاته ، مما لا سبيل إلى معرفته معرفة كنه حقيقة من طريق الفكر والعقل ، فقد خلق الله العقول وأعطاهما قوة ، وجعل لها حدا تقف عنده ، فإذا سلطت على ما هو خارج عن طورها ، اضطربت وركبت متن عمياء ، وخطبت خبط عشواء .

هذا الأصل كان سائدا فى المؤمنين على عهد سلفنا الصالح ، فكانوا عليه متوافقين ، وعنده واقفين ، فلما عقدت مناظرات الكلام ، ومجادلات أهل التفلسف ، نبتت مباحث الذات والصفات ، من أن الأخيرة عين الأولى أو غيرها ، وأن الاسم عين المسمى أو غيره ، وأن صفات الله قديمة كقدمه أو بقدمه ، وأنه عليم بعلم ، وقدير بقدره ، أو عليم بلا علم وقدير بلا قدرة ، وأن من لوازم هذا أو ذاك تعدد القدماء أو التعدد غير لازم ، وظاهر أن هذا كله خوض فيما لا طائل تحته ، ولم يكلفنا الله به ، وأن المختلفين فيه لو حرروا محل النزاع لوجدوا أنهم متفقون وأن الأمر أيسر وأقرب من أن يتنازعا فيه هذا التنازع ، ويضطربوا فى بيدائه هذا الاضطراب ، وإليك أيها القراء نسوق تحقيقا لابن القيم يوضح به منشأ هذا الاختلاف ، فقد ذكر فى كتابه « بدائع الفوائد ، بعد أن أوضح الفرق بين الاسم والمسمى ما نصه : « وإذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى فبقى هنا

التسمية وقد اغتربها من قال باتحاد الاسم والمسمى ، والتسمية عبارة عن جعل المسمى ووضع الاسم للمسمى ، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلّي ووضع الحلية على المحلّي ، فهنا ثلاث حقائق : اسم ، ومسمى ، وتسميه ، كحلية ، ومحلّي ، وتحلية ، وعلامة ، ومعلم ، وتعليم ، ولا سبيل إلى جعل اللفظين منها مترادفين على معنى واحد ، لتبين حقائقها ، فإذا جعل الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاث ولا بد ، فإن قيل ما شبهة من قال باتحادهما ؟ فالجواب : شبهته أشياء ، منها أن الله تعالى هو وحده الخالق ، وما سواه مخلوق ، فلو كانت أسماءه غيره لكانت مخلوقة ، ويلزم ألا يكون له اسم في الأزل ولا صفة ، لأن أسماءه صفات ، وهذا أعظم ما قاد متكلمي الإنبيات إلى القول باتحادهما ، والجواب عن كشف هذه الشبهة : أن منشأ اللفظ في هذا الباب من إطلاق ألفاظ بجملة محتملة لمعنيين حق وباطل ، فلا ينفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعاني ، وتنزيل ألفاظها عليها ، ولا ريب أن الله تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال المشتقة أسمائه منها ، فلم يزل بصفاته وأسمائه ، وهو إله واحد له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، وصفاته وأسمائه داخلية في مسمى اسمه ، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يخلق ويرزق ، فليست صفاته وأسمائه غيره ، وليست هي نفس الإله ، وبلاء القوم من لفظه « الغير » فإنها يراد بها معنيان : أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله ، وكل ما غير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقا ، ويراد بها مغايرة الصفة للذات إذا جردت عنها ، فإذا قيل علم الله وكلام الله غيره ، بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام ؛ كان المعنى صحيحا ، ولكن الإطلاق باطل ، فإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره ، كان باطلا لفظا ومعنى ، (١) .

ومن هذا يتبين أن خلاف القوم ليس بذى خطر بعد اتفاهم على الإيمان

(١) ص ١٠١ ، ١٠٢ من الجزء الأول من كتاب : « لوأغ الأنوار البهية » للسفاريني طبع بمجلة المنار سنة ١٣٢٣ هـ ، نقل عن « بدائع الفوائد » لابن القيم .

بما وصف الله به نفسه ، وعلى أنه ليس لله صفات مغايرة له يطلق عليها أنها إله يخلق ويرزق ، أو يتصور انفصالها عن الذات حتى يقال بقدمها أو حدوثها .

وفد بينا مرارا أن جميع المسلمين ، بل جميع العقلاء متفقون على أن الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال ، منزّه عن جميع صفات النقص ، لكنهم مع اتفاقهم على ذلك اختلفوا في الكمال والنقص ، فترى أحدهم يثبت لله ما يظنه كالا ، وينفى الآخر عين ما أثبتة هذا لظنه إياه نقصا ، وفي ذلك يقول عز الدين ابن عبد السلام في كتابه : « قواعد الأحكام » المعروف « بالقواعد الكبرى » :

« اتفق المسلمون على أن الله موصوف بكل كمال ، برىء من كل نقصان ، لكنهم اختلفوا في بعض الأوصاف ، فاعتقد بعضهم أنها كمال فأنبتا له ، واعتقد آخرون أنها نقصان فنفوها عنه ، ولذلك أمثلة :

أحدها : قول المعتزلة : إن الإنسان خالق لأفعاله ، لأن الله لو خلقها ثم سبّه عليها ولا مة : لم يفعلها ، مع أنه لم يفعلها ، وعذبه عليها مع أنه لم يوجد لها ، لكان ظالما له ، والظلم نقصان ، وكيف يصح أن يفعل شيئا ثم يلوم غيره عليه ، ويقول له : كيف فعلته ، ولم فعلته ؟ وأهل السنة يقولون : إن الله خالق لأفعال الإنسان لأن الإنسان لو خلقها لما قدر الإله على خلقها ، ونفى القدرة عيب ونقصان ، وليس تعذيبُ الرب على ما خلقه بظلم بدليل تعذيبه للبهائم والمجانين والأطفال ، لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء ، والقول بالتحسين والتقبيح باطل ، فأروا أن يكون كاله في خلق أفعال العباد ، وأروا أن تعذيبهم على ما لم يخلقوه جائز من أفعاله غير قبيح .

ومن الأمثلة أيضا : إيجاب المعتزلي على الله سبحانه وتعالى أن يثيب الطائعين كيلا يظلمهم والظلم نقصان ، وقول الأشعري : ليس ذلك بنقص إذ لا يجب عليه حق ، ولو وجب عليه حق غيره ؛ لكان في قيده والتقييد بالآغيار نقصان .

ومنها قول المعتزلة بأن الله يريد الطاعات وإن لم تقع ، لأن إرادتها كمال ،

ويكره المعاصي وإن وقعت لأن إرادتها نقصان ، وقول الأشعري : لو أراد ما لا يقع لكان ذلك نقصا في إرادته لكلاهما عن النفوذ فيما تعلق به ولو كره المعاصي مع وقوعها ، لكان ذلك كلالا في كراهيته ، وذلك نقصان ... الخ ، (١) .

ويقول عز الدين في موضع آخر :

« إن الله كلف الخاصة أن يعرفوه بالأزلية والأبدية ، والتفرد بالإلهية ، وأنه حي ، عالم ، قادر ، مرید ، سميع ، بصير ، متكلم ، صادق في أخباره ، وكلف العامة أن يعتقدوا ذلك لعسر وقوفهم على أدلة معرفته ، فاجتزى منهم باعتقاد ذلك وأما كونه عالما بعلم ، قادرا بقدره ، فإنه مما يلتبس ، وقد اختلف الناس فيه لالتباسه ، وكذلك القول في قدم كلامه ، وفي أن ما وصف به نفسه من الوجه واليدن والعينين صفات معنوية قائمة بذاته أو هي متأولة بما يرجع إلى الصفات فيعبر بالوجه عن الذات ، وباليدن عن القدرة ، وبالعينين عن العلم ، وكذلك اختلف الناس : أله جهة أم لا جهة له ، بما يطول النزاع فيه ، ويعسر الوقوف على أدلته ، وقد تردد أصحاب الأشعري رحمهم الله في القدم والبقاء : إهما من صفات السلب أم من صفات الذات ، وقد كثرت مقالات الأشعري حتى جمعها ابن فورك في مجلدين ، وكل ذلك مما لا يمكن تصويب للمجتهدين فيه ، بل الحق مع واحد منهم والباقون مخبطون خطأ معفوا عنه ، لمشقة الخروج منه ، والانفكاك عنه ، (٢) .

ويقول في موضع ثالث :

« وقد رجع الأشعري رحمه الله عند موته عن تكفير أهل القبلة ، لأن الجبل بالصفات ليس جهلا بالموصوفات ، وقد اختلف في عبارات ، والمشار إليه واحد ، وقد مثل ما ذكره رحمه الله بمن كتب إلى عبيده يأمرهم بأشياء ، وينهاهم عن أشياء ، فاختلفوا في صفاته مع اتفاقهم على أنه سيدهم ، فقال بعضهم : هو أكحل العينين ، وقال آخرون : هو أزرق العينين ، وقال بعضهم : هو أدهج

(١) ص ١٩٠ من الجزء نفسه .

(٢) ص ١٩٢ من الجزء الأول من القواعد الكبرى .

العينين ، وقال بعضهم : هو رُبْعَة ، وقال آخرون : هو طُوال ، وكذلك اختلفوا في لونه أبيض أو أسود أو أسمر أو أحمر ، فلا يجوز أن يقال : إن اختلافهم في صفته اختلافٌ في كونه سيدهم المستحق طاعتهم ، فكذلك لا يكون اختلاف المسلمين في صفات الإله اختلافاً في كونه خالقهم وسيدهم المستحق لطاعتهم وعبادتهم ، وكذلك اختلف قوم في صفات أبيهم مع اتفاقهم على أنه أصلهم الذي خلقوا منه ، ولا يكون اختلافهم في أوصائه اختلافاً في كونه منشأهم الذي نشأوا عنه ، وخلقوا منه ، (١) .

ويقول الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد : «... وأما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى لما علت من انقطاع النسبة بين الوجودين ، ولإستحالة التركيب في ذاته ، وتطاول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى إلى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

ولا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان ، كما يأتي في الذات من حيث هي ؛ يأتي فيها مع صفاتها ، فالنهي وإستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها ، فيكفيها من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب ، إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع ليُنْفَذَ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف ، فليس من شأننا أن نبحث فيها .

فالذي يوجه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه إله موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدي حي عالم مريد قادر ، متفرد في وجوب وجوده ، وفي كمال صفاته ، وفي صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه .

أما كون الصفات زائدة على الذات . وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التي اختلف فيها النظائر ، وتفرقت فيها المذاهب ، فما لا يجوز الخوض فيه ، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شئ منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل ، وتغريب بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ، ولئن انحصر فيها ، فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بتكهنها الحقيقي — وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع . فما علينا إلا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ، ممن تقدمنا من الخائضين ، (١) .

ويقول المحقق الدواني في شرح العقائد العنصرية :

« اعلم أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التي تتعلق بها تكفير أحد الطرفين . ولا أرى بأسا في اعتقاد أحد طرفي النفي والإثبات في هذه المسألة . »

وعلق عليه العلامة الأمير بقوله : « قلت : ولو اختير الوقف لكان أنسب وأسلم من افتراء الكذب على الله تعالى ، وما ذا على الشخص إذا لقي ربه جازما بأنه على كل شئ قدير ، مقتصرا عليه ، مفوضا علم ما وراء ذلك إليه ؟ لكن اشتهر عند الناس كلام الجماعة على حد قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد ، (٢)

\* \* \*

هذه خلاصة القول في أمر الصفات ، وخلاف العلماء فيها ، والأصل الذي

(١) ص ٥١ ، ٥٢ من « رسالة التوحيد » .

(٢) ص ٨٠ من حاشية الأمير على شرح عبد السلام على الجوهرة ، وهو الكتاب الذي يدرس لطلاب القسم الثانوي بالأزهر .



يرجع إليه المختلفون ، وليست مسألة انتفاء الظلم عنه تعالى بالتي تحتاج إلى مسلك غير هذا المسلك ، فقد جاءت النصوص بذلك واضحة لا لبس فيها : « إن الله لا يظلم الناس شيئا ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، « ولا يظلم ربك أحدا ، « وما الله يريد ظلما للعالمين ، « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، « فما كان الله ليظلمهم ، « ولا يظلمون قتيلا ، « ولا يظلمون نقيرا ، .

فهذه الآيات الواضحات تنفي عن الله سبحانه وتعالى أن يريد الظلم أو يظلم أحدا من العالمين ، ولكن أهل الجدل اختلفوا في مسائل شغلوا بها أنفسهم ، وبرز بعضهم بعضا بلوازمها ، فمنهم من قال بجواز تعذيب الطائع ، وإثابة العاصي ، ومنهم من قال بامتناع ذلك ، والأولون يعللون قولهم بأن الله مالك الملك ، وخالق الخلق ، والعبيد لا يستحقون عنده شيئا فلا يكون منعهم ظلما ، والآخرون يقولون : إن إثابة المحسن وعقاب المسيء ، أمر حسن في ذاته موافق للحكمة فهو واجب عليه تعالى ، فيمنعون الخروج على ذلك فعلا ، لأنه ظلم وقد نفي الله الظلم عن نفسه وإن أجازوه عقلا ، لأن الله لا يتمدح بنفيه إلا إذا جاز عليه .

فجميع متفقون على تنزيه الله تعالى عن الظلم ، بعضهم عقلا وشرعا ، وبعضهم شرعا وعقلا ، وإنما اختلفوا في الظلم نفسه : هل هو التصرف في ملك الغير ، أو هو مخالفة ما تقتضيه الحكمة ولو من المالك في ملكه ، ولن يستطيع أحد أن ينكر أن تصرف الله تعالى في الخلق والناس بالإنجاد والإعدام ، والإسعاد والإشقاء ، وغير ذلك تصرف في ملكه ، لا يخالف في ذلك معتزلي أشعريا ، ولا إمامي سنيا ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر أن جميع أفعال الله ، صادرة عن حكم ، بجانب للهو والعبث ، وإذن فالذي حمل على التقاذف والتهاثر ، ليس هو اختلاف القوم فيما ينبغي لله من صفات الكمال ، ولكن رغبة النبز واللمز عن طريق الإلزام ، ولذلك ينفر سمعي ، وينبو ذوقي ، إذا سمعت قائلا يقول : إن جماعة من المسلمين قائلون بصدور الظلم منه تعالى ، فإن ذلك مبناه على التلاعب

بالألفاظ في ميدان الحجاج والجدال للتشنيع على الخصوم ، يفسر أحدهم الظلم بتفسير ، ويحكم على فعل من الأفعال بأنه ظلم ، ويقول لصاحبه أنت تنسب هذا العمل لله فأنت إذاً تنسب إليه الظلم ، ولو كان منصفاً لعلم أن صاحبه لا يقول بذلك ، وينظر إلى الفعل نفسه نظرة أخرى فلا يراه ظلماً ، وإنما يراه عدلاً ، ولذلك ينسبه إلى الله ، ولو رآه ظلماً كما رآه صاحبه لما نسبته إلى الله ، وحاشا أن يجرؤ مؤمن على نسبة الظلم إلى الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وفي هذا المقام يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما نقله عنه الأستاذ الشيخ رشيد :

« وللعابثين بالكتاب وبعقائد الناس كلام في الآية — يريد قوله تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) — أقاموه على أساس مذاهبهم ، فمن ذلك قول المعتزلة : انه يجوز الظلم على الله تعالى عقلاً ، لأنه لو لم يكن جائزاً لما تمدح بنفيه ، ورد عليهم الآخرون بأنه تعالى نقي عن نفسه السُّنَّة والنوم ، وأتم متفقون معنا على استحالة ذلك عليه ، فردوا عليهم بأن نقي الظلم كلام في أفعاله ، ونقي النوم كلام في صفاته ، وفرق بينهما . وهذا كله من الجدال الباطل والهديان ، وإدخال الفلسفة في الدين بغير عقل ولا بيان ، ومثله قول بعض المنتمين إلى السنة بجواز تخلف الوعيد ولا يعد ذلك ظلماً ، لأن الظلم لا يتصور منه تعالى ، وبلغ بهم الجهل من تأييد هذا الرأي إلى تجويز الكذب على الله تعالى ، وجعلوا هذا نصراً للسنة ، والذي قذف بهؤلاء في هذه المهاوى هو الجدال والمرء لتأييد المذاهب التي تقلدوها ، والتزام كل فريق تقنيّة الآخر وإظهار خطئه لا طلب الحق أينما ظهر ، ولهم مثل هذه الجهالات ، الكثيرُ البعيدُ عن كتاب الله ودينه ، كقول المعتزلة إن بعض الأشياء حسن لذاته وبعضها قبيح لذاته ، ويجب على الله تعالى أن يفعل الأصلح من الأمرين الجائزين ، وكقول بعض من لم يفهم مسألة أفعال العباد بما يدل على جواز العبث على الله تعالى ، وكل هذا جهل . والذي يفهم من الآية أن هناك

حقيقة ثابتة في نفسها وهي الظلم وأن هذا لا يقع من الله تعالى ، لأنه من النقص الذى يتزده عنه ، وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم ، (١) .

\* \* \*

أما بعد : فإننا ما أطلنا الكلام فى هذا الموضوع ، ولا أنبتنا فيه ما أنبتنا من النصوص والتقول ، لتؤيد رأيا على رأى ، أو لتنصر فريقا على فريق ، وإنما فعلنا ذلك لتبين للناس أن هذه المسائل وأشباهاها ليست من أصول الدين التى يحكم فيها بالكفر فى جانب ، والإيمان فى جانب ، وإنما هى معارف نظرية ، ومسائل كلامية ، ومن الخير للمسلمين - ولا سيما فى هذا العصر الذى اشتغل الناس فيه بما ينفعهم من العلم والعمل فى كل أمة - أن يتخففوا منها ، بل يتخلوا عنها ، ويوسعوا مداركهم وعقولهم عن الارتطام فى خلاقات بسببها ، وليعلموا أن الله ليس بسائلهم يوم يعرضون عليه عن الجزء الذى لا يتجزأ ، ولا عن الخلا والملا والجوهر والعرض ، وهل يبقى العرض زمانين أو لا يبقى ، وهل القدرة مع الفعل أو قبله ، وهل الصفات زائدة على الذات أو ليست زائدة ، وهل الاسم عين المسمى أو غيره ، فإن كان سائلا عن ذلك أحدا من خلقه ، ومستخبرا إياه خبره ، فليسعنا ما يسع أبا بكر وعمر وعثمان وغليا وابن عباس وابن عوف وابن مسعود وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير لنا أن نحشر معهم بذلك جاهلين ، من أن نحشر مع النظام أو الجاحظ أو القفال أو الرازى أو الأشعرى أو النسفى أو غيرهم ولو كانوا أئمة فى العلم والتقى ، وسبحان من لا تدركه العقول ، ولا تحيط به الأوهام والظنون ؟

« م . . . »

## فهرس

كلمة التحرير . . . . .	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير ٣٣١
تفسير القرآن الكريم . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ٣٣٥
الاجتهاد في الشريعة . . . . .	من بحوث الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ٣٤٧
إلى جماعة التقريب . . . . .	لفضيلة الأستاذ السيد محمد صادق الصدر ٣٥٨
حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدى . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ٣٦٥
كلمات في العلم والدين . . . . .	لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد و جدى بك ٣٦٩
في علم الكلام وفيما وراء الطبيعة . . . . .	لحضرة الدكتور عبد الحليم محمود ٣٧٥
فريضة الحج . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى ٣٧٩
القومية الإسلامية . . . . .	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض ٣٨٤
أمالى المرتضى . . . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ أبى محمد العرجاوى ٣٩٢
هل من جامعة إسلامية . . . . .	لسعادة القاضي محمد بن عبد الله العمرى ٣٩٨
أفضل الدين الكاشانى . . . . .	لحضرة الدكتور محمود محمد الحضيرى ٤٠٣
نشأة الرواية عند العرب . . . . .	لفضيلة الأستاذ محمد فؤاد السيد ٤١١
الإسلام دين الوحدة . . . . .	لصاحب الساحة الأستاذ مسلم الحسينى الحلى ٤١٧
الدين والفلسفة والعلم . . . . .	لحضرة الأستاذ عبد الحليم كاشف الغطاء ٤٢١
بين القديم والحديث . . . . .	لحضرة الدكتور محمد محمود غالى ٤٢٦
صوت التقريب . . . . .	لعضيله الأستاذ رئيس التحرير ٤٢٩

## رِسَالَةُ الْأَسْتَاذِ الْكَبِيرِ

مَجْلَدُ اسْتِثْنَائِيَّةٍ  
تَصَدَّقَ عَنْ دَارِ التَّقْرِيبِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ لِإِسْنَادِيَّةِ الْعِلْمِ

رئيس التحرير: محمد محمد المدنى مدير الإدارة: عبد العزيز محمد عيسى  
الإدارة: ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك. القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤  
قيمة الاشتراك عن سنة في البلاد العربية خمسون قرشاً ومصرنياً  
وفي أمريكا أربعة دولارات وفي البلاد الأخرى ليرة إنجليزية